

مجمع البيان
في تفسير القرآن
تأليف
أمين الإسلام أبي علي الفضل بن الحسن
الطبرسي
طبعة جديدة منقحة
دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان


شبكة الفكر
alfeker.net


مجمع البيان
في تفسير القرآن



تأليف

أمين الإسلام أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي

طبعة جديدة منقحة

الجزء السابع

دار المرتضى
بيروت

دار المرتضى

طباعة ,نشر ,توزيع

لبنان -بيروت , ص.ب :١٥٥/٢٥ الغبيري

هاتف فاكس : ٠٠٩٦١١٨٤٠٣٩٢

E-mail:mortada14@hotmail.com

DAR AL-MORTADA

Printing -Publishing -Distributing
Lebanon -Beirut
P O Box: 155/25 Ghobiery
Tel -Fax: 009611840392
E-mail:mortada14@hotmail.com

Printed In Lebanon

الطبعة الأولى
1427 هجرية
2006 ميلادية



سُورَةُ طه



مكية / آياتها (١٣٥)

● **عدد آيها:** مائة وأربعون آية شامي، وخمس وثلاثون آية كوفي. وأربع آيات حجازي، وآيتان بصري.

● **اختلافها:** إحدى وعشرون آية. ﴿طه ①﴾ ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾، ﴿رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا﴾: ثلاثهن كوفي، ﴿نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾: كلاهما غير البصري، ﴿مَحَبَّةً مِّنِّي﴾: حجازي شامي، ﴿فُتُونًا﴾: بصري شامي، ﴿لِنَفْسِي﴾: كوفي شامي، و﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾، و﴿أَهْلِ مَدْيَنَ﴾، و﴿مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، و﴿أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾: أربعهن شامي، ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾، ﴿وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾: كلتاهما مكي، والمدني الأول. ﴿وَعْدًا حَسَنًا﴾، ﴿أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾: كلتاهما المدني الأخير، ﴿أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ غير المدني الأخير. ﴿فَنَسِيَ﴾ عراقي شامي، والأخير ﴿صَفْصَفًا﴾ عراقي شامي. ﴿مِّنِّي هُدًى﴾، و﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ غير الكوفي[1].

● **فضلها:** أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: «من قرأها أُعطيَ يوم القيامة ثواب المهاجرين والأنصار». أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى قرأ طه ويس قبل أن يخلق آدم عليه السلام بألفي عام، فلما سمعت الملائكة القرآن قالوا: طوبى لأمة نزل هذا عليها، وطوبى لأجواف تحمل هذا، وطوبى لألسن تتكلم بهذا». وعن الحسن قال: قال النبي ﷺ: «لا يقرأ أهل الجنة من القرآن إلا يس وطه». وروى إسحاق بن عمار - عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لا تدَعوا قراءة ﴿طه﴾ فإن الله سبحانه يحبها ويحب من قرأها وأدمن قراءتها وأعطاه يوم القيامة كتابه بيمينه ولم يحاسبه لما عمل في الإسلام، وأُعطي من الأجر حتى يرضى.

● **تفسيرها:** ختم الله سبحانه سورة مريم بذكر إنزال القرآن، وأنه بشارة للمتقين، وإنذار للكافرين، وافتتح هذه السورة بالقرآن، وأنه أنزله لسعادته لا لشقاوته فقال:

---

(١) إعلم أن أعداد أهل الكوفة أصح الأعداد، لأنه مأخوذ عن علي بن أبي طالب عليه السلام، والمراد بالمدني الأول هو أبو جعفر يزيد بن القعقاع القارىء، وشيبة بن نصاح. وقيل: المدني الأول الحسن بن علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمر، والمدني الثاني، والمدني الأخير هو إسماعيل بن جعفر. وقيل: المدني الأخير أبو جعفر وشيبة، وإسماعيل. والأول أشهر. وعدد أهل البصرة منسوب إلى عاصم بن أبي الصباح الجحدري، وأيوب المتوكل. وعدد أهل مكة منسوب إلى مجاهد بن جبيرة، وإسماعيل المكي. وعدد أهل الشام منسوب إلى عبد الله بن عامر. (عن هامش بعض النسخ المصححة).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طه ⦗١⦘ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ⦗٢⦘ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ⦗٣⦘ تَنزِيلًا
مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ⦗٤⦘ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ⦗٥⦘ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ⦗٦⦘ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى
⦗٧⦘ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ⦗٨⦘﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو عمرو: ﴿طه ⦗١⦘﴾ بفتح الطاء وكسر الهاء كسراً لطيفاً من غير إفراط. وقرأ أهل الكوفة غير عاصم إلا يحيى عن أبي بكر بكسر الطاء والهاء. وكذلك عياش عن أبي عمرو، والباقون بفتح الطاء والهاء. ورُوي عن أبي جعفر ونافع كهيعص، وطه وطس وحم وآلر كله بين الفتح والكسر، وهو إلى الفتح أقرب.

● **الحجة:** قد مرَّ القول في الإمالة والتفخيم في الحروف فيما تقدم، والتفخيم لغة أهل الحجاز ولغة النبي ﷺ.

● **اللغة:** الشقاء: استمرار ما يشق على النفس، ونقيضه السعادة، والعلى: جمع العليا ومنه الدنيا والدنا والقصوى والقصى، والثرى: التراب الندي، والجهر: رفع الصوت، يقال: جهر يجهر جهراً فهو جاهر، والصوت مجهور وضده المهموس.

● **الإعراب:** روي عن الحسن أنه قرأ: ﴿طه ⦗١⦘﴾ بفتح الطاء وسكون الهاء، فإن صح ذلك عنه فأصله طأ فأبدل من الهمزة هاء، ومعناه: طاءِ الأرض بقدميك جميعاً، وقد رُوي أن النبي ﷺ كان يرفع إحدى رجليه في الصلاة ليزيد تعبه فأنزل الله: ﴿طه ⦗١⦘ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ⦗٢⦘﴾ فوضعها. ورُوي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام. قال الزجاج: ويجوز أن يكون ﴿طه ⦗١⦘﴾ أمراً من وَطأ يطأ على قول من لم يهمز. ثم حذفت الألف، فصار(طَ) ثم زيدت الهاء في الوقف، ويجوز أن يكون ﴿طه ⦗١⦘﴾ جارياً مجرى القسم، فيكون ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ⦗٢⦘﴾ جواب القسم. وقوله: ﴿تَذْكِرَةً﴾: مفعول له. ﴿لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ الجار والمجرور في موضع الصفة لتذكرة، والأولى أن يكون مصدر فعل محذوف، ويكون الاستثناء منقطعاً، والتقدير: لكن تذكرة، وكذلك قوله: ﴿تَنزِيلًا﴾ مصدر لفعل محذوف تقديره: نزلناه تنزيلًا، أو نزل تنزيلًا ويدل عليه قوله ﴿أَنزَلْنَا﴾.

● **المعنى:** ﴿طه ⦗١⦘﴾ قد بيّنا في أول البقرة تفسير حروف المعجم في أوائل السور والاختلاف فيه، وقد قيل إن معنى «طه»: يا رجل، عن ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد والكلبي، غير أن بعضهم يقول هو بلسان الحبشية أو النبطية. وقال الكلبي: هي بلغة علَّ وأنشدَ لتميم بن نويرة:

هتفتُ بِطه في القِتالِ فلَمْ يُجِبْ ... فخِفتُ لَعَمْرِي أَنْ يكونَ مُوائِلا[1]

(١) وئل: التجأ. وفي بعض النسخ «مواليا» مكان «موائلا».

وقال آخر:

إن السَّفاهةَ طٰه من خلائِقِكُمْ لا بارَكَ اللهُ في القومِ المَلاعِينِ

وقال الحسن: هو جواب للمشركين حين قالوا إنه شقي، فقال سبحانه: يا رجل ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢﴾ لكن لتسعد به وتنال الكرامة به في الدنيا والآخرة. قال قتادة: وكان يصلي الليل كله ويعلق صدره بحبل حتى لا يغلبه النوم، فأمره الله سبحانه بأن يخفف على نفسه وذكر أنه ما أنزل عليه الوحي ليتعب كل هذا التعب ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةً لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣﴾ قال المبرد: معناه لكن أنزلناه تذكرة، أي: لتذكرة من يخشى الله، والتذكرة مصدر كالتذكير. ﴿تَنزِيلًا﴾ أي: أنزلناه تنزيلًا. ﴿مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ بدأ بالأرض ليستقيم رؤوس الآي ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى﴾ أي: الرفيعة العالية، نبه بذلك على عظم حال خالقهما، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ أي: هو الرحمن لأنه لما قال ﴿مِّمَّنۡ خَلَقَ﴾ بيّنه بعد ذلك فقال: هو الرحمن، قال أحمد بن يحيى: الاستواء الإقبال على الشيء فكأنه أقبل على خلق العرش، وقصد إلى ذلك، وقد سبق القول في معنى الاستواء في سورة البقرة والأعراف. ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: له ملك ما في السمٰوات وما في الأرض وتدبيرهما وعلمهما، يعني أنه مالك كل شيء ومدبره ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ يعني الهواء ﴿وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ والثرى: التراب الندي، يعني وما وارىٰ الثرى من كل شيء، عن الضحاك. وقيل: يعني ما في ضمن الأرض من الكنوز والأموات ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ أي: إن ترفع صوتك به ﴿فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ أي: فلا تجهد نفسك برفع الصوت، فإنك وإن لم تجهر علم الله السر وأخفى من السر، ولم يقل وأخفى منه لدلالة الكلام عليه كما يقول القائل: فلان كالفيل أو أعظم، وقيل: تقديره وإن تجهر بالقول أو لا تجهر فإنه يعلم السر وأخفى منه، ثم اختلفوا فيما هو أخفى من السر فقيل: السر ما حدث به العبد غيره في خفية، وأخفى منه: ما أضمره في نفسه ما لم يحدث به غيره، عن ابن عباس، وقيل: السر ما أضمره العبد في نفسه وأخفى منه: ما لم يكن، ولا أضمره أحد، عن قتادة وسعيد بن جبير وابن زيد، وقيل: السر ما تحدث به نفسك، وأخفى منه: ما تريد أن تحدث به نفسك في ثاني الحال، وقيل: العمل الذي تستره عن الناس، وأخفى منه: الوسوسة، عن مجاهد، وقيل: معناه يعلم السر أي: أسرار الخلق وأخفى: أي: سر نفسه، عن زيد بن أسلم، جعله فعلاً ماضياً، ورُوي عن السيدين الباقر والصادق عليهما السلام: السر ما أخفيته في نفسك. وأخفى: ما خطر ببالك ثم أُنسيته ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ لا معبود تحق له العبادة غيره ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي: الأسماء الدالة على توحيده وعلى إنعامه على العباد وعلى المعاني الحسنة، فبأيها دعوت جاز، ورُوِيَ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إن لله تعالى تسعة وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة». قال الزجاج: تأويله من وحد الله تعالى، وذكر هذه الأسماء الحسنى يريد بها توحيد الله وإعظامه، دخل الجنة، وقد جاء في الحديث: «من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة»، فهذا لمن ذكر اسم الله موحداً له به، فكيف بمن ذكر أسماءه كلها يريد بها توحيده والثناء عليه، وإنما قال الحسنى بلفظ التوحيد، ولم يقل الأحاسن لأن الأسماء مؤنثة تقع عليها هذه، كما تقع على الجماعة هذه، كأنه اسم واحد للجمع، قال الأعشى:

وسَوْفَ يُعقِبُنِيه إنْ ظَفَرْتُ بِهِ   رَبٌّ كَرِيمٌ، وبِيضٌ ذاتُ أَطْهارِ

وفي التنزيل ﴿حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ و﴿مَشَارِبُ أُخۡرَىٰ﴾.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ٩ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ
ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ
يَٰمُوسَىٰٓ ١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ١٢ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ
فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤
إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا
يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ١٦﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو، «أني أنا ربك» بفتح الألف، والباقون «إني» بالكسر، وقرأ حمزة: «لأهله امكثوا» وفي القصص أيضاً بضم الهاء، و«أنّا» مشدد مفتوح الهمزة «اخترناك» على الجمع، والباقون «لأهله» بكسر الهاء، و«أنا اخترتك» على التوحيد، وقرأ ابن عامر وأهل الكوفة: «طوى» بالتنوين، والباقون بغير تنوين، وفي الشواذ قراءة الحسن ومجاهد وسعيد بن جبير: «أَخفيها» بفتح الألف.

● **الحجة:** قال أبو علي: من كسر «إني» فلأن الكلام حكاية، كأنه نودي فقيل: يا موسى إني أنا ربك. ومن فتح، فكأن المعنى: نودي بكذا ونادى قد يوصل بحرف الجر قال:

نادَيْتُ بِاسْمِ رَبِيعَةَ بْنَ مُكَرَّمٍ   إن المُنَوَّهَ بِاسْمِهِ المَوْثُوقُ(١)

ومن الناس من يعمل هذه الأشياء التي هي في المعنى قول، كما يعمل القول ولا يضمر القول معها، وينبغي أن يكون في ﴿نُودِيَ﴾ ضمير يقوم مقام الفاعل لأنه لا يجوز أن يقوم واحد من قوله يا موسى، ولا إني أنا ربك، مقام الفاعل لأنها جمل والجمل لا تقوم مقام الفاعل، فإن جعلت الاسم الذي يقوم مقام الفاعل موسى، - لأن ذكره قد جرى - كان مستقيماً.

وقوله: طوى يصرف ولا يصرف، فمن صرفه فعلى وجهين:

أحدهما: أن يجعله اسم الوادي، فيصرفه لأنه سمي مذكراً بمذكر.

والآخر: أن يجعله صفة، وذلك في قول من قال إنه قدس مرتين، فيكون طوى كقولك ثنى ويكون صفة كقوله: مكاناً سوى وقوم عدى، وجاء في طوى الضم والكسر، كما جاء في مكان سوى الضم والكسر. قال الشاعر:

أَفِي جَنْبِ بَكْرٍ قَطَّعَتْنِي مَلامَةً   لَعَمْرِي لَقَد كانَتْ مَلامَتُها ثِنَى

(١) نوه باسمه: دعاه.

أي: ليس هذا بأول ملامتها. ومن لم يصرف احتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون اسماً لبقعة أو أرض، فهو مذكر فيكون بمنزلة امرأة سميتها بحجر، ويجوز أن يكون معدولًا كعمر. ولا يمتنع أن تقدر العدل فيما لم يخرج إلى الاستعمال، ألا ترى أن جمع وكتع معدولتان عما لم يستعملا. فكذلك يكون طوى. وأما ضم الهاء في قوله ﴿لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾: فقد مضى القول في مثله، وأما قوله: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ فالإفراد أكثر في القراءة وهو أشبه بما قبله من قوله ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾، ووجه الجمع أن يكون ذلك قد جاء في نحو قوله تعالى ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ﴾، ثم قال ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾، ويمكن أن يكون الوجه في قراءة حمزة ﴿وإنا إخترناك﴾ مع أنه قرأ ﴿إني أنا ربك﴾ بالكسر أن يكون التقدير: ولأنا اخترناك فاستمع، فيكون الجار والمجرور في موضع نصب بقوله: ﴿فَٱسْتَمِعْ﴾، ولم يذكره الشيخ أبو علي. وقوله ﴿أُخْفِيهَا﴾ فإنهم قالوا: معناه أظهرها، قال أبو علي: الغرض فيه أزيل عنها خفاءها، وهو ما يلف فيه القربة ونحوها من كساء ومَا يجري مجراه، وعليه قول الشاعر:

لَقَدْ عَلِمَ الأَيْقاظ أَخْفِيَةَ الكَرى ... تَزَجُّجها مِنْ حالِكٍ فاكتِحالَها[(١)]

قال: أراد بالأيقاظ عيوناً فجعل العين كالخفاء للنوم، كأنها تستره. وهو من ألفاظ السلب فأخفيته سلبت عنهُ خفاه، كما تقول أشكيت الرجل أزلت عنه ما يشكوه، وأما «أخفيها» بفتح الألف فإنه أظهرها، قال امرؤ القيس:

خَفاهُنَّ مِن أَنفاقِهِنَّ كَأَنَّما ... خَفاهُنَّ وَدْقٌ مِنْ سَحابٍ مُرَكَّبِ[(٢)]

وقوله:

فَإنْ تَدفُنوا الداءَ[(٣)] لا نَخْفِهِ ... وإنْ تَبْعَثُوا الحَربَ لا نَقْعُدِ

رواية أبي عبيدة بضم النون من نخفه ورواية الفراء بفتح النون.

● **اللغة**: الإيناس: وجدان الشيء الذي يؤنس به، والقبس: الشعلة من النار في طرف عود أو قصبة، والخلع: نزع الملبوس، يقال: خلع ثوبه وخلع نعله، والوادي: سفح الجبل، ويقال للمجرى العظيم من مجاري الماء واد، وأصله عظم الأمر، ومنها الدية، لأنها العطية في الأمر العظيم، وهو القتل. والمقدس: المطهر، قال امرؤ القيس: «كَما شَبْرَقَ الوِلدانُ ثَوْبَ المُقَدَّسِ»[(٤)] يريد العابد من النصارى كالقسيس ونحوه. وسمي الوادي طوى لأنه طوي بالبركة مرتين، عن الحسن. فعلى هذا يكون مصدر قولك طويت طوى، قال عدي بن زيد:

---

(١) الكرى: النعاس، والحالك: المظلم.

(٢) أي: أخرجهن من حجرتهن كما يخرجها المطر العظيم. والضمير لليرابيع يصف فرساً أخرج اليرابيع من حجرتها بعدوه.

(٣) وفي اللسان «فإن تكتموا السر».

(٤) وقبله «فأدركنه يأخذن بالساق والنسا» وشبرق الثوب: قطعه ومزقه. يقول: أدركت الكلاب الثور الوحشي فأخذن بساقه ونساه «وهو عرق من الورك إلى الكعب» وشبرقت جلده كمايمزق الصبيان ثوب الراهب حين ينزل من صومعته تبركاً به.

أَعَاذِلَ إِنَّ اللَّوْمَ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ عَلَيَّ طُوىً مِنْ غَيِّكَ المُتَرَدِّدِ

ويقال: أخفيت الشيء كتمته وأظهرته جميعاً، وخفيته بلا ألف: أظهرته لا غير، والردى: الهلاك، وردي يردى ردى: إذا هلك، وتردى بمعناه.

● **الإعراب:** قوله: ﴿إِذْ رَءَا﴾، الظرف يتعلق بمحذوف فهو في موضع النصب على الحال من حديث موسى و﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ جملة في موضع رفع بأنها خبر أن فهي خبر بعد خبر اللام في ﴿لِتُجْزَىٰ﴾: يتعلق بآتية، ويجوز أن يتعلق بقوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ﴾، فتردى منصوب بإضمار أن في جواب النهي.

● **المعنى:** ثم خاطب الله سبحانه نبيه تسلية له مما ناله من أذى قومه، وتثبيتاً له بالصبر على أمر ربه كما صبر موسى عليه السلام حتى نال الفوز في الدنيا والآخرة فقال: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩﴾ هذا ابتداء إخبار من الله تعالى على وجه التحقيق، إذ لم يبلغه حديث موسى فهو كما يخبر الإنسان غيره بخبر على وجه التحقيق فيقول: هل سمعت بخبر فلان، وقيل: إنه استفهام تقرير بمعنى الخبر أي: وقد أتاك حديث موسى ﴿إِذْ رَءَا نَارًا﴾ عن ابن عباس قال: وكان موسى رجلًا غيوراً لا يصحب الرفقة لئلا ترى امرأته، فلما قضى الأجل وفارق (مدين) خرج ومعه غنم له، وكان أهله على أتان وعلى ظهرها جوالق فيها أثاث البيت، فأضلَّ الطريق في ليلة مظلمة، وتفرقت ماشيته ولم ينقدح زنده، وامرأته في الطلق، فرأى ناراً من بعيد كانت عند الله نوراً وعند موسى ناراً ﴿فَقَالَ﴾ عند ذلك ﴿لِأَهْلِهِ﴾ وهي بنت شعيب، كان تزوجها بمدين ﴿امْكُثُوٓا﴾ أي: الزموا مكانكم، قال مقاتل: وكانت ليلة الجمعة في الشتاء، والفرق بين المكث والإقامة، أن الإقامة تدوم والمكث لا يدوم ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي: أبصرت ناراً ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ أي: بشعلة أقتبسها من معظم النار تصطلون بها ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أي: أجد على النار هادياً يدلني على الطريق، وقيل: علامة أستدل بها على الطريق، والهدى: ما يهتدى به فهو اسم ومصدر، قال السدي: لأن النار لا تخلو من أهل لها وناس عندها ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ قال ابن عباس: لما توجه نحو النار فإذا النار في شجرة عنّاب، فوقف متعجباً من حسن ضوء تلك النار، وشدة خضرة تلك الشجرة فسمع النداء من الشجرة وهو قوله ﴿نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ والنداء: الدعاء على طريقة يا فلان، فمن فتح الألف من إني فالمعنى: نودي بأني. ومن كسر فالمعنى: نودي فقيل: إني أنا ربك الذي خلقك ودبَّرك، قال وهب: نودي من الشجرة فقيل: يا موسى، فأجاب سريعاً ما يدري من دعاه فقال: إني أسمع صوتك ولا أرى مكانك فأين أنت؟ فقال: أنا فوقك ومعك وأمامك وخلفك وأقرب إليك من نفسك، فعلم أن ذلك لا ينبغي إلا لربه عز وجل وأيقن به.

وإنما علم موسى عليه السلام أن ذلك النداء من قبل الله تعالى لمعجز أظهره الله سبحانه كما قال في موضع آخر ﴿إِنِّيٓ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَٰلَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ إلى آخره، وقيل: إنه لما رأى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها تتوقد فيها نار بيضاء، وسمع تسبيح الملائكة، ورأى نوراً عظيماً لم تكن الخضرة تطفىء النار ولا النار تحرق الخضرة، تحيَّر وعلم أنه معجز خارق للعادة،

وأنه لأمر عظيم فأُلقيت عليه السكينة. ثم نودي ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ وإنما كرر الكناية لتأكيد الدلالة وإزالة الشبهة وتحقيق المعرفة ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ أي: انزعهما. وقيل في السبب الذي أُمر بخلع النعلين أقوال:

أحدها: أنهما كانتا من جلد حمار ميت، عن كعب وعكرمة ورُوِيَ ذلك عن الصادق عليه السلام.

وثانيها: كانتا من جلد بقرة ذكية، ولكنه أمر بخلعهما ليباشر بقدميه الأرض فتصيبه بركة الوادي المقدس، عن الحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وابن جريج.

وثالثها: أن الحفاء من علامة التواضع، ولذلك كانت السلف تطوف حفاة عن الأصم.

ورابعها: أن موسى عليه السلام إنما لبس النعل اتقاء من الأنجاس، وخوفاً من الحشرات، فآمنه الله مما يخاف وأعلمه بطهارة الموضع، عن أبي مسلم. ﴿إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ﴾ أي: المبارك، عن ابن عباس. بورك فيه بسعة الرزق والخصب، وقيل: المطهر. ﴿طُوٗى﴾ هو اسم الوادي، عن ابن عباس ومجاهد والجبائي، وقيل: سمي به لأن الوادي قدس مرتين فكأنه طوي بالبركة مرتين، عن الحسن ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ أي: اصطفيتك بالرسالة، ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ إليك من كلامي، واصغ إليه، وتثبت. لمَّا بشره الله سبحانه بالنبوة أمره باستماع الوحي ثم ابتدأ بالتوحيد فقال: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ أي: لا إله يستحق العبادة غيري ﴿فَٱعۡبُدۡنِي﴾ خالصاً ولا تشرك في عبادتي أحداً. أمره سبحانه بأن يبلغ ذلك قومه ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ أي: لأن تذكرني فيها بالتسبيح والتعظيم، لأن الصلاة لا تكون إلا بذكر الله، عن الحسن ومجاهد، وقيل: معناه لأن أذكرك بالمدح والثناء، وقيل: إن معناه صلّ لي، ولا تصلّ لغيري كما يفعله المشركون، عن أبي مسلم. وقيل: معناه أقم الصلاة متى ذكرت أن عليك صلاة، كنت في وقتها أم لم تكن، عن أكثر المفسرين، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام، ويعضده ما رواه أنس عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها لا كفارة لها غير ذلك». وقرأ ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ رواه مسلم في الصحيح. ثم أخبره سبحانه بمجيء الساعة فقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ يعني: إن القيامة جائية قائمة لا محالة ﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ أي: أريد أن أخفيها عن عبادي لئلا تأتيهم إلا بغتة، قال تغلب: هذا أجود الأقوال وهو قول الأخفش، وفائدة الإخفاء التهويل والتخويف فإن الناس إذا لم يعلموا متى تقوم الساعة، كانوا على حذر منها كل وقت، وروى ابن عباس: أكاد أخفيها من نفسي، وهي كذلك في قراءة أُبي، ورُوي ذلك عن الصادق عليه السلام والمعنى: أكاد لا أُظهر عليها أحداً، وهو قول الحسن وقتادة، والمقصود من ذلك تبعيد الوصول إلى علمها، وتقديره: إذا كدت أُخفيها من نفسي فكيف أظهرها لك، قال المبرد: هذا على عادة العرب إذا بالغوا في كتمان الشيء قال كتمته حتى من نفسي، أي: لم أُطلع عليه أحداً، فبالغ سبحانه في إخفاء الساعة وذكره بأبلغ ما تعرفه العرب، وقال أبو عبيدة: معنى أُخفيها أُظهرها ودخلت أكاد تأكيداً والمعنى: يوشك أن أُقيمها. ﴿لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۢ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾ أي: بما تعمل من خير وشر، ولينتصف من الظالم للمظلوم ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا﴾ أي: لا يصرفنك عن الصلاة من

لا يؤمن بالساعة. وقيل: معناه لا يمنعك عن الإيمان بالساعة من لا يؤمن بها، وقيل: عن العبادة ودعاء الناس إليها، وقيل: عن هذه الخصال ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ والهوى ميل النفس إلى الشيء ومعناه: ومن بنى الأمر على هوى النفس دون الحق، وذلك أن الدلالة قد قامت على قيام الساعة ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ أي: فتهلك كما هلك أي: إن صددت عن الساعة بترك التأهب لها هلكت، والخطاب وإن كان لموسى عليه السلام، فهو في الحقيقة لسائر المكلفين. وفي هذه الآيات دلالة على أن الله تعالى كلم موسى، وأن كلامه محدث لأنه حل الشجرة وهي حروف منظومة.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا
وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ
حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ
جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ
فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن
لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى
﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا
﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن عامر: «أُشدُدْ» بقطع الهمزة وفتحها «وأُشركهُ» بضمها، والباقون ﴿ٱشْدُدْ﴾ بهمزة الوصل ﴿وَأَشْرِكْهُ﴾ بالفتح، وفي الشواذ قراءة عكرمة «وأهس» بالسين وقراءة أبي البرهسم[1] «وأهِش» بكسر الهاء.

● **الحجة:** الوجه في قراءة ابن عامر أنه جعله خبراً. وسائر القراء جعلوه دعاء، وضم الهمزة في «أشركه» ضعيف جداً لأنه ليس إلى موسى إشراك هارون في النبوة بل ذلك إلى الله تعالى، فالوجه فتح الهمزة على الدعاء. ومن قرأ «أهِش» بكسر الهاء فيمكن أن يكون أراد أهش بضم الهاء أي: أكسر الكلاء بها للغنم فجاء بها على يفعل، إن كان متعدياً كما جاء هَرّ الشيء يُهرُّه ويهِرُّه إذا كرهه، وشدَّ الحبل يشُدُّه ويشِدُّه ونمَّ الحديث ينُمُّه، وأما أهس بالسين فمعناه: أسوق وكان ينبغي أن يقول أهسَّ بها غنمي ولكن لما دخل السوق معنى الانتحاء لها والميل بها عليها استعمل على معها حملاً على المعنى.

● **اللغة:** التوكؤ والاتكاء بمعنى، مثل التوقي والاتقاء، والهش: ضرب ورق الشجر ليتساقط، والمآرب: الحوائج واحدتها مأربة بضم الراء وفتحها وكسرها ـ عن علي بن عيسى، والسيرة والطريقة من النظائر ومعناه: مرور الشيء في جهة، وأصل الجناح من الجنوح: وهو الميل لأن الطائر يميل به في طيرانه، وعضد الإنسان: جناحه لأن من جهته يميل اليد حيث شاء

(١) أبو البرهسم كسفرجل: من قراء الشام. وفي نسختين مخطوطتين «إبراهيم» مكان «أبي البرهسم».

صاحبها، وقيل: يريد بالجناح الجنب لأن فيه جنوح الأضلاع. وقال الراجز «أضمها للصدر والجناح» قال أبو عبيدة: الجناحان الناحيتان، والطغيان: تجاوز الحد في العصيان، وشرح الصدر: توسعه ومنه شرح المعنى وهو بسط القول فيه، والعقدة: جملة مجتمعة يصعب تفكيكها، والحل ضد العقد ونظيره الفصل والقطع، والوزير: حامل الثقل عن الرئيس مشتق من الوزر الذي هو الثقل، والأزر الظهر، يقال: أزرني فلان على أمري أي: كان لي ظهراً، ومنه المئزر لأنه يشد على الظهر والإزار لأنه يسبل على الظهر والتأزير: التقوية، ويمكن أن يكون أزر ووزر مثل أرخ وورخ وأكد ووكد، قال امرؤ القيس:

بِمَحْنِيَّةٍ قَدْ آزَرَ الضَّالَ نَبْتُهَا   مَضَمّْ جيوشٍ غَانِمِينَ وخُيَّبِ(١)

● **الإعراب:** ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾ قال الزجاج: تلك اسم مبهم يجري مجرى التي ويوصل كما توصل التي. والمعنى: وما التي بيمينك، وأنشد الفراء:

عَدَسَ ما لِعُبَّادٍ عَلَيْكِ إمارَةٌ   أَمِنْتِ وَهذا تَحْمِلِينَ طَلِيقُ(٢)

أي: والذي تحملين. قال بعض المتأخرين: إن الصحيح الذي لا غبار عليه أن يكون ﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ و﴿مَا﴾ خبره قدم عليه لما فيه من معنى الاستفهام، و﴿بِيَمِينِكَ﴾ الجار والمجرور في موضع نصب على الحال من معنى الفعل في (تلك)، وهو الإشارة، قال وإنما قلنا ذلك لأن أسماء الإشارة إنما تبين بصفاتها كما أن الأسماء الموصولة تبين بصلاتها، ولا يجوز وصف المبهم بالجملة لأن الجمل نكرات، وقوله ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ إذا هذه ظرف المفاجأة، وهي ظرف مكان تقديره: فبالحضرة هي حية، والعامل في الظرف ﴿تَسْعَىٰ﴾، وهذا يدل على أن «إذا» هٰهنا غير مضاف إلى الجملة لأنه لو كان كذلك لم يعمل فيه مما في الجملة شيء، لأن المضاف إليه لا يعمل في المضاف. و﴿سِيرَتَهَا﴾ انتصب على تقدير سنعيدها إلى سيرتها فحذف الجار، ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾: في موضع نصب على الحال، والتقدير: تَبْيَضُّ غير برصاء فيكون حالًا عن حال، ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ اسم في موضع الحال أيضاً، والمعنى تخرج بيضاء مبينة، قال الزجاج: ويجوز أن يكون منصوبة على آتيناك آية أخرى، ونؤتيك آية أخرى لأن في قوله ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾ دليلًا على أنه يعطى آية أخرى، ﴿لِنُرِيَكَ﴾: اللام يتعلق بقوله ﴿وَٱضْمُمْ﴾، والمفعول الثاني من نري يجوز أن يكون ﴿ٱلْكُبْرَى﴾ صفة محذوف وهو المفعول الثاني، والتقدير لنريك الآية الكبرى من آياتنا، ﴿هَٰرُونَ﴾ بدل من قوله ﴿وَزِيرًا﴾، ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار فعل كأنه قال: أعني هارون أخي، أو استوزر لي هارون، لأن وزيراً يدل عليه و﴿أَخِى﴾ صفة لهارون، ويجوز أن يكون بدلًا منه، قال الزجاج: يجوز أن يكون ﴿هَٰرُونَ﴾ مفعولًا أول لاجعل، ووزيراً مفعولًا ثانياً له. وعلى هذا فيكون مثل قوله تعالى ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ في أن المفعول الثاني من هذا الباب قد تقدم على المفعول الأول. ولو قرىء بالرفع ﴿هَٰرُونَ﴾ لكان خبر مبتدأ محذوف كأنه قيل: من هذا الوزير؟ فقيل: هو هارون، و﴿كَثِيرًا﴾ نعت

---

(١) المحنية: منعطف الوادي. والضال: شجر السدر.

(٢) الشعر في (جامع الشواهد)، وقد مر في الكتاب مراراً.

مصدر محذوف في الموضعين أي: تسبيحاً كثيراً وذكراً كثيراً، ويجوز أن يكون نعتاً لظرف محذوف تقديره: نسبحك وقتاً كثيراً ونذكرك وقتاً كثيراً.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه ما أعطى موسى من المعجزات فقال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ سأله عما في يده من العصا تنبيهاً له عليها ليقع المعجز بها بعد التثبت فيها والتأمل لها. ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾ أي: أعتمد عليها إذا مشيت، والتوكؤ: التحامل على العصا في المشي. ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ أي: وأخبط بها ورق الشجر لترعاه غنمي. ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ ولم يقل (أخر) ليوافق رؤوس الآي، أي: حاجات أخرى فنص على اللازم وكنى عن العارض، قال ابن عباس: كان يحمل عليها زاده، ويركزها فيخرج منه الماء، ويضرب بها الأرض فيخرج ما يأكل، وكان يطرد بها السباع، وإذا ظهر عدو حاربت، وإذا أراد الاستسقاء من بئر طالت وصارت شعبتاها كالدلو، وكان يظهر عليها كالشمعة فتضيء له الليل، وكانت تحدثه وتؤنسه، وإذا طالت شجرة حناها بمحجنها[١]. ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ * فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ أي: تمشي بسرعة، وقيل: صارت حية صفراء لها عرف كعرف الفرس وجعلت تتورم حتى صارت ثعباناً وهي أكبر من الحيات عن ابن عباس، وقيل: إنه ألقاها وحانت منه نظرة فإذا بأعظم ثعبان نظر إليه الناظرون، ويمر بالصخرة مثل الخلفة من الإبل فيلقمها وتطعن أنيابه في أصل الشجرة العظيمة فتجثها[٢]، وعيناه تتوقدان ناراً، وقد عاد المحجن عنقاً فيه شعر مثل النيازك[٣]، فلما عاين ذلك ولى مدبراً ولم يعقب، ثم ذكر ربه فوقف استحياء منه، ثم نودي يا موسى ارجع إلى حيث كنت فرجع وهو شديد الخوف ف﴿قَالَ خُذْهَا﴾ بيمينك ﴿وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: سنعيدها إلى الحالة الأولى عصاء، وعلى موسى يومئذٍ مدرعة من صوف قد خلها بخلال فلما أمره سبحانه بأخذها أدلى طرف المدرعة على يده فقال: مالك يا موسى، أرأيت لو أذن الله بما تحاذر أكانت المدرعة تغني عنك شيئاً؟ قال: لا ولكني ضعيف ومن ضعفٍ خُلِقتُ، وكشف عن يده ثم وضعها في فم الحية فإذا يده في الموضع الذي كان يضعها إذا توكأ عليها بين الشعبتين، عن وهب. وقيل: كانت العصا من آس الجنة أخرجها آدم عليه السلام وتوارثها الأنبياء إلى أن بلغ شعيباً فدفعها إلى موسى قال وهب: كانت من عوسج وكان طولها عشرة أذرع على مقدار قامة موسى ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ معناه: واجمع يدك إلى ما تحت عضدك عن مجاهد والكلبي. وقيل: إلى جنبك، وقيل: أدخلها في جيبك، وكنى عن الجنب بالجناح. ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾ لها نور ساطع يضيء بالليل والنهار كضوء الشمس والقمر وأشد ضوءاً عن ابن عباس، ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ من غير برص في قول الجميع، قالوا: وكان موسى آدم اللون ففعل فخرجت يده كما قال الله، ثم ردها فعادت إلى لونها الذي كانت عليه ﴿آية أخرى﴾ أي: فنزيدك بها آية أخرى، أو تخرج مبينة آية أخرى ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا﴾ وحججنا ﴿ٱلْكُبْرَى﴾ منها. ولو قال (الكبر) على الجمع وصفاً لجميع الآيات لكان جائزاً.

---

(١) المحجن: المنعطف الرأس.
(٢) جث الشيء: قلعه من أصله.
(٣) جمع النيزك: الرمح القصير.

وقيل: معناه لنريك من دلالاتنا الكبرى سوى هاتين الدلالتين، وقيل: إنها هلاك فرعون وقومه، فلما حمله سبحانه الرسالة وأراه المعجزات أمره بالتبليغ فقال: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ فادعه إلي ﴿إنه طغى﴾ أي: تجبر وتكبر في كفره. ﴿قَالَ﴾ موسى عند ذلك ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ أي: وسع لي صدري حتى لا أضجر ولا أخاف ولا أغتم، ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ أي: سهل علي أداء ما كلفتني من الرسالة والدخول على الطاغي ودعائه إلى الحق. ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾ أي: وأطلق عن لساني العقدة التي فيه حتى يفقهوا كلامي. وكان في لسان موسى عليه السلام رُتّه لا يفصح معها بالحروف شبه التمتمة(1)، وقيل إن سبب تلك العقدة في لسانه جمرة طرحها في فيه، وذلك لما أراد فرعون قتله لأنه أخذ بلحية فرعون ونتفها وهو طفل، فقالت آسية بنت مزاحم: لا تفعل فإنه صبي لا يعقل وعلامة جهله إنه لا يميز بين الدرة والجمرة، فأمر فرعون حتى أُحضر الدرة والجمرة بين يديه فأراد موسى أن يأخذ الدرة فصرف جبرائيل يده إلى الجمرة فأخذها ووضعها في فيه فاحترق لسانه عن سعيد بن جبير ومجاهد والسدي، وقيل إنه انحل ما كان بلسانه إلا بقية منه بدلالة قوله ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾، عن الجبائي، وقيل: استجاب الله تعالى دعاءه فأحل العقدة عن لسانه عن الحسن وهو الصحيح لقوله سبحانه: ﴿أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾. ومعنى قوله ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي: لا يأتي ببيان وحجة، وإنما قالوا ذلك تمويهاً ليصرفوا الوجوه عنه ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا﴾ يؤازرني على المضي إلى فرعون ويعاضدني عليه، وقيل: اجعل لي معاوناً أتقوّى به وبرأيه ومشاورته، وقال ﴿مِّنْ أَهْلِى﴾ لأنه إذا كان الوزير من أهله كان أولى ببذل النصح له، ثم بين الوزير وفسره فقال ﴿هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾﴾ وكان أخاه لأبيه وأمه وكان بمصر ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾﴾ أي: قوّ به ظهري وأعني به، ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ أي: اجمع بيني وبينه في النبوة ليكون أحرص على مؤازرتي. لم يقتصر على سؤال الوزارة حتى سأل أن يكون شريكه في النبوة، ولولا ذلك لجاز أن يستوزره من غير مسألة، وإنما سمي الوزير وزيراً لأنه يعين الأمير على ما هو بصدده من الأمور، أُخذ من المؤازرة التي هي المعاونة، وقيل إنما سمي وزيراً لأنه يتحمل الثقل عن الأمير من الوزر الذي هو الثقل، وقيل: لأنه يلتجىء الأمير إليه فيما يعرض له من الأمور من الوزر الذي هو الملجأ، قالوا: إن هارون كان أكبر من موسى بثلاث سنين وأتم طولاً وأبيض جسماً وأكثر لحماً وأفصح لساناً، ومات قبل موسى بثلاث سنين ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ أي: ننزهك عما لا يليق بك. بَيّنَ عليه السلام أنه إنما سأل هذه الحاجات ليتوصل بها إلى طاعة ربه وعبادته وتأدية رسالته لا للرياسة، ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ أي: نحمدك ونثني عليك بما أوليتنا من نعمك ومننت به علينا من تحميل رسالتك ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ أي: بأحوالنا وأمورنا عالماً وقيل: بصيراً باحتياجنا في النبوة إلى هذه الأشياء ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه إجابة له ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ﴾ أي: قد أعطيت مناك وطلبتك ﴿يَـٰمُوسَىٰ﴾ فيما سألته والسؤال: المنى، والمراد فيما يسأله الإنسان، وقال الصادق حدثني أبي عن جدي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو فإن موسى بن عمران خرج يقتبس

---

(١) تمتم تمتمة في الكلام: عجل فيه ولم يفهمه.

لأهله ناراً فكلمه الله عز وجل فرجع نبياً، وخرجت ملكة سبأ كافرة فأسلمت مع سليمان، وخرج سحرة فرعون يطلبون العزة لفرعون فرجعوا مؤمنين.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾
أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ
عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن
يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ
فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾
ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا
لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر «ولْتصنعْ» بالجزم والباقون: بكسر اللام والنصب وفي الشواذ قراءة أبي نهيك «ولِتَصنع» بكسر اللام وفتح التاء.

● **الحجة:** قوله «لتصنعْ» بالجزم مثل قولهم ولتعن بحاجتي فالمأمور غائب غير مخاطب، لأن العاني بالحاجة غير المخاطب. وليس ذلك مثل قوله «فلتفرحوا» فإن المأمور هناك مخاطب به، «ولتصنع على عيني»، قال أحمد بن يحيى: معناه لتكون حركتك وتصرفك على عين مني. وقراءة الفراء «ولِتُصنَع» على عيني بضم التاء وفتح العين معناه: لتربى وتغذى بمرأى مني.

● **اللغة:** أصل المنّ: القطع ومنه «أجر غير ممنون». وحبل منين أي: منقطع. فالمن: نعمة تقطع لصاحبها من غيره، والمرة: الكرة الواحدة من المر. والقذف: الطرح. واليم: البحر، والاصطناع: افتعال من الصنع، والصنع: اتخاذ الخير لصاحبه. وونى في الأمر يني ونياً وونىً: إذا فتر، فهو وان ومتوان فيه. قال العجاج:

فَـمـا وَنَـى مُـحَـمَّـدٌ مُـذْ أن غَـفَـر لَهُ الإلَـهُ مـا مَـضـى ومـا غَـبَـر

● **الإعراب:** ﴿مَرَّةً﴾ : يحتمل أن يكون مصدراً ويحتمل أن يكون ظرفاً ويكون التقدير مرة أخرى أو وقتاً آخر، ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾: ما مصدرية وتقديره: وأوحينا إلى أمك إيحاء و﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ﴾ في موضع نصب بأنه مفعول أوحينا، ﴿وَلِتُصْنَعَ﴾: اللام يتعلق بألقيت أي: لتربى ولتصنع، وقوله ﴿عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ في موضع النصب على الحال وتقديره: جئت مقدراً ما قدر لك.

● **المعنى:** لما أخبر سبحانه موسى بأنه آتاه طلبته وأعطاه سؤله، عدّد عقيبه ما تقدم ذلك من نعمه عليه ومننه لديه فقال: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ أي: أنعمنا عليك من صغرك إلى كبرك جارية نعمتنا عليك متوالية فإجابتنا الآن دعاك تلوها، ثم فسّر سبحانه تلك

النعمة فقال: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾﴾ أي: حين أوحينا إلى أمك أي: ألهمناها ما يلهم، وهو ما كان فيه سبب نجاتك من القتل حتى عنيت بأمرك، وقيل كانت رأت في المنام عن الجبائي. ثم فسر ذلك الإيحاء فقال: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ﴾ أي: اجعليه فيه بأن ترميه فيه، ﴿فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ يريد النيل ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ وهو شط البحر لفظه أمر فكأنه أمر البحر كما أمر أم موسى والمراد به الخبر. والمعنى: حتى يلقيه البحر بالشط ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ يعني فرعون، كان عدواً لله ولأنبيائه وعدواً لموسى خاصة لتصوره أن ملكه ينقرض على يده، وكانت هذه المنة من الله سبحانه على موسى أن فرعون كان يقتل غلمان بني إسرائيل، ثم خشي أن يفني نسلهم فكان يقتل بعد ذلك في سنة ولا يقتل في سنة فولد موسى في السنة التي كان يقتل الغلمان فيها فنجاه الله تعالى منه ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ أي: جعلتك بحيث يحبك من يراك حتى أحبك فرعون فسلمت من شره وأحبتك امرأته آسية بنت مزاحم فتبنتك وربتك في حجرها، عن عكرمة. وقيل: معناه حببتك إلى عبادي فلا يلقاك أحد مؤمن ولا كافر إلا أحبك عن ابن عباس، وهذا كما يقال ألبسه الله جمالًا وألقى عليه جمالًا، وقال قتادة: ملاحة كانت في عين موسى فما رآه أحد إلا عشقه ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ أي: لتربى وتغذى بمرأى مني أي: يجري أمرك على ما أريد بك من الرفاهة في غذائك عن قتادة وذلك أن من صنع لإنسان شيئاً وهو ينظر إليه صنعه كما يحب ولا يتهيأ له خلافه، قيل: لتربى ويطلب لك الرضاع على علم مني ومعرفة لتصل إلى أمك عن الجبائي. وقيل: لتربى وتغذى بحياطتي وكلاءتي وحفظي كما يقال في الدعاء بالحفظ والحياطة عين الله عليك عن أبي مسلم. ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ﴾ الظرف يتعلق بتصنع والمعنى: ولتصنع على عيني قدرنا مشي أختك وقولها ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ لأن هذا كان من أسباب تربية موسى على ما أراده الله وهو قوله ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ﴾، يعني حين قالت لها أم موسى قصيه فاتبعت موسى على أثر الماء، وذلك أن أم موسى اتخذت تابوتاً وجعلت فيه قطناً ووضعته فيه وألقته في النيل، وكان يشرع من النيل نهر كبير في باغ فرعون فبينا هو جالس على رأس البركة مع امرأته آسية إذ التابوت يجيء على رأس الماء فأمر بإخراجه، فلما فتحوا رأسه إذا صبي به من أحسن الناس وجهاً فأحبه فرعون بحيث لا يتمالك، وجعل موسى يبكي ويطلب اللبن، فأمر فرعون حتى أتته النساء اللاتي كن حول داره فلم يأخذ موسى من لبن واحدة منهن، وكانت أخت موسى واقفة هناك إذ أمرتها أمها أن تتبع التابوت، فقالت إني آتي بامرأة ترضعه، وذلك قوله: ﴿فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ أي: أدلكم على امرأة تربيه وترضعه وهي ناصحة له، فقالوا: نعم. فجاءت بالأم فقبل ثديها، فذلك قوله: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ برؤيتك وبقائك. ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ من خوف قتله أو غرقه، وذلك أنها حملته إلى بيتها آمنة مطمئنة قد جعل لها فرعون أجرة على الرضاع ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ كان قتل قبطياً كافراً، عن ابن عباس. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «رحم الله أخي موسى أقتل رجلًا خطأ، وكان ابن اثنتي عشرة سنة» ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ أي: من غم القتل وكربه لأنه خاف أن يقتصوا منه بالقبطي، فالمعنى: خلصناك من غم القصاص وآمناك من الخوف. ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ أي: اختبرناك اختباراً، ومعناه: إنا عاملناك معاملة المختبر حتى خلصت للاصطفاء بالرسالة، وكان

هذا من أكبر نعمه سبحانه عليه، وقيل: معناه وخلصناك من محنة بعد محنة، منها: أنه حملته في السنة التي كان فرعون يذبح الأطفال فيها، ثم إلقاؤه في اليم، ثم منعه من الرضاع إلا من ثدي أمه، ثم جرّه لحية فرعون حتى هم بقتله، ثم تناوله الجمرة بدل الدرة فدرأ ذلك عنه قتل فرعون، ثم مجيء رجل من شيعته يسعى ليخبره بما عزموا عليه من قتله عن ابن عباس، فعلى هذا يكون المعنى وخلصناك من المحن تخليصاً، وقيل: معناه وشددنا عليك التعمد في أمر المعاش حتى رعيت لشعيب عشر سنين، ثم بين ذلك فقال: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ أي: لبثت فيهم حين كنت راعياً لشعيب ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي: في الوقت الذي قدر لإرسالك نبياً قال الشاعر:

نَـالَ الـخِـلافَـةَ أوْ كـانَـتْ لَهُ قَـدَراً كَـمـا أتـى رَبَّـهُ مُـوسـى عَـلى قَـدَرِ(١)

وقيل: معناه جئت على الوقت الذي يوحى فيه إلى الأنبياء وهو على رأس أربعين سنة، وقيل: على المقدار الذي قدره الله لمجيئك وكتبه في اللوح المحفوظ، والمعنى: جئت في الوقت الذي قدره الله لكلامك ونبوتك والوحي إليك ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ أي: لوحيي ورسالتي، عن ابن عباس. والمعنى: اخترتك واتخذتك صنيعتي وأخلصتك لتنصرف على إرادتي ومحبتي، وإنما قال ﴿لِنَفْسِى﴾ لأن المحبة أخص شيء بالنفس، وتبليغه الرسالة وقيامه بأدائها تصرف على إرادة الله ومحبته، وقيل: معناه اخترتك لإقامة حجتي وجعلتك بيني وبين خلقي حتى صرت في التبليغ عني بالمنزلة التي أنا أكون بها لو خاطبتهم واحتججت عليهم، عن الزجاج. ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾ أي: بحججي ودلالاتي. وقيل: بالآيات التسع، عن ابن عباس. ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ أي: ولا تضعفا في رسالتي، عن ابن عباس، وقيل: ولا تفترا في أمري، عن السدي. وقيل: ولا تقصرا، عن محمد بن كعب. أي: لا يحملنكما خوف فرعون على أن تقصرا في أمري ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ كرر الأمر بالذهاب للتأكيد، وقيل: إن في الأول خص موسى بالأمر، وفي الثاني أمرهما ليصيرا نبيين وشريكين في الأمر، ثم بيَّن من يذهبان إليه ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي: جاوز الحد في الطغيان ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ أي: ارفقا به في الدعاء والقول ولا تغلظا له في ذلك عن ابن عباس، وقيل: معناه كنياه، عن السدي وعكرمة، وكنيته أبو الوليد وقيل: أبو العباس. وقيل: أبو مرة. وقيل: إن القول اللين هو هل لك إلى أن تزكى، وأهديك إلى ربك فتخشى عن مقاتل. وقيل: هو أن موسى أتاه فقال له: تسلم وتؤمن برب العالمين، على أن لك شبابك فلا تهرم، وتكون ملكاً لا ينزع الملك منك حتى تموت، ولا تنزع منك لذة الطعام والشراب والجماع حتى تموت، فإذا مت دخلت الجنة فأعجبه ذلك، وكان لا يقطع أمراً دون هامان وكان غائباً فلما قدم هامان أخبره بالذي دعاه إليه، وأنهُ يريد أن يقبل منه فقال هامان: قد كنت أرى أن لك عقلًا، وأن لك رأياً بيّناً أنت رب وتريد أن تكون مربوباً؟ وبينا أنت تُعْبَد وتريد أن تَعْبُد؟ فقلَّبه عن رأيه، وكان يحيى بن معاذ يقول: هذا رفقك بمن يدعي الربوبية فكيف رفقك بمن يدعي العبودية؟ ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أي: ادعواه على الرجاء والطمع لا على اليأس

(١) هذا البيت من قصيدة رائية لجرير بن عطية يمدح بها عمر بن عبد العزيز بن مروان.

من فلاحه، فوقع التعبد لهما على هذا الوجه لأنه أبلغ لهما في دعائه إلى الحق. قال الزجاج: والمعنى في هذا عند سيبويه: اذهبا على رجائكما وطمعكما والعلم من الله قد أتى من وراء ما يكون، وإنما يبعث الرسل وهم يرجون ويطمعون أن يقبل منهم، والمراد بيان الغرض بالبعثة أي: ليتذكر ما أغفل عنه من ربوبية الله تعالى وعبودية نفسه، ويخشى العقاب والوعيد. وفي قوله سبحانه: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ دلالة على وجوب أن يرفق في الدعاء إلى الله وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليكون أسرع إلى القبول وأبعد من النفور. وقيل: إن هارون كان بمصر فلما أوحى الله تعالى إلى موسى أن يأتي مصر أوحى إلى هارون أن يتلقى موسى فتلقاه على مرحلة ثم ائتمرا وذهبا إلى فرعون.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ
إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ
إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ
أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى
فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا
سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ
﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ نصر عن الكسائي «خَلَقه» بفتح اللام، والباقون: «خَلْقه» بسكون اللام، وقرأ أهل الكوفة وروح وزيد عن يعقوب: «مهداً»، والباقون: «مهاداً» بالألف.

● **الحجة:** من قرأ «أعطى كل شيء خَلْقه» فالمعنى أعطى كل شيء صورته أي: خلق كل حيوان على صورة أخرى ثم هداه. ومن قرأ «خلَقه» بفتح اللام فإنه جملة من الفعل والفاعل في موضع جر بأنه صفة شيء، والمفعول الثاني لأعطى محذوف، فكأنه أعطى كل شيء مخلوق ما أوجبه تدبيره ثم هداه السبيل، والمهد: مصدر كالفرش، والمهاد كالفراش والبساط في قوله ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ وفي موضع آخر بساطاً. ويجوز أن يكون المهد استعمل استعمال الأسماء فجمع كما يجمع فعل على فعال، والأول أبين.

● **اللغة:** الفرط: التقدم، ومنه الفارط المتقدم إلى الماء، قال: «قد فَرَطَ العجل علينا وعَجَل» ومنه الإفراط: الإسراف لأنه تقدم بين يدي الحق، والتفريط: التقصير لأنه تأخر عما يجب فيه التقدم. قال الزجاج: القرن أهل كل عصر فيهم نبي أو إمام أو عالم يقتدى به، فإن لم يكن واحد منهم لم يسم قرناً. والنهى: جمع نهية وإنما قيل لأولي العقول أولو النهى لأنهم ينهون الناس عن القبائح، وقيل: لأنه ينتهى إلى آرائهم.

● **الإعراب:** ﴿أَسْمَعُ﴾ جملة في موضع الرفع بكونها خبراً بعد خبر، ويجوز أن يكون في موضع النصب على الحال، ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ﴾: ﴿عِلْمُهَا﴾ مبتدأ و﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ خبره و﴿عِندَ رَبِّي﴾ معمول الخبر، وتقديره علمها ثابت في كتاب عند ربي، ويجوز أن يكون قوله ﴿عِندَ رَبِّي﴾ صفة لكتاب، فلما تقدم انتصب على الحال تقديره في كتاب ثابت عند ربي. ويجوز أن يكون ﴿عِندَ رَبِّي﴾ الخبر و﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ بدل منه، ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر، وقوله ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي﴾ تقديره لا يضل ربي عنه، فحذف الجار والمجرور كما حذف من قوله ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ أي: فيه. ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ﴾ يجوز أن يكون في موضع جر بأنه صفة ﴿رَبِّي﴾، ويجوز أن يكون في موضع رفع بأن يكون خبر مبتدأ محذوف، ﴿مِّن نَّبَاتٍ﴾ في موضع نصب صفة لقوله ﴿أَزْوَاجًا﴾. و﴿شَتَّىٰ﴾: صفة له أيضاً فهي صفة بعد صفة، و﴿تَارَةً﴾ منصوبة على المصدر.

● **المعنى:** لما أمر الله سبحانه موسى وهارون أن يمضيا إلى فرعون ويدعواه إليه ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا﴾ أي: نخشى أن يتقدّم فينا بعذاب ويعجّل علينا ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ أي: يجاوز الحد في الإساءة بنا. وقيل: معناه إنا نخاف أن يبادر إلى قتلنا قبل أن يتأمل حجتنا، أو أن يزداد كفراً إلى كفره بردّنا. ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾ بالنصرة والحفظ معناه: إني ناصركما وحافظكما ﴿أَسْمَعُ﴾ ما يسأله عنكما فألهمكما جوابه ﴿وَأَرَىٰ﴾ ما يقصدكما به فأدفعه عنكما، فهو مثل قوله ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾. ثم فسّر سبحانه ما أجمله فقال: ﴿فَأْتِيَاهُ﴾ أي: فأتيا فرعون ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ أي: أرسلنا إليك خالقك بما ندعوك إليه ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: أطلقهم وأعتقهم عن الاستعباد، ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ بالاستعمال في الأعمال الشاقة، ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: بدلالة واضحة ومعجزة لائحة من ربك تشهد لنا بالنبوة، ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ قال الزجاج: لم يرد بالسلام هنا التحية، وإنما معناه أن من اتبع الهدى سلم من عذاب الله. ويدل عليه قوله بعده ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: إنما يعذب الله سبحانه من كذب بما جئنا به وأعرض عنه، فأما من اتبعه فإنه يسلم من العذاب، وههنا حذف وهو فأتياه فقالا له ما أمرهما الله تعالى به. ثم ﴿قَالَ﴾ لهما فرعون: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ أي: فمن ربك وربه ﴿يَا مُوسَىٰ﴾، وإنما قال ربكما على تغليب الخطاب وقيل: تقديره فمن ربكما يا موسى وهارون فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر اختصاراً، ولتسوى رؤوس الآي، وأراد به: فمن أيّ جنس من الأجناس ربكما حتى أفهمه؟ فبيّن موسى أنه تعالى ليس له جنس وإنما يعرف سبحانه بأفعاله؟ ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ معناه: أعطى كل شيء خلقته أي: صورته التي قدرها له، ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ أي: هداه إلى مطعمه ومشربه ومنكحه وغير ذلك من ضروب هدايته، عن مجاهد وعطية ومقاتل، وقيل: معناه أعطى كل شيء مثل خلقه أي: زوجه من جنسه ثم هداه لنكاحه، عن ابن عباس والسدي، وقيل: معناه أعطى خلقه كل شيء من النعم في الدنيا مما يأكلون ويشربون وينتفعون به، ثم هداهم إلى طرق معائشهم وإلى أمور دينهم ليتوصلوا بها إلى نعم الآخرة، عن الجبائي. ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ أي: فما حال الأمم الماضية فإنها لم تقر بالله وما تدعو إليه، بل عبدت الأوثان، ويعني بالقرون

الأولى مثل قوم نوح وعاد وثمود فـ ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ أي: أعمالهم محفوظة عند الله يجازيهم بها، والتقدير: علم أعمالهم لها عند ربي ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ يعني اللوح المحفوظ. والمعنى أن أعمالهم مكتوبة مثبتة عليهم، وقيل: المراد بالكتاب ما يكتبه الملائكة، وقيل أيضاً: إن فرعون إنما قال ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ حين دعاه موسى إلى الإقرار بالبعث، أي: فما بالهم لم يبعثوا. ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي﴾ أي: لا يذهب عليه شيء، وقيل معناه لا يخطىء ربي ﴿وَلَا يَنسَى﴾ من النسيان عن أبي مسلم، أي: لا ينسى ما كان من أمرهم بل يجازيهم بأعمالهم، وقيل: معناه لا يغفل ولا يترك شيئاً، عن السدي. ثم زاد في الإخبار عن الله فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي: فرشاً ومهاداً، أي: فراشاً ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ والسلك إدخال الشيء في الشيء، والمعنى: أدخل لكم أي: لأجلكم في الأرض طرقاً تسلكونها. وقال ابن عباس: سهل لكم فيها طرقاً. ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ يعني: المطر، وتم الإخبار عن موسى. ثم أخبر الله سبحانه عن نفسه فقال موصولاً بما قبله من الكلام ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ أي: بذلك الماء ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أي: أصنافاً ﴿مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ أي: مختلفة الألوان أحمر وأبيض وأخضر وأصفر، وكل لون منها زوج، وقيل: مختلفة الألوان والطعوم والمنافع، فمنها ما يصلح لطعام الإنسان، ومنها ما يصلح للتفكه، ومنها ما يصلح لغير الإنسان من أصناف الحيوان، ﴿كُلُوا﴾ أي: مما أخرجنا لكم بالمطر من النبات والثمار. ﴿وَٱرْعَوْا أَنْعَٰمَكُمْ﴾ أي: وأسيموا مواشيكم فيما أنبتناه بالمطر. واللفظ للأمر والمراد الإباحة والتذكير بالنعمة. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذكر ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ أي: دلالات ﴿لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ أي: لذوي العقول الذين ينتهون عما حرم الله عليهم، عن الضحاك. وقيل: لذوي الورع، عن قتادة، وقيل: لذوي التقى، عن ابن عباس. ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أي: من الأرض خلقنا أباكم آدم عليه السلام ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أي: وفي الأرض نعيدكم إذا أمتناكم ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ أي: دفعة أخرى إذا حشرناكم. ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ﴾ يعني فرعون ﴿ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾ يعني الآيات التسع، أي: معجزاتنا الدالة على نبوة موسى ﴿فَكَذَّبَ﴾ بجميع ذلك ﴿وَأَبَىٰ﴾ أن يؤمن به، وقيل: معناه فجحد الدليل وأبى القبول ولم يرد سبحانه بذلك جميع آياته التي يقدر عليها ولا كل آية خلقها، وإنما أراد كل الآيات التي أعطاها موسى.

● **النظم:** ووجه اتصال قوله ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ بما قبله من الدعاء إلى التوحيد، أن فرعون لما ظهرت المعجزات ودلائل التوحيد على يد موسى تحيَّر وخاف الفضيحة فأقبل على نوع آخر من السؤال تلبيساً، وكثيراً ما يفعل ذلك أهل البدع عند ظهور الحجة. وقيل: لما دعاه موسى إلى الإقرار بالبعث، قال: فما بال أولئك القرون لم يبعثوا.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر «لا نخلفه» بالجزم، والباقون بالرفع، وقرأ أهل الحجاز وأبو عمرو والكسائي «سِوى» بكسر السين، والباقون بضمها، وقرأ «يومَ الزينة» بالنصب هبيرة عن حفص، وهي قراءة الحسن والأعمش والثقفي، والباقون «يومُ الزينة» بالرفع، وقرأ أهل الكوفة غير أبي بكر ورويس «فيُسحِتكم» بضم الياء وكسر الحاء، والباقون «فيَسْحَتكم» بفتح الياء والحاء، وقرأ أبو عمرو «إنَّ هذين»، وقرأ ابن كثير وحفص «إن هذان» خفيف، وقرأ الباقون «إنَّ هذان»، وابن كثير وحده يشدد النون من «هذان»، وقرأ أبو عمرو «فاَجمَعوا» بوصل الهمزة وفتح الميم، والباقون «فأجمعوا» بقطع الهمزة وكسر الميم، وقرأ ابن عامر وروح وزيد «تخيل إليه» بالتاء وهو قراءة الحسن والثقفي، والباقون «يخيل» بالياء.

● **الحجة والإعراب:** فأما قوله «لا نخلفه» بالجزم فإنه يكون على جواب الأمر، والقراءة المشهورة بالرفع على أن يكون ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ﴾ في موضع النصب بكونه صفة لقوله ﴿مَوْعِدًا﴾ وهو الظاهر، وأما قوله ﴿سُوًى﴾ فإنه المكان النصف فيما بين الفريقين. قال موسى بن جابر:

وجَــدْنــا أبــانــا كــان حــلَّ بِـبَـلْـدةٍ ... سِوى بَيْن قَيسٍ قَيْسِ عَيلان والفِزْر[1]

قال أبو علي: قوله ﴿سُوًى﴾ فِعَل من التسوية، فكان المعنى مكاناً مستوياً مسافته على الفريقين، فيكون مسافة كل فريق إليه كمسافة الفريق الآخر. وهذا بناء يقل في الصفات ومثله قوم عِدى. فأما فُعَل فهو في الصفات أكثر. قالوا: دليل خُتَع[2]، ومال لُبَد، ورجل حُطَم، وأما انتصاب قوله ﴿مَكَانًا﴾ فلا يخلو من أن يكون مفعولًا للموعد، إما على أنه مفعول به، أو على أنه ظرف له، أو يكون منتصباً بأنه المفعول الثاني، ولا يجوز الأول ولا الثاني لأن الموعد قد وصف بالجملة التي هي ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ﴾، وإذا وصف لم يجز أن يعمل عمل الفعل لاختصاصه بالصفة؛ ولأنه إذا عطف عليه لم يجز أن يتعلق به بعد العطف عليه شيء منه، وكذلك إذا أُخبِر عنه لم يجز أن يقع بعد الخبر عنه شيء يتعلق بالمخبر عنه. لم يجز سيبويه: هذا ضارب ظريف زيداً، ولا هذا ضويرب زيداً إذا حقر اسم الفاعل، لأن التحقير في تخصيصه الاسم بمنزلة إجراء الوصف عليه، وقد جاء من ذلك شيء في الشعر، قال بشر بن أبي حازم:

---

(١) أبان: اسم جبل. والفزر: أبو قبيلة من تميم، وهو سعيد بن زيد.

(٢) دليل ختع: ماهر الدلالة. ومال لبد: كثير لا يخاف فناؤه، كأنه التبد بعضه على بعض. ورجل حُطم: لا يشبع لأنه يحطم كل شيء.

إذا فَاقِدٌ خَطْبَاءُ فَرْخَينِ رجَّعَتْ   ذَكَرْتُ سُلَيْمَى في الخليط المُبايِنِ(١)

ويحتمل ذلك على إضمار فعل آخر كما ذهبوا إليه في نحو قول الشاعر:

إن العَرَارَةَ والنُّبوحَ لِدَارِمِ   والمُسْتَخِفَّ أُخُوهُمُ الأثقالا(٢)

فإذا لم يجز ذلك كان مفعولاً ثانياً لقوله ﴿فَٱجْعَلْ﴾ فيكون بمنزلة قوله ﴿جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ ونحوه، وأما ﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ فمن نصبه فعلى الظرف كما تقول قيامك يوم الجمعة، فالموعد إذاً هنا مصدر، والظرف بعده خبر عنه. قال ابن جني وهو عندي على حذف المضاف أي: ان إنجاز موعدنا إياكم في ذلك اليوم، ألا ترى أنه لا يراد أنه في ذلك اليوم يعدكم لأن الموعد قد وقع الآن، وإنما يتوقع إنجازه في ذلك اليوم. لكن في قوله ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ نظر، وظاهر حاله أن يكون مجرور الموضع حتى كأنه قال انتظروا موعدكم يوم الزينة وحشر الناس ضحى، أي: يوم هذا، ولهذا فيكون أن يحشر معطوفاً على الزينة، وقد يجوز أن يكون مرفوع الموضع عطفاً على الموعد، فكأنه قال إنجاز موعدكم وحشر الناس ضحى في يوم الزينة، أي: هذان الفعلان في يوم الزينة. وأما من رفع ﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ فإن الموعد عنده ينبغي أن يكون زماناً فكأنه قال: وقت وعدكم يوم الزينة، كقولنا: مبعث الجيوش شهر كذا أي: وقت بعثها حينئذٍ، والعطف عليه بقوله ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ يؤكد الرفع، لأن ﴿أَن﴾ لا يكون ظرفاً بل هو حرف موصول في معنى المصدر، وينبغي أن يكون على حذف المضاف أي: وقت وعدكم يوم الزينة ووقت حشر الناس ضحى، كما أن قولك: ورودك مقدم الحاج، إنما هو على حذف المضاف أي: وقت قدوم الحاج. وأما قوله ﴿فَيُسْحِتَكُم﴾ فإن سحت وأسحت بمعنى، قال الفرزدق:

وعضُّ زمانٍ يا بنَ مروانَ لم يَدَعْ   منَ المالِ إلا مُسحَتاً أو مُجَلَّفُ(٣)

وفسّر لم يدع على أنه بمعنى لم يبق. وأما قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ فمن قرأ بتشديد النون من ﴿إِنَّ﴾ والألف من ﴿هَٰذَٰنِ﴾ فقد قيل فيه أقوال:

أحدها: أن ﴿إِنَّ﴾ بمعنى نعم، وأنشدوا شعراً:

بَكَرَ العواذلُ في الضحى   يَلْحِينَنِي وأَلُومَهُنَّهْ

ويَقُلْنَ شَيْبٌ قد عَلا   كَ وقد كَبُرْتَ فقلتُ: إنَّهْ

فعلى هذا يكون تقديره: نعم هذان لساحران. وهذا لا يصح لأن ﴿إِنَّ﴾ إذا كانت بمعنى

(١) وفي رواية الأشموني «في الخليط المزايل» قوله: «فاقد» المراد حمامة فقدت فرخها و«رجعت» أي صوتت وكررت صوتها و«سليمى» اسم. ويقولون: ضربته بين أذناه، ومن يشتري الخفان، وقيل: إنها لغة لبني الحرث بن كعب، وهذا القول اختيار.

(٢) قائله الأخطل. والعرارة: الشدة. والنبوح: العز والكثرة. يمدح بني دارم بكثرة عددهم، وحملهم الأمور الثقال التي يعجز غيرهم عن حملها. وفي إعراب البيت خلاف ذكره ابن منظور في (اللسان) في «نبح» فراجع.

(٣) المجلف: الذي بقيت منه بقية. يريد إلا مسحتاً أو هو مجلف.

نعم ارتفع ما بعدها بالابتداء والخبر، واللام لا يدخل على خبر مبتدأ جاء على أصله. وأما ما أنشد في ذلك من قوله:

خَـالـي لَأَنْـتَ وَمَـنْ جُـرَيْـرٌ خـالُهُ ... يَـنَـلِ الـعـلاءَ ويُـكْـرِمُ الأخـوالا

وقوله:

أُمُّ الـحُـلَـيْـسِ لَعَـجُـوزٌ شَـهْـرَبَـة ... تَـرضى من الـلَّحمِ بِعَظْمِ الرَّقَبَة[(١)]

فمحمول على الشذوذ والضرورة. وأيضاً فإن أبا علي قال: ما قيل إن في الآية لا يقتضي أن يكون جوابه نعم، لأنك إن جعلته جواباً لقول موسى عليه السلام: ويلكم لا تفتروا على الله كذباً، قالوا: نعم هذان ساحران، كان محالاً، وإن جعلته على تقدير: فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا **النجوى، قالوا: نعم هذان لساحران، كان محالاً أيضاً.**

وثانيها: ما قاله الزجاج: إن تقديره نعم هذان لهما ساحران فاللام دخل على مبتدأ محذوف، وهذا أيضاً مثل الأول لما قلناه ولأن سيبويه قال نعم عدة وتصديق، وأن يصرف إلى الناصبة للاسم أولى وهو قراءة أبي عمرو وعيسى بن عمرو، قال أبو علي: هذا الذي قاله الزجاج لا يتجه لأمرين:

أحدهما: أن الذي حمله النحويون على الضرورة، لا يمتنع أن يستمر هذا التأويل فيه ولم يحمله مع ذلك عليه.

والآخر: أن التأكيد باللام لا يتعلق به الحذف، ألا ترى أن الأوجه في الزينة أن يتم الكلام ولا يحذف، ثم يؤكد فليس باللائق في التدبر.

وثالثها: ما قاله المتقدمون من النحويين: إن التقدير إنه هذان لساحران فحذف ضمير القصة، وهذا أيضاً فيه نظر من أجل دخول اللام في الخبر، ولأن إضمار الهاء بعد﴿إِنّ﴾ إنما يأتي في ضرورة الشعر نحو قوله:

إنَّ مَـنْ لامَ فـي بـنـي بِـنْـتِ حَـسّـانٍ ... أَلُمْـهُ وأَعْـصِـهِ فـي الـخُـطُـوبِ

وقوله:

إنَّ مَـنْ يـدخُـلِ الـكـنيـسـةَ يَـوْمـاً ... يَـلْقَ فـيـهـا جـآذِراً وظِـبـاءَ[(٢)]

ورابعها: ما قاله علي بن عيسى وهو أن ﴿إِنّ﴾ لما كانت مشبهة بالفعل وليست بأصل في العمل ألغيت هٰهنا، كما تلغى إذا خففت وهذا غير مستقيم أيضاً، لأن الإلغاء في ﴿إِنّ﴾ ما رأيناه في غير هذا الموضع، وأيضاً فإنها قد أعملت مخففة في قوله تعالى ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ

---

(١) والشاهد في دخول اللام على الخبر في البيتين وهو قوله لأنت - في البيت الأول - ولعجوز - في البيت الثاني - مع أنها مختصة بالمبتدأ.

(٢) الجآذر جمع الجؤذر: ولد البقرة الوحشية.

﴿أَعۡمَـٰلَهُمۡۚ﴾ فكيف يجوز إلغاؤها في غير التخفيف؟ وأيضاً فقد أعمل اسم الفاعل والمصدر لشبههما بالفعل، ولا يجوز إلغاؤهما. وأيضاً فإن اللام يمنع من هذا التأويل لأن «إنَّ» إذا ألغيت ارتفع ما بعدها بالابتداء، واللام لا يدخل على خبر المبتدأ على ما بيَّناه.

وخامسها: أن هذه الألف ليست بألف التثنية وإنما هي ألف هذا زيدت عليها النون. وهذا قول الفراء وهو غير صحيح، فإنه لا يجوز أن يكون تثنية إلا ويكون لها علم. ولو كان على ما زعم لم تنقلب هذه الألف ياء في حال الجر والنصب. ويدل على أن هذه الألف للتثنية: أن الألف التي كانت في الواحد قد حذفت كما حذفت الياء من الذي والتي إذا قلت اللذان واللتان.

وسادسها: وهو أجود ما قيل فيه أن يكون ﴿هَـٰذَانِ﴾ اسم ﴿إِنَّ﴾ بلغة كنانة، يقولون: أتاني الزيدان ورأيت الزيدان ومررت بالزيدان. قال بعض شعرائهم:

واهــاً لِرَيّـا ثـم واهـاً واهـاً ... يـا لَيتَ عـينـاهـا لـنـا وفـاهـا
ومـوضـعُ الـخَـلْخـالِ مـن رِجـلاهـا ... بِـثَـمَـنٍ نُـعْـطِـي بـه أبـاهـا
إن أبـاهـا وأبـا أبـاهـا ... قـد بـلغـا فـي الـمـجـد غـايـتـاهـا[1]

وقال آخر:

تَـزَوَّدَ مـنـا بـيـنَ أُذنـاهُ طَـعْـنَـةً ... دَعَـتْـهُ إلـى هـابَـي الـتـرابِ عَـقِـيـم

وقال آخر:

فـأَطْـرَقَ إطْـراقَ الـشُـجـاعِ ولـو يَـرى ... مـسـاغـاً لِـنـابـاهُ الـشُّـجـاعُ لَـصَـمَّـا

ويقولون: ضربته بين أذناه ومن يشتري الخفان. وقيل: إنها لغة لبني الحرث بن كعب، وهذا القول اختيار أبي الحسن وأبي علي الفارسي. ومن قرأ: «إن هذين لساحران» فهو صحيح مستقيم، وزيف الزجاج هذه القراءة لمخالفتها المصحف. وقيل: إنه احتج في مخالفته المصحف بما روى أنه من غلط الكاتب. ويروون عن عثمان وعائشة أن في هذا القرآن غلطاً تستقيمه العرب بألسنتها، وهذا غير صحيح عند أهل النظر، فإن أبا عمرو ومن ذهب من القراء مذهبه لا يقرأ إلا بما أخذه من الثقات من السلف، ولا يظن به مع علو رتبته أن يتصرف في كتاب الله من قبل نفسه فيغيِّره، ومن قرأ ﴿إِنۡ هَـٰذَانِ﴾ بسكون إن والألف، فقد قال الزجاج: يقوي هذه القراءة قراءة أُبَيّ «ما هذان إلا ساحران»، وروى عنه أيضاً «إن هذان إلا ساحران»، وهذا يدل على أنه جعل اللام بمنزلة إلا، والعجب أنه بصري المذهب، والبصريون ينكرون مجيء اللام بمعنى إلا، قالوا: لو كان كذلك لجاز أن تقول جاءني القوم لزيداً، بمعنى إلا زيداً، فالوجه الصحيح فيه أنه جعل ﴿إِنۡ﴾ هذه مخففة من الثقيلة وأضمر فيها اسمها ورفع ما بعدها على الابتداء والخبر، وجعل الجملة خبر إن. وإذا كانت «إن» مخففة من الثقيلة لزمتها اللام ليكون فرقاً بينها وبين «إن» النافية. وأما تشديد النون في قول ابن كثير ففيه وجهان:

---

(١) نسب جماعة هذه الأبيات إلى النجم العجلي منهم الشريف المرتضى (ره) في الأمالي ونسبها آخرون إلى رؤبة. وقال بعض: إنها لبعض أهل اليمن. وفي بعض الروايات لـ «سلمى».

أحدهما: أن يكون عوضاً من ألف هذا التي سقطت من أجل حرف التثنية.

والآخر: أن يكون للفرق بين النون التي تدخل على المبهم والنون التي تدخل على المتمكن، وذلك أن هذه إنما وجدت مشددة مع المبهم، وأما قوله ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ قال أبو الحسن: إنما يقولون بالقطع إذا قالوا أجمعوا على كذا. فأما إذا قالوا أجمعوا أمركم وأجمعوا كيدكم فلا يقولون إلا بالوصل. قال: وقال بالقطع أكثر القراء. قال: فأما أن يكون لغة في هذا المعنى لأن باب فعلت وأفعلت كثير، وأن يكون أجمعوا على كذا، ثم قال كيدكم على أمر مستأنف. قال أبو علي: فإن قيل فقد تقدم ذكر قوله ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ فإذا قيل فأجمعوا كيدكم كان تكريراً، قيل: لا يكون كذلك لأن ذلك في قصة وهذا في أخرى، ذاك إخبار عن فرعون في جمعه كيده وسحره، وهذا فيما يتواصى به السحرة في جمع كيدهم، ويشبه أن يكون ذلك على لغتين كما ظنه أبو الحسن، قال الشاعر:

وأنتم معشرٌ زِيدوا على مائةٍ   فَأَجْمِعُوا أمرَكُمْ طُرّاً فكِيدُوني

فقوله «فأجمعوا أمركم» بمنزلة ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ لأن كيدكم من أمرهم، وأما قوله ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ فمن قرأ بالياء فإنه فعل فارغ وفاعله قوله ﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾، ومن قرأ بالتاء فعلى هذا يكون فاعله الضمير المستكن فيه العائد إلى الحبال والعصي، و﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ في محل الرفع لأنه بدل من ذلك الضمير وهو بدل الاشتمال ويجوز أن يكون موضعه على هذه القراءة نصباً أيضاً على معنى: يخيل إليه كونها ذات سعي.

● **المعنى**: ثم حكى سبحانه عن فرعون أنه نسب موسى إلى السحر تلبيساً على قومه بأن قال: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ أي: من أرض مصر ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾ أي: مثل ما أتيت به ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ أي: اضرب بيننا وبينك موعداً مكاناً يعدُ لحضورنا ذلك المكان، لا يقع منا في حضوره خلاف. ثم وصف المكان بأنه تستوي مسافته على الفريقين، ومكاناً بدل عن موعد. وقيل: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ أي: عدلاً بيننا وبينك عن قتادة، وقيل: منصفاً بكون النصف بيننا وبينك، عن مجاهد. ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ وكان يوم لهم فسمي يوم الزينة لأن الناس يتزينون فيه ويُزينون به الأسواق، عن مجاهد وقتادة والسدي. ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ يعني ضحى ذلك اليوم، ويريد بالناس أهل مصر، يقول: يحشرون إلى العيد ضحى، فينظرون إلى أمري وأمرك فيكون ذلك أبلغ في الحجة وأبعد من الشبهة، قال الفراء: يقول إذا رأيت الناس يحشرون من كل ناحية ضحى فذلك الموعد. قال: وجرت عادتهم بحشر الناس في ذلك اليوم ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾ أي: انصرف وفارق موسى على هذا الوعد ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ أي: حيلته ومكره، وذلك جمع السحرة ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ أي: حضر الموعد ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ﴾ أي: قال للسحرة، لأنهم أحضروا ما عملوا من السحر ليقابلوه بمعجزة موسى، فوعظهم فقال: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ وهي كلمة وعيد وتهديد، معناه: ألزمكم الله الويل والعذاب، ويجوز أن يكون على النداء نحو: يا ويلتا، فيكون الدعاء بالويل عليهم، وقيل: إن ويلكم كلمتان تقديرهما: وي لكم فيكون مبتدأ وخبراً، أو يكون ويلكم بمنزلة: أتعجب لكم. ﴿لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا تشركوا مع الله أحداً، عن ابن

عباس، وقيل: لا تكذبوا على الله بأن تنسبوا معجزاتي إلى السحر، وسحركم إلى أنه حق، وبأن تنسبوا فرعون إلى أنه إله معبود ﴿فَيُسْحِتَكُم﴾ أي: يستأصلكم ﴿بِعَذَابٍ﴾، عن قتادة والسدي، وقيل: يهلككم، عن ابن عباس والكلبي ومقاتل والجبائي. وأصل السحت: استقصاء الخلق، يقال: سحت شعره: إذا استأصله. وسحته الله وأسحته: إذا استأصله وأهلكه ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ أي: خسر من كذب على الله ونسب إليه باطلًا، عن قتادة، وقيل: انقطع رجاء من كذب على الله عن ثوابه وجنته. ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أي: تشاور القوم وتفاوضوا في حديث موسى وهارون وفرعون، وجعل كل واحد منهم ينازع لكلام صاحبه، وقيل: تشاورت السحرة فيما هيّأوه من الحبال والعصي، وفيمن يبتدىء بالإلقاء ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾ يعني أن السحرة أخفوا كلامهم وتناجوا فيما بينهم سراً من فرعون، فقالوا: إن غلبنا موسى اتبعناه، عن الفراء والزجاج، وقيل: إن موسى لما قال لهم ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ قال بعضهم لبعض: ما هذا بقول ساحر. وأسر بعضهم إلى بعض يتناجون، عن محمد بن إسحاق، وقيل: أسروا النجوى بأن قالوا: إن كان هذا ساحراً فسنغلبه وإن كان من السماء فله أمره، عن قتادة. وقيل: تناجوا مع فرعون وأسروا عن موسى وهارون قولهم ﴿إِنْ هَٰذَانِ﴾ لساحران، عن الجبائي وأبي مسلم إن هذان يعني موسى وهارون ﴿لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا﴾ قاله فرعون وجنوده للسحرة، ويريدون بالأرض أرض مصر. ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ هي تأنيث الأمثل، وهو الأفضل، وهو الأشبه بالحق، يقال: فلان أمثل قومه أي: أشرفهم وأفضلهم، والمعنى: يريدان أن يصرفا وجوه الناس إليهما عن أمير المؤمنين علي عليه السلام. وقيل: إن طريقتهم المثلى بنو إسرائيل كانوا أكثر القوم عدداً وأموالًا أي: يريدان أن يذهبا بهم لأنفسهم، عن قتادة، وأكثر المفسرين. وقيل: يذهبا بطريقتكم التي أنتم عليها في السيرة والدين، عن الجبائي وأبي مسلم وابن زيد. ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ أي: لا تدعوا من كيدكم شيئاً إلا جئتم به ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ أي: مصطفّين مجتمعين ليكون أنظم لأموركم وأشد لهيبتكم عن ابن عباس وأكثر المفسرين. وقيل: ثم ائتوا موضع الجمع، ويسمى المصلى: الصف، عن أبي عبيدة، والمعنى: ثم ائتوا الموضع الذي تجتمعون فيه لعيدكم وصلاتكم. ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ أي: وقد سعد اليوم من غلب وعلا، عن ابن عباس. قال بعضهم: إن هذا من قول فرعون للسحرة، وقال آخرون: بل هو قول بعض السحرة لبعض، ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾﴾ هذا قول السحرة خيّروه بين أن يلقوا أولًا ما معهم أو يلقي موسى عصاه، ثم يلقون ما معهم. ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿بَلْ أَلْقُوا﴾ أنتم ما معكم، أمرهم بالإلقاء أولًا ليكون معجزه أظهر إذا ألقوا ما معهم، ثم يلقي هو عصاه فتبتلع ذلك، وهٰهنا حذف أي: فألقوا ما معهم ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ الضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ راجع إلى موسى، وقيل: إلى فرعون، أي: يرى الحبال من سحرهم أنها تسير وتعدو مثل سير الحيات، وإنما قال ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ لأنها لم تكن تسعى حقيقة، وإنما تحركت لأنهم جعلوا داخلها الزئبق فلما حميت الشمس طلب الزئبق الصعود فحركت الشمس ذلك، فظن أنها تسعى.

●●●

قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ
﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ
أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ
ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٖ
وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا
جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾
إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِۗ وَٱللَّهُ خَيْرٞ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ
مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنٗا قَدْ عَمِلَ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ
وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن ذكوان «تلقف» بالرفع، والباقون بالجزم. إلا أن حفصاً يقرؤها خفيفة والآخرون مشددة وابن كثير برواية البزي وابن فليح يشدّد التاء أيضاً، وقرأ «كيد سحر» بغير ألف أهل الكوفة غير عاصم، والباقون «ساحر» بالألف.

● **الحجة:** من قرأ «تلقف» بالرفع فإنه يرتفع لأنه في موضع الحال، والحال يجوز أن يكون من الفاعل الملقي أو من المفعول الملقي فإن جعلته من الفاعل جعلته من المتلقف، وإن كان التلقف في الحقيقة للعصا، لأن التلقف كان بإلقائه، فجاز أن ينسب إليه. وإن جعلته من المفعول فإنه أنث على المعنى، لأن الذي في يمينه عصا. ومثل ذلك في أن يكون مرة للخطاب، ومرة للمؤنث قوله: ﴿يَوْمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾﴾، فهذا يكون على تحدث أنت أيها الإنسان، وعلى أن الأرض تحدث. وأما «تلقف» بالجزم، فعلى أن يكون جواباً كأنه قال: إن تلقه تَلْقَف وتَلَقَّف. ومن شدد التاء فإنما أراد تتلقف وهذا يكون على تتلقف أنت أيها المخاطب، وعلى تتلقف هي، إلا أنه أدغم التاء الأولى في التاء الثانية والإدغام في هذا ينبغي أن لا يكون جائزاً، لأن المدغم يسكن وإذا سكن لزم أن يجلب له همزة الوصل كما جلبت في أمثلة الماضي، نحو: ادّرأتم وازّينت واطّيروا. وهمزة الوصل لا تدخل على المضارع. قال: وسألت أحمد بن موسى كيف يبتدىء من أدغم، فقال كلاماً معناه: أنه يصير بالابتداء إلى قول من خفف ويدع الإدغام. ومن قرأ «كيد ساحر» فلأن الكيد للساحر في الحقيقة وليس للسحر، إلا أن يريد كيد ذي سحر، فيكون في المعنى مثل كيد ساحر. والاختلاف بين القراء في «آمنتم» والوجه في ذلك ذكرناه في سورة الأعراف(١).

● **اللغة:** يقال: لقفت الشيء وتلقفته والتقفته: إذا أخذته بسرعة. قال الكسائي: الصبي

---

(١) راجع ج٢.

في الحجاز إذا جاء من عند معلمه قال: جئت من عند كبيري، والكبير في اللغة: الرئيس، ولهذا يقال للمعلم: الكبير، والإيثار: الاختيار، والتزكي: طلب الزكاء، والزكاء: النماء في الخير، ومنه الزكاة لأن المال ينمو بها.

● **الإعراب:** ﴿إن﴾ مفصول من ﴿مَا صَنَعُوٓاْ﴾ لأن ما هٰهنا موصولة و﴿صَنَعُوٓاْ﴾ صلته، ويجوز أن يكون الموصول اسماً بمعنى الذي، ويكون العائد من الصلة إلى الموصول محذوفاً. ويجوز أن يكون حرفاً فيكون تقديره أن صنعهم. والفرق بين آمنتم به وآمنتم له: أن آمنتم به بالباء هو: من الإيمان الذي هو ضد الكفر، وآمنتم له: بمعنى التصديق. ﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾حتمل أن يكون (من) بمعنى عن، أي: عن خلاف، ويحتمل أن يكون بمعنى: على خلاف، فيكون الجار والمجرور في موضع نصب على الحال. ﴿فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ في بمعنى على. وإنما جاز ذلك لأن الجذع قد اشتمل عليهم وقد صاروا فيها. قال الشاعر:

هُمُ صَلَبُوا العبدي في جذعِ نخلةٍ   فلا عَطَسَتْ شَيْبانُ إلَّا بأجدَعا[1]

﴿أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ تعليق، ومعنى التعليق إن عملت تعمل في المعنى، ولا تعمل في اللفظ. ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ موضعه جر عطف على ﴿مَا جَآءَنَا﴾، ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ يجوز أن يكون «ما» مصدرية في تقدير الظرف، أي: فاقض القضاء مدة كونك قاضياً، ويجوز أن يكون «ما» مفعوله أي: فاقض ما أنت قاضيه، فحذف الهاء، ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ حذف المضاف، وتقديره: إنما تقضي أمور هذه الحياة الدنيا، ويجوز أن يكون تقديره: إنما تقضي مدة هذه الحياة الدنيا، وهذه على القول الأول منصوبة مفعول بها، وعلى الثاني منصوبة على الظرف. ويجوز أن يكون الواو للقسم. ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ يجب أن يكون بدلًا من ﴿ٱلدَّرَجَٰتُ﴾، ولا يجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف، لأن قوله ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ نصب على الحال من قوله ﴿لَهُمُ﴾، وذو الحال الضمير المجرور باللام، فعلى هذا لا يجوز الوقف على ﴿ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ و﴿ٱلدَّرَجَٰتُ﴾ مرتفع بالظرف بلا خلاف بينهم، لأن الظرف جرى خبراً على المبتدأ وهو ﴿فَأُولَٰٓئِكَ﴾، واعتمد عليه، فيرتفع ما بعده.

● **المعنى:** ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ معناه: فأحس موسى ووجد في نفسه ما يجده الخائف، ويقال: أوجس القلب فزعاً أي: أضمر، والسبب في ذلك أنه خاف أن يلتبس على الناس أمرهم فيتوهموا أنهم فعلوا مثل فعله، ويظنوا المساواة فيشكوا ولا يتبعونه، عن الجبائي. وقيل: إنه خوف الطباع إذا رأى الإنسان أمراً فظيعاً، فإنه يحذره ويخافه في أول وهلة، وقيل: إنه خاف أن يتفرق الناس قبل إلقائه العصا، وقبل أن يعلموا ببطلان السحرة فيبقوا في شبهة. وقيل: إنه خاف لأنه لم يَدْرِ أن العصا إذا انقلبت حية هل تظهر المزية، لأنه لا يعلم أنها تتلقفها، فكان ذلك موضع خوف، لأنها لو انقلبت حية ولم تتلقف ما يأفكون، ربما ادَّعوا المساواة لا سيما والأهواء معهم والدولة لهم. فلما تلقفت زالت الشبهة وتحقق عند الجميع صحة أمر موسى

---

(١) أي: صار أنفهم أجدع.

وبطلان سحره. ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨﴾ عليهم بالظفر والغلبة ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ يعني: العصا، ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟﴾ أي: تبتلع ما صنعوا فيه من الحبال والعصي، لأن الحبال والعصي أجسام ليست من صنعهم، قالوا: ولما ألقى عصاه صارت حية، وطافت حول الصفوف حتى رآها الناس كلهم، ثم قصدت الحبال والعصي فابتلعتها كلها على كثرتها، ثم أخذها موسى فعادت عصا كما كانت. ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ أي: إن الذي صنعوه أو إن صنيعهم كيد ساحر، أي: مكره وحيلته ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ﴾ أي: لا يظفر الساحر ببغيته إذ لا حقيقة للسحر ﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾ أي: حيث كان من الأرض، وقيل: لا يفوز الساحر حيث أتى بسحره، لأن الحق يبطله. ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ هٰهنا محذوف وهو فألقى عصاه، وتلقف ما صنعوا، فأُلقِيَ السحرة سجداً أي: سجدوا و﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ أضافوه سبحانه إليهما لدعائهما إليه، وكونهما رسولين له، ﴿قَالَ﴾ فرعون للسحرة ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ أي: لموسى والمعنى قد صدقتم له ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي: من غير إذني، لأنه بلغ من جهله أنه لا يعتقد دين إلا بإذنه. والفرق بين الإذن والأمر: أن في الأمر دلالة على إرادة الآمر الفعل المأمور به، وليس في الإذن ذلك. وقوله ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ إذن، وقوله ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أمر. ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ معناه: إنه لأستاذكم وأنتم تلامذته، وقد يعجز التلميذ عما يفعله الأستاذ، وقيل: إنه لرئيسكم ومتقدِّمكم وأنتم أشياعه وأتباعه ما عجزتم عن معارضته، ولكنكم تركتم معارضته احتشاماً له واحتراماً، وإنما قال ذلك ليوهم العوام أن ما أتوا به إنما هو لتواطؤ من جهتهم ليصرفوا وجوه الناس إليهم. ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أي: أيديكم اليمنى وأرجلكم اليسرى ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ أي: على جذوع النخل ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ أيها السحرة ﴿أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا﴾ لكم ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ وأدوم أنا على إيمانكم أم رب موسى على ترككم الإيمان به. ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: لن نفضلك ولن نختارك على ما أتانا من الأدلة الدالة على صدق موسى وصحة نبوته، والمعجزات التي تعجز عنها قوى البشر ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ أي: وعلى الذي فطرنا أي: خلقنا. وقيل: معناه لن نؤثرك والله الذي فطرنا على ما جاءنا من البينات وما ظهر لنا من الحق ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ أي: فاصنع ما أنت صانعه على إتمام وإحكام، وقيل: معناه فاحكم ما أنت حاكم، وليس هذا بأمر منهم ولكن معناه: أي شيء صنعت فإنا لا نرجع عن الإيمان ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ أي: إنما تصنع بسلطانك أو تحكم في هذه الحياة الدنيا دون الآخرة، فلا سلطان لك فيها ولا حكم. وقيل: معناه إنما تقضي وتذهب هذه الحياة الدنيا دون الحياة الآخرة ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ من الشرك والمعاصي ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ إنما قالوا ذلك لأن الملوك كانوا يجبرونهم على تعليم السحر كيلا يخرج السحر من أيديهم، وقيل: إن السحرة قالوا لفرعون: أرنا موسى إذا نام، فأراهم إياه فإذا هو نائم وعصاه تحرسه، فقالوا: ليس هذا بسحر، إن الساحر إذا نام بطل سحره. فأبى عليهم إلا أن يعملوا فذلك إكراههم، عن عبد العزيز بن أبان. ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي: والله خير لنا منك، وثوابه أبقى لنا من ثوابك وقيل: معناه والله خير ثواباً للمؤمنين وأبقى عقاباً للعاصين منك، وهذا جواب لقوله ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾، وهٰهنا انتهى الإخبار عن السحرة. ثم قال الله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ وقيل: إنه من قول السحرة، قال ابن عباس في رواية الضحاك: المجرم الكافر. وفي

رواية عطاء يعني الذي أجرم، وفعل مثل ما فعل فرعون ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح من العذاب ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياة فيها راحة، بل هو معاقب بأنواع العقاب ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا﴾ مصدقاً بالله وبأنبيائه ﴿قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: أدى الفرائض عن ابن عباس، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ يعني: درجات الجنة وبعضها أعلى من بعض، والعلى جمع العليا وهي تأنيث الأعلى، ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي: إقامة ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ معناه: أن الثواب الذي تقدم ذكره جزاء من تطهّر بالإيمان والطاعة عن دنس الكفر والمعصية، وقيل: تزكى طلب الزكاة بإرادة الطاعة والعمل بها.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ حمزة: «لا تخف» جزماً، والباقون: «لا تخاف». وقرأ أهل الكوفة غير عاصم: «قد أنجيتكم وواعدتكم ورزقتكم»، وقرأ الباقون: «قد أنجيناكم وواعدناكم ورزقناكم» بالنون، وقرأ أبو جعفر وأبو عمرو ويعقوب وسهل: «ووعدناكم» بغير الألف، والباقون بالألف. وقرأ الكسائي: «فيحُل» بضم الحاء و«من يحلُل» بضم اللام، والباقون بالكسر في الموضعين.

● **الحجة:** قال أبو علي من رفع قوله «لا تخاف» فإنه حال من الفاعل في ﴿فَٱضْرِبْ﴾ أي: غير خائف ولا خاش، ويجوز أن يقطعه من الأول أي: أنت لا تخاف، ومن قرأ «لا تخف» جعله جواب الشرط أي: إن تضرب لا تخف دركاً ممن خلفك ولا تخش غرقاً بين يديك، فأما من قال «لا تخف دركاً ثم لا تخشى» فيجوز أن يعطيه من الأول أي: إن تضرب لا تخف وأنت لا تخشى. ولا يحمله على قول الشاعر «كأن لم تر قبلي أسيراً يمانياً»[١] ولا على نحو:

إذا العجوزُ غضبَتْ فطلِّق ولا تَرَضّيها ولا تملَّق[٢]

(١) قائله: عبد يغوث بن وقاص، وقبله: «وتضحك مني شيخة عبشمية» والشاهد في قوله «لم ترى» حيث أثبت الشاعر الألف مع الجازم.

(٢) قائله: رؤبة بن العجاج.

لأن ذلك إنما يجيء في ضرورة الشعر، كما أن قوله:

أَلَمْ يَأْتِيكَ والأنباءُ تَنْمي ... بما لاقَتْ لَبُونُ بَني زيادِ(١)

كذلك. ولكنك تقدر أنك حذفت الألف المنقلبة عن اللام، ثم أشبعت الفتحة لأنها في فاصلة فأثبت الألف الناشئة عن إشباع الفتحة. ومثل هذا مما ثبت في الفاصلة قوله ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾، وقد جاء إشباع هذه الفتحة في كلامهم قال:

وأنتَ عنِ الغَوائلِ حينَ تُرمى ... ومِنْ ذَمِّ الرجالِ بِمُنْتَزاح

أي: بمنتزح. وحجة من قرأ «وعدناكم» أن ذلك يكون من الله سبحانه. قال أبو الحسن: زعموا أن «واعدناكم» لغة في «وعدناكم» فإذا كان كذلك فاللفظ لا يدل على أن الفعل من اثنين، فيكون القراءة بوعد أحسن، لأن واعد بمعنى وعد، ويعلم من وعد أنه فعل واحد لا محالة، وليس واعد كذلك. فالأخذ بالأبين أولى. ومن قرأ «أنجيناكم وواعدناكم» فحجته قوله ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾. وحجة من قرأ «يحِل» بكسر الحاء أنه روي في زمزم أنه لِشاربٍ حل أي: مباح له غير محظور عليه ولا ممنوع عنه، فالحل والحلال في المعنى مثل المباح فهو خلاف الحظر والحجر، والحرام والحرم، فهذه الألفاظ معناها المنع. والمباح من قولهم باح بالسر والأمر يبوح به: إذا لم يجعل دونه حظراً، فمعنى يحل عليكم: ينزل بكم وينالكم بعدما كان ذا حظر وحجر ومنع عنكم. ووجه قراءة من قرأ «يحل عليكم غضبي» أن الغضب لما كان تتبعه العقوبة والعذاب جعله بمنزلة العذاب، فقال: يحل أي: ينزل، فجعله بمنزلة قولهم: حل بالمكان يحل. وعلى هذا جاء ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾، فكما أن هذا عذاب قد أخبر عنه بأنه يحل، كذلك أخبر عن الغضب بمثله، وجعله بمنزلته لأنه يتبعه ويتَّصل به.

● **اللغة:** اليبس: اليابس وجمعه أيباس. وجمع اليَبْس بسكون الباء يبوس، قال الكميت:

فما زِدتُهُ إلا يُبُوساً وما أرى ... لهم رَحِماً والحمدُ لله تُوصَلُ

قال أبو زيد: حل عليه أمر الله يحل حلولًا، وحل الدار يحلها حلولًا. وحل العقدة يحلها حلًا، وحل له الصوم يحل حلًا، وأحله الله إحلالًا، وحل عليه حقي يحل محلًا، وأحل الرجل من إحرامه إحلالًا، وحل يحل حلًا. والأسف: أشد الغضب، ويكون أيضاً بمعنى الحزن.

● **الإعراب:** ﴿هُمْ أُو۟لَآءِ﴾ مبتدأ وخبر، ويجوز أن يكون ﴿أُو۟لَآءِ﴾ بدلاً من ﴿هُمْ﴾ ويكون ﴿عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ في موضع رفع بأنه خبر المبتدأ، وعلى الوجه الأول يجوز أن يكون ﴿عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ في موضع نصب على الحال، والعامل فيه معنى الإشارة في ﴿أُو۟لَآءِ﴾ ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن حال بني إسرائيل فقال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ بعد ما رأى فرعون من الآيات فلم يؤمن هو ولا قومه ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ أي: سر بهم ليلًا من أرض

(١) قائله: قيس بن زهير وكان قد طرد إبلًا للربيع بن زياد في قصة مشهورة.

مصر ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا﴾ أي: اجعل لهم طريقاً في البحر يابساً بضربك العصا لينفلق البحر، فعدّى الضرب إلى الطريق لما دخله هذا المعنى، فكأنه قد ضرب الطريق كما يضرب الدينار ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ أي: لا تخاف أن يدركك فرعون من خلفك، ولا تخشى من البحر غرقاً. ومن قرأ «لا تخف» بالجزم فمعناه: لا تخف أن يدركك فرعون، وأنت لا تخشى شيئاً من أمر البحر، مثل قوله ﴿يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَۖ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ ويجوز أن يكون في موضع الجزم على نحو ما ذكرناه في الحجة. ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ معناه: ألحق جنوده بهم، وبعث بجنوده خلفهم وفي أثرهم. وفي الكلام حذف أنهم فعلوا ذلك فدخل موسى وقومه البحر، ثم أتبعهم فرعون بجنوده ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ﴾ أي: جاءهم من البحر ما جاءهم، ولحقهم منه ما لحقهم، وفيه تعظيم للأمر، ومعناه: غشيهم الذي عرفتموه وسمعتم به، ومثله قول أبي النجم «أنا أبو النجم وشعري شعري» أي: شعري الذي سمعت به وعلمته، أي: هلك فرعون ونجا موسى هذا كان عاقبة أمرهم فليعتبر المعتبرون بهم. ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ أي: صرفهم عن الهدى والحق وما هداهم إلى الخير والرشد وطريق النجاة، وإنما قال ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ بعد قوله ﴿وَأَضَلَّ﴾ ليتبين أنه استمر على ذلك وما زال يضلهم ولا يهديهم، وحسن حذف المفعول لمكان رأس الآية، وإنما قال سبحانه تكذيباً لقول فرعون لقومه: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، ثم خاطب سبحانه بني إسرائيل، وعدّد نعمه عليهم فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ﴾ فرعون بمرأى منكم ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ وهو أن الله تعالى وعد موسى بعد أن أغرق فرعون ليأتي جانب الطور الأيمن فيؤتيه التوراة، فيها بيان الشرائع والأحكام، وما يحتاجون إليه ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ يعني في التيه. وقد مرَّ بيان ذلك في سورة البقرة(١). ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ صورته صورة الأمر والمراد به الإباحة ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ أي: فلا تتعدوا فيه فتأكلوه على الوجه المحرم عليكم. وقيل: إن المعنى لا تتجاوزوا عن الحلال إلى الحرام. وقيل: معناه لا تتناولوا من الحلال للاستعانة به على المعصية ﴿فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ﴾ أي: فيجب عليكم عقوبتي، ومن ضم الحاء فالمعنى: فينزل عليكم عقوبتي ﴿وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾ أي: هلك لأن من هوى من علو إلى سفل فقد هلك. وقيل: فقد هوى إلى النار. قال الزجاج: فقد صار إلى الهاوية. ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ﴾ وهو فعال من المغفرة ﴿لِّمَن تَابَ﴾ من الشرك ﴿وَءَامَنَ﴾ بالله ورسوله ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ أي: أدى الفرائض ﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ أي: ثم لزم الإيمان إلى أن يموت واستمر عليه، وقيل: ثم لم يشك في إيمانه عن ابن عباس، وقيل: ثم اتخذ بسنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولم يسلك سبيل البدعة، عن ابن عباس أيضاً والربيع بن أنس. وقال أبو جعفر الباقر عليه السلام: ثم اهتدى إلى ولايتنا أهل البيت عليهم السلام فوالله لو أن رجلاً عبد الله عمره ما بين الركن والمقام ثم مات ولم يجيء بولايتنا لأكبّه الله في النار على وجهه. رواه الحاكم أبو القاسم الحسكاني بإسناده، وأورده العياشي في تفسيره من عدة طرق. ﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣﴾ قال ابن إسحاق كانت المواعدة أن يوافي الميعاد هو وقومه، وقيل: مع

(١) راجع ج١.

جماعته من وجوه قومه وهو متصل بقوله ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ فتعجل موسى من بينهم شوقاً إلى ربه، وخلفهم ليلحقوا به، فقيل له: ما أعجلك عن قومك يا موسى، أي: بأي سبب خلفت قومك وسبقتهم وجئت وحدك. ﴿قَالَ﴾ موسى في الجواب ﴿هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾ أي: هؤلاء من ورائي يدركونني عن قريب، وقيل: معناه هم على ديني ومنهاجي، عن الحسن، ورُوِيَ عنه أيضاً أنه قال: هم ينتظرون من بعدي ما الذي آتيهم به وليس يريد أنهم يتبعونه. ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ أي: سبقتهم إليك حرصاً على تعجيل رضاك أي: لأزداد رضاً إلى رضاك. ﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ﴾ أي: امتحناهم وشددنا عليهم التكليف بما حدث فيهم من أمر العجل، فألزمناهم عند ذلك النظر ليعلموا أنه ليس بإله، كما قال سبحانه: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ ﴿مِنۢ بَعۡدِكَ﴾ أي: من بعد انطلاقك ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ أي: دعاهم إلى الضلال فقبلوا منه وضلوا عند دعائه، فأضاف الضلال إلى السامري، والفتنة إلى نفسه، ليدل سبحانه على أن الفتنة غير الضلال، وقيل: إن معنى فتنا قومك: عاملناهم معاملة المختبر المبتلي ليظهر لغيرنا المخلص منهم من المنافق، فيوالي المخلص ويعادي المنافق. ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ﴾ أي: رجع موسى من الميقات إلى بني إسرائيل شديد الغضب حزيناً، عن ابن عباس، وقيل: جزعاً، عن مجاهد، وقيل: متحسراً متلهفاً على ما فاته، لأنه خشي أن لا يمكنه تدارك أمر قومه، عن الجبائي. ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ﴾ أي: صدقاً لإيتاء الكتاب وهو التوراة لتعلموا ما فيه وتعملوا به، فتستحقوا الثواب، عن الجبائي. وقيل: الوعد الحسن هو ما وعدهم به من النجاة من فرعون، ومجيئهم إلى جانب الطور، ووعده بالمغفرة لمن تاب. وقيل: هو ما وعدهم به في الآخرة على التمسك بدينه في الدنيا، عن الحسن. ﴿أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ﴾ أي: مدة مفارقتي إياكم ﴿أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: يجب عليكم ﴿غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ بعبادتكم العجل. والمعنى: أم أردتم أن تصنعوا صنعاً يكون سبباً لغضب ربكم ﴿فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾ أي: ما وعدتموه لي من حسن الخلافة بعدي، ويبين ذلك قوله: ﴿بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾، وقيل: إن إخلافهم موعده أنه أمرهم اللحاق به فتركوا المسير على أثره للميقات، وقيل: إنه أمرهم أن يتمسكوا بطريقة هارون وطاعته، ويعملوا بأمره إلى أن يرجع، فخالفوه.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي

وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا
خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ
ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل المدينة والكوفة وعاصم: «بمَلْكنا» بالفتح، وقرأ حمزة والكسائي وخلف: «بمُلْكنا» بضم الميم، والباقون: «بمِلْكنا» بكسر الميم، وقرأ ابن عامر وحفص ورويس: «حُمِّلنا» بالضم والتشديد، والباقون: «حَمَلنا» بفتح الحاء والتخفيف، وقرأ أهل الكوفة غير عاصم: «لم تبصروا» بالتاء، والباقون بالياء، وفي الشواذ قراءة ابن مسعود وأبي والحسن وقتادة وأبي رجاء ونصر بن عاصم «فقبصت قبصة» بالصاد، ورُوِيَ عن الحسن أيضاً «قبضة» بضم القاف.

● **الحجة:** قال أبو علي في قوله «بملكنا» هذه ثلاث لغات والكسر أكثر، والفتح لغة فيه. والمعنى: ما أخلفنا موعدك بملكنا الصواب، ولكن لخطئنا. فأضيف المصدر إلى الفاعل وحذف المفعول. فأما من ضم الميم فإنه لا يخلو من أن يريد به مصدراً لمَلِك، أو يكون لغة في مصدر الملك. فإن أُريد الأول فالمعنى: لم يكن لنا ملك فنخلف موعدك لمكان ملكنا، ويكون على هذا التقدير كقوله: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أي: ليس منهم مسألة، فيكون منهم إلحاف فيها ليس أنه أثبت ملكاً كما لم يثبت في قوله لا يسألون الناس إلحافاً مسألة منهم، ومثل ذلك قول ابن أبي أحمر:

لا تُفْزِعُ الأرنبَ أهوالُها ... ولا ترى الضَّبَّ بها يَنْجَحِرْ

أي: ليس بها أرنب فيفزع لهولها، ومثله قول ذي الرمة:

لا تشتكي سقطةً مِنها وَقَدْ رَقَصَتْ ... بها المفاوِزَ حتى ظَهْرُها حَدِبُ

أي: ليس منها سقطة فتشتكي. وقوله ﴿حُمِّلْنَآ﴾ من حمل الإنسان الشيء وحملته إياه. فمن قرأ «حُمِّلنا» فالمعنى: جعلونا نحمل أوزار القوم. ومن قرأ «حَمَلنا» أراد أنهم فعلوا ذلك، ومن قرأ «بما لم يبصروا به» بالياء فالمعنى: بما لم يبصر به بنو إسرائيل، ومن قرأ بالتاء صرف الخطاب إلى الجميع، والقبض بالضاد: باليد كلها. وبالصاد بأطراف الأصابع، والقُبضة بالضم: القدر المقبوض، والقبضة: فعلك أنت. وقد ذكرنا الاختلاف في قوله: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾، والوجه في ذلك في سورة الأعراف(١).

● **اللغة:** الوزر: أصله الثقل، ومنه الوزر: الذنب، لأن صاحبه قد حمل به ثقلاً. والوزر: الحمل، والأزار: الأحمال والأثقال، ومنه الأوزار للسلاح، لأنها تثقل على لابسها. والخوار: الصوت المتردد الشديد التردد كصوت البقر ونحوه، والعكوف: الإقامة وملازمة الشيء ومنه الاعتكاف في المسجد، ورقب يرقب رقباناً ورقبة: انتظر، والمرقب: المكان العالي الذي

---

(١) راجع ج٢.

يقف عليه الرقيب، وأرقبت فلاناً داري وأعمرته. والاسم الرقبى والعمرى، وبصر بالشيء يبصر: إذا صار عليماً به، وأبصر يبصر: إذا رأى.

● **الإعراب:** ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾: الكاف صفة مصدر محذوف لألقى، تقديره ألقى السامري إلقاء مثل إلقائنا. ﴿جَسَدًا﴾ بدل من عجل، ﴿أَلَّا يَرْجِعُ﴾ تقديره: أفلا يرون أنه لا يرجع، ويجوز أن ينصب ﴿يَرْجِعُ﴾ بأن فيكون الناصبة للفعل، ولا يكون ﴿أَنْ﴾ المخففة من أنّ. ﴿ضَلُّوٓاْ﴾ جملة في موضع نصب على الحال، وقد مضمرة، ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِّ﴾ في موضع جر بمن المحذوف، أو في موضع نصب على الخلاف فيه، تقديره ما منعك من اتباعي. ولا زائدة كما في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾.

● **المعنى:** ﴿قَالُواْ﴾ أي: قال الذين لم يعبدوا العجل ﴿مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ أي: ونحن نملك من أمرنا شيئاً. والمعنى: أنا لم نطق رد عبدة العجل عن عظيم ما ارتكبوه للرهبة لكثرتهم وقلّتنا. وجاء في الرواية أن الذين لم يعبدوا العجل كانوا اثني عشر ألفاً، والذين عبدوه كانوا ستمائة ألف رجل. ومن قرأ «بمُلكنا» بضم الميم، فمعناه بقدرتنا وسلطاننا أي: لم نقدر على ردهم. ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ معناه: ولكنا حملنا أثقالاً من حلي آل فرعون وهو ما استعادوه من حليهم حين أرادوا السير. وقيل: هو ما ألقاه البحر على الساحل من ذهبهم وفضتهم وحليهم بعد إغراقهم فأخذوه، وقيل: هو من أثقال الذنوب والآثام أي: حملنا آثاماً من حلي القوم لأنهم استعاروا حلياً من القبط ليتزينوا بها في عيد كان لهم، ثم لم يردوها عليهم عند الخروج من مصر مخافة أن يعلموا بخروجهم فحملوه وكان ذلك ذنباً منهم إذ كانوا مستأمنين فيما بينهم. وقيل: إنهم كانوا في حكم الأُسراء فيما بينهم فكان يحل لهم أخذ أموالهم، فعلى هذا لا يمكن حمله على الإثم. ﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾ أي: ألقيناها في النار لتذوب ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ أيضاً ليوهم أنه منهم، عن الجبائي. وقيل: معناه فمثل ما ألقينا نحن من هذا الحلي في النار ألقى السامري أيضاً فاتبعناه. وقيل: إن هذا الكلام مبتدأ من الله، حكى عنهم أنهم ألقوا ثم قال: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾، عن أبي مسلم. ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ أي: أخرج لهم من ذلك عجلاً جسيماً ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ أي: صوت. وقد ذكرنا صفة العجل في سورة الأعراف ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ أي: قال السامري ومن تبعه من السفلة والعوام: هذا العجل معبودكم ومعبود موسى. ﴿فَنَسِيَ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه من قول السامري ومن تبعه، أي: نسي موسى أنه إله، وهو قول ابن عباس وقتادة ومجاهد والسدي والضحاك. وقيل: معناه فنسي أي: ضلَّ وأخطأ الطريق، وقيل: معناه أنه تركه هنا وخرج يطلبه.

والثاني: أنه قول الله تعالى أي: فنسي السامري، أي: ترك ما كان عليه من الإيمان الذي بعث الله به موسى، عن ابن عباس أيضاً، وقيل: معناه فنسي السامري الاستدلال على حدوث العجل، وأنه لا يجوز أن يكون إلهاً. وقيل: فنسي السامري أي: نافق وترك الإسلام، ثم احتج سبحانه عليه فقال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ أي: أفلا يرى بنو إسرائيل أن العجل الذي

عبدوه واتخذوه إلهاً لا يرد عليهم جواباً، ﴿وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ ومن كان بهذه الصفة فإنه لا يصلح للعبادة.

قال مقاتل: لما مضى من موعد موسى خمسة وثلاثون يوماً، أمر السامري بني إسرائيل أن يجمعوا ما استعاروه من حلي آل فرعون، وصاغه عجلًا في السادس والثلاثين، والسابع والثامن، ودعاهم إلى عبادته في التاسع، فأجابوه. وجاءهم موسى بعد استكمال الأربعين. قال سعيد بن جبير: كان السامري من أهل كرمان وكان مطاعاً في بني إسرائيل، وقيل: كان من قرية يعبدون البقر فكان حب ذلك في قلبه، وقيل: كان من بني إسرائيل فلما جاوز البحر نافق، فلما قالوا ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾ اغتنمها وأخرج لهم العجل ودعاهم إليه، عن قتادة. ﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ﴾ أي: من قبل عود موسى إليهم ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ﴾ يعني أن الله تعالى شدد عليكم التعبد فاعلموا إلهكم واعبدوه ولا تعبدوا العجل، موعظة ونصحاً. ويحتمل أن يكون أراد فتنكم السامري به وأضلكم ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي﴾ أي: اتبعوني فيما أدعوكم إليه ﴿وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾ في عبادة الله ولا تتبعوا السامري ولا تطيعوا أمره في عبادة العجل ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ﴾ معناه: لا نزال مقيمين على عبادته ﴿حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾ فننظر أيعبده كما عبدناه أم لا، فاعتزلهم هارون في اثني عشر ألفاً. فلما رجع موسى عليه السلام وهو ممتلىء غيظاً منهم ومن عبادتهم العجل، وسمع الصياح والجلبة إذ كانوا يرقصون حول العجل ويضربون الدفوف والمزامير، واستقبله هارون فألقى الألواح، وأخذ يعاقب هارون ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ﴾ أي: هلا تتبعني بمن أقام على إيمانه، عن ابن عباس. وقيل: معناه هلا قاتلتهم إذ علمت أني لو كنت فيهم لقاتلتهم، وقيل: هلا لحقت بي حين رأيتهم ضلوا بعبادة العجل قبل استحكام الأمر. والأصل أنّ لا مزيدة وتقديره ما منعك أن تتبعني ﴿أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي﴾ فيما أمرتك به يريد قوله: ﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ فلما أقام معهم، ولم يبالغ في منعهم نسبه إلى عصيانه. وقيل: إن صورته صورة الاستفهام والمراد به التقرير، لأن موسى عليه السلام كان يعلم أن هارون لا يعصيه في أمره.

سؤال: متى قيل إنَّ الظاهر يقتضي أنَّ موسى كان أمره باللحاق به، فعصى هارون أمره؟ قلنا: يجوز أن يكون أمره بذلك بشرط المصلحة، ورأى هارون الإقامة أصلح، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب. ويجوز أن يكون لم يأمره بذلك وإنما أمره بمجاهدتهم وزجرهم عن القبيح، وإنما عاتبه مع أن اللوم توجه على القوم لأن أمره بمفارقتهم لوم عليهم. وقيل: إن موقع الذنب ممن عظمت رتبته أعظم. فلما كان هارون أجل من خلفه موسى، خصَّه باللائمة. وهذا إنما يتجه إذا ثبت لهارون ذنب، فأما وهو نقي الجيب من جميع الذنوب، بريء الساحة من العيوب، فالقول الأول هو الوجه. ﴿قَالَ﴾ هارون ﴿يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ﴾ قد فسرناه في سورة الأعراف. وقيل: كانت العادة جارية في القبض عليهما في ذلك الزمان، كما أن العادة في زماننا هذا القبض على اليد والمعانقة، وذلك مما تختلف العادة فيه بالأزمنة والأمكنة. وقيل: إنه أجراه مجرى نفسه إذا غضب في القبض على لحيته، لأنه لم يكن يتهم عليه، كما لا يتهم على نفسه. ثم بيَّن عليه السلام عذره في مقامه معهم، فقال ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ يعني:

أني لو فارقتهم أو قاتلتهم لصاروا أحزاباً وتفرقوا فرقاً، ففريق يلحقون بك معي، وفريق يقيمون مع السامري على عبادة العجل، وفريق يتوقفون شاكين في أمره، مع أني لم آمن إن تركتهم أن يصيروا بالخلاف إلى تسافك الدماء، وشدة التصميم والثبات على اتباع السامري، فإنهم كانوا يمتنعون بعض الامتناع بمكاني فيهم. وكنت أُوَجِّهُ إليهم من الإنكار مقدار ما يتحمله الحال، وذلك قوله ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾، فاعتذر بما يقبل مثله، لأنه وجه واضح من وجوه الرأي. وقوله ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ معناه: ولم تحفظ وصيتي، ولم تعمل به حين قلت ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ﴾، ولما ظهرت براءة ساحة هارون، أقبل على السامري ﴿قَالَ﴾ له ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ﴾ أي: ما شأنك؟ وما دعاك إلى ما صنعت؟ فكأنه قال: ما هذا الخطب والأمر العظيم الذي أحدثت؟ وما حملك عليه؟ ﴿قَالَ﴾ السامري ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: رأيت ما لم يروه، وقيل: معناه علمت ما لم يعلموا من البصيرة ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: قبضت قبضة تراب من أثر قدم جبرائيل ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ في العجل ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: وكما حدثتك يا موسى ﴿سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ أي: زينت لي نفسي من أخذ القبضة وإلقائها في صورة العجل. وقيل: معناه حدثتني نفسي. فأما حديث العجل وما الذي قبضه السامري وكيفية ذلك، واختلافهم فيه، فقد سبق ذكره.

●●●

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ
مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى
ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾
كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ
فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى
ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ
أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ
فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا
﴿١٠٧﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير وأهل البصرة غير سهل: «لن تخلفه» بكسر اللام، وقرأ الضرير: «لن نخلفه» بالنون وكسر اللام وهو قراءة الحسن. وقرأ الباقون: «لن تخلفه» بفتح اللام، وقرأ أبو جعفر: «لنحرقنه» بفتح النون وسكون الحاء وتخفيف الراء، وهو قراءة علي عليه السلام وابن عباس. وقرأ أبو عمرو «يوم ننفخ في الصور» بالنون، والباقون «ينفخ» بالياء وفتح الفاء. وفي الشواذ قراءة أبي حيوة: «لا مَساسِ». وقرأ مجاهد وقتادة: «وسع كل شيء علماً»، وقرأ ابن عياض: «في الصور» بفتح الواو.

● **الحجة:** قال أبو علي: أخلفت يتعدى إلى مفعولين ﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ مثل لن تعطاه. لما أسندت الفعل إلى أحد المفعولين فأقمته مقام الفاعل، بقي الفعل متعدياً إلى مفعول واحد، وفاعله الذي يخلف هو الله تعالى أو موسى، ومعناه: سيأتيك به ولن يتأخر عنك. ولن تخلفه أي: سيأتيه ولا مذهب لك عنه. وقال ابن جني: معناه لن تصادفه مخلفاً كقول الأعشى:

أَثْــوى وقَــصَّــرَ لَيْــلَهُ لِيُــزَوَّدَا ... ومضى وأَخْلَفَ مِنْ قُتَيْلَةَ مَوْعِدا[١]

وهو وعيد والمعنى في قراءة الأولى أبين. وأما «نخلفه» بالنون فالمعنى: لن نخلفك إياه، أي: لن ننقص ما عقدناه لك، وقوله ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ من قولهم فلان يحرق عليَّ الأُرَّم أي: يحك أسنانه بعضها ببعض غيظاً عليَّ. قال زهير:

أَبَى الضَّيْمَ والنُّعمانُ يَحرقُ نابَهُ ... عليه فَأَفْصى والسيوفُ معاقِلُه[٢]

فكان لنحرقنه على هذا: لنبردنه ولنحتَّنه حتاً، يقال: حرقت الحديد أي: بردته فتحات وتساقط. وقوله ﴿مِسَاسَ﴾ مثل نزال وحذار. قال ابن جني: ولا يدخل على هذا الضرب من الكلام ما النافية بالنكرة، فلا إذاً في قوله ﴿لَا مِسَاسَ﴾ نفي للفعل كقولك: لا أمسك ولا أقرب منك، فكأنه حكاية قول القائل مساس، فكأنه قال: لا أقول مساس. قال الكميت: «لا همامِ لي لا هَمامِ»[٣] أي: لا أقول همام. ولا بد أن تكون الحكاية مقدرة، ألا ترى أنه لا يجوز أن تقول: لا أضرِب، فتنفي بلا لفظ الأمر لتنافي اجتماع لفظ الأمر والنهي، فالحكاية إذاً معتقدة مقدرة. وأما قوله ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فمعناه على ما قاله ابن جني: أنه خرق كل مصمت بعلمه، لأنه بطن كل مخفي فصار لعلمه فضاء متسعاً بعدما كان متلاقياً مجتمعاً، ومنه قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾، وهذا في العمل وذاك في العلم، والوجه في قوله: ننفخ في الصور ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾، وقوله فيما بعده ﴿وَنَحْشُرُ﴾، والوجه في الياء قوله ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ ، وأما قوله «في الصُّوَر»: فإنه جمع صورة، وقد يقال فيها صِير وأصله صِور. قال:

أَشْبَهْنَ مِنْ بَقَرِ الخَلْصاءِ أعْيُنَها ... فَهُنَّ أَحْسَنُ من صِيرانِها صِيَرا[٤]

وصِوَراً أيضاً. قال أبو عبيدة: الصور جمع صورة، ويقال: الصور القرن، ويقال: فيه ثقب بعدد نفوس البشر، فإذا نفخ فيه قام الناس من الأرماس.

---

(١) أثوى بالمكان: أقام. وقتيلة: علم امرأة، وأخلف موعداً أي: صادف سنها خلف المواعيد. ويروى «فمضت» مكان «فمضى» ومعناه: فمضت الليلة.

(٢) الضيم: الظلم. وأفصى: أي تخلص من الشر.

(٣) هذا جزء من بيت له في مدح أهل البيت عليهم السلام وقبل هذا البيت قوله: «إن أمت لا أمت ونفسم نفسان من الشك في عمى أو تعام» وتمام البيت «عادلاً غيرهم من الناس طراً * بهم لا همام لي لا همام» ومعناه: لا أهم بذلك وهو مبني على الكسر كقطام يقول: لا أعدل بهم أحداً.

(٤) خلصاء: اسم موضع. وصيران جمع صوار: قطيع البقر.

● **اللغة:** ظلت: أصله ظللت، وللعرب فيها مذهبان: فتح الظاء وكسرها. فمن قال: ظَلت، ترك الظاء على حالها، ومن قال: ظِلت بالكسر، نقل حركة اللام إليها للإشعار بأصلها، ومثله مَست ومِست في مسست وهل أحست في أحسست. قال الشاعر:

خَـلَا أنَّ الـعِـتَـاقَ مِـنَ الـمـطَـايَـا أَحَـسْـنَ بـه فَـهُـنَّ إلـيـهِ شُـوسُ(١)

لننسفنه: يقال نسف فلان الطعام بالمنسف: إذا ذراه ليطير عنه قشوره. والصفصف: الموضع المستوي الذي لا نبات به، كأنه على صف واحد في استوائه، والقاع: الأرض الملساء. وقيل: مستنقع الماء وجمعه أقواع وقيعان وقيعة، والأمت: الأكمة. يقال مد حبله حتى ما ترك فيه أمتاً، وملأ سقاءه حتى ما ترك فيه أمتاً، أي: انثناء. قال الشاعر: «ما في انجذاب سيره من أمْت».

● **المعنى:** ثم حكى سبحانه عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ﴾ للسامري ﴿فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ واختلف في معناه فقيل: إنه أمر الناس بأمر الله أن لا يخالطوه، ولا يجالسوه، ولا يؤاكلوه تضييقاً عليه، والمعنى: لك أن تقول لا أُمَسّ ولا أُمَسّ ما دمت حياً، قال ابن عباس: لك ولولدك، والمساس: فعال من المماسة، ومعنى لا مساس: لا يمس بعضنا بعضاً. فصار السامري يهيم في البرية مع الوحش والسباع لا يمس أحداً ولا يمسه أحد، عاقبه الله تعالى بذلك، وكان إذا لقي أحداً يقول: لا مساس، أي: لا تقربني ولا تمسني. وصار ذلك عقوبة له ولولده حتى إن بقاياهم اليوم يقولون ذلك، وإن مس واحد من غيرهم واحداً منهم حُمَّ كلاهما في الوقت، وقيل: إن السامري خاف وهرب فجعل يهيم في البرية لا يجد أحداً من الناس يمسه، حتى صار لبعده عن الناس كالقائل لا مساس، عن الجبائي. ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ أي: وعداً لعذابك يعني يوم القيامة لن تخلف ذلك الوعد ولن يتأخر عنك. قال الزجاج: المعنى يكافيك الله على ما فعلت يوم القيامة. ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ معناه: وانظر إلى معبودك الذي ظلت على عبادته مقيماً، يعني العجل ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ بالنار ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ أي: لنذرينه في البحر. قال ابن عباس: فحرقه ثم ذراه في البحر، وهذا يدل على أنه كان حيواناً لحماً ودماً. وعلى القراءة الأخرى لنحرقنه أي: لنبردنه بالمبرد يدل على أنه كان ذهباً وفضة، ولم يصر حيواناً، ونبه عليه السلام بذلك على أن ما يمكن سحقه أو إحراقه لا يصلح للعبادة. وقال الصادق عليه السلام: إن موسى عليه السلام هَمَّ بقتل السامري فأوحى الله سبحانه إليه: لا تقتله يا موسى فإنه سخي. ثم أقبل موسى على قومه فقال: ﴿إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هو الذي يستحق العبادة ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ أي: يعلم كل شيء علماً تاماً، وهي لفظة عجيبة في الفصاحة. وفي ذلك دلالة على أن المعدوم يسمى شيئاً لكونه معلوماً، ثم قال الله لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ أي: مثل ما قصصنا عليك يا محمد من نبأ موسى وقومه،

---

(١) الشعر في (جامع الشواهد).

نقص عليك من أخبار ما قد مضى وتقدم من الأُمَم والأُمور ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ يعني: القرآن، لأن فيه ذكر كل ما يحتاج إليه من أمور الدين. ثم أوعد سبحانه على الإعراض عنه وترك الإيمان به فقال: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾﴾ أي: حملًا ثقيلًا من الإثم يشق عليه حمله لما فيه من العقوبة كما يشق حمل الثقيل ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهِ﴾ أي: في عذاب ذلك الوزر وجزائه، وهو الخلود في النار ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا﴾ تقديره: ساء الحمل حملًا، والحمل بمعنى المحمول أي: بئس الوزر هذا الوزر لهم يوم القيامة، قال الكلبي: بئس ما حملوا على أنفسهم من المآثم كفرهم بالقرآن، ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ هو بدل من يوم القيامة، وقد سبق معناه. ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ قال ابن عباس: يريد بالمجرمين الذين اتخذوا مع الله إلهاً، يحشرون زرق العيون سود الوجوه، ومعنى الزرقة: الخضرة في سواد العيون كعين السنور، والمعنى في هذا تشويه الخلق. وقيل: زرقاً عمياً ترى زرقاً وهي عمي، عن الفراء. وقيل: عطاشاً في مظهر عيونهم كالزرقة مثل قوله ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ عن الأزهري ﴿يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يتسارّون بينهم فيقول المجرمون بعضهم لبعض: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ أي: ما لبثتم إلا عشر ليال، عن ابن عباس وقتادة. يعني من النفخة الأولى إلى الثانية، وذلك أنه يكف عنهم العذاب فيما بين النفختين وهو أربعون سنة. وقيل: ما لبثتم في الدنيا. ينسون من شدة هول ذلك اليوم مدة لبثهم في الدنيا، وقيل: في القبر يذهب عنهم طول لبثهم في قبورهم كأنهم كانوا نياماً فانتبهوا. وقيل: إنهم يقللون لبثهم في الدنيا طول ما هم لابثون فيه من النار، عن الحسن. ثم قال سبحانه: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي: بما يتسارون بينهم ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أي: أصلحهم وأوفرهم عقلًا وأصوبهم رأياً، وقيل: أكثرهم سداداً عند نفسه ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ أي: ما لبثتم إلا يوماً في الدنيا وفي القبور، إنما قال ذلك لأن اليوم الواحد والعشرة إذا قوبلت بيوم القيامة، وما لهم من الأيام في النار، كان اليوم الواحد أقرب إليه، وهو كقوله: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾، وقيل: إنهم قالوا ذلك بعد انقطاع عذاب القبر عنهم لأن الله يعذبهم ثم يعيدهم، عن الجبائي.

ثم قال سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ أي: ويسألك منكرو البعث عند ذكر القيامة ﴿عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ ما حالها ﴿فَقُلْ﴾ يا محمد ﴿يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ أي: يجعلها ربي بمنزلة الرمل، ثم يرسل عليها الرياح فيذريها كتذرية الطعام من القشور والتراب، فلا يبقى على وجه الأرض منها شيء، وقيل: يصيِّرها كالهباء، وقيل: إن رجلًا من ثقيف سأل النبي ﷺ كيف تكون الجبال يوم القيامة مع عظمها؟ فقال: «إنّ الله يسوقها بأن يجعلها كالرمال، ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها» ﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي: فيدع أماكنها من الأرض إذا نسفها ﴿قَاعًا﴾ أي: أرضاً ملساء، وقيل: منكشفة، عن الجبائي ﴿صَفْصَفًا﴾ أي: أرضاً مستوية ليس للجبل فيها أثر. وقيل: القاع والصفصف بمعنى واحد وهو: المستوي من الأرض الذي لا نبات فيه، عن ابن عباس ومجاهد ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ أي: ليس فيها منخفض ولا مرتفع، عن عكرمة عن ابن عباس، قال الحسن: العوج ما انخفض من الأرض. والأمت: ما ارتفع من الروابي، وقيل: لا ترى فيها وادياً ولا رابية، عن مجاهد.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا
تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾
يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ
الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ
ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ
أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ
إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ
عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير: «فلا يخف» بالجزم، والباقون: «فلا يخاف» بالألف، وقرأ يعقوب: «أن نقضي» بالنون «وحيه» بالنصب، والباقون: «يقضى» بضم الياء، «وحيه» بالرفع.

● **الحجة:** من قرأ «فلا يخف» فإنه على النهي. ومن قرأ «فلا يخاف» فإنه على الخبر، وتقديره: فهو لا يخاف. وموضع الفاء مع ما بعدها في الموضعين مجزوم، ولكونه في موضع جواب الشرط، والمبتدأ محذوف ومراد بعد الفاء. «وهو مؤمن» في موضع نصب على الحال والعامل في الحال «يعمل»، وذو الحال الذكر الذي في «يعمل» العائد إلى من، ومن قرأ «من قبل أن نقضي إليك وحيه» فإنه أضاف القضاء إلى الله، وجعل الوحي مفعوله. والمعنى في القراءتين واحد.

● **اللغة:** الهمس: إخفاء الكلام والصوت الخفي، قال الراجز:

وَهُنَّ يَمْشِينَ بِنَا هَمِيسا ... إن يَصْدُق الطيْرُ نَنِكْ لَمِيسا

يعني صوت أخفاف الإبل في سيرها، والعنوة: الخضوع والذل، والعاني: الأسير، وأخذت الشيء عنوة أي: غلبة تذل المأخوذ منه. وقد يكون العنوة عن تسليم وطاعة، لأنه على طاعة الذليل للعزيز، قال الشاعر:

هل أنت مطيعي أيها القلبُ عَنْوَةً ... ولم تُلحَ نفسٌ لم تُلَم في احتيالها

وقال آخر:

فَمَا أَخَذُوها عَنْوَةً عَن مَوَدَّةٍ ... ولكنْ بِضَرْبِ المَشْرفيِّ اسْتفالها

والهضم: النقص، يقال: هضمني حقي ويهضمني أي: ينقصني، وامرأة هضيم الحشا أي: ضامرة الكشحين لنقصانه عن حد غيره، ومنه هضمت المعدة الطعام أي: نقصته مع تغييرها، والعزم: الإرادة المتقدمة لتوطين النفس على الفعل.

● **الإعراب:** ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ و﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ جملة في موضع الحال، والتقدير: يتبعون الداعي غير معوجين عن إجابته، لأن معناه لا عوج لهم عن دعائه، أي: لا

يقدرون على أن لا يتبعوه. ﴿قُرْءَانًا﴾ منصوب على الحال و﴿عَرَبِيًّا﴾ صفة، وفي الحقيقة الحال قوله عربياً وإنما ذكر قرآناً للبيان، وكذلك الكاف في محل النصب بأنه صفة لمصدر محذوف.

● **المعنى:** ثم وصف سبحانه القيامة فقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ﴾ أي: يوم القيامة يتبعون صوت داعي الله الذي ينفخ في الصور، وهو إسرافيل عليه السلام ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ أي: لدعاء الداعي ولا يعدل عن أحد، بل يحشرهم جميعاً، عن أبي مسلم، وقيل: معناه لا عوج لهم عن دعائه لا يميلون عنه ولا يعدلون عن ندائه، أي: يتبعونه سراعاً ولا يلتفتون يميناً ولا شمالاً، عن الجبائي. ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: خضعت الأصوات بالسكون لعظمة الرحمن، عن ابن عباس. ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ وهو صوت الأقدام، عن ابن عباس وابن زيد، أي: لا تسمع من صوت أقدامهم إلا صوتاً خفياً كما يسمع من وطء الإبل، وقيل: الهمس إخفاء الكلام، عن مجاهد، وقيل: معناه أن الأصوات العالية بالأمر والنهي في الدنيا ينخفض ويذل أصحابها فلا تسمع منهم إلا الهمس. ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ أي: لا تنفع ذلك اليوم شفاعة أحد في غيره، إلا شفاعة من أذن الله له في أن يشفع ورضي قوله فيها من الأنبياء والأولياء والصالحين والصدِّيقين والشهداء.

ثم قال سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الضمير يرجع إلى الذين يتبعون الداعي أي: يعلم سبحانه جميع أقوالهم وأفعالهم قبل أن خلقهم، وبعد أن خلقهم، وما كان في حياتهم وبعد مماتهم، لا يخفى عليه شيء من أمورهم تقدم أو تأخر، عن أبي مسلم، وقيل: يعلم ما بين أيديهم من أحوال الآخرة، وما خلفهم من أحوال الدنيا ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ أي: ولا يحيطون هم بالله علماً، أي: بمقدوراته ومعلوماته، وقيل: بكنه عظمته في ذاته وأفعاله، وقيل: لا يحيطون علماً بما بين أيديهم وما خلفهم إلا من أطلعه الله على ذلك، عن الجبائي، وقيل: معناه ولا يدركونه بشيء من الحواس حتى يحيط علمهم به. ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ أي: خضعت وذلت خضوع الأسير في يد من قهره، والمراد خضع أرباب الوجوه وأسلموا الحكم للحي الذي لم يمت ولا يموت، وإنما أسند أرباب الوجوه واستسلموا لحكم الحي الذي لم يمت ولا يموت، وإنما أسند الفعل إلى الوجوه، لأن أثر الذل يظهر عليها. وقيل: المراد بالوجوه الرؤساء والقادة والملوك، أي: يذلون وينسلخون عن ملكهم وعزهم. وقد سبق معنى الحي القيوم في مواضع. ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾أي: وقد خاب عن ثواب الله من حمل شركاً إلى يوم القيامة، عن ابن عباس، وقيل: قد خسر الثواب من جاء يوم القيامة كافراً ظالماً ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: ومن يعمل شيئاً من الطاعات ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ عارف بالله تعالى مصدق بما يجب التصديق به، وإنما قال ذلك لأنه لا تنفع الطاعة من غير إيمان ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ أي: هو لا يخاف أن يظلم ويزاد عليه في سيئاته، ولا أن يهضم أي: ينقص من حسناته، عن ابن عباس، وقيل: لا يخاف أن يؤخذ بذنب لم يعمله، ولا أن تبطل حسنة عملها، عن الضحاك، وقيل: لا يخاف ظلماً بأن لا يجزى بعمله، ولا هضماً بالانتقاص من حقه، عن ابن زيد. ومن قرأ «فلا يخف» على النهي فمعناه: فليأمن ولا يخف الظلم والهضم، والنهي عن الخوف أمر بالأمن. وفي هذه الآية دلالة على بطلان التحابط ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: وكما أخبرناك بأخبار القيامة ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: أنزلنا هذا

الكتاب ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي: كرّرنا فيه من الوعيد وذكرناه على وجوه مختلفة وبيّناه بألفاظ متفرقة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ المعاصي، وقيل: ليتقي العرب من قبل أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ معناه: أو يجدد لهم عظة واعتباراً، أي: يذكروا به عقاب الله للأمم فيعتبروا. وقيل: يحدث لهم شرفاً بإيمانهم به، وإنما أضاف إحداث الذكر إلى القرآن، لأنه يقع عنده كما قال: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾. ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ارتفعت صفاته عن صفات المخلوقين فلا يشبهه أحد في صفاته، لأنه أقدر من كل قادر وأعلم من كل عالم، وكل عالم وقادر سواه محتاج إليه وهو غني عنه، وكل قادر وعالم قادر على شيء، عاجز عن شيء، عالم بشيء، جاهل بشيء، وما هو عالم به يجوز أن ينساه أو يسهو عنه، فهو معرَّض للزوال والله سبحانه لم يزل عالماً قادراً ولا يزال كذلك، والملك: الذي يملك الدنيا والآخرة، والحق: الذي يحق له الملك وكل ملك سواه يملك بعض الأشياء، ويبيد ملكه ويفنى. ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ فيه وجوه:

أحدها: أن معناه: لا تعجل بتلاوته قبل أن يفرغ جبرائيل عليه السلام من إبلاغه فإنه صلى الله عليه وآله كان يقرأ معه ويعجل بتلاوته مخافة نسيانه، أي: تفهم ما يوحى إليك إلى أن يفرغ الملك من قراءته ولا تقرأ معه، ثم اقرأ بعد فراغه منه. وهذا كقوله ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾، عن ابن عباس والحسن والجبائي.

وثانيها: أن معناه: ولا تقرأه لأصحابك ولا تمله عليهم حتى يتبين لك معانيه، عن مجاهد وقتادة وعطية وأبي مسلم.

وثالثها: أن معناه: ولا تسأل إنزال القرآن قبل أن يأتيك وحيه، لأنه تعالى إنما ينزله بحسب المصلحة وقت الحاجة. ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ أي: استزد من الله سبحانه علماً إلى علمك. روت عائشة عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «إذا أتى عليّ يوم لا أزداد فيه علماً يقربني إلى الله، فلا بارك الله لي في طلوع شمسه». وقيل: معناه زدني علماً بقصص أنبيائك ومنازل أوليائك. وقيل: زدني قرآناً لأنه كلما ازداد من نزول القرآن عليه ازداد علماً، عن الكلبي. ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ معناه: أمرناه وأوصينا إليه أن لا يقرب الشجرة ولا يأكل منها فترك الأمر، عن ابن عباس، ولم نجد له عقداً ثابتاً. وقيل: معناه فنسي من النسيان الذي هو السهو، ولم نجد له عزماً على الذنب لأنه أخطأ ولم يتعمد، عن ابن زيد وجماعة. وقيل: ولم نجد له حفظاً لما أُمر به، عن عطية. وقيل: صبراً، عن قتادة، ورُوِيَ عن ابن عباس أنه قال: إنما أُخذ الإنسان من أنه عهد إليه فنسي ومن حمله على النسيان فما الذي نسيه؟ فيه أقوال:

أحدها: أنه نسي الوعيد بالخروج من الجنة إن أكل.

والثاني: أنه نسي قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾.

والثالث: أنه نسي الاستدلال على أن النهي عن الجنس، وقد نهي عن الجنس فنسي، وظن أن النهي عن العين.

● **النظم:** وجه اتصال قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ بما قبله أنه يتصل بقوله ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾، وقيل: إنه يتصل بما قبله من قصة موسى أي: كما أنزلنا التوراة على موسى أنزلنا عليك القرآن. ووجه اتصال قوله ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ الآية بما قبله، أنه لما ذكر تصريف الآيات والقرآن، وأن بها يتذكر، أمره سبحانه بالتذكر، وأن لا يكون مثل آدم في نسيان العهد. وقيل: إنه اتصل بقوله ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ أي: لا تعجل خوف النسيان للفظه ولكن توكل على الله وسله التوفيق لحفظه، فإن أباك آدم نسي ما عهد إليه. وقيل: إنه عطف على قوله ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ من أنباء ما قد سبق، فقصَّ عليه قصة آدم عليه السلام، عن أبي مسلم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ
﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾
إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ
إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا
مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ
فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ
لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾
وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾
قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ نافع وأبو بكر: «وإنك لا تظمؤ» بالكسر، والباقون: «أنك» بالفتح، وفي الشواذ قراءة أبان بن تغلب: «ونحشرْه» بالجزم.

● **الحجة:** من قرأ بالفتح فتقديره: إن لك أن لا تجوع فيها، وإن لك أنك لا تظمأ. ولا يجوز أن تقول: إن ﴿أَنَّكَ﴾ منطلق لكراهة اجتماع حرفين متقاربي المعنى، فإذا فصل بينهما جاز. ومن كسر فقال: «فإنك لا تظمأ» قطع الكلام الأول واستأنف. ومن قرأ: «نحشره» فإنه عطفه على موضع قوله «فإن له معيشة ضنكاً» وموضعه جزم لكونه جواب الشرط.

● **اللغة:** ضحى الرجل يضحى ضحى: إذا برز للشمس، قال عمر بن أبي ربيعة:

رَأَتْ رجلًا أيمَا إذا الشمسُ عَارَضَتْ ... فَيَضْحَى وأَيما بالعَشِيِّ فَيَخْصَرُ[1]

يعني: أمّا، والضنك، الضيق الصعب، يقال: منزل ضنك وعيش ضنك، لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث، لأن أصله المصدر قال: «وإذا هم نزلوا بضنك فانزل».

(١) الخصر: ألم البرد.

● **المعنى**: ثم بيَّن سبحانه تفصيل ما أجمله من قصة آدم عليه السلام فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ قد مرّ تفسيره ﴿أَبَىٰ﴾ أي: امتنع من أن يسجد ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ حواء ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: لا تطيعاه. والمعنى: لا يكونن سبباً لخروجكما من الجنة بغروره ووساوسه ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ أي: فتقع في تعب العمل، وكدّ الاكتساب والنفقة على زوجتك ونفسك، ولذلك قال ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ ولم يقل فتشقيا، وقيل: لأن أمرهما في السبب واحد فاستوى حكمهما لاستوائهما في السبب والعلة. وقيل: لتستقيم رؤوس الآي: قال سعيد بن جبير: أُنزل على آدم ثور أحمر فكان يحرث عليه، ويرشح العرق عن جبينه، وذلك هو الشقاوة ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾﴾ أي: في الجنة لسعة طعام الجنة وثيابها ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ أي: لا تعطش ولا يصيبك حر الشمس. عن ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة قالوا: ليس في الجنة شمس وإنما فيها ضياء ونور وظل ممدود.

ويُسأل هٰهنا فيقال: كيف جمع بين الجوع والعري ، وبين الظمأ والضحى، والجوع من جنس الظمأ، والعري من جنس الضحى؟ وأجيب عن ذلك بجوابين:

أحدهما: أن الظمأ أكثر ما يكون من شدة الحر، والحر إنما يكون من الضحى وهو الانكشاف للشمس، فجمع بينهما لاجتماعهما في المعنى، وكذلك الجوع والعري متشابهان من حيث إن الجوع عري في الباطن من الغذاء، والعري للجسم في الظاهر.

والثاني: أن العرب تلف الكلامين بعضهما ببعض اتكالاً على علم المخاطب، وأنه يرد كل واحد منهما إلى ما يشاكله، كما قال امرؤ القيس:

كأنّي لَمْ أركبْ جواداً لِلَذَّةٍ ... ولم أَتَبَطَّنْ كاعِباً ذاتَ خَلْخَالِ
ولَمْ أَسْبأ الزِّقَّ الرَّوِيّ ولم أقُلْ ... لِخَيْلي: كِره كَرَّةً بعدَ إجْفالِ[1]

وكان حقه أن يقول كما قال عبد يغوث:

كأني لم أركب جواداً ولم أقُل ... لخيلي كِرّي نَفِّسِي عن رجاليا
ولم أسبأ الزِّقَّ الرَّوِيّ ولم أقل ... لأيسارِ صدقٍ: أَظْهِروا ضَوْءَ نارينا

وقد يؤوّل قول امرىء القيس على الجواب الأول. ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ قد تقدم بيانه ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ أي: على شجرة من أكل منها لم يمت ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ جديده ولا يفنى. وهذا كقوله: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾ الآية. ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ هذا مفسّر في سورة الأعراف. ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ معناه: خالف آدم ما أمره ربه به فخاب من ثوابه، والمعصية: مخالفة الأمر سواء كان الأمر واجباً أو ندباً. قال الشاعر: «أمرتك أمراً جازماً فعصيتني». ولا يمتنع أن يسمى تارك النفل

---

(١) السبا: تجارة الخمر.

عاصياً، كما يسمى بذلك تارك الواجب. يقولون: فلان أمرته بكذا وكذا من الخير فعصاني وخالفني، وإن لم يكن ذلك واجباً. ولا شبهة أن لفظة ﴿غَوَىٰ﴾ يحتمل الخيبة. قال الشاعر:

فمنْ يَلْقَ خيراً يَحْمَدِ الناسُ أَمْرَهُ ... وَمَنْ يَغْوَ لا يَعْدَمْ على الغَيِّ لائما(1)

ويجوز أن يكون معناه: فخاب مما كان يطمع فيه بأكل الشجرة من الخلود ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي: اصطفاه الله تعالى واختاره للرسالة ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ أي: قبل توبته وهداه إلى ذكره، وقيل: هداه، للكلمات التي تلقاها منه ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا﴾ يعني آدم وحواء ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ قد فسّرنا جميعها في سورة البقرة ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ أي: فلا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة. قال ابن عباس: ضمن الله سبحانه لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم قرأ هذه الآية. ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ أي: ومن أعرض عن القرآن وعن الدلائل التي أنزلها الله تعالى لعباده وصدف عنها ولم ينظر فيها ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: عيشاً ضيقاً، عن مجاهد وقتادة والجبائي، وهو أن يقتر الله عليه الرزق عقوبة له على إعراضه، فإن وسع عليه فإنه يضيق عليه المعيشة بأن يمسكه ولا ينفقه على نفسه، وإن أنفقه فإن الحرص على الجمع وزيادة الطلب، يضيق المعيشة عليه وقيل: هو عذاب القبر، عن ابن مسعود وأبي سعيد الخدري والسدي ورواه أبو هريرة مرفوعاً. وقيل: هو طعام الضريع والزقوم في جهنم لأن مآله إليها وإن كان في سعة من الدنيا، عن الحسن وابن زيد. وقيل: معناه أن يكون عيشه منغصاً بأن ينفق إنفاق من لا يوقن بالخلف، عن ابن عباس. وقيل: هو الحرام في الدنيا الذي يؤدي إلى النار، عن عكرمة والضحاك، وقيل: عيشاً ضيقاً في الدنيا لقصرها وسائر ما يشوبها ويكدرها، وإنما العيش الرغد في الجنة، عن أبي مسلم. ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ أي: أعمى البصر، عن ابن عباس، وقيل: أعمى عن الحجة، عن مجاهد، يعني أنه لا حجة له يهتدي إليها. والأول هو الوجه لأنه الظاهر ولا مانع منه، ويدل عليه قوله: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ قال الفراء: يقال إنه يخرج من قبره بصيراً فيعمى في حشره. وقد روى معاوية بن عمار قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل لم يحج وله مال؟ قال: هو ممن قال الله فيه ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾، فقلت: سبحان الله أعمى؟ قال: أعماه الله عن طريق الحق. فهذا يطابق قول من قال: إن المعنى في الآية أعمى عن جهات الخير لا يهتدي لشيء منها.

●●●

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا

---

(1) قائله: قعنب المزاري. ونسبه بعض إلى المرقش. يريد: إنَّ من ظفر بمطلوبه، حمده الناس. ومن لم يظفر، عابوه مع أنه لم يكن مقصراً.

قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾.

● **القراءة:** قراءة الكسائي وأبو بكر. «ترضى» بضم التاء، والباقون بفتحها.

● **الحجة:** حجة من فتح التاء قوله ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾. وحجة من ضم التاء أنه جاء في صفة بعض الأنبياء: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾، وكان معنى ترضى: ترضى لفعلك ما أُمرت به من الأفعال التي يرضاها الله، أو ترضى بما تعطاه من الدرجة الرفيعة، وترضى بما يعطيكه الله من الدرجة العالية والرتبة المرضية.

● **اللغة:** آناء الليل: ساعاته، واحدها انى. قال السعيدي:

حُلْوٌ ومرٌ كَعطْفِ القِدْحِ مِرَّتُهُ   بكلّ انى حذاء الليل ينتعلُ(١)

● **الإعراب:** ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ فاعل يهد مضمر يفسره ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ والمعنى أفلم يهد لهم إهلاكنا من قبلهم من القرون، وموضع ﴿كَمْ﴾ نصب بـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾.

● **المعنى:** ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ﴾ هذا من جواب الله سبحانه لمن يقول: ﴿لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ﴾، ومعناه: كما حشرناك أعمى، جاءك محمد ﷺ والقرآن والدلائل فأعرضت عنها وتعرضت لنسيانها، فإن النسيان ليس من فعل الإنسان فيتوعد عليه، ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ أي: تصير بمنزلة من ترك كالمنسي بعذاب لا يفنى. وقيل: معناه كما حشرتك أعمى لتكون فضيحة، كنت أعمى القلب، فتركت آياتي ولم تنظر فيها، وكما تركت أوامرنا فجعلتها كالشيء المنسي، تترك اليوم في العذاب كالشيء المنسي، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ﴾ أي: وكما ذكرنا نجزي من أشرك، وجاوز الحد في العصيان، ولم يؤمن بآيات ربه أي: لم يصدق بحجج ربه وكتبه ورسله. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأٓخِرَةِ أَشَدُّ﴾ من عذاب الدنيا وعذاب القبر ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي: أدوم لأنه لا يزول، وعذاب الدنيا وعذاب القبر يزول. ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ يعني كفار مكة، والمعنى: أفلم يبين لهم طريق الاعتبار كثرة إهلاكنا القرون قبلهم بتكذيبهم رسلنا فيعتبروا ويؤمنوا وقوله: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْۚ﴾ يريد أهل مكة كانوا يتجرون إلى الشام فيمرون بمساكن عاد وثمود، ويرون علامات الإهلاك. وفي هذا تنبيه لهم وتخويف أي: أفلا يخافون أن يقع بهم مثل ما وقع بأولئك. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في إهلاكنا إياهم ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ أي: لعبراً ودلالات ﴿لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ أي: لذوي العقول الذين يتدبرون في أحوالهم. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ في تأخير العذاب عن هؤلاء الكفار إلى يوم القيامة وهو قوله: ﴿لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: لكان العذاب لزاماً لهم واقعاً في الحال. واللزام مصدر وصف

(١) نسبه في (اللسان)، و(السيرة) إلى المتنخل الهذلي. والقدح: السهم. والمرة: القوة والشدة. وانتعل الرجل: ركب صلاب الأرض وحرارها. وهذا البيت من قصيدة قالها في رثاء ابنه أثيلة.

به. قال قتادة: الأجل المسمى قيام الساعة، وقال غيره: هو الأجل الذي كتبه الله للإنسان أن يبقيه إليه، وقيل: إن عذاب اللزام كان يوم بدر، قتل الله فيه رؤوس الكفار، ولولا ما قدر الله تعالى من آجال الباقين، ووعدهم من عذاب الآخرة، لكان ذلك القتل الذي نالهم يوم بدر، لازماً لهم أبداً في سائر الأزمان.

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ بالصبر على أذاهم بأن قال: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ من تكذيبك وأذاهم إياك ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: صل لربك بالحمد له والثناء عليه، وقيل: معناه سبحه واحمده في هذه الأوقات ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ يعني صلاة الفجر ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعني صلاة العصر ﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ﴾ أي: ساعاته، قال ابن عباس: هي صلاة الليل كله. وقيل: يريد أول الليل المغرب والعشاء الآخرة ﴿فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ يعني الظهر. وسمي وقت صلاة الظهر أطراف النهار لأن وقته عند الزوال، وهو طرف النصف الأول وطرف النصف الثاني، وهذا قول قتادة والجبائي. ومن حمل التسبيح على الظاهر قال: أراد بذلك المداومة على التسبيح والتحميد في عموم الأوقات ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ بالشفاعة والدرجة الرفيعة. وقيل: بجميع ما وعدك الله به من النصر، وإعزاز الدين في الدنيا، والشفاعة والجنة في الآخرة.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ يعقوب وسهل: «زهرة» بفتح الهاء، والباقون بسكونها. وقرأ أهل المدينة والبصرة وقتيبة وحفص: «أو لم تأتهم» بالتاء، والباقون بالياء.

اللغة: زهرة الحياة الدنيا: حسنها. ويجوز فتح العين فيها. والزهرة: النور الذي يروق عند الرؤية، ومنه يقال لكل شيء مستنير زاهر. ومنه الحديث في صفة النبي ﷺ، كان أزهر اللون أي: نير اللون، والزهراوان: البقرة وآل عمران. ويوم الجمعة: يوم أزهر.

● **الإعراب:** قال الزجاج ﴿زَهْرَةَ﴾ منصوب بمعنى متعنا، لأن معناه جعلنا لهم الحياة الدنيا زهرة لنفتنهم فيه، أي: لنجعل ذلك فتنة لهم، ويجوز أن يكون حالًا من الهاء في ﴿بِهِۦ﴾، ويجوز أن يكون حالًا من ﴿مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾، ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم﴾ تقديره: ولو ثبت إهلاكهم. لأن ﴿لَوْ﴾ يقتضي الفعل فيكون ﴿أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم﴾ في موضع رفع بأنه فاعل الفعل

المقدر، و﴿مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾ تعلق بقوله: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ وهو مبتدأ وخبر، وكذلك ﴿وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾.

النزول: قال أبو رافع: نزل برسول الله ﷺ ضيف فبعثني إلى يهودي فقال: قل إن رسول الله يقول: بعني كذا وكذا من الدقيق، أو أسلفني إلى هلال رجب. فأتيته فقلت له. فقال: والله لا أبيعه ولا أسلفه إلا برهن. فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: والله لو باعني أو أسلفني لقضيته وإني لأمين في السماء وأمين في الأرض، اذهب بدرعي الحديد إليه. فنزلت هذه الآية تسلية له عن الدنيا.

● **المعنى:** ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ وقد فسَّرناه في سورة الحجر، وقال أُبَيّ بن كعب في هذه الآية: من لم يتعز بعزاء الله، تقطعت نفسه حسرات على الدنيا، ومن يتبع بصره ما في أيدي الناس، يطل حزنه، ولا يشفى غيظه. ومن لم ير لله نعمة إلا في مطعمه ومشربه، نقص علمه ودنا عذابه. وروى أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: لما نزلت هذه الآية استوى رسول الله ﷺ جالساً ثم قال الكلمات التي تقدمت. ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: بهجتها ونضارتها وما يروق الناظر عند الرؤية، وقال ابن عباس وقتادة: زينة الحياة الدنيا. ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي: لنعاملهم معاملة المختبر بشدة التعبد في العمل بالحق في هذه الأمور وأداء الحقوق عنه، وقيل: لنفتنهم أي: لنشدد عليهم التعبد بأن نكلفهم متابعتك والطاعة لك مع كثرة أموالهم وقلة مالك، وقيل: معناه لنعذبهم به لأن الله قد يوسّع الرزق على بعض أهل الدنيا تعذيباً له، ولذلك قال عليه السلام: لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء. ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ أي: ورزق ربك الذي وعدك به في الآخرة خير مما متعنا به هؤلاء في الدنيا ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ أي: أدوم. ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ معناه: وأمر يا محمد أهل بيتك وأهل دينك بالصلاة.

روى أبو سعيد الخدري قال: لما نزلت هذه الآية، كان رسول الله ﷺ يأتي باب فاطمة وعلي تسعة أشهر، عند كل صلاة فيقول: الصلاة رحمكم الله، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً. ورواه ابن عقدة بإسناده من طرق كثيرة، عن أهل البيت عليهم السلام وعن غيرهم مثل أبي برزة وأبي رافع. وقال أبو جعفر عليه السلام: أمره الله تعالى أن يخص أهله دون الناس ليعلم الناس أن لأهله عند الله منزلة ليست للناس، فأمرهم مع الناس عامة ثم أمرهم خاصة. ﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي: واصبر على فعلها، وعلى أمرهم بها ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾ لخلقنا ولا لنفسك، بل كلفناك العبادة، وأداء الرسالة، وضمنّا رزق الجميع. ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ والمراد به جميع الخلق أي: نرزقهم جميعهم ولا نسترزقهم، وننفعهم ولا ننتفع بهم، فيكون أبلغ في الامتنان عليهم ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: العاقبة المحمودة لأهل التقوى، قال ابن عباس: يريد الذين صدقوك واتبعوك واتقوني. وفي الأثر :أن عروة الزبير كان إذا رأى ما عند السلطان، دخل بيته، وقرأ ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ الآيات، ثم ينادي الصلاة، الصلاة، رحمكم الله. ﴿وَقَالُوا۟﴾ يعني الكفار ﴿لَوْلَا يَأْتِينَا﴾ محمد ﷺ ﴿بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾

اقترحناها عليه كما أتى به الأنبياء، نحو الناقة ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: أو لم يأتهم في القرآن بيان ما في الكتب الأولى من أنباء الأمم التي أهلكناهم، لما اقترحوا الآيات ثم كفروا بها، فماذا يؤمنهم أن يكون حالهم في سؤال الآية كحال أولئك. ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم﴾يعني كفار قريش ﴿بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من قبل بعث محمد ﷺ ونزول القرآن ﴿لَقَالُوا۟﴾ يوم القيامة ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا﴾ أي: هلا أرسلت ﴿رَسُولًا﴾ يدعونا إلى طاعتك ويرشدنا إلى دينك ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ أي: نعمل بما فيها ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ﴾ بالعذاب ﴿وَنَخْزَىٰ﴾ في جهنم، وقيل: من قبل أن نذل في الدنيا بالقتل والأسر ونخزى في الآخرة بالعذاب. فقطَّعنا عذرهم بإرسال الرسول فلم يبق لهم متعلق. ثم قال سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾ أي: كل واحد منا ومنكم منتظر، فنحن ننتظر وعد الله لنا فيكم، وأنتم تتربصون بنا الدوائر ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾ أنتم أي: انتظروا، وهذا على وجه التهديد ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ أي: فسوف تعلمون فيما بعد ﴿مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾ أي: أهل الدين المستقيم ﴿وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ إلى طريق الحق، أي: أنحن أم أنتم، وفي قوله سبحانه ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ ﴾ الآية، دلالة على وجوب اللطف لأنه سبحانه بيَّن أنه إنما بعث الرسول إليهم لطفاً بهم، وأنه لو لم يبعثه لكان لهم الحجة عليه فكان في البعثة قطع العذر، وإزاحة العلة، وبالله التوفيق.


سورة الأنبياء


مكية/آياتها(١١٢)

مكية كلها وهي مائة واثنتا عشرة آية كوفي، وإحدى عشرة آية في الباقين.

● **اختلافها:** آية واحدة ﴿مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ كوفي.

● **فضلها:** أُبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة الأنبياء حاسبه الله حساباً يسيراً، وصافحه وسلم عليه كل نبيّ ذكر اسمه في القرآن». وقال أبو عبد الله عليه السلام: «من قرأ سورة الأنبياء حُبّاً لها، كان ممن رافق النبيين أجمعين في جنات النعيم، وكان مهيباً في أعين الناس حياة الدنيا».

● **تفسيرها:** ختم الله سبحانه سورة طه بذكر الوعيد، وافتتح هذه السورة بذكر القيامة، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِم
مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا
النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ
(٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا
أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (٥)﴾.

● **القراءة:** قرأ حمزة والكسائي وحفص: «قال ربي» بالألف، والباقون: «فقل ربي».

● **الحجة:** من قرأ «قال» فإنه على إضافة القول إلى الرسول والخبر عنه. ومن قرأ «قل» فإنه على الخطاب.

● **الإعراب:** ﴿مِّن ذِكْرٍ﴾ في موضع رفع ومن مزيدة. ﴿مِّن رَّبِّهِم﴾ صفة لذكر، فيجوز أن يكون في موضع جر على لفظه، ويجوز أن يكون في موضع رفع على محل الجار والمجرور. ﴿اسْتَمَعُوهُ﴾ في محل النصب على الحال بإضمار قد، وتقديره: ما يأتيهم ذكر رباني إلا مستمعاً. ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ حال من الواو في ﴿اسْتَمَعُوهُ﴾. ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ حال من الواو في ﴿يَلْعَبُونَ﴾، وإن شئت كان حالًا بعد حال، وقوله ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ موضع ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يجوز أن يكون رفعاً على وجوه:

أحدها: أن يكون على البدل من الواو في أسروا. **والثاني:** أن يكون مرفوعاً على الذم فيكون خبر مبتدأ محذوف أي: هم الذين ظلموا. **والثالث:** أن يكون فاعل ﴿أَسَرُّوا﴾ على لغة

من يقول: أكلوني البراغيث، وتكون الواو في ﴿أَسَرُّواْ﴾ حرفاً لعلامة الجمع كالتاء في قالت، ولا يكون اسماً. ويجوز أن يكون في موضع نصب على الذم بإضمار أعني.

● **المعنى:** ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ اقترب: افتعل من القرب، والمعنى: اقترب للناس وقت حسابهم، يعني القيامة، كما قال ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: دنا وقت محاسبة الله إياهم ومسألتهم عن نعمه، هل قابلوها بالشكر، وعن أوامره هل امتثلوها، وعن نواهيه هل اجتنبوها. وإنما وصف ذلك بالقرب لأنه آت وكل ما هو آت قريب، ولأن أحد أشراط الساعة مبعث رسول الله ﷺ، فقد قال: «بعثت أنا والساعة كهاتين»، وأيضاً فإن الزمان يقرب بكثرة ما مضى وقلة ما بقي، فيكون يسيراً بالإضافة إلى ما مضى. ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ من دنوها وكونها ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ عن التفكير فيها والتأهب لها، وقيل: عن الإيمان بها. وتضمنت الآية الحث على الاستعداد ليوم القيامة. ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم﴾ يعني القرآن ﴿مُّحْدَثٍ﴾ أي: محدث التنزيل مبتدأ التلاوة، كنزول سورة بعد سورة، وآية بعد آية. ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ أي: لم يستمعوه استماع نظر وتدبر وقبول وتفكير، وإنما استمعوه استماع لعب واستهزاء. وقال ابن عباس: معناه يستمعون القرآن مستهزئين غافلة قلوبهم عما يراد بهم. ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾ أي: تناجوا فيما بينهم يعني المشركين. ثم بيَّن من هم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: أشركوا بالله. ثم بيَّن سبحانه سرهم الذي تناجوا به فقال: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: أنه آدمي مثلكم ليس مثل الملائكة. ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي: أفتقبلون السحر وأنتم تعلمون أنه سحر. نفروا الناس عنه بشيئين:

أحدهما: أنه بشر.

والآخر: أن ما أتى به سحر. وقيل: إنَّ أسروا معناه: أظهروا هذا القول، فإن هذا اللفظ مشترك بين الإخفاء والإظهار، والأول أصح. ثم أمر سبحانه نبيه فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿رَبِّي﴾ الذي خلقني واصطفاني ﴿يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: يعلم أسرار المتناجين لا يخفى عليه شيء من ذلك ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأفعالهم وضمائرهم. ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ بل للإضراب عما حكى سبحانه أنهم قالوه أولاً، وللإخبار عما قالوه ثانياً، أي قالوا: إن القرآن تخاليط أحلام رآها في المنام، عن قتادة. ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي: ثم قالوا لا بل افتراه أي: تخرصه وافتعله ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ أي: ثم قالوا بل هو شاعر، وهذا قول المتحير الذي بهره ما سمع، فمرة يقول سحر، ومرة يقول شعر، ومرة يقول حلم، ولا يجزم على أمر واحد. وهذه مناقضة ظاهرة. ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ معناه: فليأتنا بآية ظاهرة يستدركها الخاص والعام، كما أتى بها الأولون من الأنبياء. قال ابن عباس: بآية مثل الناقة والعصا. وقال الزجاج: اقترحوا الآيات التي لا يكون معها إمهال. وفي قوله سبحانه ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ دلالة ظاهرة على أن القرآن محدث، لأنه تعالى أراد بالذكر القرآن بدلالة قوله: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ وقد وصفه بأنه محدث، ويوضحه قوله ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ﴾.

●●●

قوله تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾.

● **القراءة:** قرأ «نوحي» بالنون حفص عن عاصم، والباقون: «يوحي» وقد تقدم ذكره في سورة يوسف عليه السلام.

● **الإعراب:** ﴿أَهْلَكْنَٰهَآ﴾: في موضع الجر لأنه صفة ﴿قَرْيَةٍ﴾. ﴿جَسَدًا﴾: واحداً بمعنى الجمع أي: وما جعلناهم أجساداً، بمعنى ذوي أجساد، ولذلك قال ﴿لَّا يَأْكُلُونَ﴾، وتقديره غير آكلين الطعام. ﴿وَمَن نَّشَآءُ﴾: في موضع نصب عطفاً على هم من قوله ﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ﴾.

● **المعنى:** لما تقدمت الحكاية عن الكفار بأنهم اقترحوا الآيات، قال سبحانه مجيباً لهم: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ أي: لم يؤمن قبل هؤلاء الكفار من أهل قرية جاءتهم الآيات التي طلبوها، فأهلكناهم مصرين على الكفر ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ عند مجيئها. هذا إخبار عن حالهم، وأن سبيلهم سبيل من تقدم من الأمم، طلبوا الآيات فلم يؤمنوا وأُهلكوا، فهؤلاء أيضاً لو أتاهم ما اقترحوه، لم يؤمنوا، ولاستحقوا عذاب الاستئصال. وقد حكم الله سبحانه في هذه الآية أن لا يعذبهم عذاب الاستئصال، فلذلك لم يجبهم في ذلك. وقيل: ما حكم الله سبحانه بهلاك قرية، إلا وفي المعلوم أنهم لا يؤمنون، فلذلك لم يأت هؤلاء بالآيات المقترحة. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾ يا محمد ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ هذا جواب لقولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، والمعنى: لم نرسل قبلك يا محمد إلا رجالًا من بني آدم ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ لا ملائكة، لأن الشكل إلى الشكل أميل، وبه آنس، وعنه أفهم، ومن الأنفة منه أبعد ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ اختلف في المعني بأهل الذكر على أقوال فروي عن علي عليه السلام أنه قال: نحن أهل الذكر، وروُي ذلك عن أبي جعفر عليه السلام. ويعضده أن الله تعالى سمى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذكراً رسولًا في قوله ﴿ذِكْرًا ۝ رَّسُولًا﴾، وقيل: أهل الذكر أهل التوراة والإنجيل، عن الحسن وقتادة، وقيل: هم أهل العلم بأخبار من مضى من الأمم، وقيل: هم أهل القرآن والذكر: هو القرآن، وهم العلماء بالقرآن، عن ابن زيد. ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ۝٨﴾ أي: باقين لا يموتون، هذا رد لقولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾، ومعناه: وما جعلنا الأنبياء قبلك أجساداً لا يأكلون الطعام ولا يموتون، حتى يكون أكلك الطعام وشربك وموتك علة في ترك الإيمان بك، فإنا لم نخرجهم عن حد البشرية بالوحي. قال الكلبي: الجسد المجسد الذي فيه الروح ويأكل ويشرب، فعلى هذا يكون ما يأكل ويشرب جسماً. وقال مجاهد: الجسد ما لا يأكل ولا يشرب فعلى هذا يكون ما يأكل ويشرب نفساً. ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ أي: صدقناهم الوعد بأن العاقبة الحميدة تكون لهم، ومعناه: أنجزنا ما وعدناهم به من النصر والنجاة والظهور على الأعداء، وما وعدناهم به من الثواب

﴿فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ﴾ أي: فأنجيناهم من أعدائهم، وأنجينا معهم من نشاء من المؤمنين بهم ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ على أنفسهم بتكذيبهم الأنبياء، قال قتادة: المسرفين هم المشركون، وهذا تخويف لكفار مكة. ثم ذكر نعمته عليهم بإنزال القرآن فقال: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ يا معشر قريش ﴿كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي: فيه شرفكم إن تمسكتم به، كقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾. وقيل: هو خطاب للعرب لأنه أنزل القرآن بلغتهم. وقيل: هو خطاب لجميع المؤمنين لأن فيه شرفاً للمؤمنين كلهم، وقيل: إن معناه فيه ذكر ما تحتاجون إليه من أمر دينكم ودنياكم، عن الحسن، وقيل: فيه ذكر مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال لتتمسكوا بها. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما فضلتم على غيركم، وقيل: معناه أفلا تتدبرون فتعلمون أن الأمر على ما قلناه.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ
(١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ
وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ
حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ
أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى
الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ
لَا يَفْتُرُونَ (٢٠)﴾.

● **اللغة:** القصم: الكسر، يقال: قصمه يقصمه وهو قاصم الجبابرة. والإنشاء: الإيجاد ونظيره الاختراع والإبداع، والركض: العدو بشدة والوطء. وركض دابته: ضربها برجله حتى تعدو، وارتكاض الصبي: اضطرابه في الرحم. والترفة: النعمة. والمترفَه: المتنعم. والزاهق: من الأضداد، يقال للهالك: زاهق، وللسمين من الدواب :زاهق، وزهقت نفسه تزهق زهوقاً أي: تلفت. والدمغ: شج الرأس حتى يبلغ الدماغ، يقال: دمغه بدمغة: إذا أصاب دماغه، ومنه في صفة النبي ﷺ: الدامغ جيشات الأباطيل، والاستحسار: الانقطاع عن الإعياء، يقال: بعير حسير أي: مَعِيّ، وأصله من قولهم: حسر عن ذراعيه. فالمعنى: أنه كشف قوته بإعياء، وجمعه حسرى. قال علقمة بن عبدة:

بها جيفُ الحَسْرى فأمّا عظامُها ... فَبِيضٌ وأمّا جلدُها فَصَليب

● **الإعراب:** ﴿وَكَمْ﴾ في موضع نصب بأنه مفعول ﴿قَصَمْنَا﴾. و﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ في موضع نصب على التمييز، ويجوز أن يكون صفة لكم، والتقدير: كثيراً من القرى قصمنا. ﴿إِذَا﴾ ظرف مكان العامل فيه ﴿يَرْكُضُونَ﴾، و﴿تِلْكَ﴾ في موضع رفع اسم ﴿زَالَت﴾، و﴿دَعْوَاهُمْ﴾ في موضع

نصب خبر ﴿زَالَت﴾، وجائز أن يكون ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ اسماً و﴿تِلْكَ﴾ خبراً. ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي: ما كنا فاعلين، ويجوز أن تكون إن للشرط أي: إن كنا ممن يفعل ذلك ولسنا ممن يفعله، اتخذناه من لدنا. و﴿مَنْ عِندَهُۥ﴾ مبتدأ. و﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ خبره، ويجوز أن يكون ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ معطوفاً على ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، فيكون ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ في موضع الحال، فالمعنى غير مستكبرين، وكذا ﴿لاَ يَسْتَحْسِرُونَ﴾ و﴿يُسَبِّحُونَ﴾ و﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ كلها أحوال على هذا.

● **المعنى:** ثم بين سبحانه ما فعله بالمكذبين فقال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ أي: أهلكنا ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾، عن مجاهد والسدي، وقيل: عذبنا، عن الكلبي ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ أي: كافرة يعني أهلها ﴿وَأَنشَأْنَا﴾ أي: أوجدنا ﴿بَعْدَهَا﴾ أي: بعد إهلاك أهلها ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ﴾ أي: فلما أدركوا بحواسهم ﴿بَأْسَنَآ﴾ أي: عذابنا ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ معناه: إذا هم من القرية أو من العقوبة يهربون سراعاً، هرب المنهزم من عدوه ﴿لَا تَرْكُضُواْ﴾ أي: يقال لهم تقريعاً وتوبيخاً: لا تهربوا ﴿وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ﴾ أي: وارجعوا إلى ما نعمتم فيه وإلى مساكنكم التي كفرتم وظلمتم فيها، وقيل: إنهم لما أخذتهم السيوف انهزموا مسرعين، فقالت لهم الملائكة بحيث سمعوا النداء: لا تركضوا وارجعوا إلى ما خولتم ونعمتم فيه، وارجعوا إلى مساكنكم. وقال ابن قتيبة: معناه إلى نعمكم التي أترفتكم ومساكنكم لعلكم تسألون شيئا من دنياكم والمعنى أن الملائكة استهزأت بهم، فقالت لهم : أرجعوا إلى نعمكم ومساكنكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ شيئاً من دنياكم فإنكم أهل ثروة ونعمة. يقولون ذلك استهزاء بهم، هذا قول قتادة، وقيل: لعلكم تسألون أي: يسألكم رسولكم أن تؤمنوا كما سئل قبل نزول العذاب بكم، وهذا استهزاء بهم أيضاً أي: لا سبيل إلى هذا فتدبروا الأمر قبل حلوله. وقيل: لكي تسألوا عن أعمالكم وعن تنعمكم في الدنيا بغير الحق، وعما استحققتم به العذاب، عن الجبائي وأبي مسلم. ﴿قَالُواْ﴾ على سبيل التندم لما رأوا العذاب: ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ لأنفسنا حيث كذّبنا رسل ربنا. والمعنى أنهم اعترفوا بالذنب حين عاينوا العذاب. والويل: الوقوع في الهلكة ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي: لم يزالوا يقولون يا ويلنا، وتلك دعواهم ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا﴾ أي: محصوداً مقطوعاً ﴿خَٰمِدِينَ﴾ ساكني الحركات ميتين، كما تخمد النار إذا انطفأت. والمعنى: استأصلناهم بالعذاب وأهلكناهم، عن الحسن، وقيل: بالسيف، وهو قتل «بخت نصر» لهم، عن مجاهد، وقيل: نزلت في قرية باليمن قتلوا نبياً لهم يقال له حنظلة فسلط الله عليهم «بخت نصر» حتى قتلهم وسباهم ونكل فيهم، حتى خرجوا من ديارهم منهزمين فبعث الله ملائكة حتى ردوهم إلى مساكنهم، فقتل صغارهم وكبارهم حتى لم يبق لهم اسم ولا رسم. ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ بل خلقناهما لغرض صحيح، وهو أن يكون دلالة ونعمة وتعويضاً للثواب ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ اللهو المرأة، عن الحسن ومجاهد. وقيل: هو الولد، عن ابن عباس، وقيل: معناه اللهو الذي هو داعي الهوى ونازع الشهوة. والمعنى: لو اتخذنا نساء أو ولداً لاتخذناه من أهل السماء ولم نتخذه من أهل الأرض. يريد لو كان ذلك جائزاً عليه لم يتخذه بحيث يظهر لهم، ويسر ذلك حتى لا يطلعوا عليه. وقد أحسن ابن قتيبة في شرح اللهو هنا فقال: التفسيران في اللهو متقاربان لأن امرأة الرجل لهوه، وولده لهوه، ولذلك يقال:

امرأة الرجل وولده ريحانتاه، وأصل اللهو الجماع، كنى عنه باللهو كما كنى عنه بالسر، ثم قيل للمرأة لهو لأنها تجامع. قال امرؤ القيس:

ألَا زعمت بَسْبَاسَة اليوم أنني كَبِرْت وأن لا يُحسن اللهو أمثالي

وتأويل الآية: أن النصارى لما قالت في المسيح وأمه ما قالت، قال الله عز وجل: لو أردنا أن نتخذ صاحبة وولداً كما تقولون، لاتخذنا ذلك من عندنا، ولم نتخذ من عندكم، لأنكم تعملون أن ولد الرجل وزوجته يكونان عنده لا عند غيره ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي: ما كنا فاعلين، عن قتادة ومجاهد وابن جريج. وقيل: معناه إن كنا فاعلين ذلك لاتخذناه من عندنا بحيث لا يصل علمه إليكم، عن الجبائي ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ﴾ معناه: بل نورد الأدلة القاهرة على الباطل، وقيل: نرمي بالحجة على الشبهة. وقيل: بالإيمان على الكفر. ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾ أي: يعلوه ويبطله. وقيل: يهلكه ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي: هالك مضمحل، عن قتادة، وتأويله: إن الله سبحانه يظهر الحق بأدلته ويبطل الباطل، فكيف يفعل الباطل واللعب ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ أي: الهلاك لكم يا معشر الكفار مما تصفون الله تعالى به من اتخاذ الصاحبة والولد ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مُلكاً ومِلكاً وخلقاً. وهذا رد أيضاً على من أثبت له الولد والشريك، أي: وكيف يجوز عليه اتخاذ الشريك والولد ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ يعني الملائكة الذين لهم عند الله تعالى المنزلة، كما يقال عند الأمير كذا وكذا من الجند، وإن كانوا متفرقين في الأماكن، ولا يراد بذلك قرب المسافة. ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ أي: لا يأنفون ولا يترفعون عن عبادته. وأراد بذلك نفي النبوءة عنهم لأن أحداً لا يستعبد ابنه ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي: لا يعيبون، عن قتادة والسدي، وقيل: لا يملون، عن ابن زيد، وقيل: لا ينقطعون مأخوذ من البعير الحسير المنقطع بالإعياء ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ أي: ينزهون الله تعالى عن جميع ما لا يليق بصفاته على الدوام ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: في الليل والنهار ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ أي: لايضعفون عنه. قال كعب: جعل لهم التسبيح كما جعل لكم النفس في السهولة.

● **النظم:** اتصل قوله ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بما تقدم من ذكر هلاك الكفار، فبيَّن سبحانه أنه لم يهلكهم إلا بالاستحقاق لأنه سبحانه تعالى خلقهم للعبادة، فلما كفروا جازاهم بكفرهم. ولولا ذلك لكان خلق السمٰوات والأرض وما بينهما لعباً، لأن خلقهما إنما هو لأجل المكلفين، وخلق المكلف إنما هو لتعريض الثواب. ووجه اتصال قوله ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ بما قبله أن هؤلاء الذين وصفتموهم بأنهم بنات الله، هم عبيد الله على أتم وجوه العبودية، وذلك يبطل معنى الولادة لأن الولادة لا تكون إلا مع المجانسة.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ

إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ
مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ
وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلۡ
مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمۡ يَرَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ
أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة، غير أبي بكر: «إلا نوحي» بالنون، والباقون: «يوحي». وقرأ ابن كثير: «ألم ير» بغير واو، وكذلك هو في مصاحف مكة. والباقون: «أو لم يروا» بالواو، وفي الشواذ قراءة الحسن وابن محيصن: «الحق» بالرفع، «فهم معرضون»، وقراءة الحسن أيضاً وعيسى الثقفي: «رتقاً» بفتح التاء.

● **الحجة:** وجه النون أنه أشبه بما تقدَّم من قوله ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾. والياء في المعنى كالنون. والوجه في قراءة الحسن «الحق» بالرفع: الاستئناف، فإن الوقف في هذه القراءة على قوله ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾، والتقدير هذا الحق أو هو الحق، فيحذف المبتدأ ويوقف على الحق. ثم يستأنف فيقال: ﴿فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ لأن أكثرهم لا يعلمون. والوجه في قوله: «رتقاً» بفتح التاء أنه قد كثر مجيء المصدر على فَعْل، واسم المفعول منه على فَعَل مفتوح العين، وذلك كالنَّفْض والنَّفَض والطَّرْد والطَّرَد فالرتَق على هذا يكون للشيء المرتوق، كما أن النَّفَض للمنفوض والهدم للمهدوم. فقراءة الجماعة «رتقاً» بسكون التاء كأنه مما وضع من المصادر موضع اسم المفعول، كالصيْد بمعنى المصيد، والخلْق بمعنى المخلوق.

● **الإعراب:** ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ﴾: أم هذه هي المنقطعة، وليست المعادلة لهمزة الاستفهام في مثل قولك: أزيد عندك أم عمرو. وقوله ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾: إلا هذه صفة لآلهة وتقديره غير الله، عما يفعل ما هذه: الأجود أن تكون مصدرية، ويحتمل أن تكون اسماً.

● **المعنى:** ثم عاد سبحانه إلى توبيخ المشركين فقال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ هذا استفهام معناه الجحد، أي: لم يتخذوا آلهة من الأرض ﴿هُمۡ يُنشِرُونَ﴾ أي: يحيون الأموات، عن مجاهد. يقال: أنشر الله الموتى فنشروا أي: أحياهم فحيوا، وهو من النشر بعد الطي، لأن المحيا كأنه كان مطوياً بالقبض عن الإدراك فأُنشر بالحياة، والمعنى في ذلك: أن هؤلاء إذا كانوا لا يقدرون على الإحياء الذي من قدر عليه قدر على أن ينعم بالنعم التي يستحق بها العبادة، فكيف يستحقون العبادة؟ قال الزجاج: ومن قرأ «ينشرون» بفتح الياء فمعناه: لا يموتون أبداً ويبقون أحياء أي: لا يكون ذلك. وأقول: قد يجوز أن يكون يَنشرون ويُنشرون بمعنى، يقال نشر الله الميت بمعنى أنشر. ثم ذكر سبحانه الدلالة على توحيده، وأنه لا يجوز أن يكون معه إله سواه فقال: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ ومعناه: لو كان في السماء والأرض آلهة سوى الله لفسدتا وما استقامتا، وفسد من فيهما ولم ينتظم أمرهم، وهذا هو دليل

التمانع الذي بنى عليه المتكلمون مسألة التوحيد، وتقرير ذلك: أنه لو كان مع الله سبحانه إله آخر لكانا قديمين، والقدم من أخص الصفات، فالاشتراك فيه يوجب التماثل، فيجب أن يكونا قادرين عالمين حيين. ومن حق كل قادرين أن يصح كون أحدهما مريداً لضد ما يريده الآخر من إماتة وإحياء، أو تحريك وتسكين، أو إفقار وإغناء، ونحو ذلك. فإذا فرضنا ذلك فلا يخلو إما أن يحصل مرادهما وذلك محال، وإما أن لا يحصل مرادهما فينتقض كونهما قادرين، وإما أن يقع مراد أحدهما ولا يقع مراد الآخر فينتقض كون من لم يقع مراده من غير وجه منع معقول قادراً. فإذاً لا يجوز أن يكون الإله إلا واحداً. ولو قيل إنهما لا يتمانعان، لأن ما يريده أحدهما يكون حكمة فيريده الآخر بعينه؟ والجواب: أن كلامنا في صحة التمانع لا في وقوع التمانع، وصحة التمانع يكفي في الدلالة، لأنه يدل على أنه لا بد من أن يكون أحدهما متناهي المقدور، فلا يجوز أن يكون إلهاً.

ثم نزّه سبحانه نفسه على أن يكون معه إله فقال: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ وإنما خص العرش لأنه أعظم المخلوقات، ومن قدر على أعظم المخلوقات كان قادراً على ما دونه ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ٢٣﴾ معناه: أن جميع أفعاله حكمة وصواب، ولا يقال للحكيم لم فعلت الصواب وهم يسألون لأنهم يفعلون الحق والباطل. وقيل: معناه أنه لا يسأل عن ادعاء الربوبية وهم مسؤولون إذا ادعوها، ويدل على هذا التأويل النظم والسياق. وقيل: معناه لا يحاسب على أفعاله وهم يحاسبون على أفعالهم، وقيل: معناه أنه لا يسأله الملائكة والمسيح عن فعله، وهو يسألهم ويجازيهم، فلو كانوا آلهة لم يسألوا عن أفعالهم. ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ﴾ وهذا استفهام إنكار وتوبيخ أيضاً ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾ أي: قل لهم يا محمد: هاتوا حجتكم على صحة ما فعلتموه، لأنهم لا يقدرون على ذلك أبداً، وفي هذا دلالة على فساد التقليد لأنه طالبهم بالحجة على صحة قولهم. والبرهان هو: الدليل المؤدي إلى العلم. ﴿هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ﴾ أي: وقل لهم يا محمد: هذا القرآن ذكر من معي بما يلزمهم من الأحكام، وذكر من قبلي من الأمم ممن نجا بالإيمان أو هلك بالكفر، عن قتادة. وقيل: هذا ذكر من ممن بالحق في إخلاص الإلهية والتوحيد في القرآن، وعلى هذا ذكر من قبلي في التوراة والإنجيل، عن الجبائي، قال: لأن القرآن ذكر أتاه الله ومن معه، والتوراة والإنجيل ذكر تلك الأمم. وقال أبو عبد الله عليه السلام: يعني بذكر من معي: من معه، وما هو كائن، وبذكر من قبلي: ما قد كان. وقيل: إنّ معناه في القرآن خبر من معي على ديني ممن يتبعني إلى يوم القيامة، بما لهم من الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية، وذكر ما أنزل الله من الكتب قبلي، فانظروا هل في واحد من الكتب أن الله أمر باتخاذ إله سواه. فبطل بهذا البيان جواز اتخاذ معبود سواه من حيث الأمر به. وقال الزجاج: قل لهم هاتوا برهانكم بأن رسولًا من الرسل أتى أمته بأن لهم إلهاً غير الله، فهل في ذكر من معي وذكر من قبلي إلا توحيد الله؟ ويدل على صحة هذا، قوله فيما بعد: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾. فلما توجهت الحجة عليهم ذمهم سبحانه على جهلهم بمواضع الحق. فقال: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ عن التأمل والتفكر، واختص الأكثر منهم لأن فيهم من آمن، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾ يا محمد ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ أي: رسولًا، ومن: مزيدة: ﴿إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ﴾ نحن، أو يوحى إليه أي: يوحي

الله إليه ﴿أَنَا۠ لَآ إِلَٰهَ﴾ أي: لا معبود على الحقيقة ﴿إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ أي: فوجهوا العبادة إليَّ دون غيري ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ ﴿٢٦﴾﴾ يعني من الملائكة ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۚ﴾ نزه نفسه عن ذلك، لأن اتخاذ الولد لا يخلو إما أن يكون على سبيل التوالد، أو على سبيل التبني، وكلاهما لا يجوز عليه، لأن الأول يقتضي أن يكون من قبيل الأجسام، والثاني وهو التبني يكون بأن يقيم غير ولده مقام ولده. وإذا كان حقيقة الولد مستحيلًا منه، فالمشبه به كذلك، وليس ذلك كالخلة لأنه من الاختصاص وحقيقته جائزة عليه. ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾ أي: ليسوا أولاد الله كما يزعمون، بل هم عباد مكرمون أكرمهم الله واصطفاهم ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ أي: لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به ربهم، فكل أقوالهم طاعة لربهم، وناهيك بذلك جلالة قدرهم ﴿وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ ومن كان بهذه الصفة لا يوصف بأنه ولده ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ أي: ما قدموا من أعمالهم وما أخروا منها، يعني ما عملوا، وما هم عاملون ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ الله دينه. وقال مجاهد: إلا لمن رضي الله عنه. وقيل: إنهم أهل شهادة أن لا إله إلا الله، عن ابن عباس، وقيل: هم المؤمنون المستحقون للثواب، وحقيقته أنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى الله أن يشفع فيه، فيكون في معنى قوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾. ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ﴾ أي: من خشيتهم منه فأُضيف المصدر إلى المفعول ﴿مُشۡفِقُونَ﴾ خائفون وجلون من التقصير في عبادته ﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ﴾ أي: من يقل من هؤلاء الملائكة: إني إله تحق لي العبادة من دون الله، ﴿فَذَٰلِكَ﴾ أي: فذلك القائل ﴿نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ﴾ يعني أن حالهم مثل حال سائر العبيد في استحقاق الوعيد. وقيل: إنه عنى به إبليس لأنه الذي دعا الناس إلى عبادته، عن ابن جريج وقتادة. وقيل: إن هذا لا يصح لأن الله سبحانه علّق الوعيد بالشرط، ولأن إبليس ليس من الملائكة عند الأكثرين ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني المشركين الذين يصفون بما لما لا يليق به، وفي هذه الآية دلالة على أن الملائكة ليسوا مطبوعين على الطاعات على ما قاله بعضهم، وأنهم مكلفون. ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ استفهام يراد به التقريع والمعنى: أو لم يعلموا أنه سبحانه الذي يفعل هذه الأشياء ولا يقدر عليها غيره فهو الإله المستحق للعبادة دون غيره، ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ﴾ تقديره: كانتا ذواتي رتق فجعلناهما ذواتي فتق، والمعنى: كانتا ملتزقتين منسدتين، ففصلنا بينهما بالهواء، عن ابن عباس والحسن والضحاك وعطاء وقتادة. وقيل: كانت السمٰوات مرتتقة مطبقة ففتقناها سبع سمٰوات، وكانت الأرض كذلك ففتقناها سبع أرضين، عن مجاهد والسدي. وقيل: كانت السماء رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، ففتقنا السماء بالمطر، والأرض بالنبات، عن عكرمة وعطية وابن زيد، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام. ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ﴾ أي: وأحيينا بالماء الذي ننزله من السماء كل شيء حي، وقيل: وخلقنا من النطفة كل مخلوق حي، عن أبي العالية. والأول أصح، وروى العياشي بإسناده عن الحسن بن علوان قال: سئل أبو عبد الله عليه السلام عن طعم الماء فقال له: سل تفقهاً ولا تسأل تعنتاً، طعم الماء طعم الحياة، قال الله سبحانه: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ﴾، وقيل: معناه وجعلنا من الماء حياة كل ذي روح، ونماء كل نام. فيدخل فيه الحيوان

والنبات والأشجار، عن أبي مسلم. ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أفلا يصدقون بالقرآن وبما يشاهدون من الدليل والبرهان.

● **النظم:** وجه اتصال الآية الأولى بما قبلها: أنه سبحانه قال: فاسألوا أهل الذكر هل أرسلنا قبلك إلا رجالاً، وهل اتخذوا آلهة من الأرض، أي: من الحجر والمدر والخشب، فإن كله من الأرض، عن أبي مسلم. وقيل: إنه يتصل بقوله ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾، والمعنى أنهم أضافوا إليه الولد، وأضافوا إليه الشريك. ووجه اتصال قوله: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ بما قبله: أنه لما بيَّن التوحيد عطف عليه بيان العدل. وقيل: إنه يتصل بقوله ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾، والحساب هو السؤال عما أنعم الله عليهم به، وهل قابلوا نعمه بالشكر، أم قابلوها بالكفر، عن أبي مسلم. ووجه اتصال قوله ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ بما قبله أن ما قدمنا ذكره من التوحيد والعدل مذكور في القرآن وفي الكتب السالفة.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

● **اللغة:** الرواسي: الجبال. رست ترسُو رَسْواً: إذا ثبتت بثقلها فهي راسية، كما ترسو السفينة إذا وقفت متمكنة في وقوفها، والميد: الاضطراب بالذهاب في الجهات، والفج: الطريق الواسع بين الجبلين. والفلك: أصل كل شيء دائر، ومنه فلكة المغزل، ويقال: فلك ثدي المرأة تفليكاً: إذا استدار، والسباحة والعوم والسبح والجري بمعنى.

● **الإعراب:** ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ في موضع نصب بأنه مفعول له، وتقديره: كراهة أن تميد بكم أو حذاراً أن تميد بكم، أو حذار أن تميد. ومن قال: إن لا هنا مضمرة والتقدير: لأن لا تميد فلا وجه لقوله. و﴿سُبُلًا﴾ بدل من ﴿فِجَاجًا﴾ لأن الفج هو السبيل. ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ جملة اسمية في موضع الحال وفي يتعلق بيسبحون، ﴿أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ شرط وجزاء دخلت الفاء في الشرط وفي الجزاء، وقوله ﴿فِتْنَةً﴾ مفعول له، والمعنى: للفتنة. ويجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال أي: نبلوكم فاتنين. ويجوز أن يكون منصوباً على المصدر لأن البلاء بمعنى الفتنة.

● **المعنى:** ثم بيَّن سبحانه كمال قدرته وشمول نعمته بأن قال: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ أي: جبالاً ثوابت تمنع الأرض من الحركة والاضطراب ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي: تتحرك وتميل وتضطرب بهم، وقيل: لتستقر، عن قتادة ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي: في الرواسي ﴿فِجَاجًا﴾ أي: طرقاً واسعة بينها، لولا ذلك لما أمكن أن يهتدوا إلى مقاصدهم في الأسفار، ثم بيَّن الفجاج

فقال: ﴿سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بها إلى طريق بلادهم ومواطنهم، وقيل: ليهتدوا بالاعتبار بها إلى دينهم ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ أي: رفعنا السماء فوق الخلق كالسقف محفوظاً من الشياطين بالشهب التي ترمى بها، كما قال ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾، عن الجبائي، وقيل: محفوظاً من أن تسقط إلى الأرض كما قال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾، وقيل: محفوظاً من أن يطمع أحد في أن يتعرض لها بنقص أو أن يلحقها بِلى، أو هدم على طول الدهر، عن الحسن. ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا﴾ أي: عن الاستدلال بما فيها من دلائل الحدوث والحاجة إلى المحدث ﴿مُعْرِضُونَ﴾ أي: أعرضوا عن التفكر فيها ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: يجرون، وقيل: يدورون. وأراد الشمس والقمر والنجوم، لأن قوله الليل يدل على النجوم. وقال ابن عباس: يسبحون بالخير والشر بالشدة والرخاء، وقيل: معناه أنه سبحانه جعل لكل واحد منهما فلكاً يدور فيه بسرعة كالسباحة، وإنما قال ﴿يَسْبَحُونَ﴾ لأنه أضاف إليها فعل العقلاء، كما قال ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾، وقال النابغة الجعدي:

تـمـززتـهـا والـديـكُ يـدعـو صـيـاحـه   إذا مـا بـنـوا نَـعْـشٍ دَنَـوْا فَـتَـصَـوَّبـوا[1]

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلْخُلْدَ﴾ أي: دوام البقاء في الدنيا ﴿أَفَإِين مِّتَّ﴾ أنت على ما يتوقعونه وينتظرونه ﴿فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ أي: أفهم يخلدون بعدك، يعني مشركي مكة حين قالوا: نتربص بمحمد ريب المنون، فقال: لئن مت فإنهم أيضاً يموتون، فأي فائدة لهم في تمني موتك. ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: لا بد لكل نفس حية بحياة أن يدخل عليها الموت وتخرج عن كونها حية ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ﴾ أي: نعاملكم معاملة المختبر بالفقر والغنى وبالضراء والسراء وبالشدة والرخاء، عن ابن عباس. وقيل: بما تكرهون وما تحبون ليظهر صبركم على ما تكرهون، وشكركم فيما تحبون، عن ابن زيد. ورُوي عن أبي عبد الله عليه السلام أن أمير المؤمنين عليه السلام مرض فعاده إخوانه فقالوا: كيف تجدك يا أمير المؤمنين؟ قال: بشرّ، قالوا: ما هذا كلام مثلك، قال: إن الله تعالى يقول ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾، فالخير: الصحة والغنى، والشر: المرض والفقر. وقال بعض الزهاد: الشر غلبة الهوى على النفس، والخير العصمة عن المعاصي ﴿فِتْنَةً﴾ أي: ابتلاء واختبار أو شدة تعبد ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي: إلى حكمنا تردون للجزاء بالأعمال، حسنها وسيِّئها.

● **النظم:** يتصل قوله ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ بما ذكر سبحانه من خلق الأشياء، فإنه بيّن أنه لم يخلقها للخلود، وإنما خلقها ليتوصل بها إلى نعيم الآخرة، فلا بد لكل إنسان من الموت والرجوع إلى الجزاء، عن القاضي.

● ● ●

(١) التمزز: شرب الشراب قليلًا قليلًا. وتصوب ضد تصعد.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى
يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ
سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ
﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ
وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ
يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

● **اللغة:** الهزؤ: إظهار خلاف الإبطان لإيهام النقص عن فهم القصد، يقال: هزأ منه يهزأ هزؤاً فهو هازىء، ومثله السخرية. ويقول العرب: ذكرت فلاناً أي: عبته. قال عنترة:

لَا تَـذْكـرِي مُـهْـرِي، ومـا أَطْـعَـمْـتُـهُ   فـيكـونَ جِـلْدُكِ مِـثْـلَ جِـلدِ الأَجْـرَبِ[1]

والعجلة: تقديم الشيء قبل وقته، وهو مذموم. والسرعة: تقديم الشيء في أقرب أوقاته، وهو محمود. والاستعجال: طلب الشيء في وقته الذي حقه أن يكون فيه دون غيره.

● **الإعراب:** ﴿وَإِذَا رَءَاكَ﴾: العامل في إذا اتخذوا وهو معنى قوله ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ لأن معناه اتخذوك هزواً. وقوله ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ تقديره: قائلين أهذا الذي يذكر آلهتكم، فحذف قائلين وهو في موضع الحال، كما حذف ذلك من قوله ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ أي: قائلين ما نعبدهم، والباء في قوله ﴿بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾، يتعلق بقوله ﴿كَـٰفِرُونَ﴾، وقوله ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ﴾: يجوز أن يكون مفعولاً به ليعلم. ويجوز أن يكون ظرفاً له فيكون مفعول يعلم محذوفاً تقديره: لو يعلمون الأمر حين لا يكفون، وجواب لو محذوف وتقديره لانتهوا، ﴿بَغْتَةً﴾ نصب على الحال من المفعول تقديره: بل تأتيهم مبغوتين مفاجئين. ويجوز أن يكون حالاً من الفاعل، وهو الضمير المستكن في تأتي، والتقدير: بل تأتيهم باغتة مفاجئة.

● **المعنى:** ثم خاطب نبيه ﷺ وقال: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ﴾ أي: إذا رآك يا محمد ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ وأنت تعيب آلهتهم وتدعوهم إلى التوحيد ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ أي: ما يتخذونك ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾ أي: سخرية يقول بعضهم لبعض: ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي: يعيب آلهتكم، وذلك قوله إنها جماد لا ينفع ولا يضر ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ أي: بتوحيده، وقيل: بكتابه المنزل ﴿هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ أي: جاحدون. عجب الله سبحانه نبيه ﷺ منهم، حيث جحدوا الحي المنعم القادر، العالم الخالق الرازق، واتخذوا ما لا ينفع ولا يضر، ثم إن من دعاهم إلى تركها اتخذوه هزواً وهم أحق بالهزؤ عند من يدبر حالهم. ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ قيل: فيه قولان:

أحدهما: أن المعني بالإنسان آدم. ثم إنه قيل في عجل ثلاث تأويلات منها: أنه خلق بعد

---

(١) المهر: ولد الفرس.

خلق كل شيء آخر نهار يوم الجمعة، وهو آخر الأيام الستة على سرعة، معاجلًا به غروب الشمس، عن مجاهد. ومنها: أن معناه في سرعة من خلقه، لأنه لم يخلقه من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، كما خلق غيره، وإنما أنشأه إنشاء، فكأنه سبحانه نبّه بذلك على الآية العجيبة في خلقه. ومنها: أن آدم عليه السلام لما خلق، وجعلت الروح في أكثر جسده، وثب عجلان مبادراً إلى ثمار الجنة، وقيل: همَّ بالوثوب. فهذا معنى قوله ﴿مِنْ عَجَلٍ﴾، عن ابن عباس والسدي، ورُوِيَ ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام . والقول الثاني: أن المعني بالإنسان الناس كلهم. ثم اختلف في معناه على وجوه:

أحدها: أن معناه خلق الإنسان عجولًا أي: خلق على حب العجلة في أمره، عن قتادة وأبي مسلم والجبائي، قال: يعني أنه يستعجل في كل شيء يشتهيه، وللعرب عادة في استعمالهم هذا اللفظ عند المبالغة، يقولون لمن يصفونه بكثرة النوم: ما خلق إلا من نوم، وبكثرة وقوع الشر منه: ما خلق إلا من شر. ومنه قول الخنساء في وصف البقرة: «فإنما هي إقبال وإدبار».

وثانيها: أنه من المقلوب، والمعنى خلقت العجلة من الإنسان، عن أبي عبيدة وقطرب. وهذا ضعيف لأنه مع حمل كلامه تعالى على القلب، يحتاج إلى تأويل فلا فائدة في القلب.

وثالثها: أن العجل هو الطين، عن أبي عبيدة وجماعة، واستشهدوا بقول الشاعر:

والنَّبْعُ يَنْبُتُ بَيْنَ الصَّخْرِ ضاحِيَة   والنَّخْلُ تنبتُ بين الماءِ والعَجَلِ

ورواه ثعلب: «والنَّبع في الصخرةِ الصماء مَنْبَتُه». فعلى هذا يكون كقوله ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾.

ورابعها: أن معناه خلق الإنسان من تعجيل من الأمر لأنه تعالى قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾، عن أبي الحسن الأخفش. ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ الدالة على وحدانيتي وعلى صدق محمد صلى الله عليه وآله فيما يوعدكم به من العذاب ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ في حلول العذاب بكم، فإنه سيدرككم عن قريب. قال ابن عباس في رواية عطاء: يريد به النضر بن الحرث، وهو الذي قال ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ﴾ الآية. ويريد بقوله: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ القتل يوم بدر. ﴿وَيَقُولُونَ﴾ يعني: ويقول المشركون للمسلمين ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ الذي تعدوننا يريدون وعد القيامة ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: ويقولون إن كنتم صادقين في هذا الوعد فمتى يكون ذلك. ثم قال سبحانه: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ﴾ أي: لو علموا الوقت الذي لا يدفعون فيه عذاب النار عن وجوههم ﴿وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ يعني أن النار تحيط بهم من جميع جوانبهم ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ وجواب لو محذوف، وتقديره: لعلموا صدق ما وعدوا به، ولما استعجلوا ولا قالوا ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾، ثم قال: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم﴾ الساعة ﴿بَغْتَةً﴾ أي: فجأة ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أي: فتحيرهم ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أي: فلا يقدرون على دفعها ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: لا يؤخرون إلى وقت آخر ولا يمهلون لتوبة أو معذرة.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن عامر: «ولا تسمع» بضم التاء، «الصم» بالنصب، والباقون: «ولا يسمع» بفتح الياء، «الصم» بالرفع.

● **الحجة:** الوجه في قراءة ابن عامر: أنه وجّه الخطاب إلى النبي ﷺ فكأنه قال: ولا تسمع أنت يا محمد الصم، كما قال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾، لأن الله تعالى لما خاطبهم فلم يلتفتوا إلى ما دعاهم إليه، صاروا بمنزلة الميت الذي لا يسمع ولا يعقل. ووجه قراءة الباقين: أنه جعل الفعل لهم ويقوّيه قوله ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾.

● **اللغة:** الكلاءة: الحفظ. قال ابن هرمة:

إنَّ سُلَيمى، واللهُ يَكْلَؤُها ضَنَّت بشَيْءٍ ما كان يَرْزَؤُها[1]

والفرق بين السخرية والهزء: أن في السخرية معنى طلب الذلة، لأن التسخير التذليل. فأما الهزء فيقتضي طلب صغر القدر بما يظهر في القول.

● **الإعراب:** ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ أم هذه هي المنقطعة، وتقديره: بل لهم آلهة، و﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ جملة مستأنفة لأنها لا تستقيم أن تكون صفة لآلهة ولا حالًا عنها، لأن الله وصفها بقوله ﴿تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ على زعمهم. و﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ضد هذه الصفة.

● **المعنى:** لما تقدم ذكر استهزاء الكفار بالنبي والمؤمنين سلّى الله سبحانه نبيه ﷺ عند ذلك بقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ كما استهزأ هؤلاء ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: حل بهم وبال استهزائهم وسخريتهم. وقوله: ﴿مِنْهُم﴾ يعني من الرسل ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار ﴿مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: يحفظكم من بأس الرحمن وعذابه، وقيل: من عوارض الآفات، وهو استفهام معناه النفي، تقديره: لا حافظ لكم من الرحمن. ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: بل هم عن كتاب ربهم معرضون لا يؤمنون به ولا يتفكرون فيه، وقيل: معناه أنهم لا يلتفتون إلى شيء من المواعظ والحجج. ثم قال على وجه التوبيخ لهم والتقريع: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ تقديره: أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم من عذابنا وعقوباتنا وتمّ الكلام. ثم وصف آلهتهم بالضعف فقال: ﴿لَا

---

(١) رزئه: نقصه.

﴿يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ فكيف ينصرونهم، وقيل: معناه أن الكفار لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا يقدرون على دفع ما ينزل بهم عن نفوسهم ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أي: ولا الكفار يجارون من عذابنا، عن ابن عباس. قال ابن قتيبة: أي لا يجيرهم منا أحد، لأن المجير صاحب الجار، يقول العرب: صحبك الله أي: حفظك الله وأجارك. وقيل: يصحبون أي: ينصرون ويحفظون، عن مجاهد. وقيل: لا يصحبون من الله بخير، عن قتادة. ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ﴾ في الدنيا بنعمها، فلم نعاجلهم بالعقوبة ﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أي: طالت أعمارهم فغرَّهم طول العمر وأسباب الدنيا حتى أتوا ما أتوا ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي: ألم ير هؤلاء الكفار أن الأرض يأتيها أمرنا، فننقصها بتخريبها وبموت أهلها. وقيل: بموت العلماء، وَرُوي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام قال: نقصانها ذهاب عالمها. وقيل: معناه ننقصها من أطرافها بظهور النبي على من قاتله، أرضاً فأرضاً وقوماً فقوماً، فيأخذ قراهم وأرضيهم، عن الحسن وقتادة. ومعناه: أنا ننقصها من جانب المشركين ونزيدها في جانب المسلمين. ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ أي: أفهؤلاء الغالبون أم نحن؟ ومعناه: ليسوا بغالبين ولكنهم المغلوبون ورسول الله الغالب. وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة الرعد. ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾ أي: قل يا محمد إنما أُنذركم من عذاب الله وأخوِّفكم بما أوحى الله إليَّ ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ﴾ شبَّههم بالصم الذين لا يسمعون النداء إذا نودوا، لأنهم لم ينتفعوا بالسمع، والمعنى: أنهم يستثقلون القرآن وسماعه وذكر الحق، فهم في ذلك بمنزلة الأصم الذي لا يسمع ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ أي: يخوفون.

● **النظم:** إنما اتصل قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ بقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾، وتقديره: أفهم الخالدون أم لهم آلهة تمنع نفوسهم من الموت، ومما ينزل الله بهم، عن أبي مسلم. وقيل: اتصل بقوله ﴿مَن يَكْلَؤُكُم﴾ أي: أم لهم آلهة تكلؤهم وتمنعهم، ووجه اتصال قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾ بما قبله أنه اتصل بقوله: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم﴾، وتقديره: لو تفكروا لعلموا أنه لا عاصم من الله، وأن فيما أنذركم به من القرآن أعظم الآيات والحجج. وقيل: إنه اتصل بما تقدم من العظة بحال من مضى من الأمم، والمعنى: أن ذلك وجميع ما يعظهم به من الوحي.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر ونافع: «مثقال حبة» بالرفع، وفي لقمان مثله. والباقون

بالنصب. وقرأ: «آتينا بها» بها بالمد ابن عباس وجعفر بن محمد ومجاهد وسعيد بن جبير والعلاء بن سيابة، والباقون: «أتينا» بالقصر.

● **الحجة:** وجه النصب «وإن كان الظُّلامة مثقال حبة». وهذا أحسن لتقدم قوله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ فإذا ذكر ﴿تُظْلَمُ﴾ فكأنه ذكر الظلامة كقولهم: من كذب كان شراً له. ووجه الرفع أنه أسند الفعل إلى ﴿مِثْقَالَ﴾ كما أسند في قوله: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ أي: ذا عسرة. وكذلك قول الشاعر: «إذا كان يوم ذو كواكب أشهبا». ومن قرأ «آتينا» فهو فاعَلْنا فهو من آتى يؤاتي مؤاتاة، عن ابن جني. وَرُوِيَ عن الصادق عليه السلام أنه قال: معناه جازينا بها. وعلى هذا فيجوز أن يكون من أفْعَلْنا، ويكون مفعول «آتينا» محذوفاً وتقديره: آتيناها بها للجزاء.

● **اللغة:** النفحة: الوقعة اليسيرة تقع بهم، يقال: نَفَح يَنْفَح نَفْحاً، ونفح الطيب ينفح فله نفحة طيبة. ونفحت الدابة: إذا رمت بحافرها فضربت به. ونفحه بالسيف: إذا تناوله من بعيد، وأما حديث شريح: «إنه أبطل النفح» من نفح الدابة، فالمعنى أنه كان لا يلزم صاحبها شيئاً، والقسط: العدل، وهو مصدر يوصف به. والتقدير: ونضع الموازين ذوات القسط.

● **الإعراب:** ﴿شَيْـًٔا﴾ انتصب على أنه مفعول ثان لتظلم، ويجوز أن يكون منصوباً على المصدر أي: لا تظلم نفس ظلماً. ومن رفع ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ فإن ﴿كَانَ﴾ تكون تامة، ومن نصب فإن ﴿كَانَ﴾ ناقصة، واسمها الضمير المستكن فيها العائد إلى شيء. ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾. قال الزجاج: انتصب قوله ﴿حَٰسِبِينَ﴾ على التمييز، أو على الحال، ودخلت الباء في ﴿بِنَا﴾ لأنه خبر في معنى الأمر. والمعنى: اكتفوا بالله حسيباً. وقد رُوي عن ابن عباس أنه قرأ «ضياء» بغير واو، ويكون على هذا منصوباً على الحال من ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾، ويجوز أن يكون مفعولًا له. وبالواو يكون عطفاً على ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ وتكون الواو داخلة على ﴿ضِيَآءً﴾، وإن كان صفة في المعنى دون اللفظ، كما تدخل على الصفة التي هي صفة لفظاً. قال سيبويه: إذا قلت مررت بزيد وصاحبك، وزيد هو الصاحب، جاز. ولو قلته بالفاء لم يجز، كما جاز بالواو، لأن الفاء يقتضي التعقيب، وتأخير الاسم عن المعطوف عليه بخلاف الواو. و﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ﴾ في محل جر لأنه صفة للمتقين، ويجوز أن يكون في محل نصب أو رفع على المدح. و﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ في محل النصب على الحال.

● **المعنى:** لما تقدم الإنذار بالعذاب ذكر عقيبه ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ﴾ أي: أصابهم طرف، عن ابن عباس، وقيل: قليل، عن ابن كيسان، وقيل: نصيب، عن ابن جريج، وقيل: بعض ما يستحقونه من العقوبة، عن أبي مسلم ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي: يدعون بالويل والثبور عند نزوله. ثم قال سبحانه: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: نضع الموازين ذوات القسط ليوم القيامة. وقيل: معناه نحضر الموازين التي لا جور فيها، بل كلها عدل وقسط لأهل يوم القيامة أو في يوم القيامة. وقال قتادة: معناه نضع العدل في المجازاة بالحق لكل أحد على قدر استحقاقه، فلا يبخس المثاب بعض ما يستحقه، ولا يفعل بالمعاقب فوق ما يستحقه. وقد سبق الكلام في الميزان في سورة الأعراف. ﴿فَلَا

نُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أي: لا ينقص من إحسان محسن ولا يزاد في إساءة مسيء. ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ أي: جئنا بها، والمراد: أحضرناها للمجازاة بها ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ أي: عالمين حافظين، وذلك أن من حسب شيئاً علمه وحفظه، عن ابن عباس، وقيل: محصين. والحسب: العد، عن السدي. ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ أي: أعطيناهما التوراة يفرّق بين الحق والباطل، عن مجاهد وقتادة، وقيل: البرهان الذي فرّق به بين حق موسى وباطل فرعون، وقيل: هو فلق البحر. ﴿وَضِيَآءً﴾ أي: وآتيناهما ضياء، وهو من صفة التوراة أيضاً مثل قوله ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾، والمعنى أنهم استضاؤوا بها حتى اهتدوا في دينهم ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يذكرونه ويعملون بما فيه ويتعظون بمواعظه. ثم وصف المتقين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: في حال الخلوة والغيبة عن الناس، وقيل: في سرائرهم من غير رياء ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: من القيامة وأهوالها ﴿مُشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون ﴿وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ﴾ أراد به القرآن أنه ذكر ثابت نافع دائم نفعه إلى يوم القيامة، وقيل: سماه مباركاً لوفور فوائده من المواعظ والزواجر والأمثال الداعية إلى مكارم الأخلاق والأفعال. لما وصف التوراة أتبعه ذكر القرآن الذي أتاه نبينا ﷺ ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾: استفهام على معنى التوبيخ أي: فلماذا تنكرونه وتجحدونه مع كونه معجزاً.

● **النظم:** وجه اتصال قصة موسى وهارون بما قبلها: أنه لما تقدم ذكر الوحي، بيَّن عقيبه أن إنزال القرآن على نبيه ليس ببدع، فقد أنزل على موسى وهارون التوراة، وقيل: اتصل بقوله ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، والمعنى: أن هؤلاء كما أنهم استهزؤوا بك مع أنا أنزلنا إليك الكتاب، فكذلك قد أنزلنا على موسى وهارون الكتاب فكذبوهما واستهزؤوا بهما.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ
قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا
عَـٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ
أَنتَ مِنَ ٱللَّـٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ
ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا
كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ
﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ الكسائي: «جِذاذاً» بكسر الجيم، والباقون بضمها. وفي الشواذ قراءة ابن عباس وأبي السماك بفتح الجيم.

● **الحجة:** قال أبو حاتم فيه لغات جِذاذاً وجُذاذاً وجَذاذاً، وأجودها الضم كالحُطام والرُفات من جذذت الشيء: إذا قطعته. قال النابغة:

تجذُ السلُوقي المضاعفَ نسجُهُ ويُوقِدْنَ بالصُّفَّاحِ نارَ الحُباحبِ[(١)]

وقال جرير:

بنو المُهَلَّبِ جذَّ اللهُ دابِرَهُم أمسَوْا رماداً فلا أصلٌ ولا طَرَفُ

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه على ما تقدم من قصة موسى وهارون بقصة إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ أي: أعطينا ﴿إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ يعني: الحجج التي توصله إلى الرشد من معرفة الله وتوحيده، وقيل: معناه هداه أي: هديناه صغيراً، عن قتادة ومجاهد. وقيل: هو النبوة ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل موسى. وقيل: من قبل محمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن، وقيل: من قبل بلوغه ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ إنه أهل لإيتاء الرشد وصالح للنبوة ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ حين رآهم يعبدون الأصنام ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ والعامل في إذ قوله ﴿ءَاتَيْنَا﴾ أي: آتينا رشده في ذلك الوقت. والتمثال: اسم للشيء المصنوع مشبهاً بخلق من خلق الله، وأصله من مثلت الشيء بالشيء: إذا شبهته به، واسم ذلك الممثل تمثال، وجمعه تماثيل، وقيل: إنهم جعلوها أمثلة لعلمائهم الذين انقرضوا، وقيل: إنهم جعلوها أمثلة للأجسام العلوية، والمعنى: ما هذه الصور التي أنتم مقيمون على عبادتها. وروى العياشي بإسناده عن الأصبغ بن نباتة أن علياً عليه السلام مر بقوم يلعبون الشطرنج فقال: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون لقد عصيتم الله ورسوله. ﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ فاقتدينا بهم. اعترفوا بالتقليد إذ لم يجدوا حجة لعبادتهم إياها سوى اتباع الآباء. ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ ضلال مبين أي: في ذهاب عن الحق ظاهر. ذمَّهم على تقليد الآباء، ونسبهم في ذلك إلى الضلال. ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾ معناه: أجادٌ أنت فيما تقول، محقٌّ عند نفسك أم لاعب مازح؟ وإنما قالوا ذلك لاستبعادهم إنكار عبادة الأصنام عليهم، إذ ألفوا ذلك واعتادوه. ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ أي: بل إلهكم إله السموات والأرض الذي خلقهنَّ وابتدأهنَّ. فدلَّ على الله سبحانه بصنعه ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ ومعنى هذه الشهادة تحقيق الإخبار، والشاهد الدال على الشيء عن مشاهدة، فإبراهيم عليه السلام شاهد بالحق لأنه دال عليه بما يرجع إلى ثقة المشاهدة. ثم أقسم إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ أي: لأدبرن في بابهم تدبيراً خفياً يسوؤكم ذلك، وقيل: إنما قال ذلك في سرٍّ من قومه ولم يسمع ذلك إلا رجل منهم فأفشاه، عن قتادة ومجاهد. ﴿بعد أن تولوا مدبرين﴾ أي: بعد أن تنطلقوا ذاهبين.

قالوا: كان لهم في كل سنة مجمع وعيد، إذا رجعوا منه دخلوا على الأصنام وسجدوا لها، فقالوا لإبراهيم عليه السلام: ألا تخرج معنا، فخرج. فلما كان ببعض الطريق قال: أشتكي رجلي. وانصرف ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا﴾ أي: فجعل أصنامهم قطعاً قطعاً، عن قتادة، وقيل: حطاماً، عن ابن عباس ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ تركه على حاله. ويجوز أن يكون كبيرهم في الخلقة، ويجوز

---

(١) السلوقي: الدرع المنسوبة إلى سلوق: قرية باليمن. والصفاح: الحجر العريض. ونار الحباحب: ما اقتدح من شرر النار في الهواء من تصادم الحجارة. قاله في وصف السيوف وفي اللسان: «تقد السلوقي».

أن يكون أكبرهم عندهم في التعظيم. قالوا: جعل يكسرهم بفأس في يده حتى لم يبق إلا الصنم الكبير، علّق الفأس في عنقه وخرج. ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ أي: لعلهم يرجعون إلى إبراهيم فيسألونه عن حال الأصنام لينبّهم على جهلهم، وقيل: لعلهم يرجعون إلى الكبير فيسألونه وهو لا ينطق، فيعلمون جهل من اتخذوه إلهاً. وفي الكلام هٰهنا حذف تقديره: فلما رجع قومه من عيدهم فوجدوا أصنامهم مكسّرة ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: من هذه الموصولة تقديره: الذي فعل هذا بآلهتنا فإنه ظالم لنفسه، لأنه يقتل إذا علم به، وقيل: إنهم قالوا: من فعل هذا؟ استفهموا عمن صنع ذلك، وأنكروا عليه فعله بقولهم ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إذ فعل ما لم يكن له أن يفعله. ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ أي: قال الرجل الذي سمع من إبراهيم قوله ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ للقوم ما سمعه منه، فقالوا: سمعنا فتى يذكرهم بسوء، وقيل: إنهم قالوا: سمعنا فتى يعيب آلهتنا، ويقول: إنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع، فهو الذي كسرها. وعلى القول الأول فإنما قالوا: سمعنا فتى، وإن لم يسمعوه كما يقال: سمعت الله يقول، أو سمعت الرسول يقول إذا بلغك عنه رسالة على لسان ثقة صدوق. وقوله﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ ارتفع إبراهيم على وجهين:

أحدهما: يقال له هو إبراهيم، والمعروف به إبراهيم، وعلى النداء أي: يقال له يا إبراهيم، عن الزجاج.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

● **اللغة**: النكس: هو أن يجعل أسفل الشيء أعلاه، ومنه النكس في العلة، وهو أن يرجع إلى أول حاله. ومنه النكس وهو السهم فوقه، فيجعل أعلاه أسفله. ويقال للمائق أيضاً: نكس، تشبيهاً بذلك.

● **الإعراب**: ﴿عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾: في موضع الحال أي: مرئياً مشهوداً. ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾: هذا من وقف على ﴿فَعَلَهُۥ﴾ ففاعله مضمر وتقديره فعله من فعله، و﴿كَبِيرُهُمْ﴾ مبتدأ و﴿هَٰذَا﴾ خبره، ومن لم يقف على ﴿فَعَلَهُۥ﴾ فكبيرهم فاعله، وهذا يكون صفة لكبيرهم، أو بدلًا عنه، وجواب الشرط الذي هو قوله ﴿إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ محذوف يدل عليه قوله ﴿بَلْ

﴿فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ﴾ على الوجه الثاني. ويقتضي أن يكون للشرط جزاءان على هذا، والجزاء الثاني معطوف على الأول، التقدير: إن كانوا ينطقون فقد فعله كبيرهم هذا فاسألوهم. والمعنى: إن لم يقدروا على النطق لم يقدروا على الفعل.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه ما جرى بين إبراهيم وقومه في أمر الأصنام بقوله: ﴿قَالُوٓا۟﴾ يعني قوم إبراهيم ﴿فَأْتُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: فجيئوا به ﴿عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: بحيث يراه الناس ويكون بمشهد منهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ عليه بما قاله، فيكون ذلك حجة عليه بما فعل، عن الحسن وقتادة والسدي، قالوا: كرهوا أن يأخذوه بغير بيّنة، وقيل: معناه لعلهم يشهدون عقابه وما يصنع به، أي: يحضرونه، عن ابن إسحاق والضحاك. ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ المعنى: فلما جاؤوا به قالوا له هذا القول، مقررين له على ذلك. فأجابهم إبراهيم عليه السلام بأن ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

اختلفوا في معناه وتقديره على وجوه:

أحدها: أنه مقيَّد بقوله ﴿إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ والتقدير: فقد فعله كبيرهم إن نطقوا فاسألوهم. فقد علق الكلام بشرط ألا يوجد، فلا يكون كذباً، ويكون كقول القائل فلان صادق فيما يقول إن لم يكن فوقنا سماء.

وثانيها: أنه خرج مخرج الخبر وليس بخبر، إنما هو إلزام يدل عليه الحال، فكأنه قال ما ينكرون أن يكون فعله كبيرهم هذا، والإلزام يأتي تارة بلفظ السؤال، وتارة بلفظ الأمر، وتارة بلفظ الخبر. وربما يكون أحد هذه الأمور أبلغ فيه. ووجه الإلزام أن هذه الأصنام إن كانت آلهة كما تزعمون، فإنما فعل ذلك بهم كبيرهم لأن غير الإله لا يقدر أن يكسر الآلهة.

وثالثها: أن تقديره: فعله من فعله على ما تقدم ذكره، وهو قول الكسائي، وأما ما ذكر فيه أنه أراد به الخبر عن الكبير، وقال: إنه غضب من أن يعبد معه الصغار فكسرهنَّ، وما رُوِيَ في ذلك من أن إبراهيم عليه السلام كذب ثلاث كذبات قوله ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾، وقوله في سارة لما أراد الجبار أخذها وكانت زوجته: «إنها أختي» فمما لا يعوّل عليه. فقد دلَّت الأدلة العقلية التي لا تحتمل التأويل على أن الأنبياء لا يجوز عليهم الكذب، وإن لم يقصدوا به غروراً ولا ضرراً، كما لا يجوز عليهم التعمية في الاخبار، ولا التقية، لأن ذلك يؤدي إلى التشكيك في إخبارهم. وكلام إبراهيم عليه السلام يجوز أن يكون من المعاريض، فقد أبيح ذلك عند الضرورة، وقد صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إن الكذب لا يصلح في جد ولا هزل». وقد قيل في تفسير قوله ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾: إن معناه: أني سأسقم لأنه لما نظر إلى بعض علم النجوم وقت نوبة حمى كانت تأتيه، فقال: إني سأسقم، وقيل معناه: إني سقيم عندكم فيما أدعوكم إليه، وسنذكر الكلام فيه في موضعه. وأما قوله في سارة: «إنها أختي» فإنما أراد في الدين، قال سبحانه ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، وقد دل الدليل العقلي على أن الكذب قبيح لكونه كذباً، فلا يحسن على وجه من الوجوه. ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ معناه: فرجع بعضهم إلى بعض وقال بعضهم لبعض: أنتم الظالمون حيث تعبدون ما لا يقدر

على الدفع عن نفسه، وما نرى الأمر إلا كما قال. وقيل: معناه فرجعوا إلى عقولهم وتدبّروا في ذلك إذ علموا صدق إبراهيم فيما قاله، وحاروا عن جوابه، فأنطقهم الله بالحق فقالوا: إنكم أنتم الظالمون هذا الرجل في سؤاله، وهذه آلهتكم حاضرة فاسألوها. ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ إذ تحيَّروا وعلموا أنها لا تنطق. ثم اعترفوا بما هو حجة عليهم فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا إبراهيم ﴿مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ فكيف نسألهم؟ فأجابهم إبراهيم بعد اعترافهم بالحجة ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾﴾ أي: أفتوجّهون عبادتكم إلى الأصنام التي لا تنفعكم شيئاً إن عبدتموها، ولا تضركم إن تركتموها، لأنها لو قدرت على نفعكم وضركم لدفعت عن نفسها من دون الله سبحانه الذي يقدر على ضرركم ونفعكم، على أنه ليس كل من قدر على الضر والنفع استحق العبادة، وإنما يستحقها من قدر على أصول النعم التي هي الحياة والشهوة والقدرة وكمال العقل، وقدر على الثواب والعقاب.

ثم قال إبراهيم عليه السلام مهجناً لأفعالهم، مستقذراً لها: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال الزجاج: معنى أف لكم: تباً لأعمالكم وأفعالكم. وقد ذكرنا اختلاف القراء فيه وما قيل في تفسيره في سورة بني إسرائيل. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تتفكرون بعقولكم في أن هذه الأصنام لا تستحق العبادة ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ﴾ والمعنى: فلما سمعوا منه هذا القول قال بعضهم لبعض: حرّقوه بالنار ﴿وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي: وادفعوا عنها وعظّموها ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أي: إن كنتم ناصريها، والمعنى: فلا تنصرونها إلا بتحريقه بالنار. قال ابن عمر ومجاهد: إن الذي أشار بتحريق إبراهيم بالنار رجل من أكراد فارس، فخسف الله به الأرض ،فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة وقال وهب: إنما قاله نمرود، وفي الكلام حذف. قال السدي: فجمعوا الحطب حتى إن الرجل منهم ليمرض فيوصي بكذا وكذا من ماله فيُشترى به حطب، وحتى إن المرأة لتغزل فتشتري به حطباً، حتى بلغوا من ذلك ما أرادوا فلما أرادوا أن يلقوا إبراهيم في النار لم يدروا كيف يلقونه، فجاء إبليس فدلهم على المنجنيق، وهو أول منجنيق صنعت، فوضعوه فيها ثم رموه. ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ معناه: فلما جمعوا الحطب وألقوه في النار قلنا للنار ذلك، وهذا مثل فإن النار جماد لا يصح خطابه، والمراد: أنا جعلنا النار برداً عليه وسلامة لا يصيبه من أذاها شيء، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ والمعنى: أنه صيَّرهم كذلك، لا أنه خاطبهم وأمرهم بذلك، وقيل: يجوز أن يتكلم الله سبحانه بذلك. ويكون ذلك صلاحاً للملائكة ولطفاً لهم.

وذكر في كون النار برداً على إبراهيم وجوه:

أحدها: أن الله سبحانه أحدث فيها برداً بدلًا من شدة الحرارة التي فيها، فلم تؤذه.

وثانيها: أن الله سبحانه حال بينها وبينه فلم تصل إليه.

وثالثها: أن الإحراق إنما يحصل بالاعتمادات التي في النار صعداً، فيجوز أن يذهب سبحانه تلك الاعتمادات. وعلى الجملة فقد علمنا أن الله سبحانه منع النار من إحراقه وهو أعلم بتفاصيله.

قال أبو العالية: لو لم يقل سبحانه ﴿وَسَلَٰمًا﴾ لكانت تؤذيه من شدة بردها، ولكان بردها أشد عليه من حرها فصارت سلاماً عليه. ولو لم يقل: ﴿عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ لكان بردها باقياً على الأبد. وقال أبو عبد الله عليه السلام: لما جلس إبراهيم في المنجنيق، وأرادوا أن يرموا به في النار، أتاه جبريل عليه السلام فقال: السلام عليك يا إبراهيم ورحمة الله وبركاته ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا. فلما طرحوه دعا الله فقال: يا الله، يا واحد يا أحد، يا صمد، يا من لم يلد، ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، فحسرت النار عنه، وإنه لمحتبٍ ومعه جبرائيل عليه السلام وهما يتحدثان في روضة خضراء. وروى الواحدي بالإسناد مرفوعاً إلى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «إنّ نمرود الجبار لما ألقى إبراهيم عليه السلام في النار، نزل إليه جبرائيل عليه السلام بقميص من الجنة وطنفسة[1] من الجنة، فألبسه القميص وأقعده على الطنفسة، وقعد معه يحدثه تمام الخبر». وقال كعب: ما أحرقت النار من إبراهيم عليه السلام غير وثاقه، وقيل: إن إبراهيم عليه السلام أُلقِيَ في النار وهو ابن ست عشرة سنة. ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا﴾ معناه: أن الكفار أرادوا بإبراهيم عليه السلام كيداً أي: شراً وتدبيراً في إهلاكه. ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾ قال ابن عباس: هو أن سلط الله على نمرود وخيله البعوض، حتى أخذت لحومهم وشربت دماءهم، ووقعت واحدة في دماغه حتى أهلكته. والمعنى: أنهم كادوه، أرادوا أن يكيدوه بسوء، فانقلب عليهم ذلك.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

● **اللغة:** النافلة: العطية الخاصة. والنفل: النفع الذي يجر الحمد فيما زاد على حد الواجب. ومنها: النافلة للصلاة وهي الفضل على الفرائض. وقيل: النافلة: الغنيمة. قال الشاعر:

لله نـــافـــلـة الأعـــز الأفـــضـــل[2]

● **الإعراب:** ﴿نَافِلَةٗۖ﴾ نصب على الحال من ﴿يَعۡقُوبَ﴾، وقيل: إنه نصب على المصدر من ﴿وَوَهَبۡنَا﴾ وتقديره: وهبنا له هبة. و﴿يَهۡدُونَ﴾ صفة لأئمة، ومفعولاه محذوفان تقديره: يهدون الناس الطريق. وحذف التاء من إقامة، لأن الإضافة عوض عنها، ولا يجوز ذلك في غير الإضافة. لا يقال أقام إقاماً، كما يقال إقامة. و﴿لُوطًا﴾ منصوب بفعل مضمر يفسره هذا الظاهر، تقديره: وآتينا لوطاً آتيناه إلا أنه إذا ذكر المحذوف لم يذكر الموجود، والنصب في

(١) الطنفسة: البساط. الحصير.
(٢) هذا عجز بيت للبيد بن ربيعة.

﴿لُوطًا﴾ أحسن لتكون الجملة فعلية معطوفة على جملة فعلية. و﴿فَٰسِقِينَ﴾: يجوز أن يكون منصوباً بكونه صفة لـ ﴿قَوْمَ سَوْءٍ﴾، ويجوز أن يكون خبراً لكان، ويكون خبراً بعد خبر.

● **المعنى:** ثم بيَّن سبحانه تمام نعمته على إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ﴾ أي: من نمرود وكيده، والمعنى: ورفعناه ﴿وَلُوطًا﴾ من الهلكة، وهو ابن أخي إبراهيم، فآمن به ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ اختلف فيها فقيل: هي أرض الشام، أي: نجيناه من كُوثى إلى الشام عن قتادة قال: وإنما قال ﴿بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ لأنها بلاد خصب، وقيل: إلى أرض بيت المقدس لأن بها مقام الأنبياء، عن الجبائي. وقيل: نجاهما إلى مكة كما قال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ عن ابن عباس. ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ﴾ أي: وهبنا لإبراهيم إسحاق حين سأل الولد فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، ﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ قال ابن عباس وقتادة: نافلة راجع إلى يعقوب، فإنه زاده من غير دعاء، فهو نافلة، وقيل: إنه راجع إلى إسحاق ويعقوب جميعاً لأنه أعطاهما إياه من غير جزاء ولا استحقاق، عن مجاهد. ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ أي: وجعلنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب صالحين للنبوة والرسالة، وقيل: معناه حكمنا بكونهم صالحين، وهو غاية ما يوصف به من الثناء الجميل. ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ يقتدى بهم في أفعالهم وأقوالهم، ﴿يَهْدُونَ﴾ الخلق إلى طريق الحق وإلى الدين المستقيم ﴿بِأَمْرِنَا﴾ فمن اهتدى بهم في أقوالهم وأفعالهم، فالنعمة لنا عليه. ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ قال ابن عباس: شرائع النبوة ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ أي: إقامة الصلاة وإعطاء الزكاة ﴿وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ أي: مخلصين في العبادة ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ومعناه: وأعطينا لوطاً حكمة وعلماً، وقيل: الحكم النبوة، وقيل: هو الفصل بين الخصوم بالحق، أي: جعلناه حاكماً وعلَّمناه ما يحتاج إلى العلم به. ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ وهي قرية «سدوم» على ما رُوِيَ. والخبائث التي كانوا يعملونها هي أنهم كانوا يأتون الذكران في أدبارهم، ويتضارطون في أنديتهم. وقيل: هي ما حكى الله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ وغير ذلك من القبائح. وأراد بالقرية أهلها. ثم ذمَّهم فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله تعالى ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ﴾ أي: في نعمتنا ومنتنا ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: بسبب أنه من الصالحين الذين أصلحوا أفعالهم فعملوا بما هو الحسن منها دون القبيح، وقيل: أراد بكونه من الصالحين أنه من الأنبياء.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا

﴿مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

القراءة: قرأ أبو جعفر وابن عامر وحفص، عن عاصم وروح وزيد عن يعقوب: «لتحصنكم» بالتاء، وقرأ أبو بكر عن عاصم ورويس عن يعقوب: «لنحصنكم» بالنون، والباقون: «ليحصنكم» بالياء.

● **الحجة:** من قرأ بالياء فيجوز أن يكون الفاعل اسم الله لتقدم قوله ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ﴾. ويجوز أن يكون اللباس، لأن اللبوس بمعنى اللباس. ويجوز أن يكون داود. ومن قرأ بالتاء حمله على المعنى، لأن الدرع مؤنث، ومن قرأ بالنون: فلتقدم قوله ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ﴾.

● **اللغة:** النفش بفتح الفاء وسكونها: أن تنتشر الإبل والغنم بالليل، فترعى بلا راع. ويقال: غنم نفاش وإبل نفاش، واللبوس: اسم للسلاح كله عند العرب درعاً، أو جوشناً أو سيفاً أو رمحاً. قال الهذلي يصف رمحاً:

وَمَعِي لَبُوسٌ لِلبَئِيسِ كَأَنَّهُ رَوْقٌ بِجَبْهَةِ ذِي نِعَاجٍ مُجْفِلِ[1]

وقيل: هو كل ما يلبس من ثياب ودرع. وقيل: هو الدرع، وأصل اللباس من الاختلاط، ومنه سميت المرأة لباساً، وسمي الليل لباساً، لأنه يباشر الناس بظلمته. والإحصان: الإحراز، وأصله من المنع.

● **الإعراب:** ﴿وَنُوحًا﴾: معطوف على قوله و﴿لُوطًا﴾، وقوله ﴿إِذْ نَفَشَتْ﴾ ظرف لقوله ﴿يَحْكُمَانِ﴾، وقوله ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ يجوز أن يكون في موضع الجر بالعطف على ﴿يَحْكُمَانِ﴾ أي: وقت حكمهما في الحرث وكوننا شاهدين له. ويجوز أن يكون في موضع النصب على الحال. ﴿وَكُلًّا﴾ منصوب لأنه مفعول أول لآتينا. و﴿حُكْمًا﴾ مفعول ثان له. ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ في موضع نصب على الحال من الجبال، ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ عطف على الجبال، ويجوز أن يكون مفعولاً معه وتقديره: يسبحن مع الطير، فيكون الواو بمعنى مع.

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه قصة نوح وداود على قصة إبراهيم عليه السلام ولوط فقال: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ﴾ أي: دعا ربه فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾، وقال: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾، وغير ذلك ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل إبراهيم ولوط ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ أي: أجبناه إلى ما التمسه ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: من الغم الذي يصل حرّ إلى القلب، وهو ما كان يلقاه من الأذى طول تلك المدة، وتحمل الاستخفاف من السقاط من أعظم الكرب، ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: منعناه منهم بالنصرة حتى لم يصلوا إليه بسوء، وقيل: معناه نصرناه على القوم. ومِنْ بمعنى على، عن أبي عبيدة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ صغارهم وكبارهم وذكورهم وإناثهم ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ

---

(١) الروق: القرن من كل ذي قرن. والمجفل: المسرع شبه رمحه بقرن الثور الوحشي.

نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: وآتينا داود وسليمان حكماً وعلماً إذ يحكمان، وقيل تقديره: واذكر داود وسليمان حين يحكمان في الحرث في الوقت الذي نفشت فيه غنم القوم، أي: تفرّقت ليلاً. ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ أي: بحكمهم عالمين لم يغب عنا منه شيء. وإنما جمع في موضع التثنية لإضافة الحكم إلى الحاكم وإلى المحكوم لهم، وقيل: لأن الاثنين جمع فهو مثل قوله: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ وهو يريد أخوين.

واختلف في الحكم الذي حكما به، فقيل: إنه زرع وقعت فيه الغنم ليلاً فأكلته، عن قتادة، وقيل: كان كرماً وقد بدت عناقيده، فحكم داود بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان: غير هذا يا نبي الله. قال: وما ذاك؟ قال: يدفع الكرم إلى صاحب الغنم، فيقوم عليه حتى يعود كما كان، ويدفع الغنم إلى صاحب الكرم، فيصيب منها حتى إذا عاد الكرم كما كان، ثم دفع كل واحد منهما إلى صاحبه ماله، عن ابن مسعود، ورُويَ ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام. وقال الجبائي: أوحى الله تعالى إلى سليمان بما نسخ به حكم داود الذي كان يحكم به قبل، ولم يكن ذلك عن اجتهاد، لأنه لا يجوز للأنبياء أن يحكموا بالاجتهاد، وهذا هو الصحيح المعوّل عليه عندنا. وقال علي بن عيسى والبلخي: يجوز أن يكون ذلك عن اجتهاد، لأن رأى النبي أفضل من رأي غيره، فإذا جاز التعبد بالتزام حكم غير النبي من طرق الاجتهاد. فكيف يمنع من حكم النبي على هذا الوجه. والذي يدل على صحة القول الأول أن النبي إذا كان يوحى إليه، وله طريق إلى العلم بالحكم، فلا يجوز أن يحكم بالظن، على أن الحكم بالظن والاجتهاد والقياس قد بين أصحابنا في كتبهم أنه لم يتعبد بها في الشرع، إلا في مواضع مخصوصة. ورد النص بجواز ذلك فيها، نحو قِيَم المتلفات، وأروش الجنايات، وجزاء الصيد، والقبلة، وما جرى هذا المجرى. وأيضاً فلو جاز للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يجتهد، لجاز لغيره أن يخالفه كما يجوز للمجتهدين أن يختلفا ،ومخالفة الأنبياء تكون كفراً. هذا وقد قال الله سبحانه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ فأخبر سبحانه أنه إنما ينطق عن جهة الوحي. ويقوّي ما ذكرناه قوله تعالى ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ أي: علّمناه الحكومة في ذلك. وقيل: إن سليمان قضى بذلك وهو ابن إحدى عشرة سنة. ورُويَ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قضى بحفظ المواشي على أربابها ليلاً، وقضى بحفظ الحرث على أربابه نهاراً، ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي: وكل واحد من داود وسليمان أعطيناه حكمة. وقيل: معناه النبوة وعلم الدين والشرع. ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ قيل: معناه سيّرنا الجبال مع داود حيث سار، فعبَّر عن ذلك بالتسبيح لما فيه من الآية العظيمة التي تدعو إلى تسبيح الله وتعظيمه وتنزيهه عن كل ما لا يليق به، وكذلك تسخير الطير له تسبيح، يدل على أن مسخِّرها قادر، لا يجوز عليه ما يجوز على العباد، عن الجبائي وعلي بن عيسى، وقيل: أن الجبال كانت تجاوبه بالتسبيح وكذلك الطير يسبح معه بالغداة والعشي معجزة له، عن وهب. ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي: قادرين على فعل هذه الأشياء ففعلناها دلالة على نبوته، ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ أي: علمناه كيف يصنع الدرع، قال قتادة: أول من صنع الدرع داود عليه السلام، وإنما كانت صفائح جعل الله سبحانه الحديد في يده كالعجين، فهو أول من سردها وحلقها، فجمعت الخفة والتحصين، وهو قوله ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ

بَأۡسِكُمۡۖ﴾ أي: ليحرزكم ويمنعكم من وقع السلاح فيكم، عن السدي، وقيل: معناه من حربكم أي: في حالة الحرب والقتال، فإن البأس في اللغة هو شدة القتال. ﴿فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ﴾ لنعم الله تعالى عليكم وعلى أنبيائه قبلكم، وهذا تقرير للخلق على شكره، فإن إنعامه على الأنبياء إنعام على الخلق. وقيل: إن سبب إلانة الحديد لداود عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه كان نبياً ملكاً، يطوف في ولايته متنكراً يتعرف أحوال عماله ومتصرفيه، فاستقبله جبرائيل ذات يوم على صورة آدمي، فسلَّم عليه فرد عليه السلام وقال: ما سيرة داود؟ فقال: نعمت السيرة لولا خصلة فيه! قال: وما هي؟ قال: إنه يأكل من بيت مال المسلمين. فشكره وأثنى عليه وقال: لقد أقسم داود أنه لا يأكل من بيت مال المسلمين. فعلم الله سبحانه صدقه فألان له الحديد. كما قال: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ﴾. ورُوِيَ أن لقمان الحكيم حضره، فرآه يفعل ذلك، فصبر ولم يسأله حتى فرغ من ذلك، فقام ولبس وقال: نعمت الجنة للحرب. فقال لقمان: الصمت حكمة، وقليل فاعله.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

● **اللغة:** الريح: هو الجو يشتدُّ تارة ويضعف تارة، وهي جسم لطيف منعش، يمتنع بلطفه من القبض عليه، ويظهر للحس بحركته. والعصوف: شدة حركة الريح، عصفت تعصف عصفاً وعصوفاً: إذا اشتدت، والعصف: التبن، لأن الريح تعصفه بتطييرها له.

● **الإعراب:** ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ﴾ اللام يتعلق بـ ﴿سَخَّرۡنَا﴾. والتقدير: وسخرنا لداود الجبال وسخرنا لسليمان الريح. ﴿عَاصِفَةٗ﴾ نصب على الحال ﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ في موضع الحال أيضاً، فهو حال بعد حال. ويحتمل أن يكون حالًا عن الحال التي هي عاصفة. ﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ عطف على الريح. ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ في موضع نصب على الحال من سخرنا. وذو الحال ﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾، ويجوز أن يكون حالًا من يغوصون له، وذو الحال الواو. و﴿مَّعَهُمۡ﴾ في موضع نصب على أنه صفة بعد صفة تقديره: وأهلًا مثلهم كائنين معهم، وانتصب ﴿رَحۡمَةٗ﴾ بأنه مفعول له.

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه بقصة سليمان على ما تقدم ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ أي: وسخرنا لسليمان الريح ﴿عَاصِفَةٗ﴾ أي: شديدة الهبوب، قال ابن عباس: إذا أراد أن تعصف الريح عصفت، وإذا أراد أن ترخي أرخيت، وذلك قوله: ﴿رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ﴾. ﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ أي: بأمر سليمان ﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ﴾ وهي أرض الشام، لأنها كانت مأواه وقد سبق ذكرها في

هذه السورة. وقيل: كانت الريح تجري في الغداة مسيرة شهر، وفي الرواح كذلك، وكان يسكن بعلبك، ويبنى له بيت المقدس، ويحتاج إلى الخروج إليها وإلى غيرها. وقال وهب: وكان سليمان يخرج إلى مجلسه فتعكف عليه الطير، ويقوم له الجن والإنس حتى يجلس على سريره، ويجتمع معه جنوده، ثم تحمله الريح إلى حيث أراد. ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ فإنما أعطيناه ما أعطيناه لما علَّمناه من المصلحة. ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ﴾ أي: وسخَّرنا لسليمان من الشياطين من يغوصون له في البحر فيخرجون له الجواهر واللآلىء. والغوص: النزول إلى تحت الماء ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: سوى ذلك من الأبنية كالمحاريب والتماثيل وغيرهما ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ لئلا يهربوا منه ويمتنعوا عليه. وقيل: يحفظهم الله من أن يفسدوا ما عملوه، عن الفراء والزجاج.

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ أي: واذكر يا محمد أيوب حين دعا ربه لما امتدت المحنة به ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ أي: نالني الضر وأصابني الجهد ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي: ولا أحد أرحم منك، وهذا تعريض منه بالدعاء لإزالة ما به من البلاء، وهو من لطيف الكنايات في طلب الحاجات، ومثله قول موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾. ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ أي: أجبنا دعاءه ونداءه ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ﴾ أي: أنزلنا ما به من الأوجاع والأمراض ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ قال ابن عباس وابن مسعود: ردَّ الله سبحانه عليه أهله الذين هلكوا بأعيانهم، وأعطاه مثلهم معهم وكذلك ردَّ الله عليه أمواله ومواشيه بأعيانها، وأعطاه مثلها معها، وبه قال الحسن وقتادة وهو المَرْوي عن أبي عبد الله عليه السلام. وقيل: إنه خُيِّر أيوب فاختار إحياء أهله في الآخرة، ومثلهم في الدنيا، فأُوتيَ على ما اختار، عن عكرمة ومجاهد. قال وهب: وكان له سبع بنات وثلاثة بنين، وقال ابن يسار: سبعة بنين وسبع بنات. ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: نعمة منا عليه ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ أي: موعظة لهم في الصبر والانقطاع إلى الله تعالى والتوكل عليه، لأنه لم يكن في عصر أيوب أحد أكرم على الله منه، فابتلاه بالمحن العظيمة، فأحسن الصبر عليها. فينبغي لكل عاقل إذا أصابته محنة أن يصبر عليها، ولا يجزع، ويعلم أن عاقبة الصبر محمودة.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ﴾ أي: واذكر هؤلاء الأنبياء، وما أنعمت عليهم من فنون النعمة. ثم قال: ﴿كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ صبروا على بلاء الله والعمل بطاعته، فأما إسماعيل فإنه صبر ببلد لا زرع به ولا ضرع، وقام ببناء الكعبة. وأما إدريس فإنه صبر على الدعاء إلى الله، وكان أول من بعث إلى قومه فدعاهم إلى الدين فأبوا، فأهلكهم الله تعالى ورفعه إلى السماء السادسة، وأما ذو الكفل فاختلف فيه فقيل: إنه كان رجلًا صالحاً ولم يكن نبياً، ولكنه تكفل لنبي بصوم النهار وقيام الليل، وأن لا يغضب ويعمل بالحق، فوفى بذلك، فشكر الله ذلك له، عن أبي موسى الأشعري وقتادة ومجاهد. وقيل: هو نبي اسمه ذو الكفل، عن الحسن، قال: ولم يقص الله خبره مفصلًا. وقيل: هو إلياس، عن ابن عباس. وقيل: كان نبياً وسمِّي ذا الكفل بمعنى أنه ذو الضعف، فله ضعف ثواب غيره ممن هو في زمانه، لشرف عمله، عن الجبائي. وقيل: هو اليسع بن خطوب الذي كان مع إلياس، وليس اليسع الذي ذكره الله في القرآن، تكفل لملك جبار إن هو تاب دخل الجنة ودفع إليه كتاباً بذلك فتاب الملك، وكان اسمه كنعان فسمي ذا

الكفل. والكفل في اللغة هو الخط. وفي كتاب النبوة بالإسناد عن عبد العظيم بن عبد الله الحسني قال: كتبت إلى أبي جعفر عليه السلام، أسأله عن ذي الكفل وما اسمه، وهل كان من المرسلين، فكتب عليه السلام: إن الله بعث مائة ألف نبي وأربعة وعشرين ألف نبي، المرسلون منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا، وإن ذا الكفل منهم، وكان بعد سليمان بن داود عليه السلام، وكان يقضي بين الناس كما يقضي داود عليه السلام، ولم يغضب قط إلا لله تعالى، وكان اسمه عدوياً بن أدارين. ﴿وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ أي: وأدخلنا هؤلاء الذين ذكرناهم من الأنبياء في نعمتنا، وأراد: غمرناهم بالرحمة، ولو قال: رحمناهم، لما أفاد ذلك بل أفاد أنه فعل بهم الرحمة. ﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ أي: إنما أدخلناهم في رحمتنا لأنهم كانوا ممن صلحت أعمالهم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ يعقوب: «فظن أن لن يقدر» بضم الياء، والباقون: «نقدر» بالنون وكسر الدال، وقرأ ابن عامر وأبو بكر: «نجّى» بنون واحدة وتشديد الجيم، والباقون: «ننجي» بالنونين.

● **الحجة:** قوله﴿أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أن هذه مخففة من الثقيلة، وتقديره: ظن أنه لن نقدر عليه أي: لن نضيق عليه. ومن قرأ «لن يقدر عليه» فهو مثل الأول في المعنى، بني الفعل للمفعول به، وأُقيم الجار والمجرور مقام الفاعل. ومن قرأ «نجّي المؤمنين» بنون واحدة، قال أبو بكر السراج: هو وهم لأن النون لا تدغم في الجيم، وإنما خفيت لأنها ساكنة تخرج من الخياشيم، فحذفت في الكتابة، وهي في اللفظ ثابتة. قال أبو علي: والقول في ذلك: إن عاصماً ينبغي أن يكون قرأ بنونين، وأخفى الثانية، فظن السامع أنه مدغوم، وكذلك غيره.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه قصة يونس عليه السلام فقال: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ أي: واذكر ذا النون، والنون: الحوت، وصاحبها يونس بن متى ﴿إِذ ذَّهَبَ﴾ أي: حين ذهب ﴿مُغَـٰضِبًا﴾، لقومه، عن ابن عباس والضحاك، أي: مراغماً لهم من حيث إنه دعاهم إلى الإيمان مدة طويلة، فلم يؤمنوا حتى أوعدهم الله بالعذاب، فخرج من بينهم مغاضباً لهم قبل أن يؤذن له ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي: لن نضيّق عليه، عن عطاء وجماعة من المفسّرين، وقيل: ظن أن لن نقضي عليه ما قضيناه، والقدر بمعنى القضاء، عن مجاهد وقتادة والكلبي والجبائي، قال الجبائي: ضيّق الله عليه

الطريق حتى ألجأه إلى ركوب البحر، ثم قذف فيه فابتلعته السمكة. ومن قال: إنه خرج مغاضباً لربه وأنه ظن أن لن يقدر الله على أخذه بمعنى أنه يعجز عنه فيه، فقد أساء الثناء على الأنبياء، فإن مغاضبة الله كفر أو كبيرة عظيمة، وتجويز العجز على الله سبحانه كذلك، فكيف يجوز ذلك على نبي من أنبياء الله تعالى. وقال ابن زيد: إنه استفهام معناه التوبيخ، وتقديره: فظن أن لن نقدر عليه. وأنكره علي بن عيسى وقال: لا يجوز حذف الاستفهام من غير دليل عليه. وقد جاء في كلام العرب حذفه على خلاف ما قاله. أنشد النحويون قول عمر بن أبي ربيعة:

ثُمَّ قالوا: تحبُّها قُلْتُ بَهْراً عَدَدَ القَطْرِ والحصى والتُرابِ(١)

أي: أتحبها؟ ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ قيل: إنها ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت، عن ابن عباس وقتادة، وقيل: كان حوت في بطن حوت، عن سالم بن أبي الجعد. ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ﴾ لما أراد السؤال والدعاء، قدم ذكر التوحيد والعدل ثم قال: ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: من الذين يقع منهم الظلم، وإنما قاله على سبيل الخشوع والخضوع، لأن جنس البشر لا يمتنع منه وقوع الظلم. قال الجبائي: لم يكن يونس في بطن الحوت على جهة العقوبة من الله تعالى، لأن العقوبة عداوة للمعاقب، لكن كان ذلك على وجه التأديب، والتأديب يجوز للمكلف، وغير المكلف كتأديب الصبي وغيره، وبقاؤه في بطن الحوت حياً معجزة له ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ أي: من بطن الحوت ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ننجيهم إذا دعونا به، كما أنجينا ذا النون.

ثم قال سبحانه: ﴿وَزَكَرِيَّآ﴾ أي: واذكر زكريا ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ ودعاه يا ﴿رَبِّ﴾. ﴿لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾ بغير وارث ولا ولد يعينني على أمر الدين والدنيا في حياتي، ويرثني بعد وفاتي. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ هذا ثناء على الله سبحانه بأنه الباقي بعد فناء خلقه، وأنه خير من بقي حياً بعد ميت، وأن الخلق كلهم يموتون ويبقى هو سبحانه. ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ روى الحرث بن المغيرة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إني من أهل بيت قد انقرضوا، وليس لي ولد؟ فقال: ادع وأنت ساجد: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾، ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾، قال: ففعلت فولد لي علي والحسين. ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ بأن كانت عقيمة فجعلناها ولوداً، عن قتادة، وقيل: كانت هرمة فرددنا عليها شبابها، عن أبي مسلم، وقيل: كانت سيئة الخلق فجعلناها حسنة الخلق. ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني زكريا ويحيى. وقيل: معناه أن الأنبياء الذين تقدم ذكرهم ﴿كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: يبادرون إلى الطاعات والعبادات ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ أي: للرغبة والرهبة: رغبة في الثواب ورهبة من العقاب، وقيل: راغبين وراهبين، عن الضحاك، وقيل: رغباً ببطون الأكف، ورهباً بظهور الأكف. ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ أي: متواضعين، عن ابن عباس، وقيل: الخشوع المخافة الثابتة في القلب، عن الحسن، وقيل: معناه أنهم قالوا حال النعمة: «اللهم لا تجعلها

(١) قوله «بهراً» أي: بهرني بمعنى غلبني غلبة أي: أحبها حباً بهرني بهراً.

استدراجاً»، وحال السيئة: «اللهم لا تجعلها عقوبة بذنب سلف منا». وفي قوله سبحانه ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ دلالة على أن المسارعة إلى كل طاعة مرغب فيها، وعلى أن الصلاة في أول الوقت أفضل.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر: «وَحِرْم» بكسر الحاء بغيرألف، والباقون: «وحرام»، وهو قراءة الصادق عليه السلام. وفي الشواذ قراءة الحسن وابن أبي إسحاق: «أمة واحدة» بالرفع، وقرأ ابن عباس وقتادة: «وحَرِم» وفي رواية أخرى عن ابن عباس: «وحَرَم» وهي قراءة عكرمة وأبي العالية.

● **الحجة:** قال أبو علي: حِرْم وحرام لغتان، وكذلك حل وحلال، وكل واحد من حرم وحرام إن شئت رفعته بالابتداء لاختصاصه بما جاء بعده من الكلام، وخبره محذوف وتقديره: وحرام على قرية أهلكناها بأنهم لا يرجعون، مقضي أو ثابت أو محكوم عليه. وإن شئت جعلته خبر مبتدأ محذوف، وجعلت لا زائدة. والمعنى: حرام على قرية أهلكناها رجوعهم، كما قال: ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ﴾. وإن شئت جعلته خبر مبتدأ وأضمرت مبتدأ كما ذكرت، ويكون المعنى: حرام على قرية أهلكناها بالاستئصال رجوعهم لأنهم لا يرجعون، وتكون لا غير زائدة. والمعنى: حرام عليهم أنهم ممنوعون من ذلك، وقال الزجاج: تقديره وحرام على قرية أهلكناها أن يتقبل منهم عمل لأنهم لا يرجعون، أي: لا يتوبون أبداً، كما قال سبحانه: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ الآية. فعلى هذا يكون حرام خبر مبتدأ محذوف، وهو قوله: أن يتقبل منهم عمل. و﴿أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ في موضع نصب لأنه مفعول له. فأما من قرأ «حِرم على قرية» فإنه من حرم فهو حرم أي: قمر ماله، قال زهير:

وإن أتـاهُ خَـلـيـلٌ يـومَ مَـسْـغَـبـةٍ يـقـولُ لا غـائـبٌ مـالي ولا حَـرِمُ[(١)]

وأما حَرَم فمعناه ظاهر. ومن قرأ «أمة» بالرفع جعله بدلًا من ﴿أُمَّتُكُمۡ﴾، ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر. و﴿أُمَّةٗ﴾ منصوبة على الحال، والعامل فيها معنى الإشارة. وذو الحال الأمة الأولى، وفي الحقيقة الحال الأولى قوله ﴿وَٰحِدَةٗ﴾ التي هي صفة الأمة. كقوله تعالى: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ والتقدير: أن هذه أمتكم أمة واحدة أي: مجتمعة غير متفرقة.

---

(١) قوله «خليل» يعني به المحتاج الفقير المختل الحال. و«مغبة» بمعنى المجاعة. يصف رجلًا بالجود.

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه على ما تقدم بقصة عيسى عليه السلام فقال: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ يعني: مريم ابنة عمران، أي: واذكر مريم التي حفظت فرجها وحصنته وعفت وامتنعت من الفساد ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ أي: أجرينا فيها روح المسيح كما يجري الهواء بالنفخ، فأضاف الروح إلى نفسه على وجه الملك، تشريفاً له في الاختصاص بالذكر. وقيل: إن معناه أمرنا جبرائيل فنفخ في جيب درعها، فخلقنا المسيح في رحمها. ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ إنما قال آية ولم يقل آيتين، لأنه في موضع دلالة فلا يحتاج إلى أن تثنى، الآية فيهما أنها جاءت به من غير فحل، فتكلم في المهد بما يوجب براءة ساحتها من العيب. ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: هذا دينكم واحد، عن ابن عباس ومجاهد والحسن، وأصل الأمة الجماعة التي على مقصد واحد، فجعلت الشريعة أمة واحدة لاجتماعهم بها على مقصد واحد، وقيل: معناه جماعة واحدة في أنها مخلوقة مملوكة لله تعالى، أي: فلا تكونوا إلا على دين واحد، وقيل: معناه هؤلاء الذين تقدم ذكرهم من الأنبياء، فريقكم الذي يلزمكم الاقتداء بهم في حال اجتماعهم على الحق، كما يقال: هؤلاء أُمتنا، أي: فريقنا وموافقونا على مذهبنا. ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ﴾ الذي خلقكم ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ ولا تشركوا بي شيئاً.

ثم ذكر اليهود والنصارى بالاختلاف فقال: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ﴾ أي: فرَّقوا دينهم فيما بينهم، يلعن بعضهم بعضاً ويتبرأ بعضهم من بعض، عن الكلبي وابن زيد، والتقطع هذا بمنزلة التقطيع. ثم قال مهدداً لهم: ﴿كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾ أي: كل ممن اجتمع وافترق راجع إلى حكمنا في الوقت الذي لا يقدر فيه على الحكم سوانا، فنجازيهم بأعمالهم ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التقدير: فمن يعمل من الصالحات شيئاً، مثل صلة الرحم ومعونة الضعيف ونصر المظلوم والتنفيس عن المكروب، وغير ذلك من أنواع الطاعات، ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ شرط الإيمان، لأن هذه الأشياء لو فعلها الكافر لم ينتفع بها عند الله تعالى، ﴿فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾ أي: فلا جحود لإحسانه في عمله بل يشكر ويثاب عليه. ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ أي: نأمر ملائكتنا أن يكتبوا ذلك ويثبتوه فلا يضيع منه شيء، وقيل: كاتبون أي: ضامنون جزاءه حتى نوفر على عاملها مجموعه، ومنه الكتيبة: لأنه ضم رجال إلى رجال. ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ اختلف في معناه على وجوه:

أحدها: أن ﴿لَا﴾ مزيدة، والمعنى: حرام على قرية مهلكة بالعقوبة أن يرجعوا إلى دار الدنيا عن الجبائي. وقيل: إن معناه واجب عليها أنها إذا أُهلكت لا ترجع إلى دنياها، عن قتادة وعكرمة والكلبي، قال عطاء: يريد حتم مني، والمراد: أن الله تعالى كتب على من أُهلك أن لا يرجع إلى الدنيا قضاء منه حتماً. وفي ذلك تخويف لكفار مكة بأنهم إن عذبوا وأهلكوا لم يرجعوا إلى الدنيا كغيرهم من الأُمَمِ المهلكة، وقد جاء الحرام بمعنى الواجب في شعر الخنساء:

وإنَّ حَـراماً لا أرى الـدَّهْـرَ بـاكـيـاً ... على شَجْوَةٍ إلَّا بَكَيْتُ على صَخْرِ(١)

(١) الشجوة: الحزن. وفي نسخة مخطوطة وكذا في اللسان «على عمرو» مكان «على صخر» ونسب البيت في اللسان إلى عبد الرحمن المحاربي.

وثانيها: أن معناه حرام على قرية وجدناها هالكة بالذنوب، أن يتقبل منهم عمل، لأنهم لا يرجعون إلى التوبة.

وثالثها: أن معناه حرام أن لا يرجعوا بعد الممات، بل يرجعون أحياء للمجازاة، عن أبي مسلم. وروى محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: كل قرية أهلكها الله بعذاب، فإنهم لا يرجعون.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ
يَنسِلُونَ (٩٦) وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا
قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ (٩٧) إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ (٩٨) لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا
وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٩٩) لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ
ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ (١٠١) لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ
وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ (١٠٢) لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ
ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ (١٠٣)﴾.

● **القراءة**: قرأ أبو جعفر وابن عامر ويعقوب: «فتّحت» بالتشديد، والباقون بالتخفيف. وقد ذكرنا اختلافهم في يأجوج ومأجوج في سورة الكهف. وفي الشواذ قراءة ابن مسعود: «من كل حدث»، وقراءة ابن السميع: «حضب جهنم» ساكنة الصاد، وقراءة ابن عباس: «حضب» بالضاد مفتوحة، وقراءة علي عليه السلام وعائشة وابن الزبير وأُبيّ بن كعب وعكرمة: «حطب» بالطاء.

● **الحجة**: من خفَّف «فتحت» فلأن الفعل في الظاهر مسند إلى هذين الاسمين، وأراد فتح سدّ يأجوج ومأجوج، ومن شدَّد، حمله على الكثرة، فهو مثل ﴿مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾، والجدث: القبر بلغة أهل الحجاز. والجدف بالفاء بلغة تميم. وفي الحطب لغات، وحطب وحصب بالصاد، وحضب بالضاد، ولا يقال حصب بالصاد إلا إذا أُلقِيَ في التنور أو في الموقد. وقال أحمد بن يحيى: أصل الحصب الرمي، حطباً كان أو غيره. قال الأعشى:

فـلا تَـكُ فـي حَـرْبِـنـا مُـحْـضِـبـاً لِـتَـجْـعَـلَ قَـوْمَـكَ شَـتّـى شُـعُـوبـا[1]

فأما الحصب ساكناً بالصاد والضاد فالطرح، فهو مصدر وقع موقع اسم المفعول كالخلق والصيد بمعنى المخلوق والمصيد.

● **اللغة**: الحدب: الارتفاع من الأرض بين الانخفاض، والحدبة: خروج الظهر،

(١) الإحضاب: إثارة الحصاء وهو كناية عن إثارة الفتنة.

ورجل أحدب. والنسول: الخروج عن الشيء الملابس يقال: نسل ينسَل وينسِل. قال امرؤ القيس:

فإنْ يَكُ قَد ساءَتْك منّي خَليقةٌ فَسُلّي ثِيَابي مِنْ ثِيَابِكِ تَنْسلي[1]

ونسل ريش الطائر: إذا سقط. وقيل: النسول الخروج بإسراع نحو نسلان الذئب، قال:

نَسَلانُ الذِّئْبِ أمْسَى قَارِباً بَرَدَ اللّيلُ عَلَيْه فَنَسَلْ

وشخص المسافر شخوصاً: إذا خرج من منزله وشخص من بلد إلى بلد، وشخص بصره: إذا نظر إليه كأنه خرج إليه، والحسيس والحس: الحركة.

● **الإعراب:** ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ﴾ قال الفراء: معنى الواو الطرح، والمعنى: إذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعد الحق. قال الزجاج: الواو لا يجوز أن يطرح عند البصريين، وجواب إذا عندهم قوله: ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾ وههنا قول محذوف أي: قالوا يا ويلنا. وقوله: ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ﴾ ﴿إِذَا﴾ إذا ظرف مكان والعامل فيه ﴿شَٰخِصَةٌ﴾ وهي ضمير القصة في محل رفع بالابتداء و﴿أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مبتدأ آخر. و﴿شَٰخِصَةٌ﴾ خبر مقدم. والجملة خبر هي. وقيل: إن تمام الكلام عند قوله هي وتقديره: فإذا هي بارزة واقعة، يعني أنها من قربها كأنها وقعت. ثم ابتدأ فقال: ﴿شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ على تقديم الخبر على المبتدأ.

● **المعنى:** لما تقدم أنهم لا يرجعون إلى الدنيا، وعدهم بالرجوع إلى الآخرة وبيَّن علامة ذلك، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ﴾ أي: فتحت جهتهم، والمعنى: انفرج سد يأجوج ومأجوج بسقوط أو هدم أو كسر، وذلك من أشراط الساعة. ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ﴾ أي: وهم - يريد يأجوج ومأجوج - من كل نشز من الأرض يسرعون، عن قتادة وابن مسعود والجبائي وأبي مسلم، يعني أنهم يتفرقون في الأرض فلا ترى أكمة إلا وقوم منهم يهبطون منها مسرعين، وقيل: إن قوله هم كناية عن الخلق، يخرجون من قبورهم إلى الحشر، عن مجاهد. وكان يقرأ: «من كل جدث» يعني القبر، ويدل عليه قوله ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ﴾. ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: الموعود الصدق، ومعناه: اقترب قيام الساعة ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ معناه: فإذا القصة أن أبصار الذين كفروا تشخص في ذلك اليوم، أي: لا تكاد تطرف من شدة ذلك اليوم وهوله ينظرون إلى تلك الأهوال، عن الكلبي. ﴿يَٰوَيۡلَنَآ﴾ أي: يقولون: ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾ ﴿قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ اشتغلنا بأمور الدنيا وغفلنا عن هذا اليوم فلم نتفكر فيه ﴿بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ بأن عصينا الله تعالى، وعبدنا غيره. ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني الأصنام ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي: وقودها، عن ابن عباس، وقيل: حطبها، عن مجاهد وقتادة وعكرمة، وأصل الحصب: الرمي، فالمراد: أنهم يرمون فيها كما يرمى بالحصباء، عن الضحاك وأبي مسلم.

---

(١) كان امرؤ القيس مفركاً لا تحبه النساء، ولا تكاد امرأة تصبر معه، يخاطب في هذا البيت امرأة ويقول لها: إن ساءك خلقي فانزعي نفسي من نفسك.

ويسأل على هذا فيقال: إن عيسى عليه السلام قد عُبد، والملائكة قد عبدوا؟ والجواب: أنهم لا يدخلون في الآية، لأن ما لما لا يعقل ولأن الخطاب لأهل مكة وإنما كانوا يعبدون الأصنام. فإن قيل: فأي فائدة في إدخال الأصنام النار؟ قيل: يعذب بها المشركون الذين عبدوها فتكون زيادة في حسرتهم وغمهم، ويجوز أن يرمى بها في النار توبيخاً للكفار حيث عبدوها، وهي جماد لا تضر ولا تنفع. وقيل: إن المراد بقوله: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الشياطين. دعوهم إلى عبادة غير الله فأطاعوهم، كما قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾. ﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ خطاب للكفار، أي: أنتم في جهنم داخلون. وقيل: إن معنى لها إليها لقوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾. أي: إليها ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الأصنام والشياطين ﴿ءَالِهَةً﴾ كما تزعمون ﴿مَّا وَرَدُوهَا﴾ أي: ما دخلوا النار ولامتنعوا منها، ﴿وَكُلٌّ﴾ من العابد والمعبود ﴿فِيهَا﴾ أي: في النار ﴿خَٰلِدُونَ﴾ دائمون ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أي: صوت كصوت الحمار، وهو شدة تنفُّسهم في النار عند إحراقها لهم. ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: لا يسمعون ما يسرُّهم ولا ما ينتفعون به، وإنما يسمعون صوت المعذَّبين وصوت الملائكة الذين يعذِّبونهم، ويسمعون ما يسوؤهم، عن الجبائي، وقيل: يجعلون في توابيت من نار فلا يسمعون شيئاً ولا يرى أحد منهم أن في النار أحداً يعذب غيره، عن عبد الله بن مسعود.

قالوا: ولما نزلت هذه الآية أتى عبد الله بن الزبعرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد! ألست تزعم أن عزيراً رجل صالح، وأن عيسى عليه السلام رجل صالح، وأن مريم امرأة صالحة؟ قال: بلى. قال: فإن هؤلاء يعبدون من دون الله فهم في النار. فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ أي: الموعدة بالجنة. وقيل: الحسنى السعادة، عن ابن زيد. وكأنه يذهب إلى الكلمة بأنه سيسعد أو إلى العدة لهم على طاعتهم فأنث الحسنى ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي: يكونون بحيث لا يسمعون صوتها الذي يحس ﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ﴾ من نعيم الجنة وملاذها، ﴿خَٰلِدُونَ﴾ أي: دائمون الشهوة: طلب النفس اللذة، يقال: اشتهى شهوة، وقيل: إن الذين سبقت لهم منا الحسنى عيسى وعزير ومريم، والملائكة الذين عبدوا من دون الله وهم كارهون، استثناهم من جملة ما يعبدون من دون الله، عن الحسن ومجاهد. وقيل: إن الآية عامة في كل من سبقت له الموعدة بالسعادة. ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ أي: الخوف الأعظم وهو عذاب النار إذا أطبقت على أهلها، عن سعيد بن جبير وابن جريج. وقيل: هو النفخة الأخيرة لقوله ونفخ في الصور، ففزع من في السمٰوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، عن ابن عباس، وقيل: هو حين يؤمر بالعبد إلى النار، عن الحسن. وقيل: هو حين يذبح الموت على صورة كبش أملح وينادى: يا أهل الجنة! خلود ولا موت. ويا أهل النار! خلود ولا موت. وروى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ثلاثة على كثبان من مسك، لا يحزنهم الفزع الأكبر ولا يكترثون للحساب: رجل قرأ القرآن محتسباً، ثم أمَّ به قوماً محتسباً، ورجل أذَّن محتسباً، ومملوك أدى حق الله عز وجل وحق مواليه». ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: تستقبلهم الملائكة بالتهنئة، يقولون لهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا فأبشروا بالأمن والفوز.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿١١١﴾ قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر: «تطوي» بالتاء والضم، «السماء» بالرفع، والباقون: «نطوي» بالنون «السماء» بالنصب، وقرأ أهل الكوفة غير أبي بكر: «للكتب» على الجمع، والباقون: «للكتاب»، وقرأ حفص: «قال رب» والباقون: «قل ربي»، وقرأ أبو جعفر: «ربُ احكم» بضم الباء، وقرأ زيد عن يعقوب: «ربي احكم» وهو قراءة ابن عباس وعكرمة والجحدري وابن محيصن، والباقون: «رب احكم». وفي الشواذ قراءة الحسن: «كطي السجْل» بسكون الجيم، وقراءة أبي زرعة بن عمرو: «السُجُلّ» بضم السين والجيم وتشديد اللام. وقراءة أبي السماك: «السَّجْل» بفتح السين وسكون الميم.

● **الحجة:** من قرأ: «يوم تطوى السماء» فبنى الفعل للمفعول به. ومن قرأ: «يوم نطوي السماء» فالفاعل هو الله سبحانه، والمعنى واحد. وفي انتصاب ﴿يَوْمَ﴾ وجهان عند أبي علي، **أحدهما**: أن يكون بدلًا من الهاء المحذوفة من الصلة، ألا ترى أن المعنى: هذا يومكم الذي توعدونه، **والآخر**: أن يكون منتصباً بـ«نعيده»، والمعنى: نعيد الخلق إعادة كابتدائه أي: كابتداء الخلق. ومثله في المعنى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، وتقديره: كما بدأ خلقكم، فحذف المضاف في الموضعين وأقام المضاف إليه مقامه، والمعنى: يعود خلقكم عوداً كبدئه، ومثله في المعنى ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾. ومن أفرد الكتاب ولم يجمع فإنه واحد يراد به الكثرة. ومن قرأ ﴿لِلْكُتُبِ﴾ فإن المراد به الجمع. ومن قرأ: «قال رب» أراد قال الرسول. ومن قرأ: «قل» فهو على: قل أنت يا محمد. وقراءة أبي جعفر: «رب احكم» معناه: يا رب احكم، وهي ضعيفة عند النحويين البصريين، وقد جاء مثله في المثل وهو قولهم «أصبح ليل وأطرق كروان وأفتد مخنوق» أي: يا ليل ويا كروان ويا مخنوق. وقد جاء في الشعر وهو:

عَجِبْتُ لعطّار أتانا يَسُومُنا ... بِدِسْكَرَة المرّان دُهْنَ البَنفسج[1]

فقُلْتُ له: عطارُ هلّا أتيتَنا ... بِنَورِ الخَزامى أو بخَوْصَةِ عَرْفَجِ

(١) الدسكرة: بناء على هيئة القصر فيه بناء للخدم والحشم. ومران: موضع. وخزامى: نبت طيب الريح كذا العرفج.

أراد يا عطار. ومن قرأ: «رب احكم» فالمعنى ظاهر.

الإعراب: الكاف في قوله ﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ﴾ في محل النصب، لأنه صفة مصدر محذوف تقديره: نطوي السماء طياً مثل طي السجل، فإن كان السجل اسماً للصحيفة، فالمصدر الذي هو طي مضاف إلى المفعول في المعنى. وإن كان اسم ملك أو كاتب فهو مضاف إلى الفاعل في المعنى، فإن كان مفعولًا كان اللام بمعنى من أجل. وإن كان فاعلًا كان اللام للاختصاص. ﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ﴾ منصوب على المصدر. قال الزجاج: لأن قوله ﴿نُّعِيدُهُۥ﴾ بمعنى قد وعدنا ذلك، والأجود أن يقدر عاملًا محذوفاً لأن القراء يقفون على قوله ﴿نُّعِيدُهُۥ﴾، قال جامع العلوم: الكاف في ﴿كَمَا بَدَأْنَآ﴾ من صلة ﴿نُّعِيدُهُۥ﴾ وإن كان متقدماً، ومثله كما علّمه الله فليكتب. ﴿رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ نصب على الحال أو على أنه مفعول له. و﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ في محل رفع بإسناد يوحى إليه، وقيامه مقام الفاعل. و﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ في موضع نصب على الحال من الفاعلين والمفعولين، والتقدير: أذنتكم واستوينا نحن وأنتم. فيكون الحال من الفريقين. ﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾ في موضع رفع بأنه فاعل ﴿أَقَرِيبٌ﴾، لأنه اعتمد على همزة الاستفهام فهو كقولهم أقائم أخوك، ويجوز أن يكون مبتدأ و﴿أَقَرِيبٌ﴾ خبره، وعلى الوجهين فهما مفعولا ﴿أَدْرِىٓ﴾ أي: أعلم علقتهما همزة الاستفهام. والتقدير: أقريب ما توعدون أم بعيد. فبعيد عطف على قريب، والنية فيه التأخير. ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ مفعول ﴿أَدْرِىٓ﴾ محذوف، والتقدير: ما أدري كيف يكون الحال.

● **المعنى:** ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ﴾ المراد بالطي هنا: هو الطي المعروف، وأن الله سبحانه يطوي السماء بقدرته، وقيل: إن طي السماء ذهابها عن الحس ﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ والسجل: صحيفة فيها الكتب، عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والكلبي. وعلى هذا فمعناه نطويها كما تطوى الصحيفة المجعولة للكتاب. ويجوز أن يكون المراد بالكتاب المكتوب، وقيل: إن السجل ملك يكتب أعمال العباد، عن أبي عمرو والسدي. وقيل: هو ملك يطوي كتب بني آدم إذا رفعت إليه، عن عطاء. وقيل: هو اسم كاتب كان للنبي ﷺ، عن ابن عباس في رواية. ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ أي: كما بدأناهم في بطون أمهاتهم حفاة عراة غرلًا(١) كذلك نعيدهم، رُوِيَ ذلك مرفوعاً. وقيل: معناه نبعث الخلق كما ابتدأناه. أي: قدرتنا على الإعادة كقدرتنا على الابتداء، عن الحسن والزجاج. وقيل: معناه نهلك كل شيء كما كان أول مرة، عن ابن عباس ﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ﴾ أي: وعدناكم ذلك وعداً ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ ما وعدناكم من ذلك ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ قيل فيه أقوال:

أحدها: أن الزبور كتب الأنبياء، ومعناه: كتبنا في الكتب التي أنزلناها على الأنبياء من بعد كتابته في الذكر، أي: أم الكتاب الذي في السماء وهو اللوح المحفوظ، عن سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد، وهو اختيار الزجاج قال: لأن الزبور والكتاب بمعنى واحد، وزبرت: كتبت.

---

(١) الغرل: جمع الأغرل: الأقلف وهو الذي لم يختن.

وثانيها: أن الزبور الكتب المنزلة بعد التوراة، والذكر هو التوراة، عن ابن عباس والضحاك.

وثالثها: أن الزبور زبور داود، والذكر توراة موسى، عن الشعبي، ورُوِيَ عنه أيضاً أن الذكر القرآن، وبعد بمعنى قبل. ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ قيل: يعني أرض الجنة يرثها عبادي المطيعون، عن ابن عباس وسعيد بن جبير وابن زيد، فهو مثل قوله: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾، وقيل: هي الأرض المعروفة يرثها أمة محمد ﷺ بالفتوح بعد إجلاء الكفار، كما قال ﷺ «زويت لي الأرض فأُريت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها» عن ابن عباس في رواية أخرى. وقال أبو جعفر عليه السلام: هم أصحاب المهدي عليه السلام في آخر الزمان. ويدل على ذلك ما رواه الخاص والعام عن النبي ﷺ أنه قال: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد، لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلًا صالحاً من أهل بيتي يملأ الأرض عدلًا وقسطاً، كما قد ملئت ظلماً وجوراً». وقد أورد الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي في كتاب «البعث والنشور» أخباراً كثيرة في هذا المعنى، حدثنا بجميعها عنه حافده أبو الحسن عبيد الله بن محمد بن أحمد في شهور سنة ثماني عشرة وخمسمائة، ثم قال في آخر الباب: فأما الحديث الذي أخبرنا أبو عبد الله الحافظ بالإسناد عن محمد بن خالد الجندي عن أبان بن صالح عن الحسن عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «لا يزداد الأمر إلا شدة، ولا الناس إلا شحاً، ولا الدنيا إلا إدباراً، ولا تقوم الساعة إلا على أشرار الناس، ولا مهدي إلا عيسى بن مريم» فهذا حديث تفرَّد به محمد بن خالد الجندي. قال أبو عبد الله الحافظ: ومحمد بن خالد رجل مجهول، واختلف عليه في إسناده، فرواه مرة عن أبان بن صالح عن الحسن عن أنس عن النبي ﷺ. ومرة عن أبان بن أبي عياش وهو متروك، عن الحسن عن النبي ﷺ وهو منقطع. والأحاديث في التنصيص على خروج المهدي عليه السلام أصح إسناداً، وفيها بيان كونه من عترة النبي ﷺ هذا لفظه.

ومن جملتها ما حدثنا أبو الحسن حافده عنه قال: أخبرنا أبو علي الروذباري قال: أخبرنا أبو بكر بن داسة قال: حدثنا أبو داود السجستاني في كتاب السنن، عن طرق كثيرة ذكرها ثم قال كلهم عن عاصم المقري، عن زيد عن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجلًا مني، أو من أهل بيتي» وفي بعضها: «يواطىء اسمه اسمي، يملأ الأرض قسطاً وعدلًا كما ملئت ظلماً وجوراً» وبالإسناد قال: حدثنا أبو داود قال: حدثنا أحمد بن إبراهيم قال: حدثني عبد الله بن جعفر الرقي قال: حدثني أبو المليح الحسن بن عمر، عن زياد بن بيان، عن علي بن نفيل، عن سعيد بن المسيب، عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المهدي من عترتي من ولد فاطمة عليها السلام».

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾ يعني: إن في الذي أخبرناكم به مما توعدنا به الكفار من النار والخلود فيها، وما وعدنا به المؤمنين من الجنة والكون فيها، وقيل: معناه إن في هذا القرآن ودلائله ﴿لَبَلَٰغًا﴾ أي: كفاية ووصلة إلى البغية. والبلاغ: سبب الوصول إلى الحق ﴿لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ لله مخلصين له.

قال كعب: هم أمة محمد ﷺ الذين يصلّون الصلوات الخمس ويصومون شهر رمضان، سمّاهم عابدين. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يا محمد ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: نعمة عليهم. قال ابن عباس: رحمة للبرّ والفاجر والمؤمن والكافر، فهو رحمة للمؤمن في الدنيا والآخرة، ورحمة للكافر بأن عوفي مما أصاب الأمم من الخسف والمسخ. ورُوِيَ أن النبي ﷺ قال لجبرائيل لما نزلت هذه الآية: «هل أصابك من هذه الرحمة شيء؟ قال: نعم، إني كنت أخشى عاقبة الأمر فآمنت بك لما أثنى الله عليّ بقوله: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾»، وقد قال: «إنما أنا رحمة مهداة». وقيل: إن الوجه في أنه نعمة على الكافر أنه عرضه للإيمان والثواب الدائم، وهداه وإن لم يهتد، كمن قدم الطعام إلى جائع فلم يأكل، فإنه منعم عليه وإن لم يقبل.

وفي الآية دلالة على بطلان قول أهل الجبر في أنه ليس لله على الكافر نعمة، لأنه سبحانه بيّن أن في إرسال محمد ﷺ نعمة على العالمين، وعلى كل من أُرسل إليهم. ثم قال له عليه السلام: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: مستسلمون منقادون لذلك، بأن تتركوا عبادة غير الله. وقيل: معناه الأمر أي: أسلموا كقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ أي: انتهوا ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي: أعرضوا ولم يسلموا ﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ﴾ أي: أعلمتكم بالحرب ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: إيذاناً على سواء إعلاماً نستوي نحن وأنتم في علمه، لا استيذاناً به دونكم لتتأهبوا لما يراد بكم. ومثله قوله: ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾، وقيل: معناه أعلمتكم بما يجب الإعلام به على سواء في الإيذان، لم أبيِّن الحق لقوم دون قوم، ولم أكتمه لقوم دون قوم. وفي هذا دلالة على بطلان قول أصحاب الرموز وأن للقرآن بواطن خصَّ بالعلم بها أقوام ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ﴾ أي: وما أدري ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ يعني: أجل يوم القيامة، فإن الله تعالى هو العالم بذلك، وقيل: معناه آذنتكم بالحرب ولا أدري متى أؤذن فيه. ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾ أي: إن الله يعلم السر والعلانية ﴿وَإِنْ أَدْرِى﴾ أي: وما أدري ﴿لَعَلَّهُۥ﴾ كناية عن غير مذكور ﴿فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ أي: لعل ما آذنتكم به اختبار لكم وشدة تكليف، ليظهر صنيعكم، عن الزجاج. وقيل: لعل هذه الدنيا فتنة لكم، عن الحسن. وقيل: لعل تأخير العذاب محنة واختبار لكم لترجعوا عما أنتم عليه ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: تتمتعون به إلى وقت انقضاء آجالكم ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: فوّض أمورك يا محمد إلى الله، وقل: يا رب احكم بيني وبين من كذبني بالحق. قال قتادة: كان النبي ﷺ إذا شهد قتالاً قال: «رب احكم بالحق» أي: افصل بيني وبين المشركين بما يظهر به الحق للجميع. وقيل: معناه احكم بحكمك الحق، وهو إظهار الحق على الباطل. ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الذي يرحم عباده ﴿ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ الذي يعينهم في أمورهم، فجمع بين الرحمة والمعونة اللتين تضمنتا أصول النعم ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ من كذبكم وباطلكم في قولكم: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، وقولكم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ ، وقيل: معناه وربنا الرحمن المستعان على دفع ما تصفون.



سُورَةُ الحَجّ



مدنية/آياتها (٧٨)

مكية عن ابن عباس وعطاء، إلا آيات. قال الحسن: هي مدنية غير آيات نزلت في السفر. وقال بعضهم: غير ست آيات. وقال بعضهم: غير أربع آيات.

● **عدد آيها:** ثمان وسبعون آية كوفي، سبع آيات مكي، وست آيات مدني، خمس بصري، أربع آيات شامي.

● **اختلافها:** خمس آيات الحميم والجلود كلاهما كوفي، وعاد وثمود غير الشامي، وقوم لوط حجازي كوفي، سماكم المسلمين مكي.

● **فضلها:** أُبَيّ بن كعب قال: قال النبي ﷺ: «من قرأ سورة الحج أُعْطِيَ من الأجر كحجة حجها، وعمرة اعتمرها، بعدد من حجَّ واعتمر فيما مضى، وفيما بقي». وقال أبو عبد الله عليه السلام: من قرأها في كل ثلاثة أيام، لم يخرج من سنته حتى يخرج إلى بيت الله الحرام، وإن مات في سفره دخل الجنة.

● **تفسيرها:** لما ختم الله سورة الأنبياء بالدعاء إلى التوحيد والإعلام بأن نبيَّه رحمة للعالمين، افتتح هذه السورة بخطاب المكلفين ليتقوا الشرك ومخالفة الدين، فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ
(١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ
حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ (٢) وَمِنَ
ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ
مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ (٤) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ
مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ
وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ
طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ
لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ
ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ (٥)﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير عاصم: «سَكرى وما هم بسَكرى»، والباقون: «سكارى» في الموضعين، وفي الشواذ قراءة الأعرج والحسن بخلاف: «سُكرى» بضم السين، وقرأ أبو جعفر: «وربأت» بالهمزة، هٰهنا وفي حم، والباقون: «وربت».

● **الحجة:** قالوا: رجل سكران وامرأة سكرى، والجمعُ سُكارى وسَكارى بضم السين وفتحها، إلا أن القراءة بالضم. وأما سَكرى في الجمع فهو مثل صَرْعى وجَرْحى، وذلك لأن السكر كأنه علة لحقت عقولهم، كما أن الصرع والجرح علة لحقت أجسامهم. وفعلي مختص في الجمع بالمبتلين كالمرضى والسقمى والهلكى، وأما سُكرى بالضم فيجوز أن يكون اسماً مفرداً على فعلى بمعنى الجمع، وأما قوله: ﴿رَبَتْ﴾ فهو من ربا يربو: إذا زاد. وأما الهمز فمن ربأت القوم: إذا أشرفت عليهم عالياً لتحفظهم. وهذا كأنه ذهب إلى علو الأرض لما فيها من إفراط الربو. فإذا وصف علوها دل على أن الزيادة شاعت فيها.

● **اللغة:** الزلزلة والزلزال: شدة الحركة على الحال الهائلة. وقيل: إن أصله زل فضوعف للمبالغة. وأثبته البصريون، قالوا: إنّ زل ثلاثي وزلزل رباعي، وإن اتفق بعض الحروف في الكلمتين لأنه لا يمتنع مثل هذا، ألا ترى أنهم يقولون: دمث ودمثر وسبط وسبطر، وليس أحدهما مأخوذاً من الآخر، وإن كان معناهما واحداً، لأن الزاي ليست من حروف الزيادة، والزلزال بالفتح: الاسم. قال الشاعر:

يَعْرِفُ الجاهلُ المُضَلَّلُ أَنَّ الدَّ ... هْرَ فيه النَّكْراءُ والزِّلْزالُ

والذهول: الذهاب عن الشيء دهشاً وحيرة. يقال: ذهل عنه يذهل ذهولًا وذَهْلًا بمعنى. والذهل: السلو. قال: «صحا قلبُهُ يا عِزَّ أو كاد يَذْهَلُ»(١)، والحَمْل بفتح الحاء: ما كان في بطن أو على رأس شجرة، والحِمْل بكسر الحاء: ما كان على ظهر أو على رأس، والمريد: المتجرد للفساد. وقيل: إن أصله الملاسة فكأنه متملس من الخير. ومنه صخرة مرداء أي: ملساء، ومنه الأمرد والممرد من البناء: المتطاول المتجاوز، والمضغة: مقدار ما يمضغ من اللحم. والهمود: الدروس والدثور. قال الأعشى:

قالت قُتيلة: مَا لِجِسْمِكَ شاحِباً ... وأرى ثيابَك بالياتِ هُمَّدا(٢)

والبهيج: الحسن الصورة.

● **الإعراب:** العامل في ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ قوله: ﴿تَذْهَلُ﴾ أي: تذهل كل مرضعة في هذا اليوم عما أرضعته، ويجوز أن يكون ﴿مَا﴾ مصدرية. فيكون التقدير: تذهل كل مرضعة في هذا اليوم عن إرضاعها ولدها، ومفعول أرضعت محذوف على الوجهين. ومرضعة جار على الفعل، يقال: امرأة مرضع أي: ذات إرضاع أرضعت ولدها أو أرضعته غيرها، ومرضعة ترضع. قال امرؤ القيس:

---

(١) «عز» مرخم عزة: علم امرأة.

(٢) الشاحب: المتغير اللون من هزل، أو مرض، أو سفر.

وَمِـثْـلِكِ حُـبْـلى قـد طَـرَقْـتُ وَمُـرْضِـع   فَـأَلْهَـيْـتُـهـا عَـنْ ذي تَـمـائِـمَ مُـحْـوِلِ(١)

و﴿سُكَـٰرَىٰ﴾ نصب على الحال. وإن جعلت ﴿تَرَى﴾ بمعنى الظن، فهو المفعول الثاني له. ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾: الهاء في ﴿عَلَيْهِ﴾ يعود إلى الشيطان. والهاء في ﴿أَنَّهُۥ﴾ يحتمل وجهين أن يكون ضمير الأمر والشأن، وأن يكون عائداً إلى الشيطان. وإنما فتحت أن في قوله ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ على أحد وجهين: أن يكون عطفاً على الأولى للتأكيد والمعنى: كتب عليه أنه من تولاه يضله، وتأويله: كتب على الشيطان إضلال متوليه وهدايتهم إلى عذاب السعير، وهذا قول الزجاج، وفيه نظر، لأن الأصل في التوكيد أن لا يدخل حرف العطف بين المؤكِّد والمؤكَّد. فالقول الصحيح فيه أن يكون على معنى: فالشأن أنه يضله، فيكون مبنياً على مبتدأ مضمر. ﴿وَنُقِرُّ﴾ مرفوع بالعطف على ﴿خَلَقْنَـٰكُم﴾ أو للاستئناف. ويكون خبر مبتدأ محذوف أي: ونحن نُقِرُ. و﴿مَا نَشَآءُ﴾ يجوز أن يكون مفعول ﴿نُقِرُّ﴾، ويجوز أن يكون ظرف زمان، ويكون مفعول ﴿نُقِرُّ﴾ محذوفاً وتقديره: ونقر في الأرحام الولد مدة مشيئتنا. و﴿طِفْلًا﴾ منصوب على الحال. ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ﴾ أي: لأن تبلغوا. والجار والمجرور معطوف على محذوف تقديره لترضعوا وتشبوا ثم لتبلغوا أشدكم. ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ﴾ إذا اجتمع اللام بمعنى كي مع كي فالحكم للام، وكي: يكون بمعنى أنْ واللام يتعلق بُيرَدّ.

النزول: قال عمران بن الحصين وأبو سعيد الخدري: نزلت الآيتان من أول السورة ليلًا في غزاة بني المصطلق، وهم حيٌّ من خزاعة، والناس يسيرون، فنادى رسول الله ﷺ فحثوا المطي حتى كانوا حول رسول الله ﷺ فقرأها عليهم، فلم ير أكثر باكياً من تلك الليلة، فلما أصبحوا لم يحطوا السرج عن الدواب، ولم يضربوا الخيام، والناس ما بين باك أو جالس حزين متفكر، فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون أي: يوم ذاك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال ﷺ: ذاك يوم يقول الله تعالى لآدم: ابعث بعث النار من ولدك. فيقول آدم: من كم وكم؟ فيقول الله عز وجل: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار، وواحد إلى الجنة. فكبر ذلك على المسلمين وبكوا، وقالوا: فمن ينجو يا رسول الله؟ فقال: أبشروا فإن معكم خليقتين يأجوج ومأجوج، ما كانتا في شيء إلا كثرتاه. ما أنتم في الناس إلا كشعرة بيضاء في الثور الأسود أو كرقم في ذراع البكر أو كشامة في جنب البعير، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة، فكبَّروا. إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، فكبّروا. ثم قال: ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ثلثي أهل الجنة وإن أهل الجنة مائة وعشرون صفاً، ثمانون منها أمتي. ثم قال: ويدخل من أمتي سبعون ألفاً الجنة بغير حساب. وفي بعض الروايات أن عمر بن الخطاب قال: يا رسول الله! سبعون ألفاً؟ قال: نعم ومع كل واحد سبعون ألفاً، فقام عكاشة بن محصن فقال: يا رسول الله! ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: اللهم اجعله منهم. فقام رجل من الأنصار فقال: ادع الله أن يجعلني منهم فقال ﷺ: سبقك بها عكاشة. قال ابن عباس: كان الأنصاري منافقاً فلذلك لم يدع له.

---

(١) هذا بيت من معلقته المشهورة. يقول: فرب امرأة حبلى، وامرأة ذات رضيع، أتيتها ليلًا فشغلتها عن ولدها الذي علقت عليه العوذ، وقد أتى عليه حول كامل، فخدعت مثلهما مع اشتغالهما بأنفسهما، فكيف تتخلصين عني؟

● **المعنى:** خاطب الله سبحانه جميع المكلفين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ معناه: يا أيها العقلاء المكلفون اتقوا عذاب ربكم واخشوا معصية ربكم، كما يقال: احذر الأسد، والمراد احذر افتراسه لا عينه. ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: زلزلة الأرض يوم القيامة، عن ابن عباس والحسن والسدي، والمعنى: أنها تقارن قيام الساعة وتكون معها، وقيل: إن هذه الزلزلة قبل قيام الساعة، وإنما أضافها إلى الساعة لأنها من أشراط ظهورها وآيات مجيئها، عن علقمة والشعبي. ﴿شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ أي: أمر عظيم هائل لا يطاق. وقيل: معناه أن شدة يوم القيامة أمر صعب. وفي هذا دلالة على أن المعدوم يسمى شيئاً، فإن الله سبحانه سماها شيئاً وهي معدومة. ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ معناه: يوم ترون الزلزلة أو الساعة ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ أي: تشغل كل مرضعة عن ولدها وتنساه، وقيل: تسلو عن ولدها ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ أي: تضع الحبالى ما في بطونها، وفي هذا دلالة على أن الزلزلة تكون في الدنيا، فإن الرضاع ووضع الحمل إنما يتصور في الدنيا. قال الحسن: تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام، وتضع الحامل ما في بطنها لغير تمام. ومن قال: إن المراد به يوم القيامة قال: إنه تهويل لأمر القيامة وتعظيم لما يكون فيه من الشدائد، أي: لو كان ثم مرضعة لذهلت، أو حامل لوضعت، وإن لم يكن هناك حامل ولا مرضعة. ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ من شدة الخوف والفزع ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ من الشراب، وقيل: معناه كأنهم سكارى من ذهول عقولهم لشدة ما يمر بهم، لأنهم يضطربون اضطراب السكران. ثم علل سبحانه ذلك فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فمن شدته يصيبهم ما يصيبهم ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: هذا إخبار عن المشركين الذين يخاصمون في توحيد الله سبحانه ونفي الشرك بغير علم منهم، بل للجهل المحض، وقيل: إن المراد به النضر بن الحرث فإنه كان كثير الجدال، وكان يقول: الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين، وينكر البعث ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ يغويه عن الهدى ويدعوه إلى الضلال، وإن كان المراد بالآية النضر بن الحرث فالمراد بالشيطان المريد: شيطان الإنس، لأنه كان يأخذ من الأعجام واليهود ما يطعن به على المسلمين ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ معناه: أنه يتبع كل شيطان كتب الله على ذلك الشيطان في اللوح المحفوظ أنه يضل من تولاه فكيف يتبع مثله ويعدل بقوله عمن دعاه إلى الرحمة. وقيل: معناه كتب على الشيطان أنه من تولاه أضله الله تعالى. وقيل: معناه كتب على المجادل بالباطل أن من اتبعه ووالاه يضله عن الدين ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

ثم ذكر سبحانه الحجة في البعث لأن أكثر الجدال كان فيه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ﴾ أي: في شك ﴿مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ والنشور، والريب: أقبح الشك ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ معناه: فالدليل على صحته أنا خلقنا أصلكم، وهو آدم عليه السلام، من تراب، فمن قدر على أن يُصَيِّر التراب بشراً سوياً حياً في الابتداء، قدر على أن يحيي العظام ويعيد الأموات. ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ معناه: ثم خلقنا أولاده ونسله من نطفة في أرحام الأمهات، وهي الماء القليل يكون من الذكر والأنثى، وكل ماء صاف فهو نطفة قلَّ أم كثر ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ بأن تصير النطفة علقة وهي: القطعة من الدم الجامد ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ أي: شبه قطعة من اللحم ممضوغة. فإن معنى

المضغة مقدار ما يمضغ من اللحم، ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أي: تامة الخلق وغير تامة، عن ابن عباس وقتادة. وقيل: مصورة وغير مصورة، وهي ما كان سقطاً لا تخطيط فيه ولا تصوير، عن مجاهد. ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ معناه: لندلكم على مقدورنا بتصريفكم في ضروب الخلق، أو لنبيِّن لكم أن من قدر على الابتداء قدر على الإعادة، أو لنبيِّن لكم ما يزيل ريبكم فحذف المفعول. ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معناه: ونبقي في أرحام الأمهات ما نشاء إلى وقت تمامه، عن مجاهد، وقيل: ونقر من قدرنا له أجلًا مسمى في رحم أمه إلى أجله ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي: نخرجكم من بطون أمهاتكم وأنتم أطفال، والطفل: الصغير من الناس، وإنما وحَّد والمراد به الجمع لأنه بمعنى المصدر كقولهم: رجل عدل، ورجال عدل. وقيل: أراد ثم نخرج كل واحد منكم طفلًا. ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ وهو حال اجتماع العقل والقوة وتمام الخلق، وقيل: هو وقت الاحتلام والبلوغ، وقد سبق تفسير الأشد واختلاف العلماء في معناه ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ أي: قبل بلوغ الأشد أي: يقبض روحه فيموت في حال صغره أو شبابه ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ أي: أسوأ العمر وأخبثه عند أهله، وقيل: أحقره وأهونه وهي حال الخوف. وإنما صار أرذل العمر لأن الإنسان لا يرجو بعده صحة وقوة، وإنما يرتقب الموت والفناء بخلاف حال الطفولية والضعف، الذي يرجى له الكمال والتمام بعدها.

﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ أي: لكيلا يستفيد علماً وينسى ما كان به عالماً. وقيل: معناه لكي يصير إلى حال ينعدم عقله أو يذهب عنه علومه هرماً، فلا يعلم شيئاً مما كان علمه. وإذا ذهب أكثر علومه جاز أن يطلق عليه ذهاب الجميع. قال عكرمة: من قرأ القرآن لم يصر بهذه الحالة، واحتجَّ بقوله ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: قرأوا القرآن.

ثم ذكر سبحانه دلالة أخرى على البعث فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ يعني: هالكة، عن مجاهد، أي: يابسة دارسة من أثر النبات ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾ وهو المطر ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ أي: تحركت بالنبات، والاهتزاز: شدة الحركة في الجهات ﴿وَرَبَتْ﴾ أي: زادت أي: أضعفت نباتها. وقيل: انتفخت لظهور نباتها، عن الحسن، ﴿وَأَنۢبَتَتْ﴾ يعني الأرض ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ أي: من كل صنف ﴿بَهِيجٍ﴾ مؤنق للعين حسن الصورة واللون.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾.

● **الإعراب:** ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾ منصوب على الحال، تقديره: ثانياً عطفه. ﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ له خزي مبتدأ وخبر. وفي يتعلق بما يتعلق به اللام، والمبتدأ وخبره في محل الرفع بأنه

خبر. و﴿مَن يُجَٰدِلُ﴾ خبر بعد خبر. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ و﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾: يجوز أن يكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، والجار والمجرور في موضع الخبر، ويجوز أن يكون التقدير الأمر ذلك فيكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف.

● **المعنى:** لما قدَّم سبحانه ذكر الأدلة، عقَّبه بما يتصل به، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ معناه: ذلك الذي سبق ذكره من تصريف الخلق على هذه الأحوال وإخراج النبات. بسبب أن الله هو الحق أي: ليعلموا أنه الذي يحق له العبادة دون غيره، وقيل: هو الذي يستحق صفات التعظيم ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لأن من قدر على إنشاء الخلق فإنه يقدر على إعادته. ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أما المعدومات فيقدر على إيجادها، وأما الموجودات فيقدر على إفنائها وإعادتها، ويقدر على جميع الأجناس ومن كل جنس على ما لا نهاية له. ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: وليعلموا أن القيامة آتية لا شك فيها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ أي: يحييهم للجزاء، لأن ما ذكرناه يدل على البعث على الوجه الذي بيَّناه. ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ سبق تفسيره ﴿وَلَا هُدًى﴾ أي: لا يرجع فيما يقوله إلى علم ولا دلالة ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أي: مضيء، له نور يؤدي من تمسك به إلى الحق، والمعنى: أنه لا يتبع أدلة العقل ولا أدلة السمع وإنما يتبع الهوى والتقليد، وفي هذا دلالة على أن الجدال بالعلم صواب، وبغير العلم خطأ، لأن الجدال بالعلم يدعو إلى اعتقاد الحق، وبغير العلم يدعو إلى اعتقاد الباطل. ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾ أي: متكبراً في نفسه، عن ابن عباس. يقول العرب: ثنى فلان عطفه إذا تكبر وتجبَّر. وعطفا الرجل: جانباه من عن يمين أو شمال، وهو الموضع الذي يعطفه الإنسان أي: يلويه ويميله عند الإعراض عن الشيء، وقيل: معناه لاوي عنقه إعراضاً وتكبراً عن الله ورسوله، عن قتادة ومجاهد ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: ليضل الناس عن الدين، ومن فتح الياء أراد: ليضل هو عن طريق الحق المؤدي إلى توحيد الله. ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي: هوان وذل وفضيحة بما يجري له على ألسنة المؤمنين من الذم، وبالقتل وغير ذلك ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي: النار التي تحرقهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: يقال له ذلك العذاب ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ أي: بما كسبت يداك ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ في تعذيبه، لأن الله لا يظلم ولا يعاقب ابتداء ولا يزيد على الجزاء، وفي هذا دلالة واضحة على بطلان مذهب المجبرة الذين ينسبون كل ظلم في العالم إلى الله تعالى.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن

كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾».

● **القراءة:** قرأ روح وزيد عن يعقوب: «خاسر الدنيا والآخرة» بالجر، وهو قراءة مجاهد وحميد بن قيس. والباقون: «خسر» بغير ألف، «والآخرة» بالنصب. وقرأ أهل البصرة وابن عامر وورش: «ثم ليقطع» بكسر اللام، والباقون بسكونها. وكذلك «ثم ليقضوا» وزاد ابن عامر «وليوفوا وليطوّفوا» بالكسر فيهما أيضاً، وقرأ أبو بكر: «وليوفّوا» بتشديد الفاء، والأعشى عنه بكسر اللام أيضاً. والباقون: «وليوفوا» ساكنة الواو خفيفة الفاء.

● **الحجة:** من قرأ: «خسر الدنيا والآخرة» فإن هذه الجملة تكون بدلاً من قوله: «انقلب على وجهه» فكأنه قال: وإن أصابته فتنة خسر الدنيا والآخرة، ومثله قول الشاعر:

إنْ يَجْبنوا أو يَغدِروا أو يبْخَلوا لا يَحْفِلُوا   يَغدُوا علَيْكَ مُرَجَّلِينَ كأنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا

فقوله: «يغدوا عليك» بدل من لا يحفلوا. ومن قرأ: «خاسر الدنيا والآخرة» فإنه منصوب على الحال. وأما قوله: «ثم ليقطع» فإن أصل هذه اللام الكسر، فإذا دخلها الواو والفاء أو ثم، فمن أسكنها مع الفاء والواو، فإن الفاء والواو يصيران كشيء واحد في نفس الكلمة، لأن كل واحد منهما لا ينفرد بنفسه، فصار بمنزلة كتف وفخذ. فأما ثم فهو منفصل عن الكلمة، وليست كالواو والفاء، فمن أسكن اللام معها شبَّه الميم في ثم بالفاء والواو، وجعله كقولهم: أراك مُنْتَفْخاً، كقول العجاج: «أراك منتصباً وما تكردسا»، ومثل ذلك قولهم: وَهْيَ فَهْيَ.

● **اللغة:** الحرف والطرف والجانب نظائر، والاطمئنان: التمكن، والفتنة هٰهنا المحنة، والانقلاب: الرجوع، والعشير: الصاحب المعاشر أي: المخالط. والنصرة: المعونة، وقيل: إن النصرة هٰهنا الرزق، تقول العرب: من ينصرني نصره الله أي: من أعطاني أعطاه الله. قال الفقعسي(١):

وإنَّـكَ لا تُـعْـطِـي امْـرءاً فـوق حـظّـه   ولا تـملِكُ الشِّق الذي الغَيْثُ نَاصِرُهُ

أي: معطيه وجائده. ويقال: نصر الله أرض فلان أي: جاد عليها بالمطر، والسبب: كل ما يتوصل به الشيء، ومنه قيل للحبل سبب، وللطريق سبب، وللباب سبب.

● **الإعراب:** ﴿يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ قال الزجاج: اختلف الناس في تفسير هذه اللام، فقال البصريون والكوفيون: معنى هذه اللام التأخير، والتقدير: يدعو من لضرّه أقرب من نفعه، ولم يشرحوه، قال: وشرحه أن اللام لليمين والتوكيد، فحقها أن تكون في أول الكلام فقدمت لتجعل في حقها، وإن كان أصلها أن يكون في آخره، كما أن لام أن حقها أن تكون في الابتداء. فلما لم يجز أن تلي أن جعلت في الخبر مثل قولك: إن زيداً لقائم، فهذا قول. وقالوا أيضاً: إن ﴿يَدْعُوا﴾ معه هاء مضمرة وأن ﴿ذَٰلِكَ﴾ في موضع رفع، و﴿يَدْعُوا﴾ في

(١) ونسبه الشريف المرتضى في (الأمالي) إلى مضرس بن ربعي.

موضع الحال، المعنى: ذلك هو الضلال البعيد يدعوه أي: في حال دعائه إياه. ويكون ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ﴾ مستأنفاً مرفوعاً بالابتداء، وخبره ﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾، وفيه وجه آخر أغفله الناس وهو أن يكون ذلك في تأويل الذي، وهو موضع نصب لوقوع ﴿يَدۡعُواْ﴾ عليه. ويكون ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ مستأنفاً وهو مثل قوله: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ ومعناه: وما التي بيمينك. وقال أبو علي: إن اللامات التي هي حروف دالة على معان سوى الجارة والتي للأمر، على أربعة أضرب:

أحدها: تدخل على خبر إن إذا خففت أو على غير خبرها، ليفصل بين إن النافية والمؤكدة، مثل قوله: ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ﴾ و﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾.

والثاني: يختص بالدخول على الفعل المضارع والماضي، ويكون جواباً للقسم نحو قوله: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾، وقول امرىء القيس: «لناموا فما إن مِنْ حديثٍ ولا صالِ»[1].

والثالث: يدخل في الشرط إذا كان جزاؤه معتمداً على قسم، نحو قوله: ﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا لَّظَلُّواْ﴾.

والرابع: يختص بالدخول على الأسماء المبتدأة، وهي التي تدخل على خبر إنَّ، ويدخل على الفعل المضارع إذا كان للحال، وكان خبراً لأن، وهو أحد جهتي مضارعة الفعل المضارع للاسم، وقد تدخل هذه اللام في ضرورة الشعر على خبر المبتدأ في غير إنَّ، وذلك كقوله: «أُمُّ الحُلَيْس لَعَجُوزٌ شَهْرَبَة»[2]. وكما حكى أبو الحسن في حكاية نادرة إن زيداً وجهه لحسن. فإذا كان هذه اللام حقها أن تدخل على المبتدأ أو على اسم إن أو خبرها، من حيث أدخلها على المبتدأ، وكان دخولها على خبر المبتدأ ضرورة، مع أنه المبتدأ في المعنى، فدخوله في الموصول والمراد به الصلة، ينبغي أن لا يجوز لأن الصلة ليست بالموصول، كما أن خبر المبتدأ ليس المبتدأ. فمن زعم أن اللام في ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ حكمها أن تكون في المبتدأ الذي في الصلة، ثم قدم على الموصول، كان مخطئاً. وأيضاً فإن اللام إذا كان حكمه أنه يكون في الصلة، ثم قدم على الموصول، فذلك غير سائغ، كما أن سائر ما يكون في الصلة لا يتقدم على الموصول.

قال: والوجه في ذلك أن يجعل قوله: ﴿يَدۡعُواْ﴾ تكراراً للفعل الأول على جهة تكثير هذا الفعل الذي هو الدعاء من فاعله، ولا تجعلها متعدية إذ قد تعدت مرة. ويجوز أن تجعل مع ﴿يَدۡعُواْ﴾ هاء مضمرة ويكون في موضع نصب على الحال من ذلك، فكأنه قال: ذلك هو الضلال البعيد مدعواً. ويجوز أن تجعل ذلك هو الضلال البعيد مفعول يدعو، على أن يكون ذلك في معنى الذي ويكون هو الضلال البعيد صلته، كما قال أبو إسحاق أيضاً. فتكون اللام في هذه الوجوه داخلة على اسم مبتدأ موصول، ولا موضع للجملة التي هي ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ

(١) وقبله: «حلفت لها بالله حلفة فاجر». والشعر بتمامه في (جامع الشواهد).

(٢) وبعده: «ترضى من اللحم بعظم الرقبة». والشعر في (جامع الشواهد).

﴿مِن نَّفۡعِهِۦ﴾ الآية. لأنها لا تقع موقع مفرد، ويكون اللام في قوله ﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾ في موضع رفع لوقوعه خبر المبتدأ وتكون هذه اللام لليمين، فهذا ما يجب أن تحمل الآية عليه. وأقول: إن إعرابه على **الوجه الأول**: أن يكون ﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ﴾ مفعول ﴿يَدۡعُواْ﴾ و﴿وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ معطوفاً عليه. و﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ. و﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ خبره. و﴿يَدۡعُواْ﴾ تكراراً للفعل الأول. وعلى **الوجه الثاني**: يكون ﴿يَدۡعُواْ﴾ حالاً من معنى الإشارة في ﴿ذَٰلِكَ﴾، وعلى **الوجه الثالث**: يكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ اسماً موصولاً بمعنى الذي، والجملة صلته، والموصول والصلة في موضع نصب بأنه المفعول ليدعو. واللام في ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ لام الابتداء، والموصول والصلة في موضع رفع بالابتداء. و﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ جواب القسم، والقسم والمقسم في موضع رفع بأنه خبر المبتدأ. والعائد إلى المبتدأ هو الضمير المحذوف من الجملة، لأن التقدير: لبئس المولى هو، ولبئس العشير هو. قال الزجاج: وفيه وجه آخر، وهو أن يكون ﴿يَدۡعُواْ﴾ في معنى يقول: ويكون ﴿مِن﴾ في موضع رفع، وخبره محذوف. ويكون المعنى: لمن ضره أقرب من نفعه هو مولاي، ومثله قول عنترة:

يَدْعُونَ عَنْتَرَ والرِّماحُ كَأَنَّها ... أَشْطانُ بِئْرٍ في لَبانِ الأَدْهَمِ(١)

أي: يقولون يا عنتر! ويجوز أن يكون ﴿يَدۡعُواْ﴾ في معنى يسمى، كما قال ابن أحمر:

أَهْوَى لَهَا مِشْقَصاً حَشْراً فَشَبْرَقَها ... وكُنْتُ أَدْعُو قَذَاها الإِثْمِدَ الفَرْدُ(٢)

وأقول: إنما قال خبر المبتدأ هنا محذوف، لأن من يعبد الصنم لا يقول لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى، فلذلك قدر الخبر محذوفاً.

النزول: قيل: نزلت هذه الآية ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ في جماعة كانوا يقدمون على رسول الله ﷺ المدينة، فكان أحدهم إذا صح جسمه، ونتجت فرسه، وولدت امرأته غلاماً، وكثرت ماشيته، رضي به واطمأن إليه، وإن أصابه وجع في المدينة وولدت امرأته جارية قال: ما أصبت في هذا الدين إلا شراً، عن ابن عباس.

● **المعنى**: لما تقدّم ذكر الكفار وما تعاطوه من الجدال، ذكر سبحانه بعده حال مقلدة الضلال والدعاة إلى الضلال، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ أي: على ضعف في العبادة كضعف القائم على حرف. أي: طرف حبل أو نحوه. عن علي بن عيسى قال: وذلك من اضطرابه في طريق العلم إذا لم يتمكن من الدلائل المؤدية إلى الحق، فينقاد لأدنى شبهة لا يمكنه حلها، وقيل: على حرف أي: على شك، عن مجاهد، وقيل: معناه أنه يعبد الله بلسانه دون قلبه، عن الحسن قال: الدين حرفان أحدهما اللسان والثاني القلب، فمن اعترف بلسانه ولم يساعده قلبه فهو على حرف.

---

(١) هذا بيت من المعلقة. الشطن: الحبل الذي يستقى به. واللبان: الصدر، شبه النصل الطويل بحبال البئر.

(٢) وسنان حشر أي: دقيق. وشبرقها أي: مزقها، والأثمد: حجر يكتحل به. والقذى: ما يقع في العين من تبنة وغيرها.

﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ أي: أصابه رخاء وعافية وخصب وكثرة مال، اطمأن على عبادة الله بذلك الخير ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ أي: اختبار بجدب وقلة مال ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي: رجع عن دينه إلى الكفر، والمعنى: انصرف إلى وجهه الذي توجه منه وهو الكفر ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ أي: خسر الدنيا بفراقه وخسر الآخرة بنفاقه ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: الضرر الظاهر لفساد عاجله وآجله. وقيل: خسر في الدنيا العز والغنيمة، وفي الآخرة الثواب والجنة ﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ أي: يدعو هذا المريد بعبادته سوى الله، ما لا يضره إن لم يعبده، وما لا ينفعه إن عبده ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي فعل ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ عن الحق والرشد، يدعوه على الوجه الآخر معناه ﴿يَدْعُوا۟﴾ الذي هو الضلال البعيد. ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾: قال السدي: يعني الذي ضره في الآخرة بعبادته إياه أقرب من النفع، وإن كان لا نفع عنده، ولكن العرب تقول لما لا يكون: هذا بعيد. ونفع الصنم بعيد لأنه لا يكون، فلما كان نفعه بعيداً قيل لضره: إنه أقرب من نفعه على معنى أنه كائن. ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ أي: لبئس الناصر هو ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ أي: الصاحب المعاشر المخالط هو يعني الصنم يخالطه العابد ويصاحبه.

ولما ذكر الشاك في الدين بالخسران، ذكر ثواب المؤمنين على الإيمان فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله وصدَّقوا رسله ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ بأوليائه وأهل طاعته من الكرامة، وبأعدائه وأهل معصيته من الإهانة، لا يدفعه دافع ولا يمنعه مانع. ثم قال: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ الهاء في ﴿يَنصُرَهُ﴾ عائدة إلى النبي ﷺ، عن ابن عباس وقتادة، والمعنى: من كان يظن أن الله لن ينصر نبيه محمداً ﷺ ولا يعينه على عدوه ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: فليشدد حبلًا في سقفه ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أي: ليمدد ذلك الحبل حتى ينقطع فيموت مختنقاً، والمعنى: فليختنق غيظاً حتى يموت فإن الله ناصره ولا ينفعه غيظه، وهو قوله: ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ﴾ أي: صنعه وحيلته. ﴿مَا يَغِيظُ﴾ ما بمعنى المصدر أي: هل يذهبن كيده غيظه، عن قتادة وأكثر المفسرين، وقيل: فليمدد بسبب إلى السماء معناه: فليطلب شيئاً يصل به إلى السماء المعروفة ثم ليقطع نصر الله ووحي الله عن محمد ﷺ، وليزل بكيده ما يغيظه من نصر الله له، ونزول الوحي عليه، أي: لا يتهيأ له ذلك ولا سبيل له إليه فليتجرع ما يغيظه. وإنما قال سبحانه ذلك على وجه التبعيد أي: كما لا يتهيأ لهم الوصول إلى السماء، كذلك لا يتهيأ لهم إزالة ما يغيظهم من أمر رسول الله ونصره على أعدائه دائماً. وإنما ذكر السماء لأن النصر يأتيه من قبل السماء ومن الملائكة، عن أبي علي الجبائي. وقيل: إن الهاء في ﴿يَنصُرَهُ﴾ عائدة إلى ﴿مَن﴾، عن مجاهد والضحاك وأبي مسلم. ثم اختلف في معناه فقيل: من كان يظن من الناس أن الله لا ينصره، فليجهد جهده وليصعد السماء ثم ليقطع المسافة، فلينظر هل ينفعه كيده في إزالة غيظه لما يدعى إليه من دين الله، فإن الذي حكم الله به لا يبطل بكيد الكائد، عن أبي مسلم. وقيل: المراد بالنصر الرزق. ويقال: أرض منصورة أي: ممطورة، والمعنى: من ظن أن الله لا يرزقه في الدنيا والآخرة، فليختنق نفسه أي:

لا يمكنه تكثير رزقه أي: كما لا يقدر أن يزيد فيما رزقه الله بهذا النوع من الكيد، كذلك لا يقدر عليه بسائر أنواع الكيد. وهذا مثل ضربه الله لهذا الجاهل الذي يسخط لما أعطاه الله أي: مثله مثل من فعل بنفسه هذا.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾.

● **الإعراب:** خبر ﴿إِنَّ﴾ الأولى جملة الكلام مع ﴿إِنَّ﴾ الثانية وزعم الفراء أن قولك: إن زيداً إنه لقائم. ورُوِيَ أنَّ هذه الآية إنما صلحت في الذي. قال الزجاج: لا فرق بين الذي وغيره في باب إنَّ. إنْ قلت: إنَّ زيداً إنه قائم، كان جيداً، قال جرير:

إنّ الخليفة إنّ الله سَرْبَلَهُ ... سِرْبالَ مُلْكٍ به تُرْجى الخواتيمُ

● **المعنى:** ثم بيَّن سبحانه أنه نزَّل الآيات حجة على الخلق فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثل ما تقدم من آيات القرآن ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني القرآن ﴿ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: حججاً واضحات على التوحيد والعدل والشرائع. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ أي: وأنزلنا إليك أن الله يهدي إلى الدين من يريد، وقيل: إلى النبوة، وقيل: إلى الثواب، وقيل: يهدي من يهتدي بهداه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بمحمد ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ وهم اليهود ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ ظاهر المعنى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يبيِّن المحق من المبطل بما يضطر إلى العلم بصحة الصحيح، فيبيض وجه المحق، ويسود وجه المبطل. والفصل: التمييز بين الحق والباطل. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: عليم مُطَّلِع على ما من شأنه أن يشاهد بعلمه قبل أن يكون، لأنه علام الغيوب.

ثم خاطب النبي ﷺ والمراد به جميع المكلفين فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم تعلم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من العقلاء ﴿وَٱلشَّمْسُ﴾ أي: ويسجد الشمس ﴿وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ وصف سبحانه هذه الأشياء بالسجود، وهو الخضوع والذل والانقياد لخالقها فيما يريد منها ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني: المؤمنين الذين يسجدون لله تعالى، وانقطع ذكر الساجدين ثم ابتدأ فقال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: ممن أبى السجود ولا يوحّده سبحانه. قال الفراء: قوله ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ يدل على أن المعنى: وكثير

أبي السجود، لأنه لا يحق عليه العذاب إلا بتركه السجود. ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ معناه: من يهنه الله بأن يشقيه ويدخله جهنم فما له من مكرم بالسعادة أي: بإدخاله الجنة، لأنه لا يملك العقوبة والمثوبة سواه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ من الإنعام والانتقام بالفريقين من المؤمنين والكافرين.

●●●

قوله تعالى: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل المدينة وعاصم: «ولؤلؤاً» بالنصب، وفي سورة فاطر مثله. والباقون بالجر في الموضعين، إلا يعقوب فإنه قرأ: «هٰهنا» بالنصب، وفي فاطر بالجر. وترك أبو جعفر وأبو بكر وشجاع الهمزة الأولى منه في جميع القرآن. وفي الشواذ قراءة ابن عباس: «يحلون» بفتح الياء وتخفيف اللام.

● **الحجة:** قال أبو علي: وجه الجر في «لؤلؤ» أنهم يحلون فيها من أساور من ذهب ومن لؤلؤ. ووجه النصب أنه على «ويحلون لؤلؤاً»، ويجوز أن يكون عطفاً على موضع الجار والمجرور لأن المعنى في «يحلون فيها من أساور»: يحلون أساور. وقال ابن جني: يحلون من حلي يحلى يقال: لم أحل منه بطائل، أي: لم أظفر. ويجوز أن يكون من قولهم: امرأة حالية. أي: ذات حلي.

● **اللغة:** الخصم: يستوي فيه الواحد والجمع والذكر والأنثى، يقال: رجل خصم، ورجلان خصم، ورجال خصم ونساء خصم، وقد يجوز في الكلام: هذان خصمان اختصموا، وهؤلاء خصم اختصموا. قال الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾، وهكذا حكم المصادر إذا وصف بها أو أخبر بها نحو: عدل ورضى وصوم وفطر وزور وحري وقمن، وما أشبه ذلك. وإنما قال في الآية ﴿خَصْمَانِ﴾ لأنهما جمعان وليسا برجلين. ومثله ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾.

والحميم: الماء المغلي، والصهر: الإذابة يقال: صهرته فانصهر. قال:

تـروي لَقـىً أُلـقـيَ فـي صَـفْـصَـفٍ تَـصْـهَـرُهُ الـشَّـمْـسُ فـلا يَـنْـصَـهِـرْ(١)

---

(١) قائله: ابن أحمر يصف فرخ قطاة. قوله: «تروى» أي: تسوق إليه الماء أي تصير له كالراوية. والصفصف: الفلاة. وقوله: «تصهره الشمس..» أي: تذيبه الشمس فيصبر على ذلك.

يعني: ولدها، والمقامع: جمع مقمعة وهي مدقة الرأس، من قمعه قمعاً: إذا دقه. والحريق: بمعنى المحرق كالأليم، والأساور: جمع أسوار وفيه ثلاث لغات أسوار بالألف، وسِوار وسُوار بالكسر والضم، والجمع أسورة.

النزول: قيل: نزلت الآية ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟﴾ في ستة نفر من المؤمنين والكفار، تبارزوا يوم بدر وهم: حمزة بن عبد المطلب قتل عتبة بن ربيعة، وعلي بن أبي طالب عليه السلام قتل الوليد بن عتبة، وعبيدة بن الحرث بن عبد المطلب قتل شيبة بن ربيعة، عن أبي ذر الغفاري وعطاء. وكان أبو ذر يقسم بالله تعالى إنها نزلت فيهم، ورواه البخاري في الصحيح وقيل: نزلت في أهل القرآن وأهل الكتاب، عن ابن عباس، وقيل: في المؤمنين والكافرين عن الحسن ومجاهد والكلبي، وهذا قول أبي ذر إلا أن هؤلاء لم يذكروا يوم بدر.

● **المعنى:** لما تقدم ذكر المؤمنين والكافرين بيَّن سبحانه ما أعدَّه لكل واحد من الفريقين فقال. ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ أي: جمعان، فالفرق الخمسة الكافرة خصم، والمؤمنون خصم، وقد ذُكروا في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ الآية. ﴿ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ أي: في دين ربهم، فقالت اليهود والنصارى للمسلمين: نحن أولى بالله منكم لأن نبينا قبل نبيكم، وديننا قبل دينكم، وقال المسلمون: بل نحن أحق بالله منكم آمنا بكتابنا وكتابكم ونبينا ونبيكم، وكفرتم أنتم بنبينا حسداً، فكان هذا خصومتهم. وقيل: إن معنى اختصموا اقتتلوا يوم بدر. ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ قال ابن عباس: حين صاروا إلى جهنم لبسوا مقطعات النيران، وهي الثياب القصار. وقيل: يجعل لهم ثياب نحاس من نار، وهي أشد ما تكون حراً، عن سعيد بن جبير، وقيل: إن النار تحيط بهم كإحاطة الثياب التي يلبسونها بهم ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ أي: الماء المغلي فيذيب ما في بطونهم من الشحوم وتتساقط الجلود. وفي خبر مرفوع أنه يصب على رؤوسهم الحميم فينفذ إلى أجوافهم فيسلت ما فيها. ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾﴾ أي: يذاب وينضج بذلك الحميم ما فيها من الأمعاء وتذاب به الجلود. ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾ قال الليث: المقمعة شبه الجرز من الحديد، يضرب بها الرأس، وروى أبو سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوله: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾: «لو وضع مقمع من حديد في الأرض ثم اجتمع عليه الثقلان ما أقلوه من الأرض». وقال الحسن: إنّ النار ترميهم بلهبها حتى إذا كانوا في أعلاها، ضربوا بمقامع فهووا فيها سبعين خريفاً، فإذا انتهوا إلى أسفلها، ضربهم زفير لهبها، فلا يستقرون ساعة. فذلك قوله: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ أي: كلما حاولوا الخروج من النار لما يلحقهم من الغم والكرب الذي يأخذ بأنفسهم حين ليس لها مخرج، ردوا إليها بالمقامع. ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾أي: ويقال لهم ذوقوا، والذوق: طلب إدراك الطعم، والحريق: الاسم من الاحتراق.

قال الزجاج: هذا لأحد الخصمين. وقال في الخصم الذين هم المؤمنون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله وأقروا بوحدانيته ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: من تحت أبنيتها وأشجارها ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ أي: يلبسون الحلي فيها ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ وهي: حلي اليد

﴿مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ أي: ومن لؤلؤ ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أي: ديباج. حرم الله سبحانه لبس الحرير على الرجال في الدنيا وشوَّقهم إليه في الآخرة، فأخبر أن لباسهم في الجنة حرير. ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: أُرشدوا في الجنة إلى التحيات الحسنة، يُحَيِّي بعضهم بعضاً، ويحييهم الله وملائكته بها. وقيل: معناه أُرشِدوا إلى شهادة أن لا إله إلا الله والحمد لله، عن ابن عباس. وزاد ابن زيد: والله أكبر، وقيل: أُرشِدوا إلى القرآن، عن السدي، وقيل: إلى القول الذي يلتذونه ويشتهونه وتطيب به نفوسهم. وقيل: إلى ذكر الله فهم به يتنعمون ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ والحميد: هو الله المستحق للحمد المستحمد إلى عباده بنعمه، عن الحسن، أي: الطالب منهم أن يحمدوه. وَرُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أحد أحب إليه الحمد من الله، عزّ ذكره». وصراط الحميد هو طريق الإسلام وطريق الجنة.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ حفص عن عاصم وروح وزيد عن يعقوب: «سواء» بالنصب، والباقون بالرفع. وفي الشواذ قراءة ابن عباس وابن مجلز ومجاهد وعكرمة والحسن: «رُجّالاً» بالتشديد والضم، وهو المَروي عن أبي عبد الله عليه السلام. وقراءة ابن أبي إسحاق والزهري والحسن بخلاف: «رُجَالًا» بالضم والتخفيف.

● **الحجة:** قال أبو علي: وجه الرفع في «سواء» أنه خبر مبتدأ مقدم، والمعنى: العاكف فيه والبادي سواء، ليس أحدهما بأحق به من صاحبه. وهذا يدل على أن أرض الحرم لا تملك ولو ملكت لم يستويا فيها، وصار العاكف فيها أولى بها من البادي لحق ملكه ولكن سبيلها سبيل المساجد التي من سبق إليها كان أولى بها. ومن نصب «سواء» أعمل المصدر إعمال اسم الفاعل فرفع العاكف به، كما يرفع بمستوي لو قال: جعلناه مستوياً العاكف فيه والبادي. ووجه إعماله أن المصدر قد يقوم مقام اسم الفاعل في الصفة في نحو قولهم: رجل

عدل، فيصير عدل كعادل. ويجوز في نصب «سواء» وجه آخر، وهو أن تنصبه على الحال، فإذا نصبته عليها وجعلت قوله للناس مستقراً جاز أن يكون حالاً يعمل فيها معنى الفعل، وذو الحال الذكر الذي في المستقر. ويجوز أن يكون حالاً من الفعل الذي هو ﴿جَعَلْنَهُ﴾ فإن جعلتها حالاً من الضمير المتصل بالفعل، كان الضمير ذا الحال، والعامل فيها الفعل، وجواز كون للناس مستقراً على أن يكون المعنى أنه جعل للناس، ونصب لهم منسكاً ومتعبداً، كما قال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾. وأما قوله «رُجّالًا» فهو جمع راجل مثل: طالب وطلاب، وكاتب وكتّاب. وأما «رُجالًا» بتخفيف الجيم فهو غريب في الجمع، فهو نحو: ظُؤار وعُراق ورُخال، في جمع ظئر وعرق ورخل.

● **اللغة:** العاكف: المقيم الملازم للمكان، والبادي: أصله من بدا يبدو: إذا ظهر، والبدو: خلاف الحضر، سُميَ بذلك لظهوره. والبادي في الآية: الطارىء، والمكان: ما يتمكن عليه الشيء، قيل: هو اسم لما أحاط بالشيء. والمكان والموضع والمستقر نظائر، والرجال: جمع راجل مثل صحاب وقيام في جمع صاحب وقائم، والضامر المهزول أضمره السير، والعميق: البعيد. قال الراجز: «يقطعن بعد النازح العميق». والبائس: الذي به ضرّ الجوع، والفقير: الذي لا شيء له. يقال: بؤس فهو بائس أي: صار ذا بؤس وهو الشدة، قال الأزهري: لا يعرف التفث في لغة العرب إلا من قول ابن عباس وأهل التفسير. وقال النضر بن شميل: هو إذهاب الشعث.

● **الإعراب:** خبر ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ محذوف يدل عليه ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. فالمعنى: إن الذين كفروا نذيقهم العذاب الأليم، ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾: الباء فيه زائدة تقديره: ومن يرد فيه إلحاداً. والباء في قوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ للتعدية وما جاءت الباء فيه مزيدة، قول الشاعر:

بِـوَادٍ يَـمَـانٍ يُـنْـبِـتُ الـشَّـثَّ صَـدْرُهُ ... وأَسْـفَـلُهُ بِـالـمَـرْخِ والـشُّـبُـهَـانِ(١)

وقول الأعشى:

ضَـمِـنَـتْ بِـرِزْقِ عِـيَـالِـنـا أرمَـاحُـنَـا ... مِلْءَ الـمَـراجـلِ والـصَّـريـح الأجـردا(٢)

وقال امرؤ القيس:

أَلَا هَــل أَتَــاهَــا والــحَــوادِثُ جَــمَّــةٌ ... بِـأن امْـرأ الـقَـيـسِ بْـنَ تَـمْـلِكَ بَـيْـقَـرا(٣)

وقال الزجاج: والذي يذهب إليه أصحابنا أن الباء ليست بملغاة، والمعنى عندهم: ومن إرادته فيه بأن يلحد بظلم، وهو مثل قوله:

---

(١) الشث: شجر طيب الريح، مر الطعم، يدبغ به. والمَرخ والشُبهان: نوعان من الشجر.
(٢) المراجل: ضرب من الثياب. والصريح الأجرد: أراد به اللبن الخالص الذي لا رغوة فيه.
(٣) بيقر: أي أعيا، وبيقر: هلك، وبيقر: مشى مشية المنكس، وبيقر: أفسد «لسان العرب».

أُرِيدُ لأنسى ذِكْرَها فكأنَّما   تَمَثَّلَ لي لَيلى بِكُلِّ سَبيلِ

والمعنى: أُريد وإرادتي لهذا. ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ في موضع نصب على الحال أي: يأتوك رجالًا وركباناً. و﴿يَأْتِينَ﴾ في موضع جر لأن المعنى في قوله: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ على إبل ضامرة آتية من كل فج عميق. ورُوِيَ عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قرأ: «يأتون». فعلى هذا يعود الضمير في يأتون إلى الناس.

● **المعنى:** ثم بيَّن سبحانه حال الكفار فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عطف بالمضارع على الماضي، لأن المراد بالمضارع أيضاً الماضي، ويقوّيه قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ويجوز أن يكون المعنى: إن الذين كفروا فيما مضى، وهم الآن يصدون الناس عن طاعة الله ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ﴾ أي: مستقراً ومنسكاً، ومتعبداً، وقيل: معناه خلقناه للناس كلهم لم يخص به بعض دون بعض، قال الزجاج: جعلناه للناس وقف تام. ثم قال: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ أي: العاكف المقيم فيه، والباد الذي ينتابه[1] من غير أهله، مستويان في سكناه والنزول به، فليس أحدهما أحق بالمنزل يكون فيه من الآخر، غير أنه لا يخرج أحد من بيته، عن ابن عباس وقتادة وسعيد بن جبير قالوا: إن كراء دور مكة وبيعها حرام. والمراد بالمسجد الحرام على هذا، الحرم كله كقوله: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، وقيل: المراد بالمسجد الحرام عين المسجد الذي يصلى فيه، عن الحسن ومجاهد والجبائي، والظاهر يدل عليه. وعلى هذا يكون المعنى في قوله ﴿جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ﴾ أي: قبلة لصلاتهم ومنسكاً لحجهم، فالعاكف والباد سواء في حكم النسك. وكان المشركون يمنعون المسلمين عن الصلاة في المسجد الحرام والطواف به، ويدّعون أنهم أربابه وولاته. ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ﴾ والإلحاد: العدول عن القصد، واختلف في معناه هٰهنا فقيل: هو الشرك وعبادة غير الله تعالى، عن قتادة. فكأنه قال: ومن يرد فيه ميلًا عن الحق بأن يعبد غير الله ظلماً وعدواناً، وقيل: هو الاستحلال للحرام والركوب للآثام، عن ابن عباس والضحاك ومجاهد وابن زيد، وقيل: هو كل شيء نهي عنه حتى شتم الخادم لأن الذنوب هناك أعظم، وقيل: هو دخول مكة بغير إحرام، عن عطاء. ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: نعذبه عذاباً وجيعاً، وقيل أن الآية نزلت في الذين صدوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن مكة عام الحديبية. ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ معناه: واذكر يا محمد إذ وطأنا لإبراهيم مكان البيت، وعرفناه ذلك بما جعلنا له من العلامة. قال السدي: إن الله تعالى لما أمره ببناء الكعبة، لم يدر أين يبني، فبعث الله ريحاً خجوجاً[2]، فكنست له ما حول الكعبة عن الأساس الأول الذي كان البيت عليه، قبل أن رفع أيام الطوفان. وقال الكلبي: بعث الله سبحانه على قدر البيت، فيها رأس تتكلم، فقامت بحيال الكعبة وقالت: يا إبراهيم ابنِ على قدري، وقيل: إن المعنى: جعلنا البيت مثوبة ومسكنة، عن ابن الأنباري. ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ أي: وأوحينا إليه أن لا تعبد غيري، قال المبرد: كأنه

---

(١) أي: يقصده ويأتيه.
(٢) الخجوج من الرياح: الشديدة.

قال وحّدني في هذا البيت، لأن معنى لا تشرك بي شيئاً: وحّدني ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ من الشرك وعبادة الأوثان، عن قتادة. ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ مفسر بسورة البقرة، والمراد بالقائمين: المقيمين بمكة، وقيل: القائمين في الصلاة عن عطاء ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ أي: ناد في الناس وأعلمهم بوجوب الحج. واختلف في المخاطب به على قولين:

أحدهما: أنه إبراهيم، عن علي وابن عباس واختاره أبو مسلم. قال ابن عباس: قام في المقام فنادى: يا أيها الناس! إن الله دعاكم إلى الحج فأجابوا بلبيك اللهم لبيك.

والثاني: أن المخاطب به نبينا محمد عليه أفضل الصلوات أي: وأذّن يا محمد في الناس بالحج، فأذن صلوات الله عليه في حجة الوداع أي: أعلمهم بوجوب الحج، عن الحسن والجبائي. وجمهور المفسرين على القول الأول، وقالوا: أسمع الله تعالى صوت إبراهيم كل من سبق علمه بأنه يحج إلى يوم القيامة، كما أسمع سليمان مع ارتفاع منزلته، وكثرة جنوده حوله، صوت النملة مع خفضه وسكونه. وفي رواية عطاء عن ابن عباس قال: لما أمر الله سبحانه إبراهيم أن ينادي في الناس بالحج، صعد أبا قبيس ووضع أصبعه في أذنيه، وقال: يا أيها الناس أجيبوا ربكم. فأجابوه بالتلبية في أصلاب الرجال، وأول من أجابه أهل اليمن. ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ أي: مشاة على أرجلهم ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي: ركباناً. قال ابن عباس: يريد الإبل ولا يدخل بعير ولا غيره الحرم، إلا وقد هزل. وروى سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه قال لبنيه: يا بني! حجوا من مكة مشاة حتى ترجعوا إليها مشاة، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «للحاج الراكب بكل خطوة تخطوها راحلته سبعون حسنة، وللحاج الماشي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة من حسنات الحرم». قيل: وما حسنات الحرم؟ قال: «الحسنة بمائة ألف حسنة». ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ أي: طريق بعيد، ورُوِيَ مرفوعاً عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى يباهي بأهل عرفات الملائكة، يقول: يا ملائكتي! انظروا إلى عبادي شعثاً غبراً، أقبلوا يضربون إليّ من كل فجّ عميق، فأُشهِدكم أني قد أجبت دعاءهم وشفعت رغبتهم، ووهبت مسيئهم لمحسنهم، وأعطيت محسنهم جميع ما سألوني غير التبعات التي بينهم. فإذا أفاض القوم إلى جَمْع ووقفوا وعادوا في الرغبة والطلب إلى الله، يقول: يا ملائكتي! عبادي وقفوا وعادوا في الرغبة والطلب، فأشهدكم أني قد أجبت دعاءهم وشفعت رغبتهم ووهبت مسيئهم لمحسنهم، وأعطيت محسنهم جميع ما سألني، وكفلت عنهم بالتبعات التي بينهم». وقوله: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ قيل: يعني بالمنافع التجارات عن ابن عباس، وسعيد بن جبير. وقيل: التجارة في الدنيا، والأجر والثواب في الآخرة، عن مجاهد، وقيل: هي منافع الآخرة وهي العفو والمغفرة، عن سعيد بن المسيب وعطية العوفي، وهو المَرْوي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام. ويكون المعنى: ليحضروا ما ندبهم الله إليه مما فيه النفع لهم في الآخرة. ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ اختلف في هذه الأيام وفي الذكر فيها فقيل: هي أيام العشر، وقيل لها معلومات: للحرص على علمها من أجل وقت الحج في آخرها. والمعدودات: أيام التشريق، عن الحسن ومجاهد. وقيل: هي أيام التشريق يوم النحر، وثلاثة بعده. والمعدودات: أيام العشر، عن ابن عباس، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام. واختاره

الزجاج قال: لأن الذكر هٰهنا يدل على التسمية على ما ينحر لقوله ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: على ذبح ونحر ما رزقهم من الإبل والبقر والغنم، وهذه الأيام تختص بذلك. وقيل: إن الذكر فيها كناية عن الذبح، لأن صحة الذبح لما كان بالتسمية سمي باسمه توسعاً. وقيل: هو التكبير، قال أبو عبد الله عليه السلام: التكبير بمنى عقيب خمس عشرة صلاة، أولها صلاة الظهر من يوم النحر يقول: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر ولله الحمد، الله أكبر على ما هدانا والحمد لله على ما أبلانا، والله أكبر على ما رزقنا من بهيمة الأنعام. والبهيمة: أصلها من الإبهام، وذلك أنها لا تفصح كما يفصح الحيوان الناطق. والأنعام: الإبل. واشتقاقها من النعمة وهي اللين، سميت بذلك للين أخفافها. وقد يجتمع معها البقر والغنم فيسمى الجمع أنعاماً اتساعاً، وإن انفردا لم يسميا أنعاماً.

﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ أي: من بهيمة الأنعام، وهذا إباحة وندب وليس بواجب ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ فالبائس: الذي ظهر عليه أثر البؤس من الجوع والعري، وقيل: البائس الذي يمد يده بالسؤال ويتكفف للطلب. أمر سبحانه أن يُعطى هؤلاء من الهدي ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ﴾ أي: ليزيلوا شعث الإحرام من تقليم ظفر وأخذ شعر وغسل واستعمال طيب، عن الحسن، وقيل: معناه ليقضوا مناسك الحج كلها، عن ابن عباس وابن عمر، قال الزجاج: قضاء التفث كناية عن الخروج من الإحرام إلى الإحلال. ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ أي: وليتموا نذورهم بقضائها، ولم يقل بنذورهم لأن المراد بالإيفاء الإتمام. قال ابن عباس: هو نحر ما نذروا من البدن، وقيل: هو ما نذروا من أعمال البر في أيام الحج، وربما نذر الإنسان أن يتصدق إن رزقه الله الحج، وإن كان على الرجل نذور مطلقة فالأفضل أنْ يفي بها هناك. ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ هذا أمر وظاهره يقتضي الوجوب. وقيل: أراد به طواف الزيارة لأنه من أركان أفعال الحج بلا خلاف. وقيل: إنه طواف الصدر[1] لأنه سبحانه أمر به عقيب المناسك كلها، وروى أصحابنا أن المراد به طواف النساء الذي يستباح به وصل النساء، وذلك بعد طواف الزيارة، فإنه إذا طاف طواف الزيارة حل له كل شيء إلا النساء، فإذا طاف طواف النساء حلت له النساء. والبيت العتيق هو الكعبة، وإنما سمي عتيقاً لأنه أعتق من أن يملكه العبيد، عن مجاهد وسفيان بن عيينة وأبي مسلم. وقيل: إنما سمي عتيقاً لأنه أعتق من أن تصل الجبابرة إلى تخريبه، وما قصده جبار قبل نبينا صلى الله عليه وآله إلا أهلكه الله تعالى، وإنما لم يهلك الحجاج حين نقضه، وبناه ثانياً ببركة نبينا صلى الله عليه وآله، فإن الله سبحانه أمن ببركته هذه الأمة من عذاب الاستئصال، عن مجاهد. وقيل: سمي به لأنه أعتق من الطوفان فغرقت الأرض كلها إلا موضع البيت، وقيل: سمي به لأنه قديم فهو أول بيت وضع للناس بناه آدم عليه السلام، ثم جدده إبراهيم عليه السلام، عن ابن زيد. ﴿ذَٰلِكَ﴾ قيل: هٰهنا وقف، ومعناه الأمر ذلك أي: هكذا أمر الحج والمناسك ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ أي: فالتعظيم خير له عند ربه أي: في الآخرة، والحرمة: ما لا يحل انتهاكه، وقال الزجاج: الحرمة ما وجب القيام به وحرم التفريط فيه، وهي في هذه الآية ما نهي

---

(١) قال الطريحي: طواف الصدر: طواف الرجوع من (مِنى).

عنها، ومنع من الوقوع فيها، وتعظيمها ترك ملامستها. واختار أكثر المفسرين في معنى الحرمات هنا أنها المناسك لدلالة ما يتصل بها من الآيات على ذلك. وقيل: معناها ههنا البيت الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام والمسجد الحرام، عن ابن زيد، قال: ويدل عليه قوله: ﴿وَالْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾، ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَٰمُ﴾ أي: الإبل والبقر والغنم ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ يعني في سورة المائدة من الميتة والمنخنقة والموقوذة ونحوها، ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَٰنِ﴾ هنا للتبيين، والتقدير: فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان، وروى أصحابنا أن اللعب بالشطرنج والنرد وسائر أنواع القمار من ذلك، وقيل: إنهم كانوا يلطخون الأوثان بدماء قرابينهم، فسُمِّيَ ذلك رجساً ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ يعني: الكذب، وقيل: هو تلبية المشركين: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. وروى أصحابنا أنه يدخل فيه الغناء وسائر الأقوال الملهية. وروى أيمن بن خريم، عن رسول الله ﷺ أنه قام خطيباً فقال: أيها الناس! عدلت شهادة الزور بالشرك بالله، ثم قرأ ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَٰنِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ يريد أنه قد جمع في النهي بين عبادة الوثن وشهادة الزور.

●●●

قوله تعالى: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ الْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل المدينة: «فتخَّطفه» بفتح الخاء مشدداً، والباقون: «فتخطفه» بسكون الخاء والتخفيف، وقرأ: «منسِكاً» بالكسر أهل الكوفة غير عاصم. والباقون: «منسَكاً» بالفتح، وفي الشواذ قراءة الحسن وابن أبي إسحاق: «والمقيمي الصَّلاة» بالنصب.

● **الحجة:** تَخطَّف تَتَخطَّف: فحذف تاء التفعل، وهما في كلا القراءتين حكاية حال تكون، والمعنى في ذلك أنه في مقابلة قوله: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾، فالمشرك بعكس هذا الوصف، فلم يستمسك لكفره بما فيه أمان من الخرور، ونجاة من الهوى، واختطاف الطير، فصار كمن خرَّ من السماء، فهوت به الريح، فلم يكن له معتصم. والأصل في المنسك الفتح، لأنه لا يخلو من أن يكون مصدراً أو مكاناً، وكلاهما مفتوح العين من باب يفعل، إلا أنه قد جاء اسم المكان منه في كلمات على المفعل، نحو: المطلع والمسجد شاذاً عن القياس. ومن قرأ: «والمقيمي الصلاة» فإنه حذف النون تخفيفاً لا لتعاقبها الإضافة، وشبَّه ذلك بالذين واللذان في قول الشاعر:

وإنَّ الـذي حـانـت بِـفَـلْجٍ دِمـاؤُهُـمْ   هُـمُ الـقَـوْمُ كُـلُّ الـقـومِ يـا أُمَّ خـالِدِ[1]

وقول الأخطل:

أَبَـنِـي كُـلَـيْـبٍ إنَّ عَـمَّـيَ الـلَّذا   قَـتَـلَا الـمـلوكَ وفَـكَّـكَا الأغْـلالا

ونحوه بيت الكتاب:

والـحـافِـظـون عَـوْرَةَ الـعـشـيـرةِ لا   يَـأْتِـيـهِـم مِـنْ ورائِهِـم وَكْـفُ[2]

وقال آخر:

قـتَـلْنـا نـاجِـيـاً بـقَـتـيـلِ عَـمْـرو   وَخَـيْـرُ الـطَّـالـبـي الـتِّـرَةَ الـغَـشُـومُ[3]

● **اللغة:** الخطف والإخطاف: الاستلاب، والسحيق: البعيد، والسحوق: النخلة الطويلة، والشعائر: علامات مناسك الحج التي تشعر بما جعلت له، وأشعرت البدن: أعلمتها بما يشعر أنها هدي، والمنسك: موضع العبادة، والنسك: العبادة، يقال: نسك ينسُك وينسِك أي: تعبّد. وقيل: هو عبادة الذبح، والنسيكة: الذبيحة، يقال: نسكت الشاة: ذبحتها، والإخبات: الخضوع والطمأنينة، وأصله من الخبت وهو المكان المطمئن، وقيل: المنخفض.

● **المعنى:** قال سبحانه ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ أي: مستقيمي الطريقة على أمر الله، مائلين عن سائر الأديان، وهي نصب على الحال. ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ أي: حجاجاً مخلصين وهم مسلمون موحدون، لا يشركون في تلبية الحج به أحداً. ثم ضرب سبحانه مثلًا لمن أشرك فقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَآءِ﴾ أي: سقط من السماء ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ أي: تأخذه بسرعة. قال ابن عباس: يريد تخطف لحمه ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ﴾ أي: تسقطه ﴿فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أي: بعيد مفرط في البعد.

قال الزجاج: أعلم الله سبحانه أنَّ بُعد من أشرك به من الحق كبعد من خرّ من السماء، فذهبت به الطير أو هوت به الريح في مكان بعيد، وقال غيره: شبّه حال المشرك بحال الهاوي من السماء في أنه لا يملك لنفسه حيلة، فهو هالك لا محالة ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الأمر ذلك الذي ذكرناه ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ أي: معالم دين الله والأعلام التي نصبها لطاعته، ثم اختلف في ذلك، فقيل: هي مناسك الحج كلها، عن ابن زيد. وقيل: هي البدن. وتعظيمها: استسمانها واستحسانها، عن مجاهد وعن ابن عباس في رواية مقسم. والشعائر: جمع شعيرة وهي البدن إذا أُشعرت أي: أعلمت عليها بأن يشق سنامها من الجانب الأيمن، ليعلم أنها هدي. فالذي يهدي مندوب إلى طلب الأسمن والأعظم، وقيل شعائر الله: دين الله كله، وتعظيمها: التزامها، عن الحسن. ﴿فَإِنَّهَا﴾ أي: فإن تعظيمها لدلالة تعظيم عليه. ثم حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه فقال: فإنها ﴿مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ أضاف التقوى إلى القلوب لأن حقيقة التقوى، تقوى

---

(١) حان الرجل: هلك. وفلج: اسم بلد.

(٢) الوكف: العيب.

(٣) الترة: الثأر. ورجل غشوم: أي ظالم.

القلوب، وقيل: أراد صدق النية. ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الشعائر ﴿مَنَٰفِعُ﴾ فمن تأول أن الشعائر الهدى قال: إن منافعها ركوب ظهورها، وشرب ألبانها إذا احتيج إليها، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام، وهو قول عطاء بن أبي رباح ومذهب الشافعي. وعلى هذا فقوله ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معناه: إلى أن ينحر. وقيل: إن المنافع من رسلها ونسلها وركوب ظهورها وأصوافها وأوبارها ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى أن يسمى هدياً، وبعد ذلك تنقطع المنافع، عن مجاهد وقتادة والضحاك، والقول الأول أصح لأنها قبل أن تسمى هدياً، لا تسمى شعائر. ومن قال: إن الشعائر مناسك الحج قال: المراد بالمنافع التجارة إلى أجل مسمى إلى أن يعود من مكة، ومن قال: إن الشعائر دين الله قال: لكم فيها منافع أي: الأجر والثواب. والأجل المسمى: القيامة. ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ ومن قال: إن شعائر الله هي البدن قال: معناه أن محل الهدي والبدن الكعبة، وقيل: محله الحرم كله. وقال أصحابنا: إن كان الهدي للحج فمحله منى، وإن كان للعمرة المفردة فمحله مكة قبالة الكعبة بالجزورة، ومحلها حيث يحل نحرها. ومن قال: إن الشعائر مناسك الحج قال: معناه ثم محل الحج والعمرة والطواف بالبيت العتيق، وأن منتهاها إلى البيت العتيق. لأن التحلل يقع بالطواف، والطواف يختص بالبيت. ومن قال: إن الشعائر هي الدين كله، فيحتمل أن يكون معناه: أن محل ما اختص منها بالإحرام هو البيت العتيق، وذلك الحج والعمرة في القصد له، والصلاة في التوجه إليه، ويحتمل أن يكون معناه: إن أجرها على رب البيت العتيق.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ أي: لكل جماعة مؤمنة من الذين سلفوا جعلنا عبادة في الذبح، عن مجاهد. وقيل: قرباناً أُحِلَّ لهم ذبحه. وقيل: متعبداً وموضع نسك يقصده الناس، وقيل: منهاجاً وشريعة، عن الحسن ﴿لِّيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: تعبدناهم بذلك ليذكروا اسم الله على ما رزقناهم من بهيمة الأنعام، وبهيمة غير الأنعام لا يحل ذبحها، ولا التقرب بها. وفي هذا دلالة على أن الذبائح غير مختصة بهذه الأمة، وأن التسمية على الذبح كانت مشروعة قبلنا ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: معبودكم الذي توجهون إليه العبادة واحد لا شريك له والمعنى: فلا تذكروا على ذبائحكم إلا الله وحده ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ أي: انقادوا وأطيعوا. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ أي: المتواضعين المطمئنين إلى الله، عن مجاهد، وقيل: الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا لا ينتصرون، كأنهم اطمأنوا إلى يوم الجزاء. ثم وصفهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: إذا خوفوا بالله خافوا ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ من البلايا والمصائب في طاعة الله ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ في أوقاتها يؤدونها كما أمرهم الله ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: يتصدقون من الواجب وغيره، عن ابن عباس.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا

لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ
كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ
يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ
بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ
أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ
وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ
عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ: «لن تنال الله ولكن تناله» بالتاء يعقوب. وقرأ الأول بالتاء أبو جعفر، وقرأ الباقون بالياء فيهما. وقرأ ابن كثير وأهل البصرة: «إن الله يدفع» بغير ألف، والباقون: «يدافع» بالألف. وقرأ أهل المدينة ويعقوب: «ولولا دفاع الله» بالألف، والباقون: «دفع الله» بغير ألف. وقرأ أهل المدينة وحفص: «أُذن» بضم الألف «يقاتَلون» بفتح التاء، وقرأ أبو بكر وأبو عمرو ويعقوب: «أُذن» بضم الألف «يقاتِلون» بكسر التاء. وقرأ ابن عامر: «أَذن» بفتح الألف «يقاتَلون» بفتح التاء. والباقون: «أَذن» بفتح الألف «يقاتِلون» بكسر التاء. وقرأ أهل الحجاز: «لهدمت» خفيفة الدال، والباقون بالتشديد. وأظهر التاء عاصم ويعقوب، وأدغمه الآخرون. وقرأ ابن مسعود وابن عباس وابن عمر وأبو جعفر الباقر عليه السلام وقتادة وعطاء والضحاك: «صوافن» بالنون. وقرأ الحسن وشفيق وأبو موسى الأشعري وسليمان التيمي: «صوافي». وقرأ جعفر بن محمد عليه السلام: «وصلوات» بضم الصاد واللام، وقرأ الجحدري والكلبي: «وصُلَوات» بضم الصاد وفتح اللام.

● **الحجة:** التأنيث في «تنال» للجماعة وللفظ التقوى. والتذكير لمعنى الجمع، لأن التقوى بمعنى الاتقاء، والدفع: مصدر دفع، والدفاع: مصدر دافع، وقد يكون فاعل بمعنى فعل نحو: طارقت النعل وعاقبت اللص. وأما قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ فالقراءات فيها متقاربة. والمأذون لهم في القتال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، وما ظلموا به: أن المشركين أخرجوهم من ديارهم حتى لحق طائفة منهم بالحبشة، ثم هاجروا إلى المدينة. فمن قرأ «أذن» على بناء الفعل للفاعل، فلِما تقدم من ذكر الله سبحانه. وقوله ﴿لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ في موضع نصب. ومن قرأ: «يقاتلون» فالمعنى أنهم يقاتلون عدوهم الظالمين لهم، ومن قرأ: «أُذن» على بناء الفعل للمفعول به. فالمعنى على أن الله سبحانه أذن لهم في القتال. والجار والمجرور في موضع رفع، وقوله: «لهدمت» بالتخفيف، وإنما جاز لأن ذلك قد يكون للقليل والكثير، تقول: ضربت زيداً ضربة وضربته ألف ضربة. فاللفظ في القلة والكثرة على حالة واحدة. و«هدمت» بالتشديد يختص بالكثرة، قال الشاعر:

مـا زِلْتُ أفْـتَـحُ أَبْـوابـاً وأغْـلِقُـهـا حـتـى أتَـيْـتُ أبـا عَـمْـرِو بْـنِ عـمَّـارِ

فأما من قال: «صوافن» فمثل الصافنات، وهي الجياد من الخيل، إلا أنه استعمل هنا في الإبل. والصافن: الرافع إحدى رجليه معتمداً منها على سنبكها[1]. قال عمرو بن كلثوم:

تــرَكْـنَــا الــخـيـل عــاكِـفَـةً عـلـيـه   مُــقَــلَّدة أعِــنَّــتَــهــا صُــفُــونــا

والصوافي: الخوالص لوجه الله. وأما صَلَوات وصُلُوات فيمكن أن يكون جمع صلاة، وإن كانت غير مستعملة، فيكون مثل حجرة وحُجُرات وحَجَرات.

● **اللغة:** البدن: جمع بدنة وهي الإبل المبدنة بالسمن. قال الزجاج: تقول بدنت الإبل أي: سمنتها، وقيل: أصل البدن الضخم وكل ضخم بدن. وبدن بَدْناً وبُدْناً: إذا ضخم. وبدن تبديناً: إذا أسن وثقل لحمه بالاسترخاء. وفي الحديث: «إني قد بدنت فلا تبادروني بالركوع والسجود». وقال: «وكُنْتُ خِلْتُ الشَّيْبَ والتَّبْدينا»[2]. والوجوب: الوقوع، يقال: وجبت الشمس إذا وقعت في المغيب للغروب. ووجب الحائط: وقع. ووجب القلب: اضطرب بأن وقع ما يوجب اضطرابه. ووجب الفعل: إذا وقع ما يلزم به. ووجب البيع: إذا وقع وجوباً، والصواف: المصطفة. الأزهري عن ابن الأعرابي قال: قَنِعْتُ بما رُزِقْتُ بالكسر، وقَنَعْت إلى فلان: خضعت له بالفتح. والمعتر والمعتري واحد. رُوِيَ عن الحسن وأبي رجاء وعمرو بن عبيد أنهم قرأوا المعتري. يقال: عراه واعتراه وعرَّه واعترَّه كله بمعنى أتاه وقصده. قال طرفة:

فــي جِــفَــانٍ يَــعْــتَــرِي نَــادِيــنَــا   وسَــدِيــفٍ حِــيــنَ هَــاجَ الــصِّــنَّــبَــرْ[3]

ويقال: قنع الرجل إلى فلان قنوعاً: إذا سأل. قال الشماخ:

لَــمَــالُ الــمَــرْءِ يُــصْــلِــحُــهُ فَــيُــغْــنِــي   مَــفَــاقِــرَه أعَــفُّ مِــنَ الــقُــنُــوعِ

والصومعة: أصلها من الانضمام، ومنه الأصمع للاصق الأذنين، وكل منضم فهو متصمع. قال أبو ذؤيب يصف صائداً:

فَــرمَــىٰ فــأنْــفَــذَ مــن نُــحُــوصٍ عَــائِطٍ   سَــهْــمــاً فَــخَــرَّ وريــشُــهُ مُــتَــصَــمِّــعُ[4]

والبيع: كنائس اليهود.

● **الإعراب:** ﴿وَٱلْبُدْنَ﴾: منصوب بإضمار فعل تقديره: والبدن، ﴿جَعَلْنَٰهَا﴾. ﴿صَوَآفَّ﴾ منصوب على الحال، ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم﴾ في محل الجر بأنه بدل من ﴿لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾، ويجوز أن يكون في موضع الرفع على تقدير: هم الذين أخرجوا، وفي محل النصب على المدح على تقدير: أعني الذين أُخرجوا. ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ في موضع نصب على الحال، ويجوز أن يكون صفة

---

(١) السنبك: طرف الحافر.
(٢) قائله: حميد الأرقط وبعده: «والهم مما يذهل القرينا».
(٣) النادي: المجلس. والسديف: لحم السنام وقيل: شحمه. والصنبر: برد الشتاء.
(٤) النحوص: الأتان الوحشية. والعائط من النوق: التي لم تحمل أول سنة يطرقها الفحل. والمتصمع من السهام: المنضم الريش من الدم.

مصدر محذوف وتقديره: أُخرجوا إخراجاً بهذه الصفة. ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾: إلا هٰهنا لنقض النفي وتقديره: إلا بأن يقولوا أي: بقولهم، و﴿بَعْضَهُم﴾ منصوب على البدل من ﴿ٱلنَّاسَ﴾، وهو بدل البعض من الكل، والتقدير: دفع الله بعض الناس ببعض.

● **المعنى:** ثم عاد إلى ذكر الشعائر فقال: ﴿وَٱلْبُدْنَ﴾ وهي الإبل العظام، وقيل: الناقة والبقرة مما يجوز في الهدي والأضاحي، عن عطاء والسدي. ﴿جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ أي: من أعلام دينه، وقيل: من علامات مناسك الحج. والمعنى: جعلنا لكم فيها عبادة الله من سوقها إلى البيت وإشعارها وتقليدها ونحرها والإطعام منها. ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌۖ﴾ أي: نفع في الدنيا والآخرة، وقيل: أراد بالخير ثواب الآخرة، وهو الوجه لأنه الغرض المطلوب ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي: في حال نحرها، وعبَّر به عن النحر. قال ابن عباس: هو أن يقول: الله أكبر لا إله إلا الله، والله أكبر، اللهم منك ولك. ﴿صَوَآفَّۖ﴾ أي: قياماً مقيدة على سنة محمد ﷺ عن ابن عباس. وقيل: هو أن تعقل إحدى يديها وتقوم على ثلاثة، تنحر كذلك فيسوى بين أوظفتها لئلا يتقدم بعضها على بعض، عن مجاهد، وقيل: هو أن تنحر وهي صافة أي: قائمة ربطت يديها ما بين الرسغ والخف إلى الركبة، عن أبي عبد الله عليه السلام هذا في الإبل. فأما البقر فإنه يشد يداها ورجلاها ويطلق ذنبها، والغنم: يشد ثلاث قوائم منها، ويطلق فرد رجل منها، ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي: سقطت إلى الأرض. وعبَّر بذلك عن تمام خروج الروح منها ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾ وهذا إذن وليس بأمر، لأن أهل الجاهلية كانوا يحرّمونها على نفوسهم، وقيل: إن الأكل منها واجب إذا تطوع بها ﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّۚ﴾ اختلف في معناهما فقيل: إن القانع: الذي يقنع بما أُعطِي أو بما عنده ولا يسأل. والمعتر: الذي يتعرض لك أن تطعمه من اللحم ويسأل، عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وعكرمة وإبراهيم. وقيل: القانع الذي يسأل، والمعتر: الذي يتعرض ولا يسأل، عن الحسن وسعيد بن جبير. وقال أبو جعفر عليه السلام وأبو عبد الله عليه السلام: القانع: الذي يقنع بما أعطيته ولا يسخط ولا يكلح ولا يلوي شدقه غضباً. والمعتر: المادّ يده لتطعمه. وفي رواية الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: القانع الذي يسأل فيرضى بما أُعطِيَ والمعتر: الذي يعتري رجاءه ممن لا يسأل، ورُوِيَ عن ابن عباس أنه قال في جواب نافع بن الأزرق لما سأله عن ذلك القانع، الذي يقنع بما أُعطِي والمعتر الذي يعتري الأبواب: أما سمعت قول زهير:

على مُكثِريهم حَقُّ مَنْ يَعْترِيهمُ   وعند المُقلّين السَّماحَة والبَذْلُ

ورُوِيَ عنهم عليهم السلام أنه ينبغي أن يطعم ثلثه، ويعطي القانع والمعتر ثلثه، ويهدي لأصدقائه الثلث الباقي. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ما وصفناه ﴿سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ﴾ أي: ذللناها لكم حتى لا تمنع عما تريدون منها من النحر والذبح، بخلاف السباع الممتنعة، ولتنتفعوا بركوبها وحملها ونتاجها نعمة منا عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ذلك ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ﴾ أي: لن تصعد إلى الله لحومها ولا دماؤها، وإنما يصعد إليه التقوى، عن الحسن. وهذا كناية عن القبول، وذلك إنما يقبله الإنسان. يقال: قد ناله ووصل إليه. فخاطب الله سبحانه عباده بما اعتادوه في مخاطباتهم، وكانوا في الجاهلية إذا ذبحوا الهدي، استقبلوا الكعبة بالدماء فنضحوها

حول البيت قربة إلى الله. وقيل: معناه لن تبلغوا رضا الله بذلك، وإنما تبلغونه بالتقوى ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ تقدم تفسيره ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ أي: على ما بيّن لكم وأرشدكم لمعالم دينه ومناسك حجه. وقيل: هو أن يقول الله أكبر على ما هدانا ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: الموحّدين، عن ابن عباس، وقيل: الذين يعملون أعمالاً حسنة ولا يسيئون إلى غيرهم.

ثم بيّن سبحانه دفعه عن المؤمنين بشارة لهم بالنصر فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ غائلة المشركين بأن يمنعهم منهم وينصرهم عليهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ وهم الذين خانوا الله بأن جعلوا معه شريكاً، وكفروا نعمه، عن ابن عباس. وقيل: من ذكر اسم غير الله، وتقرب إلى الأصنام بذبيحته، فهو خوان كفور، عن الزجاج. ثم بيّن سبحانه إذنه لهم في قتال الكفار بعد تقدم بشارتهم بالنصرة فقال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ أي: بسبب أنهم ظلموا، وقد سبق معناه في الحجة. وكان المشركون يؤذون المسلمين ولا يزال يجيء مشجوج ومضروب إلى رسول الله ﷺ، ويشكون ذلك إلى رسول الله ﷺ، فيقول لهم صلوات الله عليه وآله: اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال، حتى هاجر فأنزل الله عليه هذه الآية بالمدينة، وهي أول آية نزلت في القتال. وفي الآية محذوف وتقديره: أذن للمؤمنين أن يقاتلوا أو بالقتال من أجل أنهم ظلموا بأن أُخرجوا من ديارهم، وقصدوا بالإيذاء والإهانة. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وهذا وعد لهم بالنصر، معناه أنه سينصرهم. ثم بيّن سبحانه حالهم فقال: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ يحتمل معناه أن يكون أراد: أخرجوا إلى المدينة، فتكون الآية مدنية، ويحتمل إلى الحبشة، فتكون الآية مكية، وذلك بأنهم تعرضوا لهم بالأذى حتى اضطروا إلى الخروج. وقوله ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ معناه: من غير أن استحقوا ذلك، عن الجبائي، أي: لم يخرجوا من ديارهم إلا لقولهم: ربنا الله وحده. وقال أبو جعفر عليه السلام: نزلت في المهاجرين، وجرت في آل محمد عليهم السلام الذين أُخرجوا من ديارهم وأُخيفوا ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ قد تقدم الكلام في هذا ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ﴾ أي: صوامع في أيام شريعة عيسى، وبيع في أيام شريعة موسى، ومساجد في أيام شريعة محمد ﷺ عن الزجاج، والمعنى: ولولا أن دفع الله بعض الناس ببعض، لهدم في كل شريعة بناء المكان الذي يصلى فيه. وقيل: البيع للنصارى في القرى، والصوامع في الجبال والبراري، ويشترك فيها الفرق الثلاث. والمساجد للمسلمين، والصلوات كنيسة اليهود، عن أبي مسلم، وقال ابن عباس والضحاك وقتادة: الصلوات كنائس اليهود، يسمونها صلوات فعرّبت. وقال الحسن: أراد بذلك عين الصلاة وهدم الصلاة بقتل فاعليها ومنعهم من إقامتها. وقيل: أراد بالصلوات المصلّيات، كما قال: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾ وأراد المساجد ﴿يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ الهاء تعود إلى المساجد، وقيل: إلى جميع المواضع التي تقدمت، لأن الغالب فيها ذكر الله. ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ هذا وعد من الله بأنه سينصر دينه وشريعته ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: قادر قاهر.

●●●

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل البصرة: «أهلكتها» بالتاء، والباقون: «أهلكناها» والمعنى واحد.

● **اللغة:** يقال: خوت الدار خواء ممدوداً فهي خاوية. وخوى جوف الإنسان من الطعام خوى مقصوراً فهو خوٍ، والتعطيل: إبطال العمل بالشيء، ولهذا يقال للدهري: معطل، لأنه أبطل العمل بالعلم على مقتضى الحكمة. والمشيد: المرتفع من الأبنية، شاد الرجل بناه يشيده وشيَّده يشيِّده. قال عدي بن زيد:

شَادَه مَرْمَراً وجلّله كِلْساً فللطَّيرِ في ذُرَاهُ وُكُورُ(١)

وقال امرؤ القيس:

وتَيماءَ لم يَتْرُكْ بها جِذع نَخلةٍ ولَا أُطُماً إلا مشيداً بِجَنْدَلِ(٢)

وقيل: المشيد المجصص والمبني بالشيد. والشيد: الجص والجيار. والجيار: الصاروج.

● **المعنى:** ثم وصف سبحانه من ذكرهم من المهاجرين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ والتمكين: إعطاء ما يصح معه الفعل، فإن كان الفعل لا يصح إلا بآلة، فالتمكين: إعطاء تلك الآلة لمن فيه القدرة، وكذلك إن كان لا يصح الفعل إلا بعلم ونصب ودلالة واضحة وسلامة ولطف وغير ذلك، فالتمكين: إعطاء جميع ذلك، وإن كان الفعل يكفي في صحة وجوده مجرد القدرة. فخلق القدرة التمكين. فالمعنى: الذين أعطيناهم ما به يصح الفعل منهم، وسلّطناهم في الأرض، أدّوا الصلاة بحقوقها، وأعطوا ما افترض الله عليهم من الزكاة. ﴿وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وهذا يدل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمعروف هو الحق، لأنه يعرف صحته، والمنكر هو الباطل، لأنه لا يمكن معرفة صحته. قال الزجاج: هذه صفة مَنْ في قوله: ﴿مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾، وقال الحسن وعكرمة: هم هذه الأمة، وقال أبو جعفر عليه السلام: نحن هم والله. ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ هو

---

(١) الكلس: مثل الصاروج يبنى به. والذرى جمع الذروة: أعلى الشيء. والوكور جمع الوكر: عش الطائر وإن لم يكن فيه، وهذا البيت من قصيدة لعدي بن زيد قالها في ذم الدنيا ومن هذه القصيدة قوله: «أين كسرى كسرى الملوك أنوشر * وان أم أين قبله سابور».

(٢) الأطم: الحصون. والجندل: الحجارة.

كقوله ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾، ومعناه: أنه يبطل كل ملك سوى ملكه فتصير الأمور إليه بلا مانع ولا منازع.

ثم عزّى سبحانه نبيه ﷺ عن تكذيبهم إياه، وخوف مكذّبيه بذكر من كذبوا أنبياءهم فأهلكوا فقال: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يا محمد ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾ ﴿وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ﴾ كل أمة من هؤلاء الأمم فقد كذبت نبيها. ثم قال: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ ولم يقل: وقوم موسى، لأن قومه بنو إسرائيل وكانوا آمنوا به، وإنما كذّبه فرعون وقومه. ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: أخّرت عقوبتهم وأمهلتهم، يقال: أملى الله لفلان في العمر: إذا أخّر عنه أجله ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أي: بالعذاب ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ استفهام معناه التقرير أي: فكيف أنكرت عليهم ما فعلوا من التكذيب، فأبدلتهم بالنعمة نقمة وبالحياة هلاكاً، قال الزجاج: المعنى ثم أخذتهم فأنكرت أبلغ إنكار.

ثم ذكر سبحانه كيف عذّب المكذبين فقال: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ أي: وكم من قرى أهلكناها وأخذناها. والاختيار التاء، وذلك لقوله: ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾. ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ أي: وأهلها ظالمون بالتكذيب والكفر ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: خالية من أهلها، ساقطة على سقوفها ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ عطف على قوله ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾، أي: وكم من بئر بار أهلها وغار ماؤها وتعطلت من دلائها، فلا مستقي منها ولا وارد لها. ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ أي: وكم من قصر رفيع مجصص تداعى للخراب بهلاك أهله، فلم يبق فيه داع ولا مجيب. وأصحاب الآبار ملوك البدو، وأصحاب القصور ملوك الحضر. وفي تفسير أهل البيت عليهم السلام في قوله ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ أن المعنى: وكم من عالم لا يرجع إليه ولا ينتفع بعلمه. وقال الضحاك: هذه البئر كانت بحضرموت في بلدة يقال لها «حاضور» نزل بها أربعة آلاف ممن آمن بصالح، ومعهم صالح. فلما حضروا مات صالح، فسمي المكان «حضرموت». ثم إنهم كثروا فكفروا وعبدوا الأصنام فبعث الله إليهم نبياً يقال له حنظلة، فقتلوه في السوق، فأهلكهم الله فماتوا عن آخرهم، وعطلت بئرهم وخرب قصر ملكهم.

●●●

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ
يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ
بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾
وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير وأهل الكوفة غير عاصم: «مما يعدون» بالياء، والباقون بالتاء.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «معجزين» بالتشديد، وفي سبأ أيضاً في موضعين، والباقون: «معاجزين» بالألف في السورتين.

● **الحجة:** حجة من قرأ «يعدون» بالياء: أنَّ قبله ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾، وحجة من قرأ بالتاء: أنَّ ذلك أعم. وقوله «معاجزين» أي: ظانين ومقدرين أن يعجزونا، لأنهم ظنوا أن لا بعث ولا نشور، فهو كقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾ و«معجزين»: ينسبون من اتبع النبي ﷺ إلى العجز نحو: جهَّلته نسبته إلى الجهل. ورُوِيَ عن مجاهد أنه فسر «معجزين» مثبطين أي: يثبطون الناس عن النبي ﷺ.

● **المعنى:** ثم حثَّ سبحانه على الاعتبار بحال من مضى من القرون المكذبة لرسلهم فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أو لم يسر قومك يا محمد في أرض اليمن والشام، عن ابن عباس. ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ أي: يعلمون بها ما يرون من والمعنى: فيعقلون بقلوبهم ما نزل بمن كذب قبلهم ﴿أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أخبار الأمم المكذبة ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ الهاء في أنها ضمير القصة والجملة بعدها تفسيرها. قال الزجاج: وقوله ﴿الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ من التوكيد الذي يريده العرب في الكلام، كقوله: ﴿عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾، وقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم﴾. وقوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾، وقيل: إنه إنما ذكر ذلك لئلا يتوهم إلى غير معنى القلب نحو قلب النخلة، فيكون أنفى للبس بتجوز الاشتراك، وكذلك قوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم﴾ لأن القول قد يكون بغير الفم، والمعنى: إن الأبصار وإن كانت عمياء، فلا تكون في الحقيقة كذلك، إذا كان أصحابها عارفين بالحق، وإنما يكون العمى عمى القلب الذي يقع معه الجحود بوحدانية الله ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ يا محمد ﴿بِالْعَذَابِ﴾ أن ينزل بهم ويستبطنونه ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي: في إنزال العذاب بهم. قال ابن عباس: يعني يوم بدر. ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ اختلف في معناه على وجوه:

أحدها: أن يوماً من أيام الآخرة يكون كألف سنة من أيام الدنيا عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وابن زيد، وفي رواية أخرى عن ابن عباس أنه أراد: أن يوماً من الأيام التي خلق الله فيها السمٰوات والأرض كألف سنة، ويدل عليه ما رُوِيَ أنَّ الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وخمسمائة عام. ويكون المعنى على هذا: أنهم يستعجلون العذاب وأنَّ يوماً من أيام عذابهم في الآخرة كألف سنة.

وثانيها: أن المعنى: وإن يوماً عند ربك، وألف سنة في قدرته واحد، فلا فرق بين وقوع ما يستعجلون به من العذاب، وبين تأخره في القدرة. إلا أنه سبحانه تفضل بالإمهال إذ لا يفوته شيء، عن الزجاج، وهو معنى قول ابن عباس في رواية عطاء.

وثالثها: أنّ يوماً واحداً كألف سنة في مقدار العذاب لشدته وعظمته، كمقدار عذاب ألف سنة من أيام الدنيا على الحقيقة، وكذلك نعيم الجنة، لأنه يكون في مقدار يوم من أيام الجنة من النعيم والسرور، مثل ما يكون في ألف سنة من أيام الدنيا لو بقي منعم فيها، ثم الكافر يستعجل

ذلك العذاب لجهله، عن الجبائي. وهذا كما يقال في المثل: «أيام السرور قصار، وأيام الهموم طوال». وقال الشاعر:

يـطـول الـيـوم لا أَلْقَـاكَ فِـيـه وحَـوْلٌ نَـلْتَـقِـي فـيـه قـصِـيـر

وقال:

تـطـاولَتْ أيـام مَـعْـن بـنَـا فـيـومٌ كـشـهـرَيْـن إذْ يُـسْـتـهـلُّ

وقال جرير:

ويـوم كـإبـهـام الـحُـبَـارى لَهْـوتُـهُ[1]

ثم أعلم سبحانه أنه أخذ قوماً بعد الإملاء والإمهال فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ مستحقة لتعجيل العقاب ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ أي: أهلكتها ﴿وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ لكل أحد.

ثم خاطب نبيه ﷺ فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: مخوِّف من معاصي الله، مُبَيِّنٌ لكم ما يجب عليكم فعله وما يجب عليكم تجنبه، ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ من الله لمعاصيهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يعني: نعيم الجنة، فإنه أكرم نعيم في أكرم دار ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا﴾ أي: بذلوا الجهد في إبطال آياتنا وبالغوا في ذلك. وأصل السعي: الإسراع في المشي ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ أي: مغالبين، عن ابن عباس، والمعاجزة: محاولة عجز المغالب، وقيل: مقدرين أنهم يسبقوننا، والمعاجزة المسابقة، وقيل: ظانين أن يعجزوا الله أي: يفوتوه، ولن يعجزوه، عن قتادة. وهذا مثل ما تقدم. ومن قرأ: «معجزين» فمعناه: مثبطين لمن أراد اتباع النبي ﷺ ـ، عن مجاهد وقيل: قاصدين تعجيز رسولنا، وقيل: ناسبين من تبعه إلى العجز. ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي: الملازمون للجحيم أي: النار.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾.

---

(١) الحبارى: طائر أكبر من الدجاج الأهلي، وأطول عنقاً منه، وهو على شكل الإوزة، برأسه وبطنه غبرة. وفي المثل: «أقصر من إبهام الحبارى».

● **النزول:** روي ابن عباس وغيره: أن النبي ﷺ لما تلا سورة والنجم، وبلغ إلى قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَوٰةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾، ألقى الشيطان في تلاوته: «تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترجى» فسرَّ بذلك المشركون. فلما انتهى إلى السجدة، سجد المسلمون وسجد أيضاً المشركون لما سمعوا من ذكر آلهتهم بما أعجبهم. فهذا الخبر إنْ صحَّ محمول على أنه كان يتلو القرآن فلما بلغ إلى هذا الموضع، وذكر أسماء آلهتهم، وقد علموا من عادته ﷺ أنه كان يعيبها، قال بعض الحاضرين من الكافرين: تلك الغرانيق العلى. وألقى ذلك في تلاوته توهم أن ذلك من القرآن، فأضافه الله سبحانه إلى الشيطان، لأنه إنما حصل بإغوائه ووسوسته. وهذا أورده المرتضى، قدس الله روحه، في كتاب التنزيه، وهو قول الناصر للحق من أئمة الزيدية، وهو وجه حسن في تأويله.

● **المعنى:** ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ من هنا مزيدة، والتقدير: ما أرسلنا قبلك رسولًا ولا نبياً. وإنما ذكر اللفظين لاختلاف فائدتهما، فالرسول الذي أرسله الله تعالى ولا يحمل عند الإطلاق على غير رسول الله ﷺ. والنبي الذي له الرفعة والدرجة العظيمة بالإرسال. وقيل: إنَّ بينهما فرقاً؛ فالرسول الذي تنزل عليه الملائكة بالوحي، والنبي الذي يوحى إليه في منامه. فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولًا. وقيل: بل الرسول هو المبعوث إلى أمة. والنبي هو الذي لا يبعث إلى أمة، عن قطرب، وقيل: إن الرسول هو المبتدىء بوضع الشرائع والأحكام، والنبي: الذي يحفظ شريعة غيره، عن الجاحظ. والقول هو الأول، لأن الله سبحانه خاطب نبينا ﷺ مرة بالنبي ومرة بالرسول، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ فالرسول والنبي واحد، لأن الرسول يعم الملائكة والبشر، والنبي يختص البشر، فجمع بينهما هنا، وفي قوله: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾، ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى الشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ قال المرتضى: لا يخلو التمني في الآية من أن يكون معناه التلاوة، كما قال حسان بن ثابت:

تمنّى كتابَ الله أوّلَ ليلِهِ وآخرهُ لاقى حِمامَ المقادِرِ

أو يكون تمنى القلب، فإن كان المراد التلاوة، فالمعنى: أن من أُرسِل قبلك من الرسل كان إذا تلا ما يؤديه إلى قومه، حرَّفوا عليه، وزادوا فيما يقوله ونقصوا، كما فعلت اليهود، وأضاف ذلك إلى الشيطان، لأنه يقع بغروره ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِى الشَّيْطَٰنُ﴾ أي: يزيله ويدحضه بظهور حججه. وخرج هذا على وجه التسلية للنبي ﷺ لما كذب المشركون عليه، وأضافوا إلى تلاوته من مدح آلهتهم، ما لم يكن فيها. وإن كان المراد تمنى القلب فالوجه أن الرسول متى تمنى بقلبه بعض ما يتمناه من الأمور، وسوس إليه الشيطان بالباطل يدعوه إليه، وينسخ الله ذلك ويبطله بما يرشده إليه من مخالفة الشيطان، وترك استماع غروره. قال: وأما الأحاديث المروية في هذا الباب فهي مطعونة ومضعفة عند أصحاب الحديث، وقد تضمنت ما ينزه الرسل عليهم السلام عنه. وكيف يجوز ذلك على النبي ﷺ، وقد قال الله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ وقال: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾. وإن حمل ذلك على السهو، فالساهي لا يجوز أن يقع منه مثل هذه الألفاظ المطابقة لوزن السورة ونظمها، ثم لمعنى ما تقدمها من الكلام لأنا نعلم ضرورة أن

الساهي لو أنشد قصيدة، لم يجز أن يسهو حتى يتفق منه بيت شعر في وزنها، وفي معنى البيت الذي تقدمه، وعلى الوجه الذي تقتضيه فائدته. ويمكن أن يكون الوجه فيه ما ذكرناه في النزول، لأن من المعلوم أنهم كانوا يلقون عند قراءته طلباً لتغليطه، ويمكن أن يكون كان هذا في الصلاة، لأنهم كانوا يلقون في قراءته. وقيل أيضاً: إنه كان إذا تلا القرآن على قريش، توقف في فصول الآيات، وأتى بكلام على سبيل الحجاج لهم. فلما تلا الآيات قال: «تلك الغرانيق العلى» على سبيل الإنكار عليهم، وعلى أنَّ الأمر بخلاف ما قالوه وظنوه. وليس يمتنع أن يكون هذا في الصلاة، لأن الكلام في الصلاة حينئذٍ كان مباحاً وإنما نسخ من بعد. وقيل: إن المراد بالغرانيق: الملائكة. وقد جاء ذلك في بعض الحديث فتوهم المشركون أنه يريد آلهتهم. وقيل: إن ذلك كان قرآناً منزلًا في وصف الملائكة، فلما ظنَّ المشركون أن المراد به آلهتهم نسخت تلاوته. وقال البلخي: ويجوز أن يكون النبي ﷺ سمع هاتين الكلمتين من قومه وحفظهما، فلما قرأ، ألقاها الشيطان في ذكره، فكاد أن يجريها على لسانه فعصمه الله ونبهه، ونسخ وسواس الشيطان، وأحكم آياته بأن قرأها النبي ﷺ محكمة سليمة مما أراد الشيطان. ويجوز أن يكون النبي ﷺ لما انتهى إلى ذكر اللات والعزى، قال الشيطان هاتين الكلمتين رافعاً بهما صوته، فألقاهما في تلاوته في غمار الناس، فظن الجهال أن ذلك من قول النبي ﷺ، فسجدوا عند ذلك. والغرانيق: جمع غرنوق وهو الحسن الجميل، يقال: شاب غرنوق، وغرانق: إذا كان ممتلياً ريّاً ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: يبقي آياته ودلائله وأوامره محكمة لا سهو فيها ولا غلط ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكل شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ واضع للأشياء مواضعها ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى الشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: ليجعل ذلك تشديداً في التعبد وامتحاناً، عن الجبائي. والمعنى: أنه شدد المحنة والتكليف على الذين في قلوبهم شك، وعلى الذين قست قلوبهم من الكفار، فتلزمهم الدلالة على الفرق بين ما يحكمه الله، وبين ما يلقيه الشيطان ﴿وَإِنَّ الظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: في معاداة ومخالفة بعيدة عن الحق ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ بالله وبتوحيده وبحكمته ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: إن القرآن حق لا يجوز عليه التبديل والتغيير ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِۦ﴾ أي: فيثبتوا على إيمانهم، وقيل: يزدادوا إيماناً إلى إيمانهم ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تخشع وتتواضع لقوة إيمانهم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: طريق واضح لا عوج فيه، أي يثبتهم على الدين الحق، وقيل: يهديهم ربهم بإيمانهم إلى طريق الجنة. ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: في شك من القرآن، عن ابن جريج. وهذا خاص فيمن علم الله تعالى أنهم لا يؤمنون من الكفار ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي: فجأة وعلى غفلة ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ قيل: إنه عذاب يوم بدر، عن قتادة ومجاهد. وسماه عقيماً لأنه لا مثل له في عظم أمره، لقتال الملائكة فيه، ومثله قول الشاعر:

عَقِمَ النساء فلا يَلِدْنَ شَبيهه   إن النساء بمثله لعَقِيمُ

وقيل: إنما سُمّيَ ذلك اليوم عقيماً لأنه لم يكن فيه للكفار خير، فهو كالريح العقيم التي لا

تأتي بخير، عن الضحاك، واختاره الزجاج. وقيل: المراد به يوم القيامة. والمعنى: حتى تأتيهم علامات الساعة أو عذاب يوم القيامة. وسماه عقيماً لأنه لا ليلة له، عن عكرمة والجبائي.

● **النظم:** اتصلت الآية الأولى بما تقدم من ذكر الكفار، وما متّعوا به من نعيم الدنيا، ولما رأى النبي ﷺ ما مني به أصحابه من الإقتار، تمنى لهم الدنيا. فبيَّن سبحانه أن ذلك التمني من وساوس الشيطان، وأن ما أعده لهم من نعيم الآخرة خير. وقيل: اتصل بقوله ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، فبيَّن سبحانه أنه بشر، وأن حاله كحال الرسل قبله.

●●●

قوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن عامر: «قتّلوا» بالتشديد، والباقون بالتخفيف. وقرأ أهل المدينة: «مَدخلاً» بالفتح. والباقون بضم الميم. وقد سبق ذكره.

● **المعنى:** لما تقدَّم ذكر القيامة بيَّن صفته فقال: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ لا يملك أحد سواه شيئاً بخلاف الدنيا ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يفصل بين المؤمنين والكافرين. ثم بيَّن حكمه فقال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ ينعمون فيها. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يهينهم ويذلهم ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: فارقوا أوطانهم وخرجوا من مكة إلى المدينة ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓا۟﴾ في الجهاد ﴿أَوْ مَاتُوا۟﴾ في الغربة ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ وهو رزق الجنة، عن الحسن والسدي. والرزق الحسن: ما إذا رآه لا تمتد عينه إلى غيره، وهذا لا يقدر عليه غير الله تعالى، ولذلك قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ وقيل: بل هو مثل قوله: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾. ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ لأن لهم فيه ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين. والمدخل يجوز أن يكون بمعنى المكان، وبمعنى المصدر ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بأحوالهم ﴿حَلِيمٌ﴾ عن معالجة الكفار بالعقوبة ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر ذلك الذي قصصنا عليك ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ أي: من جازى الظالم بمثل ما ظلمه. قال الحسن: معناه قاتل المشركين كما قاتلوه، والأول لم يكن عقوبة ولكن كقولهم: الجزاء بالجزاء، لازدواج الكلام. ﴿ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ﴾ أي: ظلم بإخراجه من منزله يعني: ما فعله المشركون من البغي على المسلمين. حتى أخرجوهم إلى مفارقة ديارهم ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ يعني المظلوم الذي بُغِيَ عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ رُوِيَ أن الآية نزلت

في قوم من مشركي مكة، لقوا قوماً من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرم، فقالوا: إن أصحاب محمد ﷺ لا يقاتلون في هذا الشهر. فحملوا عليهم، فناشدهم المسلمون أن لا يقاتلوهم في الشهر الحرام، فأبوا، فأظفر الله المسلمين بهم.

●●●

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل العراق غير أبي بكر: «ما يدعون» هنا، وفي لقمان بالياء. والباقون بالتاء.

● **الحجة:** من قرأ: «تدعون» بالتاء فعلى الخطاب للمشركين، وحجته قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ﴾، ومن قرأ بالياء فعلى الحكاية، وحجته قوله: ﴿يَكَادُونَ يَسۡطُونَ﴾.

● **الإعراب:** ﴿فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ﴾: إنما رفع لأنه لم يجعله جواباً للاستفهام، والمراد به الخبر. ومثله قول الشاعر:

ألم تسألِ الربعَ القديمَ فينطقُ ... وهَلْ يُخبرنكَ اليومَ بَيْداءُ سَمْلَقُ[1]

● **المعنى:** ثم قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك النصر ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ أي: يدخل ما انتقص من ساعات الليل في النهار، وما انتقص من ساعات النهار في الليل ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ﴾ لدعاء المؤمنين ﴿بَصِيرٞ﴾ بهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الذي فعل من نصر المؤمنين ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: ذو الحق في قوله وفعله، وقيل: معناه أنه الواحد في صفات التعظيم التي من اعتقده عليها، فهو محق. ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ لأنه ليس عنده نفع ولا ضر ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾ عن الأشياء ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾ الذي كل شيء سواه يصغر مقداره عن معناه. ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ أي: مطراً ﴿فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةً﴾ بالنبات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ بأرزاق عباده من حيث لا يحتسبون ﴿خَبِيرٞ﴾ بما في قلوبهم، وقيل: اللطيف المحيط بتدبير دقائق الأمور، الذي لا يتعذر عليه شيء يتعذر على

---

(١) قائله: جميل. والسملق: القاع المستوي الأملس، والأجرد، لا شجر فيه.

غيره. ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: له التصرف في جميع ذلك ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ الغني الحي الذي ليس بمحتاج، الحميد: المحمود بصفاته وأفعاله ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من الحيوان والجماد ﴿وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ أي: وسخر لكم الفلك في حال جريها ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ﴾ أي: يمنع السماء من وقوعها على الأرض إلا بإرادته، والمعنى: إلا إذا أذن الله في ذلك بأن يريد إبطالها وإعدامها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ برأفته ورحمته بهم فعل هذا التسخير، وأمسك السماء من الوقوع.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧٠﴾﴾.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه دلالة أخرى على وحدانيته فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ﴾ بعد أن كنتم نطفاً ميتة ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾ عند انتهاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾ للبعث والحساب. وفيه بيان أن من قدر على ابتداء الإحياء قدر على إعادة الإحياء ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ﴾ أي: جحود، فإنه مع هذه الأدلة الدالة على الخلق يجحد الخالق ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ﴾ أي: لكل قرن مضى ﴿جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ﴾ أي: شريعة هم عاملون بها، عن ابن عباس، وقيل: مكاناً يألفونه وموضعاً يعتادونه لعبادة الله. ومناسك الحج من هذا لأنها مواضع العبادات فيه، فهي متعبدات الحج. وقيل: موضع قربان أي: متعبد في إراقة الدماء مِنى أو غيره، عن مجاهد وقتادة ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ﴾ هذا نهي لهم عن منازعة النبي ﷺ، وقيل: نهي له لأن المنازعة تكون من اثنين، فإذا وجّه النهي إلى من ينازعه فقد وجّه إليه، ومنازعتهم قولهم: أتأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتله الله؟ يعنون الميتة أي: فلا يخاصمنك في أمر الذبح. وقيل: معناه ليس لهم أن ينازعوك في شريعتهم، وقد نسخت هذه الشريعة الشرائع المتقدمة. ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾ أي: لا تلتفت إلى منازعتهم، وادع إلى توحيد ربك، وإلى دينه ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي: على دين قيم ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أي: إن خاصموك في أمر الذبيحة فقل: الله أعلم بتكذيبهم فهو يجازيكم به. وهذا قبل الأمر بالقتال. وقيل: معناه وإن جادلوك على سبيل المراء والتعنت بعد لزوم الحجة، فلا تجادلهم على هذا الوجه وادفعهم بهذا القول. وقيل: معناه وإن نازعوك في نسخ الشريعة فحاكمهم إلى الله. ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي: يفصل بينكم ﴿فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ أي: فيما تذهبون فيه إلى خلاف ما يذهب. ثم قال لنبيه ﷺ والمراد جميع المكلفين ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ من قليل

وكثير ولا يخفى عليه شيء من ذلك ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ﴾ أي: مثبت في الكتاب المحفوظ، عن الجبائي ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: كتابته في اللوح المحفوظ على الله يسير، لا يحتاج إلى معالجة خطوط وحروف، وإنما يقول: كن فيكون. وقيل: إن الحكم بينكم يسير على الله.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ
عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم
بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ
ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ
ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ
﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ يعقوب وسهل: «إن الذين يدعون» بالياء، والباقون بالتاء.

● **اللغة:** السطوة. إظهار الحال الهائلة للإخافة، يقال: سطا عليه يسطو سطوة، وسطا به. والإنسان مسطو به. والسطوة والبطشة بمعنى.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن حال الكفار فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أي: حجة ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ انها آلهة. وإنما قال ذلك لأن الإنسان قد يعلم أشياء من غير حجة ودليل كالضروريات ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي: وما للمشركين من مانع من العذاب. ثم أخبر سبحانه عن شدة عنادهم فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ يعني من القرآن، وغيره من حجج الله ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: واضحات لمن تفكّر فيها، وهي منصوبة على الحال ﴿تَعْرِفُ﴾ يا محمد ﴿فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ﴾ أي: الإنكار. وهو مصدر، يريد أثر الإنكار من الكراهة والعبوس ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾ أي: يقعون ويبطشون من شدة الغيظ ﴿بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ والمعنى: يكادون يبسطون إليهم أيديهم بالسوء. يقال: سطا عليه وسطا به إذا تناوله بالبطش. ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾ وأكره إليكم من هذا القرآن الذي تستمعون وأشد عليكم منه. ثم فسّر ذلك فقال: ﴿ٱلنَّارُ﴾ أي: هو النار ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع والمأوى. ثم خاطب سبحانه جميع المكلفين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ قال الأخفش: إن قيل فأين المثل الذي ذكر الله في قوله ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ﴾، قيل: ليس هٰهنا مثل، والمعنى: أن الله قال: ضرب لي مثل أي: شبه في الأوثان، ثم قال: فاستمعوا لهذا المثل الذي جعلوه مثلي. وقال القتيبي: هٰهنا مثل

لأنه ضرب مثل هؤلاء الذين يعبدون الأصنام بمن عبد من لا يخلق ذباباً. وقيل: معناه أثبت حديثاً يتعجب منه، فاستمعوا له لتقفوا على جهل الكفار. من قولك: ضربْتُ خيمة أي: نصبتها وأثبتها. وقيل: معناه جعل ذلك كالشيء اللازم الثابت من قولك: ضرب السلطان الجزية على أهل الذمة. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني الأصنام. وكان ثلاثمائة وستين صنماً حول الكعبة ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا﴾ في صغره وقلته ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾ مما عليهم. قال ابن عباس: كانوا يطلون أصنامهم بالزعفران فيجف، فيأتي الذباب فيختلسه ﴿لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ أي: لا يقدرون على استنقاذه منه ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ الطالب الذباب، والمطلوب الصنم، عن ابن عباس، ورُوِيَ عنه على العكس من هذا، وهو أن الطالب الصنم والمطلوب الذباب. فعلى هذا يكون معناه: ضعف السالب والمسلوب. وقيل: إن معناه راجع إلى العابد والمعبود أي: جهل العابد والمعبود، وقهر العابد والمعبود، عن الضحاك، وهو معنى قول السدي. الطالب الذي يطلب إلى هذا الصنم بالتقرب إليه والصنم المطلوب إليه. ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي: ما عظّموه حقّ عظمته، حيث جعلوا هؤلاء الأصنام شركاء له، عن الحسن والفراء. وقيل: معناه ما عرفوه حق معرفته، عن الأخفش، وقيل: ما وصفوه حق صفته، عن قطرب. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: قادر لا يقدر أحد على مغالبته ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ يعني: جبرائيل وميكائيل ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني: النبيين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ سميع بأقوالهم بصير بضمائرهم وأفعالهم.

● **النظم:** إنما اتصل قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بقوله: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي: ومن خالفك على الكفر والضلال. وإنما اتصل قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾، والمعنى: أن من لا يقدر على خلق ذباب مع صغره، وإذا سلبه الذباب شيئاً لا يقدر على استرداده، فكيف يستحق أن يعبد. ثم قال: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي: من أشرك غيره معه في العبادة مع كمال قدرته، فما عرفه حق معرفته. ثم قال: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ ليعلم أنه سبحانه إنما اصطفاهم لعبادتهم إياه، فمن جعل الملائكة والأنبياء أولاداً، فإنه لم يعظّمه حق عظمته ولم يعرفه حق معرفته، إذ جعل من يعبده سبحانه معبوداً.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى
ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ
ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟
بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾.

الإعراب: ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ منصوب على المصدر لأنه مضاف إلى المصدر. ﴿مِنْ حَرَجٍ﴾ من مزيدة أي: ما جعله عليكم حرجاً. ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ﴾ منصوبة بإضمار فعل تقديره: واتبعوا والزموا ملة أبيكم، لأن قبله ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾، قال المبرد: عليكم ملة أبيكم. وقال الزجاج: وجائز أن يكون منصوباً على تقدير: وافعلوا الخير فعل أبيكم.

● **المعنى:** لمّا وصف الله سبحانه نفسه بأنه سميع بصير عقَّبه بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني: ما بين أيدي الخلائق من القيامة وأحوالها، وما يكون في مستقبل أحوالهم. ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: وما يخلفونه من دنياهم. وقيل: يعلم ما بين أيديهم أي: أول أعمالهم، وما خلفهم: آخر أعمالهم، عن الحسن. وقيل: معناه يعلم ما كان قبل خلق الملائكة والأنبياء، وما يكون بعد خلقهم، عن علي بن عيسى. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ يوم القيامة، فلا يكون لأحد أمر ولا نهي. ثم خاطب سبحانه المؤمنين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾ أي: صلوا ﴿وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ﴾ بفعل ما تعبدكم به من العبادات. ﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ﴾ قال ابن عباس: يريد صلة الرحم ومكارم الأخلاق، ومعناه: لا تقتصروا على فعل الصلاة والواجبات من العبادات، وافعلوا غيرها من أنواع البر من إغاثة الملهوف وإعانة الضعيف وبر الوالدين، وما جانسها ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: لكي تفلحوا وتسعدوا. ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ أكثر المفسِّرين حملوا الجهاد هٰهنا على جميع أعمال الطاعة، وقالوا: حق الجهاد أن يكون بنية صادقة خالصة لله تعالى، وقال السدي: هو أن يطاع فلا يعصى. وقال الضحاك: معناه جاهدوا بالسيف من كفر بالله، وإن كانوا الآباء والأبناء. وَرُوِيَ عن عبد الله بن المبارك أنه قال: هو مجاهدة الهوى والنفس ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ أي: اختاركم واصطفاكم لدينه ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: من ضيق لا مخرج منه ولا مخلص من عقابه، بل جعل التوبة والكفارات ورد المظالم مخلصاً من الذنوب، فليس في دين الإسلام ما لا سبيل إلى الخلاص من العقاب به، فلا عذر لأحد في ترك الاستعداد للقيامة. وقيل: معناه أن الله سبحانه لم يضيِّق عليكم أمر الدين، فلن يكلِّفكم ما لا تطيقون، بل كلّف دون الوسع فلا عذر لكم في تركه. وقيل: إنه يعني الرخص عند الضرورات كالقصر والتيمم وأكل الميتة، عن الكلبي ومقاتل، واختاره الزجاج. ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: دينه، لأن ملة إبراهيم داخلة في ملة محمد ﷺ، وإنما سمَّاه أباً للجميع لأن حرمته على المسلمين كحرمة الوالد على الولد، كما قال: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾، عن الحسن. وقيل: إن العرب من ولد إسماعيل، وأكثر العجم من ولد إسحاق، وهما ابنا إبراهيم، فالغالب عليهم أنهم أولاده. ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: الله سماكم المسلمين، عن ابن عباس ومجاهد. وقيل: هو كناية عن إبراهيم، عن ابن زيد قال: ويدل عليه قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾. ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل إنزال القرآن ﴿وَفِى هَٰذَا﴾ أي: وفي هذا القرآن ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: ليكون محمد ﷺ شهيداً عليكم بالطاعة والقبول، فإذا شهد لكم به صرتم عدولًا تشهدون على الأمم الماضية، بأن الرسل قد بلغوهم رسالة ربهم، وأنهم لم يقبلوا، فيوجب لكافرهم النار، ولمؤمنهم الجنة بشهادتكم. وهذا من أشرف المراتب، وهو مثل قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ الآية.

وقيل: معناه ليكون الرسول شهيداً عليكم في إبلاغ رسالة ربه إليكم، وتكونوا شهداء على الناس بعده، بأن تبلغوا إليهم ما بلغه الرسول إليكم ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قال قتادة: فريضتان واجبتان افترضهما الله عليكم فأدوهما إلى الله. وروى عبد الله بن عمر، عن النبي ﷺ قال: «لا تقبل الصلاة إلا بالزكاة». ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي: تمسكوا بدين الله، عن الحسن، وقيل: معناه امتنعوا بطاعته عن معصيته، وقيل: امتنعوا بالله من أعدائكم أي: اجعلوه عصمة لكم مما تحذرون، وقيل: ثقوا بالله وتوكلوا عليه عن مقاتل ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي: وليكم وناصركم، والمتولي لأموركم ومالككم ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ هو لمن تولاه ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ هو لمن استنصره. وقيل: فنعم المولى إذ لم يمنعكم الرزق حين عصيتموه، ونعم النصير إذ أعانكم لمَّا أطعتموه.



سُورَةُ المُؤْمِنُون



مكية/آياتها (١١٨)

● **عدد آيها:** مائة وثماني عشرة آية كوفي، تسع عشرة في الباقين.

● **اختلافها:** آية واحدة: ﴿وَأَخَاهُ هَٰرُونَ﴾ غير الكوفي.

● **فضلها:** أُبيّ بن كعب عن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة المؤمنين بشَّرته الملائكة يوم القيامة بالروح والريحان، وما تقر به عينه عند نزول ملك الموت». وقال أبو عبد الله عليه السلام: من قرأ سورة المؤمنين، ختم الله له بالسعادة إذا كان يدمن قراءتها في كل جمعة وكان منزله في الفردوس الأعلى مع النبيين والمرسلين.

● **تفسيرها:** ختم الله سورة الحج بأمر المكلفين في العبادة، وأفعال الخير على طريق الإجمال، وافتتح هذه السورة بتفصيل تلك الجملة، وبيان تلك الأفعال، فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ
هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ
حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ
ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾
وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ
هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير: «لأمانتهم» على الواحد هنا، وفي المعارج. والباقون: «لأماناتهم» على الجمع، وقرأ: «على صلاتهم» بالإفراد أهل الكوفة غير عاصم، والباقون: «على صلواتهم» على الجمع.

● **الحجة:** قال أبو علي: وجه الإفراد في الأمانة أنه مصدر واسم جنس، فيقع على الكثرة. ووجه الجمع قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾، ومما أُفردت فيه الأمانة، والمراد به الكثرة، ما رُويَ عن النبي ﷺ أنه قال: «من الأمانة أن اؤتمنت المرأة على فرجها». يريد تفسير قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾، ووجه الإفراد في الصلاة: أنها مصدر، ووجه الجمع: أنها صارت بمنزلة الاسم لاختلاف أنواعها، والجمع فيه أقوى، لأنه صار اسماً شرعياً لانضمام ما لم يكن في أصل اللغة إليها.

● **المعنى:** ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ أي: فاز بثواب الله الذين صدَّقوا بالله وبوحدانيته وبرسله. وقيل: معنى أفلح بقي أي: قد بقيت أعمالهم الصالحة، وقيل: معناه قد سعد. قال لبيد: «ولقد أفلح من كان عقل». قال الفراء: يجوز أن يكون ﴿قَدْ﴾ هٰهنا لتأكيد الفلاح للمؤمنين، ويجوز أن يكون تقريباً للماضي من الحال، ألا تراهم يقولون: «قد قامت الصلاة» قبل حال قيامها، فيكون المعنى في الآية: ان الفلاح قد حصل لهم وأنهم عليه في الحال. ثم وصف هؤلاء المؤمنين بأوصاف فقال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ أي: خاضعون متواضعون متذللون لا يرفعون أبصارهم عن مواضع سجودهم، ولا يلتفتون يميناً ولا شمالاً. ورُوِي أن النبي ﷺ رأى رجلًا يعبث بلحيته في صلاته، فقال: «أما إنه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه».

وفي هذا دلالة على أن الخشوع في الصلاة يكون بالقلب وبالجوارح، فأما بالقلب فهو أن يفرغ قلبه بجمع الهمة لها، والإعراض عما سواها، فلا يكون فيه غير العبادة والمعبود، وأما بالجوارح فهو غض البصر والإقبال عليها، وترك الالتفات والعبث. قال ابن عباس: خشع فلا يعرف من على يمينه، ولا من على يساره. ورُوِيَ أن رسول الله ﷺ كان يرفع بصره إلى السماء في صلاته، فلما نزلت الآية طأطأ رأسه ورمى ببصره إلى الأرض. ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ اللغو في الحقيقة هو كل قول أو فعل لا فائدة فيه يعتد بها، فذلك قبيح محظور يجب الإعراض عنه. وقال ابن عباس: اللغو: الباطل. وقال الحسن: هو جميع المعاصي، وقال السدي: هو الكذب، وقال مقاتل: هو الشتم، فإن كفار مكة كانوا يشتمون النبي ﷺ وأصحابه، فنهوا عن إجابتهم. وَرُوِي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: هو أن يتقول الرجل عليك بالباطل، أو يأتيك بما ليس فيك، فتعرض عنه لله. وفي رواية أخرى أنه الغناء والملاهي ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾ أي: مؤدّون. فعبَّر عن التأدية بالفعل لأنه فعل. قال أمية بن أبي الصلت: «المطعمون الطعام في السنة الأزمة والفاعلون للزكوات»[1]. قال ابن عباس: للصدقة الواجبة مؤدّون. ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥﴾ قال الليث: الفرج اسم لجميع سوءات الرجال والنساء، والمراد بالفروج هٰهنا فروج الرجال بدلالة قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ قال الزجاج: المعنى أنهم يلامون في إطلاق ما حظر عليهم، وأمروا بحفظه إلا على أزواجهم. ودَّل على المحذوف ذكر اللوم في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ وملك اليمين في الآية المراد به الإماء، لأن الذكور من المماليك لا خلاف في وجوب حفظ الفرج منهم، وإنما قيل للجارية ملك يمين، ولم يقل في الدار ونحوها ملك يمين، لأن ملك الجارية أخص منه، إذ يجوز له نقض بنية الدار، . وليس له نقض بنية الجارية، وله عارية الدار وليس له عارية الجارية للوطء حتى توطأ بالعارية. وإنما أطلق سبحانه إباحة وطء الأزواج والإماء، وإن كانت لهن أحوال يحرم وطؤهن فيها، كحال الحيض والعدة، للجارية من زوج لها وما أشبه ذلك، لأن الغرض بالآية بيان جنس من يحل وطؤها دون الأحوال التي لا يحل فيها الوطء. ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي: طلب سوى الأزواج والولائد المملوكة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ أي: الظالمون

(١) الأزمة: الشدة والقحط.

المتجاوزون إلى ما لا يحل لهم ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾﴾ أي: حافظون وافون، والأمانات ضربان: أمانات الله تعالى وأمانات العباد، فالأمانات التي بين الله تعالى وبين عباده هي العبادات، كالصيام والصلاة والاغتسال، وأمانات العباد هي مثل الودائع والعواري والبياعات والشهادات وغيرها. وأما العهد فعلى ثلاثة أضرب: أوامر الله تعالى، ونذور الإنسان، والعقود الجارية بين الناس، فيجب على الإنسان الوفاء بجميع ضروب الأمانات والعهود، والقيام بما يتولاه منها. ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ أي: يقيمونها في أوقاتها ولا يضيِّعونها، وإنما أعاد ذكر الصلاة تنبيهاً على عظم قدرها وعلو رتبتها عنده تعالى. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾﴾ معناه: أن من كانوا بهذه الصفات واجتمعت فيهم هذه الخلال، هم الوارثون يوم القيامة منازل أهل النار من الجنة، فقد رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: «ما منكم من أحد إلا له منزلان: منزل في الجنة ومنزل في النار، فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله». وقيل: إن معنى الميراث هنا أنهم يصيرون إلى الجنة بعد الأحوال المتقدمة، وينتهي أمرهم إليها، كالميراث الذي يصير الوارث إليه. ثم وصف الوارثين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ وهو اسم من أسماء الجنة، عن الحسن، ولذلك أنَّث فقال: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وقيل: هو اسم لرياض الجنة، عن مجاهد وأبي علي الجبائي. وقيل: هو جنة مخصوصة. ثم اختلف في أصله فقيل: إنه اسم رومي فَعُرِّبَ، وقيل: هو عربي وزنه فِعْلول، وهو البستان الذي فيه كرم، قال جرير:

يا بُعْدَ يبرين من باب الفراديس(١)

وقال الجبائي: معنى الوراثة هنا: أن الجنة ونعيمها يؤول إليهم من غير اكتساب، كما يؤول المال إلى الوارث من غير اكتساب.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن عامر وأبو بكر: «عَظْماً فكسونا العَظْم» على الإفراد، وقرأ زيد عن يعقوب: «عظماً فكسونا العظام»، والباقون: على الجمع في الموضعين.

---

(١) وقبله: «فقلت للركب إذ جد الرحيل بنا». ويبرين: موضع من أصقاع بحرين.

● **الحجة:** قال أبو علي: الجمع أشبه بما جاء في التنزيل ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾، ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾، ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ﴾. والإفراد لأنه اسم جنس فأفردَ كما يفرد المصادر وغيرها من الأجناس نحو الدرهم والإنسان، وليس ذلك على حد قوله:

كُـلُوا فـي بـعض بَـطْـنِـكُـم تَـعِـفُّـوا ... فـإنَّ زَمـانَـكُـمْ زمَـنٌ خَـمِـيـصُ(١)

ولكنه على ما أنشده أبو زيد:

لـقـد تَـعـلَّلْتُ عـلى أيـانـقٍ ... صُـهْـبٍ قـليلاتِ الـقُـرادِ الـلّازِقِ(٢)

فالقراد يراد به الكثرة لا محالة.

● **اللغة:** السلالة: اسم لما يسل من الشيء كالكساحة اسم لما يكسح. وتسمى النطفة سلالة، والولد سلالة وسليلة، والجمع سلالات وسلائل. فالسلالة: صفوة الشيء التي يخرج منها كالسلافة، قال الشاعر:

وَهَـلْ أَنـت إلَّا مُـهْـرةٌ عَـرَبِـيَّـةٌ ... سَـلِيْـلَـة أفْـراسٍ تَـجـلَّلَها بَـغْـلُ(٣)

والنطفة: الماء القليل، وقد يقال للماء الكثير أيضاً، ومنه قول أمير المؤمنين عليه أفضل الصلوات: مصارعهم دون النطفة، يريد النهروان يعني الخوارج. ومنه الحديث: «حتى يسير الراكب بين النطفتين لا يخشى جوراً» يعني بحر المشرق وبحر المغرب.

● **الإعراب:** ﴿فِي قَرَارٍ﴾ في موضع الصفة لنطفة. و﴿عَلَقَةً﴾: حال من النطفة بعد الفراغ من الفعل، وكذلك القول في مضغة وعظام. و﴿لَحْمًا﴾ مفعول ثان لـ﴿كَسَوْنَا﴾، و﴿خَلْقًا﴾ مصدر أنشأنا من غير لفظه. ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ صفة لجنات. وكذلك قوله ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه على وجه القسم ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ المراد بالإنسان ولد آدم عليه السلام، وهو اسم الجنس فيقع على الجميع، عن ابن عباس ومجاهد. وأراد بالسلالة الماء يسل من الظهر سلّاً، من طين أي: من طين آدم، لأنها تولدت من طين خلق آدم منه. قال الكلبي: يقول من نطفة سلت تلك النطفة من طين. وقيل: أراد بالإنسان آدم عليه السلام لأنه استل من أديم الأرض، عن قتادة، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ﴾ يعني: ابن آدم الذي هو الإنسان ﴿نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ يعني الرحم مكن فيه الماء بأن هُيِّءَ لاستقراره فيه إلى بلوغ أمده الذي جعل له ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ مُفسّر في سورة الحج ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ أي: جعلنا تلك المضغة من اللحم عظاماً ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ أي: فأنبتنا

---

(١) زمن خميص: أي شديد.

(٢) تعلل بالأمر: تشاغل. وأيانق جمع أينق وهي جمع الناقة. والأصهب من الإبل الذي يخالط بياضه حمرة. والقراد: دويبة تعض الإبل. ومعنى قليلات: أن جلودها ملس لا يثبت عليها قراد الأينق لأنها سمان ممتلئة.

(٣) المهرة: ولد الفرس. وقال بعضهم: إن قوله «بغل» تصحيف، وإن صوابه «نغل» بالنون، وهو الخسيس من الناس والدواب. ويروى البيت: «وما هند... تحلّلها بغل».

اللحم على العظام كاللباس، بيَّن سبحانه تنقل أحوال الإنسان في الرحم حتى استكمل خلقه، لينبِّه على بدائع حكمته وعجائب صنعته وكمال نعمته ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ أي: نفخنا فيه الروح، عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والشعبي والضحاك. وقيل: هو نبات الشعر والأسنان وإعطاء الفهم، عن قتادة. وقيل: يعني ثم أنشأناه ذكراً وأنثى، عن الحسن ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ أي: تعالى الله ودام خيره وثبت، وقيل: معناه استحق التعظيم بأنه قديم لم يزل ولا يزال، لأنه مأخوذ من البروك الذي هو الثبوت. وقال: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ لأنه لا تفاوت في خلقه. وأصل الخلق التقدير. يقال: خلقت الأديم إذا قسته لتقطع منه شيئاً. وقال حذيفة في هذه الآية: تصنعون ويصنع الله وهو خير الصانعين، وفي هذا دليل على أن اسم الخلق قد يطلق على فعل غير الله تعالى، إلا أن الحقيقة في الخلق لله سبحانه فقط. فإن المراد من الخلق إيجاد الشيء مقدراً تقديراً لا تفاوت فيه، وهذا إنما يكون من الله سبحانه وتعالى. ودليله قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾، وَروي أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح، كان يكتب لرسول الله ﷺ، فلما بلغ إلى قوله ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾خطر بباله ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ فلما أملاها رسول الله كذلك، قال عبد الله: إن كان محمداً نبياً يوحى إليه فأنا نبي يوحى إليّ. فلحق بمكة مرتداً، ولو صحَّ هذا، فإن هذا القدر لا يكون معجزاً ولا يمتنع أن يتفق ذلك من الواحد منا، لكن هذا الشقي إنما اشتبه عليه، أو شبَّه على نفسه لما كان في صدره من الكفر والحسد للنبي ﷺ. ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد ما ذكرنا من تمام الخلق ﴿لَمَيِّتُونَ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ أي: تحشرون إلى الموقف والحساب والجزاء. أخبر الله سبحانه أن هذه البنية العجيبة المبنية على أحسن إتقان وإحكام، تنقض بالموت لغرض صحيح، وهو البعث والإعادة. وهذا لا يمنع من الإحياء في القبور لأن إثبات البعث في القيامة، لا يدل على نفي ما عداه. ألا ترى أن الله سبحانه أحيا الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف، وأحيا قوم موسى على الجبل بعد ما أماتهم، وفي الآية دلالة على فساد قول النظام في أن الإنسان هو الروح. وقول معمر: إن الإنسان شيء لا ينقسم وإنه ليس بجسم. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ أي: سبع سماوات كل سماء طريقة وسميت بذلك لتطارقها، وهو أن بعضها فوق بعض. وقيل: لأنها طرائق الملائكة، عن الجبائي. وقيل: الطرائق الطباق، وكل طبقة طريقة، عن ابن زيد. وقيل: إن ما بين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام، وكذلك ما بين السماء والأرض، عن الحسن. ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ إذ بنينا فوقهم سبع سماوات، أطلعنا فيها الشمس والقمر والكواكب، وقيل: معناه ما خلقناهم عبثاً بل خلقناهم عالمين بأعمالهم وأحوالهم، عن الجبائي. وفي هذا دلالة على أنه عالم بجميع المعلومات، وفيه زجر عن السيئات، وترغيب في الطاعات. ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: مطراً وغيثاً ﴿بِقَدَرٍ﴾ أي: بقدر الحاجة لا يزيد على ذلك فيفسد، ولا ينقص عنه فيهلك، بل على ما توجبه المصلحة ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جعلنا له الأرض مسكناً جمعناه فيه لينتفع به. يريد ما يبقى في المستنقعات والدحلان[1]. أقر الله الماء فيها لينتفع

---

(١) الدحلان جمع الدحل: المصنع يجمع الماء.

الناس بها في الصيف عند انقطاع المطر. وقيل: معناه جعلناه عيوناً في الأرض. وروى مقاتل عن عكرمة، عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى أنزل من الجنة خمسة أنهار سيحون، وهو نهر الهند، وجيحون وهو نهر بلخ، ودجلة والفرات وهما نهرا العراق، والنيل وهو نهر مصر. أنزلها الله من عين واحدة وأجراها في الأرض، وجعل فيها منافع للناس في أصناف معايشهم، وذلك قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾». ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ أي: ونحن على إذهابه قادرون، ولو فعلناه لهلك جميع الحيوانات. نبَّه سبحانه بذلك على عظيم نعمته على خلقه بإنزال الماء من السماء ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم﴾ أي: أحدثنا وخلقنا لنفعكم ﴿بِهِ﴾ أي: بسبب هذا الماء ﴿جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ﴾ يا معشر الخلق ﴿فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ تتفكهون بها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وإنما خصَّ النخل والأعناب لأنها ثمار الحجاز من المدينة والطائف، فذكَّرهم سبحانه بالنعم التي عرفوها.

● **النظم:** وجه اتصال الآيات بما قبلها، أنه سبحانه لما ذكر نعمته على المؤمنين بما أعدَّ لهم في الآخرة، ابتدأ بذكر نعمه عليهم في مبتدأ خلقه، تنبيهاً لهم على النظر فيها وترغيباً في التمسك بالحسنات المذكورة. ولمّا بيَّن أحوال الآخرة، بيَّن متى يكون البعث ودل بذلك على أن من قدر على خلق الإنسان في هذا الترتيب والتركيب العجيب قدر على الإعادة. ثم أبان عن قدرته على البعث، بقدرته على خلق السماوات. ثم بيَّن أنه لا يغفل عن عباده إذ لا يشغله فعل عن فعل ثم بيَّن أنه قادر لذاته حيث أنزل من السماء الماء وأسكنه في الأرض بأن فرَّقه في البحار والأنهار والعيون. ثم بيَّن سبحانه أنه قادر على إذهابه، دلالة على أن هذه النعمة وقعت باختياره. ثم ذكر تفصيل النعمة.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾
وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ
﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا
اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا
بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي
آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو: «طور سيناء» بكسر السين. والباقون بفتحها. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب، عن روح: «تنبت بالدهن» بضم التاء، والباقون: «تنبت» بفتح التاء وضم الباء، وفي الشواذ قراءة الحسن والزهري والأعرج: «تنبت» بضم التاء وفتح الباء وقد ذكرنا اختلافهم في «نسقيكم» في سورة النحل.

● **الحجة:** قال أبو عمرو: من قرأ: «سيناء» بفتح السين لم ينصرف الاسم عنده في معرفة

ولا نكرة، لأن الهمزة في هذا البناء لا تكون إلا للتأنيث، ولا تكون للإلحاق، لأن فعلال لا يكون إلا في المضاعف فلا يجوز أن يلحق به شيء. فهذا إذاً كموضع أو بقعة تسمى بطرفاء أو صحراء، ومن قرأ: «سيناء» بالكسر فالهمزة فيها منقلبة عن الياء، كعلباء وسيساء(١). وهي الياء التي أظهرت في نحو دِرحايَة(٢). وإنما لم ينصرف على هذا القول وإن كان غير مؤنث، لأنه جعل اسم بقعة، فصار بمنزلة امرأة سميت بجعفر. ومن قرأ: «تُنبِتُ بالدهن» احتمل وجهين:

أحدهما: أن يجعل الجار زائداً، يريد تنبت الدهن، كما في قوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ وقد زيدت هذه الباء مع الفاعل، كما زيدت مع المفعول به في نحو قوله:

ألم يأتيك والأنباء تنمي ... بما لاقت لَبُون بني زياد(٣)

وقد زيدت مع هذه الكلمة بعينها في قوله:

بوادٍ يَمانٍ تَنبُتُ الشَّثُّ حَوْلَهُ ... وأسْفَلُهُ بالمَرْخِ والشُّبُهانِ(٤)

حملوه على ينبت أسفله المرخ. ويجوز أن يكون الباء متعلقاً بغير هذا الفعل الظاهر، ويقدر مفعولًا محذوفاً تقديره تنبت جناها أي: ثمرتها وفيها دهن وصبغ كما تقول: خرج بثيابه وركب بسلاحه. ومن قرأ: «تَنبت بالدهن» جاز أن يكون الجار فيه للتعدي أنبته ونبت به. ويجوز أن يكون الباء في موضع حال، كما كان في الوجه الأول، ولا يكون للتعدي. ولكن تنبت فيها دهن، وقد قالوا: أنبت بمعنى نبت، فكان الهمزة في أنبت مرة للتعدي ومرة لغيرها. ويكون من باب أخال وأجرب وأقطف أي: صار ذا خال وجرب(٥). ومن قرأ: «تُنبَتُ»فهو على معنى تنبت، وفيها دهنها، وتؤكد ذلك قراءة عبد الله «تخرج بالدهن» أي: تخرج من الأرض ودهنها معها. قال ابن جني: ذهبوا في بيت زهير:

حتى إذا أنبت البقل(٦)

إلى أنه في معنى نبت. وقد يجوز أن يكون محذوف المفعول بمعنى حتى إذا أنبت البقل ثمره. قال: ومن ذهب إلى زيادة الباء في قوله: تنبت بالدهن فمضعوف المذهب، لأنه يزيد حرفاً لا حاجة له إلى اعتقاد زيادته.

● **المعنى**: ثم عطف سبحانه على ما تقدم فقال: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ أي: وأنشأنا لكم بذلك المطر شجرة يعني شجرة الزيتون، وخصت بالذكر لما فيها من العبرة بأنه لا

---

(١) العلباء: عصبة في صفحة العنق. والسيساء: منتظم فقار الظهر.
(٢) الدرحاية من الرجال: القصير السمين البطين.
(٣) مضى البيت في هذا الجزء فراجع.
(٤) مضى البيت في هذا الجزء فراجع.
(٥) [وقطف].
(٦) هذا جزء من بيت تمامه:
«رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم ... قطيناً لهم حتى إذا أنبت البقل»

يتعاهدها إنسان بالسقي، وهي تخرج الثمرة التي يكون منها الدهن الذي تعظم به المنفعة. وسيناء: اسم المكان الذي به هذا الجبل في أصح الأقوال، وهي نبطية في قول الضحاك، وحبشية في قول عكرمة، وهي اسم حجارة بعينها أضيف الجبل إليها، عن مجاهد. وقيل: سيناء البركة فكأنه قيل: جعل البركة، عن ابن عباس وقتادة. وقيل: طور سيناء الجبل المشجر أي: كثير الشجر، عن الكلبي. وقيل: هو الجبل الحسن، عن عطاء. وهو الجبل الذي نودي منه موسى عليه السلام، وهو ما بين مصر وأيلة، عن ابن زيد. ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ أي: تنبت ثمرها بالدهن لأنه يعصر من الزيتون الزيت ﴿وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ والصبغ ما يصطبغ به من الأدم، وذلك أن الخبز يلون بالصبغ إذا غمس فيه والاصطباغ بالزيت: الغمس فيه للائتدام به. والمراد بالصبغ الزيت، عن ابن عباس، فإنه يدهن به ويؤتدم. جعل الله في هذه الشجرة أدماً ودهناً: «فالأدم» الزيتون، والدهن الزيت. وقد رُويَ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «الزيت شجرة مباركة فائتدموا به وادّهنوا». ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗ﴾ أي: دلالة تستدلون بها على قدرة الله تعالى ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ أراد به اللبن. ومن قرأ بضم النون أراد: إنا جعلنا ما في ضروعها من اللبن سقياً لكم. ومن فتح النون جعل ذلك مختصاً بالسقاة، وهو مفسَّر في سورة النحل. ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ﴾ في ظهورها وألبانها وأوبارها وأصوافها وأشعارها ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ أي: من لحومها وأولادها والتكسب بها. ﴿وَعَلَيۡهَا﴾ يعني على الإبل خاصة. ﴿وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾ وهذا كقوله: ﴿وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾، أما في البر فالإبل، وأما في البحر فالسفن. ولما قدَّم سبحانه ذكر الأدلة الدالة على كمال قدرته، فأتبعها بذكر شمول نعمته على كافة خليقته، عقَّب ذلك بذكر إنعامه عليهم بإرسال الرسل فقال: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ قيل: إنما سمي نوحاً لكثرة نوحه على نفسه، عن ابن عباس. وقيل في سبب نوحه: إنه كان يدعو على قومه بالهلاك. وقيل: هو مراجعته ربه في شأن ابنه. ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: أطيعوه ووحِّدوه ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ بدأ بالتوحيد لأنه الأهم ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله في ترك الإيمان به ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ﴾ أي: الأشراف ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: يتشرَّف ويترأس عليكم بأن يصير متبوعاً، وأنتم له تبع، فيكون له الفضل عليكم، ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن لا يعبد شيء سواه ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ ولم يرسل بشراً آدمياً ﴿مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا﴾ الذي يدعونا إليه نوح من التوحيد ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: في الأمم الماضية ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ﴾ أي: في حالة جنون ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ أي: انتظروا موته فتستريحوا منه. وقيل: فانتظروا إفاقته من جنونه فيرجع عما هو عليه. وقيل: معناه احبسوه مدة ليرجع عن قوله.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ

﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾
وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ
﴿٣٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو بكر عن عاصم: «منزلاً» بفتح الميم وكسر الزاي، والباقون: «منزلاً» بضم الميم وفتح الزاي.

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ: «مُنزلاً» بالضم، جاز أن يكون مصدراً وأن يكون موضعاً للإنزال. فعلى الوجه الأول جاز أن يعدّى الفعل إلى مفعول آخر، وعلى الوجه الثاني قد تعدى إلى مفعولين. ومن قرأ: «مَنزلاً» أمكن أن يكون مصدراً وأن يكون موضع نزول. ودل أنزلني على نزلت.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه أن نوحاً لما نسبه قومه إلى الجنون ولم يقبلوا منه ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾ أي: بتكذيبهم آياتي، والمعنى: انصرني بإهلاكهم ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بحيث نراها كما يراها الرائي من عبادنا بعينه، وقيل: معناه بأعين أوليائنا من الملائكة والمؤمنين، فإنهم يحرسونك من كل من يمنعك منه ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أي: بأمرنا وإعلامنا إياك كيفية فعلها ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾ أي: فأدخل في السفينة ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ مفسَّر في سورة هود، ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ أي: لا تكلمني في شأنهم ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ أي: هالكون ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ﴾ يا نوح ﴿وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ أي: السفينة ﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا﴾ أي: خلصنا ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لنفوسهم بجحدهم توحيد الله ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ أي: إنزالًا مباركاً، أو نزولًا مباركاً بعد الخروج من السفينة، وذلك تمام النجاة، عن مجاهد. وقيل: المنزل المبارك هو السفينة، عن الجبائي، قيل: لأنه سبب النجاة. وقيل: معناه أنزلني مكاناً مباركاً بالماء والشجر، عن الكلبي، وقيل: معنى البركة أنهم توالدوا وكثروا، عن مقاتل. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ لأنه لا يقدر أحد على أن يصون غيره من الآفات، إذا أنزله منزلًا، ويكفيه جميع ما يحتاج إليه إلا أنت. قال الحسن: كان في السفينة سبعة أنفس من المؤمنين ونوح ثامنهم. وقيل: ثمانون. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: في أمر نوح والسفينة وهلاك أعداء الله ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ أي: دلالات للعقلاء يستدلون بها على التوحيد. ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ معناه: وإن كنا مختبرين إياهم بإرسال نوح، ووعظه وتذكيره، ومتعبدين عبادنا بالاستدلال بتلك الآيات على قدرتنا ومعرفتنا.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ
ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟
بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ

وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ
إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ
هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ
لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ .

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر: «هيهات هيهاتِ» بالكسر، والباقون بالفتح. وفي الشواذ قراءة عيسى بن عمر: «هيهاتٍ هيهاتٍ» بالتنوين والكسر. وقراءة أبي حَيْوَة: «هيهاتٌ هيهاتٌ» بالرفع والتنوين، وقراءة عيسى الهمداني: «هيهات هيهات» مرسلة التاء.

● **الحجة:** قال ابن جني: أما الفتح وهو قراءة العامة فعلى أنه واحد، وهو اسم سمي به الفعل في الخبر، وهو اسم بَعُدَ، كما أن شتان اسم افترق، وأفّ اسم أتضجر. ومن كسر فقال: «هيهاتِ» منوناً أو غير منون فهو جمع هيهاة وأصلها هيهيات فحذف الألف لأنه في آخر اسم غير متمكن، كما حذفت ياء الذي، وألف ذا، في التثنية إذا قلت: اللذان وذان. ومن نوَّن ذهب إلى التنكير أي: بُعْداً بُعْداً. ومن لم ينوّن ذهب إلى التعريف، أراد البعد البعد. ومن فتح وقف بالهاء لأنها كهاء أرطأة. ومن كسر كتبها بالتاء لأنها جماعة. ومن قال: هيهات بالتنوين والرفع فإنه يكتبها بالهاء، ويكون اسماً معرباً فيه معنى البعد. وقوله: ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ خبر عنه فكأنه قال: البعد لوعدكم. وأما «هيهاتْ» ساكنة التاء فينبغي أن تكون جماعة، وتكتب بالتاء، وأُجريت في الوقف مجراها في الوصل. ويقول العرب: هيهات لما تبغي، وهيهات منزلك، قال جرير:

فهيهاتَ هيهاتَ العَقِيقَ ومَنْ بِهِ وهيهاتَ خِلٌّ بالعَقِيقِ نُواصِلُه[1]

ويروى: أيهات، واختار الفراء الوقف على «هيهات» بالتاء، لأن قبلها ساكناً، فصارت كتأنيث أُخت. وقال أبو علي: إنما كرر هيهات في الآية، وفي البيت، للتأكيد، وأما اللتان في الآية ففي كل واحدة منهما ضمير مرتفع يعود إلى الإخراج. إذ لا يجوز خلوه من الفاعل، والتقدير: هيهات إخراجكم، لأن قوله ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ بمعنى الإخراج أي: بعد إخراجكم للوعد، إذ كان الوعد إخراجكم بعد موتكم. استبعد أعداء الله إخراجهم لما كانت العدة به بعد الموت. ففاعل هيهات هو الضمير العائد إلى ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ الذي هو بمعنى الإخراج. وأما في البيت، ففي هيهات الأول ضمير العقيق، وفسر ذلك ظهوره مع الثاني.

● **الإعراب:** اختلفوا في «أن» الثانية من قوله سبحانه: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾، وكذلك قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ

---

(١) العقيق: اسم موضع. وفي (اللسان): «نحاوله» بدل «نواصله».

جَهَنَّمَ ﴾ . وقوله: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، فقال سيبويه: أَنَّ الثانية في هذه المواضع الثلاثة بدل من الأولى. وقال أبو عمرو الجرمي وأبو العباس المبرد: إنها مكررة للتأكيد وطول الكلام. وقال أبو الحسن: إنها مرتفع بالظرف، واختاره أبو علي الفارسي، وزيف القولين الأولين. وأقول: إنَّ أن الأولى في قوله: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ ﴾ مع اسمها وخبرها في موضع نصب على أنه المفعول الثاني من الوعد. ويكون تقديره على مذهب سيبويه: أيعدكم أنكم مخرجون إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً، أي: أيعدكم كونكم مخرجين بعد موتكم، وكونكم تراباً وعظاماً. وأما على مذهب من جعله للتكرير فتقديره: أيعدكم أنكم بعد موتكم مخرجون. وأما على مذهب أبي الحسن وأبي علي فتقديره: أيعدكم أنكم إذا متم إخراجكم. واتقوا: أنكم وقت موتكم أو بعد موتكم إخراجكم. فقوله: ﴿أَنَّكُمْ مُّخْرَجُونَ﴾ في موضع رفع بالظرف الذي هو قوله: ﴿إِذَا مِتُّمْ﴾. وقوله: ﴿إِذَا مِتُّمْ﴾ مع ما بعده رفع لكونه جملة واقعة موقع خبر أنّ الأولى. وموضع ﴿إِذَا﴾ نصب كما انتصب «يوم» في قولك: يوم الجمعة القتال، والعامل في الظرف في الأصل الفعل المحذوف، أو معنى الفعل مثل قولك: يحدث أو حادث، أو يكون أو كائن. ولا يجوز أن يكون العامل فيه الإخراج نفسه، إذ لو كان كذلك لكان الكلام غير تام ولا يكون له خبر، ثم يحذف هذا المضمر لدلالة الظرف عليه وقيامه مقامه، ويصير الذكر الذي كان في المضمر من المحدث عنه في الظرف، وذلك الذكر مرتفع بالظرف كما كان يرتفع بالفعل، كما في نحو قولك: زيد ذهب، وزيد ذاهب. فلما قام الظرف مقام الفعل متأخراً عن الاسم، قام مقامه أيضاً مبتدأ، فرفع الاسم الظاهر كما رفعه الفعل. فكذلك ﴿إِذَا﴾ في الآية تقديره في الأصل: إذا متم إخراجكم كائن أو حادث أو يكون أو يحدث. ثم اختزل الفعل أو معنى الفعل على ما قاله أبو علي، فانتصب إذا بذلك كما ينتصب «غداً» في قولك: غداً الرحيل. وحذف الخبر كما حذف من غد، ثم قام إذا مقام الفعل فرفع قوله: ﴿أَنَّكُمْ مُّخْرَجُونَ﴾ كما رفع قولك: غداً الرحيل. وعلى هذا فيجوز أن نقول هنا: إن موضع ﴿إِذَا﴾ نصب بحادث، أو يحدث، المضمر في قولك: إذا متم إخراجكم يحدث أو حادث. ويجوز أن نقول: إن الاسم الذي هو ﴿أَنَّكُمْ مُّخْرَجُونَ﴾ واقع موقع جواب شرط إذا، ويرفع بفعل مضمر تقديره: أيعدكم إذا متم يعاد إخراجكم أو يحدث إخراجكم ويكون موضع ﴿إِذَا﴾ نصب بذلك الفعل. فأما تقدير ارتفاع أنّ الثانية بالظرف في الآيتين الأخيرتين، فقد تقدم بيانه في موضعيهما من هذا الكتاب فلا معنى لإعادته.

فقد أجاز أبو عثمان وغيره إضمار الظرف وإعماله، كما قالوا في انتصاب مثلهم في بيت الفرزدق:

فَأَصْبَحُوا قَدْ أعاد الله نِعْمَتَهُمْ   إذْ هُمْ قُرَيْشٌ وإذ مَا مِثْلَهُمْ بَشَرُ(١)

إنه على ظرف مضمر.

(١) هذا البيت من قصيدة يمدح فيها عمر بن عبد العزيز. وضمائر الجمع مرجعها قريش.

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه على قصة قوم نوح، فقال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: أحدثنا وخلقنا من بعد قوم نوح ﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ أي: جماعة آخرين من الناس، والقرن: أهل العصر على مقارنة بعضهم لبعض. قيل: يعني عاداً قوم هود، لأنه المبعوث بعد نوح. وقيل: يعني ثمود لأنهم أهلكوا بالصيحة، عن الجبائي ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ سبق تفسيره ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: بالبعث والجزاء ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: نعمناهم فيها بضروب الملاذ ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ من الأشربة، فليس هو أولى بالرسالة منا ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ﴾ فيما يدعوكم إليه ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ باتباعه ﴿أَيَعِدُكُمْ﴾ هذا الرسول ﴿أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ وصرتم بعد الموت رميماً ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ من قبوركم أحياء. ﴿هَيْهَاتَ﴾ فيه ضمير مرتفع عائد إلى قوله ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ والمعنى: هيهات هو، أي: بُعْد إخراجكم جداً حتى امتنع ﴿هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ قال ابن عباس: بعداً بعداً لما توعدون. وقال الكلبي: بعيد بعيد ما يعدكم ليوم البعث ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ أي: ليس الحياة إلا الحياة التي نحن فيها القريبة منا ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: يموت قوم منا، ويحيا قوم ولا نبعث، وقيل: يموت الآباء ويحيا الأبناء، عن الكلبي. وقيل: يموت قوم ويولد قوم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد ذلك، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: اختلق كذباً ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بمصدقين فيما يقول ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٦﴾﴾ تقدم بيانه ﴿قَالَ﴾ أي: قال الله سبحانه: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ أي: عن قليل من الزمان والوقت، يعني عند الموت أو عند نزول العذاب، وما هٰهنا مزيدة ﴿لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ هذا وعيد لهم، واللام للقسم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾
ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ
فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ
فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا
عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ
يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: «تترى» بالتنوين، والباقون بغير تنوين ومن نوّن وقف بالألف لا غير. ومن لم ينوّن ومذهبه الإمالة وقف بالياء وهي ألف ممالة. والباقون بالألف. وقد ذكرنا اختلافهم في «ربوة» في سورة البقرة.

● **الحجة:** قال أبو علي: «تترى» فَعْلَى من المواترة، والمواترة أن يتبع الخبر الخبر،

والكتاب الكتاب، فلا يكون بينهما فصل كثير. والأقيس أن لا يصرف، لأن المصادر قد يلحق أواخرها ألف التأنيث كالدعوى والعدوى والذكرى والشورى، ولم نعلم شيئاً من المصادر لحق آخرها الياء للإلحاق، فمن قال: «تترى» أمكن أن يريد به فعلى من المواترة، فيكون الألف بدلاً من التنوين، وإن كان في الخط بالياء كان للإلحاق. والإلحاق في غير المصادر ليس بالقليل نحو: أرطى ومعزى، ولزم أن يحمل على فَعْلٍ دون فَعْلى. ومن قال: «تترى» وأراد به فعلى فحكمه أن يقف بالألف مفخمة ولا يميلها، ومن جعل للإلحاق أو للتأنيث أمال الألف إذا وقف عليها.

● **المعنى:** لما قال سبحانه: إن هؤلاء الكفار يصبحون نادمين على ما فعلوه، عقَّبه بالإخبار عن إهلاكهم، فقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ صاح بهم جبرائيل صيحة واحدة، ماتوا عن آخرهم ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: باستحقاقهم العقاب بكفرهم ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾ وهو ما جاء به السيل من نبات قد يبس، وكل ما يحمله السيل على رأس الماء من قصب وعيدان شجر فهو غثاء. والمعنى: فجعلناهم هلكى قد يبسوا كما يبس الغثاء، وهمدوا. ﴿فَبُعْدًا﴾ أي: ألزم الله بعداً من الرحمة ﴿لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المشركين المكذِّبين ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد هؤلاء ﴿قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾ أي: أمماً وأهل أعصار آخرين ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ هذا وعيد للمشركين معناه: ما تموت أمة قبل أجلها المضروب لها ولا تتأخر عنه، وقيل: عنى بالعذاب الموعود لهم على التكذيب أنه لا يتقدم على الوقت المضروب لهم لذلك، ولا يتأخر عنه. والأجل هو الوقت المضروب لحدوث أمر من الأمور، والأجل المحتوم لا يتأخر ولا يتقدم، والأجل المشروط بحسب الشرط، والمراد بالأجل المذكور في الآية: الأجل المحتو. ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ أي: متواترة يتبع بعضهم بعضاً، عن ابن عباس ومجاهد، وقيل: متقاربة الأوقات. وأصله الاتصال لاتصاله بمكانه من القوس، ومنه الوتر وهو الفرد عن الجمع المتصل. قال الأصمعي: يقال واترت الخبر: أتبعت بعضه بعضاً، وبين الخبرين هنيهة. ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ ولم يُقِرُّوا بنبوته ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ يعني في الإهلاك أي: أهلكنا بعضهم في أثر بعض ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي: يتحدث بهم على طريق المثل في الشر، وهو جمع أُحدوثة، ولا يقال هذا في الخير. والمعنى: إنا صيَّرناهم بحيث لم يبق بين الناس إلا حديثهم ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ ظاهر المعنى. ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: بدلائلنا الواضحة ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: وبرهان ظاهر بيّن ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ خص الملأ وهم الأشراف بالذكر لأن الآخرين كانوا أتباعاً لهم ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ أي: تجبروا وتعظَّموا عن قبول الحق ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾ أي: متكبرين قاهرين قهروا أهل أرضهم واتخذوهم خولاً. ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ أي: نصدِّق لإنسانَين خلقهم مثل خلقنا، ويسمى الإنسان بشراً لانكشاف بشرته، وهي جلدته الظاهرة حتى احتاج إلى لباس يكنُّه، وغيره من الحيوان مغطى البشرة بصوف أو ريش أو غيره، لطفاً من الله سبحانه بخلقه، إذ لم يكن هناك عقل يدبر أمره مع حاجته إلى ما يكنُّه، والإنسان يهتدي إلى ما يستعين به في هذا الباب. ﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ أي: مطيعون طاعة العبد لمولاه، قال الحسن: كان بنو إسرائيل يعبدون فرعون، وفرعون يعبد الأوثان ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: فكذَّبوا

موسى وهارون فكان عاقبة تكذيبهم أن أهلكهم الله وغرقهم. ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: لكي يهتدوا إلى طريق الحق والصواب ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ وهذا مثل قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: حجة على قدرتنا على الاختراع. وآية عيسى أنه خلق من غير ذكر، وآية مريم أنها حملت من غير فحل. ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ أي: جعلنا مأواهما مكاناً مرتفعاً مستوياً واسعاً. يقال: أوى إليه يأوي أوياً وأواه غيره يؤويه إيواء أي: جعله مأوى له. والربوة التي أويا إليها هي الرملة من فلسطين، عن أبي هريرة، وقيل: دمشق، عن سعيد بن المسيب، وقيل: مصر، عن ابن زيد، وقيل: بيت المقدس، عن قتادة وكعب. قال كعب: وهي أقرب الأرض إلى السماء. وقيل: هي حيرة الكوفة وسوادها. والقرار: مسجد الكوفة، والمعين: الفرات، عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام. وقيل: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ معناه: أي ذات موضع قرار أي: هي أرض مستوية يستقر عليها ساكنوها، عن الضحاك وسعيد، وقيل: ذات ثمار، عن قتادة ذهب إلى أنه لأجل الثمار يستقر فيها ساكنوها. ومعين: ماء جار ظاهر العيون مفعول من أعننته أعينه. ويجوز أن يكون فعيلًا من معن يمعن معانة، والماعون: الشيء القليل في قول الزجاج. قال الراعي:

قومٌ على الإسلامِ لَمّا يمنعوا ... ماعونهم ويُبدِّلوا التنزيلا

قالوا: معناه رفدهم، وقيل: زكاتهم، وقال عُبيد بن الأبرص:

واهيةٌ أو مَعِينٌ مُمْعِنٌ ... أو هَضبَةٌ دونَها لُهوبُ(١)

واللهب: شق في الجبل ممعن مار. والمعن: الشيء السهل الذي ينقاد ولا يعتاص. وأمعن بحقه وأذعن أي: أقرّ. قال ابن الأعرابي: سالت معانه أي: مسائله ومجاريه.

●●●

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة: «وإنّ هذه» بالكسر، وقرأ ابن عامر: «وأنْ» بالفتح والتخفيف، والباقون: «وأنّ هذه» بالفتح.

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ: «وأنّ هذه» بالفتح، فالمعنى على قول الخليل وسيبويه: أنه محمول على الجار والتقدير: ولأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون أي: اتقوني لهذا. ومثل ذلك عندهم قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ﴾ أي: ولأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله

---

(١) الوهى: الشق في الشيء. والهضبة: الجبل المنبسط.

أحداً. وكذلك عندهما ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ فكأنه قال: فليعبدوا رب هذا البيت لإيلاف قريش أي: ليقابلوا هذه النعمة بالشكر والعبادة للمنعم بها، وعلى هذا التقدير يحمل قراءة ابن عامر. ألا ترى أنْ إذا خففت اقتضت ما يتعلق بها اقتضاءها وهي غير مخففة. وقال بعض النحويين: موضع «أن» المفتوحة جر عطفاً على قوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ . و﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ نصب على الحال، والكوفيون يسمونه قطعاً. ومن كسر لم يحملها على الفعل كما يحملها من فتح، ولكن يجعلها كلاماً مستأنفاً.

● **المعنى:** لما أخبر الله سبحانه عن إيتائه الكتاب للاهتداء، ثم عما أولاه من سابغ النعماء، خاطب الرسل بعد ذلك فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ قيل: هو خطاب للرسل كلهم، وأمر لهم أن يأكلوا من الحلال، عن السدي. وَرُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً». وأنه أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾، وقيل: أراد به محمداً ﷺ وحده، على مذهب العرب في مخاطبة الواحد مخاطبة الجمع، عن الحسن ومجاهد وقتادة والكلبي. ويتضمن هذا أن الرسل جميعاً كذا أُمِرُوا. قال الحسن: أما والله ما عني به أصفركم ولا أحمركم ولا حلوكم ولا حامضكم، ولكنه قال: انتهوا إلى الحلال منه. ﴿وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ أي: ما أمركم الله به، وقيل: إنه خطاب لعيسى عليه السلام خاصة ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ هذا بيان السبب الداعي إلى إصلاح العمل. فإن العاقل إذا عمل لمن يعلم عمله ويجازيه على حسب ما يعمل من عمله وبقدر استحقاقه، أصلح العمل. ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: دينكم دين واحد، عن الحسن وابن جريج، ويعضده قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ أي: على دين. قال النابغة:

حلفتُ فلَمْ أتْرُكْ لِنَفْسِي رِيبَةً وهَلْ يأثَمَنْ ذُو أُمَّةٍ وَهْوَ طَائِعُ

وقيل: هذه جماعتكم وجماعة من قبلكم واحدة، كلكم عباد الله تعالى، عن الجبائي ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ أي: لهذا فاتقوا ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ تفسير الآيتين قد تقدم في سورة الأنبياء ﴿زُبُرًا﴾ أي: كتباً وهو جمع زبور، عن الحسن وقتادة ومجاهد. والمعنى: تفرقوا في دينهم وجعلوه كتباً دانوا بها وكفروا بما سواها، كاليهود كفروا بالإنجيل والقرآن، والنصارى كفروا بالقرآن، وقيل: معناه أحدثوا كتباً يحتجون بها لمذهبهم، عن ابن زيد، ومن قرأ: «زُبَراً» وهو ابن عامر، فمعناه: جماعات مختلفة فهي جمع زبرة أي: تفرقوا أحزاباً. وانتصب ﴿زُبُرًا﴾ على الحال من ﴿أَمْرَهُم﴾ والعامل فيه «تقطع»، وقال الزجاج: معناه جعلوا دينهم كتباً مختلفة على قراءة من قرأ: «زبراً» فعلى هذا يكون «زبراً» مفعولاً ثانياً. ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي: كل فريق بما عندهم من الدين راضون، يرون أنهم على الحق. ثم خاطب نبيّه ﷺ فقال: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ يا محمد ﴿فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ أي: جهلهم وضلالتهم. وقيل: في حيرتهم، وقيل: في غفلتهم، وهي متقاربة. ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: وقت الموت، وقيل: وقت العذاب. ثم قال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ معناه: أيظن هؤلاء الكفار أن ما نعطيهم ونزيدهم

من أموال وأولاد، إنما نعطيهم ثواباً ومجازاة لهم على أعمالهم، أو لرضانا عنهم ولكرامتهم علينا؟ ليس الأمر كما يظنون، بل ذلك إملاء لهم واستدراج لهوانهم علينا، وللابتلاء في التعذيب لهم. ونظيره قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾. وروى السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام، عن أبيه عن آبائه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله تعالى يقول: يحزن عبدي المؤمن إذا أقترت عليه شيئاً من الدنيا، وذلك أقرب له مني. ويفرح إذا بسطت له الدنيا، وذلك أبعد له مني. ثم تلا هذه الآية إلى قوله: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ ثم قال: إن ذلك فتنة لهم». ومعنى ﴿نُسَارِعُ﴾: نسرع ونتعجل، وتقديره: نسارع لهم به في الخيرات، فحذف به للعلم بذلك، كما حذف الضمير من قولهم: السمن منوان بدرهم أي: منوان منه بدرهم. والخيرات: المنافع التي يعظم شأنها، ونقيضها الشرور وهي المضار التي يشتد أمرها. والشعور: العلم الذي يدق معلومه وفهمه على صاحبه كدقة الشعر. وقيل: هو العلم من جهة المشاعر وهي الحواس، ولهذا لا يوصف القديم سبحانه به.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾.

● **القراءة:** في الشواذ قراءة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وعائشة وابن عباس، وقتادة والأعمش: «يأتون ما أتوا» مقصوراً.

● **الحجة:** معنى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾: أنهم يعطون الشيء ويشفقون أن لا يقبل منهم. ومعنى ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾: أنهم يعملون العمل وهم يخافونه ويخافون لقاء الله.

● **المعنى:** ثم بيَّن سبحانه حال الأخيار الأبرار، بعد بيانه أحوال الكفار، الفجار فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: من خشية عذاب ربهم خائفون، فيفعلون ما أمرهم به، وينتهون عما نهاهم عنه، والخشية: انزعاج النفس بتوهم المضرة ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: بآيات الله وحججه من القرآن وغيرها يصدقون ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أي لا يشركون بعبادة الله تعالى غيره من الأصنام والأوثان، لأن خصال الإيمان لا تتم إلا بترك الإشراك، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾ أي: يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقة، وقيل: أعمال البر كلها ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أي: خائفة، عن قتادة، وقال الحسن: المؤمن جمع إحساناً وشفقة، والمنافق جمع إساءة وأمناً. وقال أبو عبد الله: معناه خائفة أن لا يقبل منهم، وفي رواية أخرى: يؤتى ما آتى وهو خائف راج. وقيل: إن في الكلام حذفاً وإضماراً وتأويله: قلوبهم وجلة أن لا يقبل منهم لعلمهم ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ أي: لأنهم يوقنون بأنهم يرجعون إلى الله تعالى، يخافون أن لا يقبل منهم، وإنما يخافون ذلك لأنهم لا يأمنون التفريط. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى

﴿الْخَيْرَاتِ﴾ معناه: الذين جمعوا هذه الصفات وكملت فيهم، هم الذين يبادرون إلى الطاعات ويسابقون إليها، رغبة منهم فيها وعلماً منهم بما ينالون بها من حسن الجزاء. ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ أي: وهم لأجل تلك الخيرات سابقون إلى الجنة. وقيل معناه: وهم إليها سابقون، وقال الكلبي: سبقوا الأمم إلى الخيرات. قال ابن عباس: يسابقون فيها أمثالهم من أهل البر والتقوى.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ
(٦٢) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) حَتَّى إِذَا
أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ (٦٥) قَدْ
كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ
(٦٧) أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ
فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ
(٧٠) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ
بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٧١)﴾.

● **القراءة:** قرأ نافع: «تهجرون» بضم التاء وكسر الجيم، والباقون: «تهجرون» بفتح التاء وضم الجيم. وفي الشواذ قراءة ابن مسعود وابن عباس وعكرمة «وسَمراً تهجرون»، وقراءة ابن محيصن «سُمَّرا»، وقراءة يحيى: «ولو اتبع» بضم الواو.

● **الحجة:** قال أبو علي: من قال: «تهجرون» فالمعنى: أنكم كنتم تهجرون آياتي وما يتلى عليكم من كتابي، فلا تنقادون له وتكذبون به. وتهجرون: تأتون بالهجر والهذيان وما لا خير فيه من الكلام. وقال ابن جني: قوله: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ معناه: تكثرون من الهجر، أو هجر النبي ﷺ أو كتابه، أو تُكثرون من الإهجار وهو الإفحاش في القول، لأن فعَّل للتكثير. والسُمَّر: جمع سامر، والسامر: القوم يسمرون أي: يتحدثون ليلاً. قال ذو الرمة:

وكم عرَّسَت بَعْدَ السُّرى مِنْ مُعَرَّسِ بِهِ مِنْ عَزيفِ الجِنِّ أصوات سامِرِ(١)

قال قطرب: السامر قد يكون واحداً أو جماعة. وقيل: إنه أُخذ من السمُرة وهي اللون الذي بين السواد والبياض، فقيل لحديث الليل: السمر، لأنهم كانوا يقعدون في ظل القمر يتحدثون. وقيل: إن السمر ظل القمر.

● **اللغة:** الوسع: الحال التي يتسع بها السبيل إلى الفعل، والوسع: دون الطاقة، والتكليف: تحميل ما فيه المشقة بالأمر والنهي. والإعلام مأخوذ من الكلفة في الفعل. والله

(١) التعريس: نزول القوم في السفر في آخر الليل للاستراحة. والسرى: سير الليل. وعزيف الجن: صوته.

سبحانه يكلف عباده تعريضاً إياهم للنفع الذي لا يحسن الابتداء بمثله، وهو الثواب. وأصل الغمرة: الستر والتغطية. يقال: غمرت الشيء إذا سترته. وغمرات الموت. شدائده، وكل شدة غمرة. قال: «الغمرات ثم ينجلينا ثم يذهبن فلا يجينا». والجؤار: الاستغاثة ورفع الصوت بها، والنكوص: رجوع القهقرى، وهو المشي على الأعقاب إلى خلف، وهو أقبح مشية مثل بها أقبح حال وهي الإعراض عن الداعي إلى الحق.

● **الإعراب:** ﴿وُسْعَهَا﴾ مفعول ثان لنكلف، ﴿بِالْحَقِّ﴾ إن جعلت الحق مصدراً فالباء مزيدة والتقدير: ينطق الحق. وإن جعلته صفة محذوفاً، فالتقدير: ينطق بالحكم الحق. ومفعول ﴿يَنطِقُ﴾ محذوف، ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ جملة في موضع رفع لأنها صفة لأعمال. ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ منصوب على الحال من قوله: ﴿تَنكِصُونَ﴾، وذو الحال الواو. و﴿تَنكِصُونَ﴾ خبر كان، و﴿سَامِرًا﴾ اسم للجمع منصوب لأنه حال.

● **المعنى:** ثم بيَّن سبحانه أنه لا يكلف أحداً إلا دون الطاقة بعد أن أخبر عن حال الكافرين والمؤمنين فقال: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا﴾ أي: لا نكلفها أمراً ولا نأمرها ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: دون طاقتها ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ﴾ معناه: وعند ملائكتنا المقرَّبين كتاب ينطق بالحق أي: يشهد لكم وعليكم بالحق، كتبته الملائكة بأمرنا، يريد صحائف الأعمال. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: يوفون جزاء أعمالهم، فلا ينقص من ثوابهم ولا يزاد في عقابهم ولا يؤاخذون بذنب غيرهم ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ بل ردّ لما سبق، وابتداء الكلام، والمعنى: أن قلوب الكفار في غفلة شديدة من هذا الكتاب المشتمل على الوعد والوعيد وهو القرآن، وقيل: في جهل وحيرة، عن الحسن والجبائي ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ أي: ولهم أعمال ردية سوى هذا الجهل، يعملون تلك الأعمال فيستحقون بها وبالكفر العقوبة من الله تعالى، وقيل: لهم أعمال أي: خطايا من دون الحق، عن قتادة وأبي العالية ومجاهد. وقيل: ولهم أعمال من دون الأجل الذي أجلت لهم في موتهم، لا بد أن يعملوها، عن الحسن ومجاهد في رواية أخرى وابن زيد. وقيل: أعمال أصغر من ذلك أي: دون الكفر كما يقال: هذا دون هذا في القدر هم لها عاملون إلى أن يفني آجالهم فهم مشتغلون بها. ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ﴾ أي: يكون هذا دأبهم حتى إذا أخذنا متنعميهم ورؤساءهم بعذاب الآخرة. ويقال: عذاب الدنيا، وهو عذاب السيف في يوم بدر، عن ابن عباس، وقيل: هو الجوع حين دعا النبي ﷺ عليهم فقال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها سنين كسني يوسف». فابتلاهم الله سبحانه بالقحط حتى أكلوا الجيف والكلاب، عن الضحاك ﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ أي: يضجون لشدة العذاب ويجزعون. وقيل: يستغيثون، عن ابن عباس، وقيل: يصرخون إلى الله بالتوبة فلا يقبل منهم ﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ﴾ أي: يقال لهم لا تتضرعوا اليوم ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ هذا إيئاس لهم من دفع العذاب عنهم ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: تقرأ ﴿فَكُنتُمْ﴾ أيها الكافرون المعذبون ﴿عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ أي: تدبرون وتستأخرون وترجعون القهقرى مكذبين ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ أي: متكبّرين على سائر الناس بالحرم، أو بالبلد، يعني مكة، أن لا يظهر عليكم فيه أحد، عن ابن عباس والحسن ومجاهد. وقيل: مستكبرين بمحمد ﷺ أن تطيعوه، وبالقرآن أن تقبلوه، فإنها

كناية عن غير مذكور في الجميع. ﴿سَٰمِرًا﴾ أي: تسمرون بالليل أي: تتحدثون في معائب النبي ﷺ ﴿تَهْجُرُونَ﴾ الحق بالإعراض عنه، وتهجرون أي: تفحشون في المنطق. ثم قال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ أي: ألم يتدبروا القرآن فيعرفوا ما فيه من العبر والدلالات على صدق نبينا ﷺ ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قال ابن عباس: يريد أليس قد أرسلنا نوحاً وإبراهيم والنبيين إلى قومهم، وكذلك أرسلنا محمداً ﷺ ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ قال ابن عباس: أليس هو محمداً الذي قد عرفوه صغيراً وكبيراً، صادق اللسان أميناً وافياً بالعهد. وفي هذا توبيخ لهم بالإعراض عنه بعد ما عرفوا صدقه وأمانته، مع شرف نسبه قبل الدعوة. ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ قال ابن عباس: يريد وأيُّ جنون ترون به. وفي هذا دلالة على جهلهم حيث أقروا له بالعقل والصدق أولًا، ثم نسبوه إلى الجنون. وإنما نسبوه إلى الجنون لينفروا الناس عنه، أو لأنه يطمع في إيمانهم فهو يطمع في غير مطمع. ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ المعنى: بل جاءهم بالقرآن والدين الحق، وليس به جنة. ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ لأنه لم يوافق مرادهم ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الحق هو الله تعالى، عن أبي صالح وابن جريج والسدي. والمعنى: ولو جعل الله لنفسه شريكاً كما يهوون ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ ووجه الفساد ما تقدم ذكره عند قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، وقيل: الحق: ما يدعو إلى المصالح والمحاسن، والأهواء: ما تدعو إلى المفاسد والمقابح. ولو اتبع الحق داعي الهوى، لدعا إلى المقابح، ولفسد التدبير في السماوات والأرض، لأنها مدبرة بالحق لا بالهوى. وقيل: معناه لفسدت أحوال السماوات والأرض لأنها جارية على الحكمة لا على الهوى. ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ أي: ولفسد من فيهن، وهو إشارة إلى العقلاء من الملائكة، والإنس والجن. وقال الكلبي: وما بينهما من خلق فيكون عاماً. ووجه فساد العالم بذلك أنه يوجب بطلان الأدلة، وامتناع الثقة بالمدلول عليه، وأن لا يوثق بوعد ولا وعيد، ولا يؤمن انقلاب عدل الحكيم ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ أي: بما فيه شرفهم وفخرهم، لأن الرسول ﷺ منهم، والقرآن نزل بلسانهم ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم﴾ أي: شرفهم ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ وبالذل راضون. وقيل: الذكر البيان للحق، عن ابن عباس.

• • •

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ
لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ
﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ
أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ
شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا
تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ
وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

● **اللغة:** أصل الخراج والخرج واحد، وهو الغلة التي تخرج على سبيل الوظيفة. ومنه خراج الأرض. وهما مصدران يجمعان، وقد سبق اختلاف القراء فيه في سورة الكهف. والاستكانة: الخضوع، وهو استفعل من الكون، والمعنى: ما طلبوا الكون على صفة الخضوع، قال الأزهري: أكانه الله يكينه أي: أخضعه حتى ذل، ومات فلان بكينة سوء أي: بحال سوء، وقيل: إن استكان من السكينة والسكون، إلا أن الفتحة أُشبعت فنشأت منها ألف، فصار استكانوا الأصل استكنوا على افتعلوا. قال عنترة في إشباع الفتحة:

ينباع من ذِفْرَي غَضوبٍ جسورُ زَيَّافةٍ مِثلِ الفنيقِ المكدم(١)

يريد ينبع، فأشبع الفتحة. وقال آخر:

وأَنْتَ من الغَوائِلِ حين تُرْمَى ومِنْ ذمِّ الرجالِ بِمُنْتَزاحِ(٢)

أي: بمنتزح. يقال: استكن واستكان وتمسكن بمعنى.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ يا محمد على ما جئتهم به من القرآن والإيمان ﴿خَرْجًا﴾ أي: أجراً ومالاً يعطونك، فيورث ذلك تهمة في حالك، أو يثقل عليهم قبول قولك لأجله ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ أي: فرزق ربك في الدنيا خير منه، عن الكلبي. وقيل: فأجر ربك في الآخرة خير منه، عن الحسن. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي: أفضل من أعطى وآجر. وفي هذه دلالة على أن في العباد من يرزق غيره بإذن الله ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾ من التوحيد وإخلاص العبادة والعمل بالشريعة ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: لا يصدِّقون بالنشأة الآخرة ﴿عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ أي: عن الدين الحق عادلون ومائلون، وقيل: معناه أنهم في الآخرة ناكبون عن طريق الجنة، يؤخذ بهم يمنة ويسرة إلى النار، عن الجبائي. ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ﴾ في الآخرة ﴿وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ ورددناهم إلى دار التكليف ﴿لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ مثل قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا﴾، عن الجبائي وأبي مسلم. وقيل إنه في الدنيا أي: ولو أنا رحمناهم وكشفنا ما بهم من جوع ونحوه، لتمادوا في ضلالتهم وغوايتهم يترددون، عن ابن جريج. ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ معناه: أنا قد أخذنا هؤلاء الكفار بالجدب وضيق الرزق والقتل بالسيف ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي: ما تواضعوا ولا انقادوا ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: وما يرغبون إلى الله في الدعاء. وقال أبو عبد الله عليه السلام: الاستكانة الدعاء، والتضرع: رفع اليد في الصلاة. ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي: وهذا دأبهم حتى إذا فتحنا عليهم نوعاً آخر من العذاب، وذلك حين دعا النبي صلى الله عليه وآله فقال: «اللهم سنين كسني يوسف»، فجاعوا حتى أكلوا العلهز: وهو الوبر بالدم، عن مجاهد. وقيل: هو القتل يوم بدر، عن ابن عباس. وقيل: فتحنا عليهم باباً من

---

(١) هذا بيت من معلقته الشهيرة. والذفري: ما خلف الأذن. والجسرة: الناقة الموثقة الخلق. والزيف: التبختر. والفنيق: الفحل من الإبل. والمكدم من الفحول: القوي قول ينبع هذا العرق من خلف أذن الناقة. . . الخ شبهها بالفحل في تبخترها، ووثاقة خلقها، وضخمها.

(٢) مضى البيت في هذا الجزء.

عذاب جهنم في الآخرة، عن الجبائي، وقيل: ذلك حين فتح مكة، وقال أبو جعفر عليه السلام: هو في الرجعة. ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون من كل خير متحيِّرون.

ثم بيَّن سبحانه أنه المنعم على خلقه بأنواع النعم، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ أي: خلق هذه الحواس ابتداء لا من شيء، وخصَّ هذه الثلاثة لأن الدلائل مبنية عليها، ينظر العاقل ويسمع ويتفكَّر فيعلم ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: يقل شكركم لها، و﴿قَلِيلًا﴾ منصوب على المصدر، وتقديره: تشكرون قليلًا لهذه النعم التي أنعم الله بها عليكم، وقيل: معناه أنكم لا تشكرون رب هذه النعم فتوحِّدونه، عن مقاتل. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ﴾ أي: خلقكم وأوجدكم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ يوم القيامة فيجازيكم على أعمالكم ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: يحييكم في أرحام أمهاتكم، ويميتكم عند انقضاء آجالكم ﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: وله تدبيرهما بالزيادة والنقصان، وقيل: وله ملك اختلافهما وهو ذهاب أحدهما ومجيء الآخر. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تعلمون بأن تفكِّروا فتعلموا أن لذلك صانعاً قادراً، عالماً حياً حكيماً، لا يستحق الإلهية سواه، ولا تحسن العبادة إلا له.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا
وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ
لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ
عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ
وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل البصرة: «سيقولون الله» في الآيتين، والباقون: «لله» ولم يختلفوا في الأولى.

● **الحجة:** أما قراءة أهل البصرة، فجواب على ما يوجبه اللفظ، ومن قرأ «لله» فعلى المعنى، وذلك أنه إذا قيل: من مالك هذه الدار؟ فأُجيب: لزيد، فإن الجواب على المعنى دون ما يقتضيه اللفظ، فإن الذي يقتضيه اللفظ أن يقال: زيد. وإنما استقام ذلك لأن معنى من مالك هذه الدار ولمن هذه الدار واحد. فلذلك أجيب تارة على اللفظ وتارة على المعنى.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن الكفار المكذبين بالبعث فقال: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ المنكرون للبعث بعد الموت، ثم حكى مقالتهم فقال: ﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ وهذا جهل منهم، لأنهم لو تفكروا في أن النشأة الأولى أعظم منه لما استعظموه، وقد أقروا بأن الله خالقهم. ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا﴾ أي: وعد آباؤنا ﴿هَٰذَا﴾ الذي تعدنا من البعث ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل مجيئك، فما صدق وعدهم ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾

أي: ما هذا إلا أكاذيب الأولين، قد سطروا ما لا حقيقة له. وإنما يجري مجرى حديث السمر الذي يكتب للإطراف به. ثم احتج على هؤلاء المنكرين للبعث والنشور فقال: ﴿قُل﴾ يا محمد لهم ﴿لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾ أي: لمن خلق الأرض وملكها ومن فيها من العقلاء ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ ﴿٨٩﴾﴾ في الجواب ﴿لِلَّهِ﴾، وإنما قال ذلك لأنهم كانوا يقرُّون بأن الله هو الخالق. ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: فقل لهم عند ذلك: أفلا تتفكرون فتعلمون أنه تعالى قادر على ذلك، ومن قدر عليه، قدر على إحياء الموتى، لأنه ليس ذلك بأعظم منه. ثم زاد في الحجة فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم أيضاً ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ﴾ أي: من مالكها والمتصرِّف فيها؟ ﴿وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: ومن مالك العرش ومدبره؟ لأنهم كانوا يقرون بأن الله خالق السماوات وأن الملائكة سكان السماوات، والعرش عندهم عبارة عن الملك، إلا أن يكون أتاهم خلق العرش من قبل النقل. ثم أخبر أنهم ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ في الجواب عن ذلك أي: إن رب السماوات ورب العرش هو الله. ومن قرأ «الله» فالمعنى: أنها لله ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: فعند ذلك يلزمهم الحجة. فقل لهم: أفلا تتقون عذابه على جحد توحيده، والإشراك في عبادته وفي إنكار البعث، ثم زاد في الحجة فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم أيضاً: ﴿مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ والملكوت: من صفات المبالغة في الملك، كالجبروت والرهبوت. وقال مجاهد: ملكوت كل شيء: خزائن كل شيء ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي: يمنع من السوء من يشاء ولا يمتنع منه من أراده بسوء، يقال: أجرت فلاناً: إذا استغاث بك فحميته، وأجرت عليه: إذا حميت عنه. ويحتمل أن يكون أراد في الدنيا أي: من قصد عبداً من عباده بسوء، قدر على منعه. ومن أراد الله بسوء لم يقدر على منعه أحد، ويحتمل أن يكون أراد في الآخرة أي: يجير من العذاب ولا يجار عليه منه ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إن كنتم تعلمون ذلك فأجيبوا ﴿سَيَقُولُونَ﴾ في الجواب ﴿لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ أي: فكيف يخيَّل إليكم الحق باطلًا والصحيح فاسداً، مع وضوح الحق وتميزه من الباطل، وقيل: معناه فكيف تعمون عن هذا وتصدون عنه، من قولهم: سحرت أعيننا فلم نبصر. وقيل: معناه فكيف تخدعون ويموه عليكم، كقول امرىء القيس:

ونُسْحَرُ بالطعام وبالشراب(١)

أي: ونخدع. ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ معناه: إنا جئناهم بالحق، وبيَّنا لهم الحق الذي فيه بيان كذبهم، ولكنهم أصروا على باطلهم وكذبهم.

● **النظم:** وإنما اتصلت الآية الأولى بما قبلها بمعنى أنهم لو تفكروا لعلموا، ولكن عوَّلوا على التقليد فقالوا مثل ما قال الأولون. فعلى هذا تكون متصلة بقوله ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وقيل: إنه جواب الاستفهام في قوله: ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، والآية الأخيرة معطوفة على ما تقدم من أدلة التوحيد، وهي رد على المشركين وتكذيب لهم في قولهم: إن الأصنام آلهة، وأن الله سبحانه له ولد، وان الملائكة بنات الله.

●●●

(١) وقبله: «أرانا موضعين لحتم غيب» وقد مر بتمامه في ج٦.

قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ
بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا
تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي
هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ
﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ
﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ
يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل المدينة، وأهل الكوفة غير حفص: «عالم الغيب» بالرفع، والباقون بالجر، إلا أن رويساً إذا وصل جر، وإذا ابتدأ رفع.

● **الحجة:** وجه الرفع أن يكون خبر مبتدأ محذوف وتقديره: هو عالم الغيب. ووجه الجر أن يكون صفة الله تعالى، ويكون إضافة عالم حقيقية بمعنى اللام. ويجوز أن يكون بدلاً فتكون الإضافة غير حقيقية. والغيب: في تقدير النصب الأول يكون بمعنى الماضي، والثاني بمعنى الحاضر، ولا يكون بمعنى المستقبل.

● **اللغة:** الهمزة: شدة الدفع، ومنه الهمزة للحرف الذي يخرج من أقصى الحلق باعتماد شديد ودفع. وهمزة الشيطان: دفعه بالإغواء إلى المعاصي، وقوس همزى: شديدة الدفع للسهم، والبرزخ: الحاجز بين الشيئين، وكل فصل بين شيئين برزخ. ومعنى من ورائهم هنا: من أمامهم وقدامهم. قال الشاعر:

أيرجو بَنُو مَرْوان سَمْعي وطَاعَتي   وقومي تَميمٌ والفلاةُ وَرَائِيا

● **الإعراب:** قوله: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ جواب ﴿لو﴾ مقدّر والتقدير: ولو كان معه إله إذاً لذهب. وإذاً هنا حشو بين لو وجوابه فهو لغو غير عامل. ﴿إِمَّا تُرِيَنِّي﴾ إن للشرط ضمت إليها ما مسلطة، والمعنى: أنها سلطت نون التأكيد على دخولها الفعل المضارع، ولو لم تكن هي لم يجز أن تريني. وجواب الشرط ﴿فَلَا تَجْعَلْنِي﴾. ورَبِّ معترض بين الشرط والجزاء. و﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الموصولة والصلة في موضع جر بأنهما صفة محذوف مجرور. التقدير: ادفع بالخصلة التي هي أحسن. و﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ جاء الخطاب على لفظ الجمع، لأنه سبحانه يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي﴾ وهذا اللفظ يعرفه العرب للجليل الشأن، يخبر به الجماعة، فكذلك جاء الخطاب في ﴿ارْجِعُونِ﴾، وقال المازني: إنه جمع الضمير ليدل على التكرار فكأنه قال: رب أرجعني أرجعني أرجعني. و﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ إلى: تتعلق بما يتعلق به ﴿مِن﴾ في قوله ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ﴾ و﴿يَوْمِ﴾ مضاف إلى ﴿يُبْعَثُونَ﴾ لأن أسماء الزمان تضاف إلى الأفعال.

● **المعنى:** ثم أكّد سبحانه ما قدمه من أدلة التوحيد بقوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ أي:

لم يجعل ولد غيره ولد نفسه، لاستحالة ذلك عليه. فمن المحال أن يكون له ولد، فلا يجوز عليه التشبيه بما هو مستحيل ممتنع إلا على النفي والتبعيد. واتخاذ الولد هو أن يجعل الجاعل ولد غيره يقوم مقام ولده، لو كان له، وكذلك التبني إنما هو جعل الجاعل ابن غيره. ومن يصح أن يكون ابناً له مقام ابنه، ولذلك لا يقال: تبنى شاب شيخاً، ولا تبنى الإنسان بهيمة، لما استحال أن يكون ذلك لا ولداً له ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ من هٰهنا وفي قوله ﴿مِن وَلَدٍ﴾ مؤكدة، فهو آكد من أن يقول: ما اتخذ الله ولداً وما كان معه إله. نفى عن نفسه الولد والشريك على آكد الوجوه. ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ والتقدير: إذ لو كان معه إله آخر لذهب كل إله بما خلق، أي: لميَّز كل إله خلقه عن خلق غيره، ومنعه من الاستيلاء على ما خلقه، أو نصب دليلًا يميِّز به بين خلقه وخلق غيره فإنه كان لا يرضى أن يضاف خلقه وإنعامه إلى غيره. ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: ولطلب بعضهم قهر بعض ومغالبته. وهذا معنى قول المفسرين: ولقاتل بعضهم بعضاً، كما يفعل الملوك في الدنيا. وقيل: معناه ولمنع بعضهم بعضاً عن مراده، وهو مثل قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، وفي هذه دلالة عجيبة في التوحيد، وهو أن كل واحد من الآلهة من حيث يكون إلهاً، يكون قادراً لذاته فيؤدي إلى أن يكون قادراً على كل ما يقدر عليه غيره من الآلهة فيكون غالباً ومغلوباً من حيث إنه قادر لذاته. وأيضاً فإن من ضرورة كل قادرين صحة التمانع بينهما، فلو صحَّ وجود إلٰهين صحَّ التمانع بينهما من حيث إنهما قادران، وامتنع التمانع بينهما من حيث إنهما قادران للذات، وهذا محال. وفي هذا دلالة على إعجاز القرآن لأنه لا يوجد في كلام العرب كلمة وجيزة تضمنت ما تضمنته هذه، فإنها قد تضمنت دليلين باهرين على وحدانية الله وكمال قدرته.

ثم نزَّه نفسه عما وصفوه به فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: عما يصفه به المشركون من اتخاذه الولد والشريك ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: يعلم ما غاب وما حضر فلا يخفى عليه شيء ﴿فَتَعَٰلَىٰ ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ والمعنى: أنه عالم بما كان وبما سيكون، وبما لم يكن أن لو كان كيف يكون. ومن كان بهذه الصفة لا يكون له شريك لأنه الأعلى من كل شيء في صفته.

ثم قال لنبيِّه ﷺ: ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ أي: إن أريتني ما يوعدون من العذاب والنقمة، يعني القتل يوم بدر ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ أي: مع القوم الظالمين، والمعنى: فأخرجني من بينهم عندما تريد إحلال العذاب بهم لئلا يصيبني ما يصيبهم. وفي هذا دلالة على جواز أن يدعو الإنسان بما يعلم أن الله يفعله لا محالة، لأن من المعلوم أن الله تعالى لا يعذِّب أنبياءه مع المعذبين. ويكون الفائدة في ذلك إظهار الرغبة إلى الله. ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ﴾ هذا ابتداء كلام من الله تعالى معناه: انا لا نعاجلهم بالعقوبة مع قدرتنا على ذلك، ولكن ننظرهم ونمهلهم لمصلحة توجب ذلك. قال الكلبي: هذا أمر شهده أصحاب رسول الله ﷺ بعد موته، وروى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بإسناده عن أبي صالح، عن ابن عباس وجابر بن عبد الله أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول في حجة الوداع، وهو بمنى: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، وأيم الله لئن

فعلتموها لتعرفني في كتيبة يضاربونكم». قال: فغمز من خلفه منكبه الأيسر فالتفت فقال: «أو عليٌّ» فنزل: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ الآيات. ثم أمره ﷺ بالصبر إلى أن ينقضي الأجل المضروب للعذاب، فقال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: ادفع بالإغضاء والصفح إساءة المسيء، عن مجاهد والحسن، وهذا قبل الأمر بالقتال، وقيل: معناه ادفع باطلهم ببيان الحجج على ألطف الوجوه وأوضحها، وأقربها إلى الإجابة والقبول ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي: بما يكذبون ويقولون من الشرك. والمعنى: إنا نجازيهم بما يستحقونه. ثم أمره ﷺ فقال: و﴿قُل﴾ يا محمد ﴿رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ﴾ أي: أعتصم بك ﴿مِنْ هَمَزَاتِ ٱلشَّيَاطِينِ﴾ أي: من نزعاتهم ووساوسهم، عن ابن عباس والحسن، والمعنى: من دعائهم إلى الباطل والعصيان، ومن شرورهم في كل شيء يخاف فيه من ذلك ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ أي: يشهدوني ويقاربوني ويصدُّوني عن طاعتك، وقيل: معناه أن يحضروني في الصلاة عند تلاوة القرآن، وقيل: في الأحوال كلها. ثم عاد سبحانه إلى قوله ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ يعني: أن هؤلاء الكفار إذا أشرفوا على الموت، سألوا الله تعالى عند ذلك الرجعة إلى دار التكليف، فيقول أحدهم: رب ارجعون، على لفظ الجمع، وفي معناه قولان:

أحدهما: أنهم استغاثوا أولًا بالله، ثم رجعوا إلى مساءلة الملائكة، فقالوا لهم: ارجعون أي: ردوني إلى الدنيا، عن ابن جرير.

والآخر: أنه على عادة العرب في تعظيم المخاطب، كما قال: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾. وروى النضر بن شميل قال: سألوا الخليل عن هذا ففكر ثم قال: سألتموني عن شيء لا أحسنه ولا أعرف معناه. فاستحسن الناس منه ذلك. ﴿لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ﴾ أي: في تركتي، والمعنى: أؤدي منها حق الله تعالى. وقيل: معناه في دنياي فإنه ترك الدنيا وصار إلى الآخرة. وقيل: معناه أعمل صالحاً فيما فرطت وضيَّعت أي: في صلاتي وصيامي وطاعاتي. وقال الصادق عليه السلام: إنه في مانع الزكاة يسأل الرجعة عند الموت. ثم قال سبحانه في الجواب عن سؤالهم: ﴿كَلَّآ﴾ أي: لا يرجع إلى الدنيا ﴿إِنَّهَا﴾ أي: مسألة الرجعة ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ أي: كلام يقوله ولا فائدة له في ذلك وقيل: معناه وهي كلمة يقولها بلسانه وليس لها حقيقة مثل قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ . وروى العياشي بإسناده، عن الفتح بن يزيد الجرجاني، قال: قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: جعلت فداك يعرف القديم سبحانه الشيء الذي لم يكن أن لو كان كيف كان يكون؟ قال: ويحك! إن مسألتك لصعبة، أما قرأت قوله عز وجل: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ لقد عرف الشيء الذي لم يكن ولا يكون، أن لو كان كيف كان يكون، وقال: ويحكي قول الأشقياء: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ * لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾، وقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فقد علم الشيء الذي لم يكن، لو كان كيف كان يكون، وهو السميع البصير الخبير العليم. ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾ أي: ومن بين أيديهم ﴿بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: حاجز بين الموت والبعث في يوم القيامة من القبور، عن ابن زيد، وقيل: حاجز بينهم وبين الرجوع إلى

الدنيا، وهم فيه إلى يوم يبعثون، عن ابن عباس ومجاهد. وقيل: البرزخ الإمهال إلى يوم القيامة، وهو القبر، وكل فصل بين شيئين هو برزخ، عن علي بن عيسى. وفي الآية دلالة على أن أحداً لا يموت حتى يعرف منزلته عند الله تعالى اضطراراً، وأنه من أهل الثواب أو العقاب، عن الجبائي.

●●●

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾
فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ
تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا
قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا
تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ
ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير عاصم: «شقاوتنا» بالألف وفتح الشين، والباقون: «شقوتنا» بكسر الشين من غير ألف. وقرأ أهل المدينة وأهل الكوفة غير عاصم: «سخرياً» بضم السين، والباقون بكسرها، وكذلك في سورة صَ.

● **الحجة:** قال أبو علي: الشقوة مصدر كالرقة والفطنة. والشقاوة كالسعادة فالقراءة بهما جميعاً سائغة. وقال أبو زيد: اتخذت فلاناً سُخرياً وسِخرياً: إذا هزئت منه. وقد سخرت منه أسخر سخرياً وسخراً، قال أبو عبيدة: اتخذتموهم سِخرياً تسخرون منهم وسُخرياً تَسْخَرونهم. ويقال أيضاً: إن من الهزء سُخري وسِخري، ومن السخرية مضمومة لا غير. وحكي عن الحسن وقتادة أن ما كان من العبودية فهو سُخري بالضم، وما كان من الهزء فبالكسر. قال أبو علي: الأكثر في الهزء كسر السين فيما حكوه، ويرى أنه إنما كان أكثر لأن السخر مصدر سخرت، وفَعل وفِعل قد يكونان بمعنى نحو المَثَل والمِثَل، والشَّبه والشِّبَه في حرف آخر، فكذلك السَّخر والسِّخر إلا أن المكسورة أُلزِمَت ياء النسب دون المفتوحة مما اتفقوا في القسم على الفتح في: لعمر الله. ولم يعتد بياء النسب كما لم يعتد بها في نحو أحمر وأحمري ودوار ودواري. والوجه في الضم ما حُكِيَ عن يونس أنّ السخري قد يقال بالضم بمعنى الهزء. واتفق القراء على الضم في الزُّخرف لأنه من السخرة، وانقياد بعضهم لبعض في الأمور، وذلك لا يكون إلا بالضم.

● **اللغة:** اللفح والنفح بمعنى، إلا أن اللفح أشد تأثيراً وأعظم من النفح، وهو ضرب من السموم للوجه. والنفح: ضرب الريح الوجه. والكلوح: تقلص الشفتين عن الأسنان حتى تبدو الأسنان قال الأعشى:

ولــهُ الــمَــقــدَمُ لا مِــثْــلَ لَهُ   ساعَةَ الشَّدْقُ عن النابِ كَلَحْ[1]

وخسأت فلاناً أخسأه خسأً: إذا زجرته ليتباعد فخسأه وهو خاسىء. ومعنى إخسأ أي: تباعد تباعد سخط.

● **الإعراب:** العامل في إذا نفخ، وبينهم، ويومئذٍ خبر ﴿لَآ﴾ المحذوف، تقديره: فلا أنساب تثبت بينهم. ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ في موضع النصب على الحال، والعامل فيه: ﴿خَٰلِدُونَ﴾.

● **المعنى:** ثم بيَّن سبحانه حال الفريقين يوم البعث فقال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ قيل: إن المراد به نفخة الصعق، عن ابن عباس. وقيل: نفخة البعث، عن ابن مسعود. والصور جمع صورة أي: إذا نفخ فيه الأرواح وأُعيدت أحياء، عن الحسن، وقيل: إن الصور قرن ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام بالصوت العظيم الهائل، على ما وصفه الله تعالى علامة لوقت إعادة الخلق، عن أكثر المفسرين. ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: لا يتواصلون بالأنساب ولا يتعاطفون بها مع معرفة بعضهم بعضاً، عن الحسن. والمعنى: أنه لا يرحم قريب قريبه لشغله عنه، فإن المقصود بالأنساب دفع ضرّ أو جرُّ نفع، فإذا ذهب هذا المقصود فكأن الأنساب قد ذهبت، ومثله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾﴾. وقيل: معناه لا يتفاخرون بالأنساب كما كانوا يفعلونه في الدنيا، عن ابن عباس والجبائي. ولا بد من تقدير محذوف في الآية على تأويل: فلا أنساب بينهم يومئذ يتفاخرون بها أو يتعاطفون بها. والمعنى: أنه لا يفضل بعضهم بعضاً يومئذ بنسب وإنما يتفاضلون بأعمالهم. وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «كل حسب ونسب منقطع يوم القيامة إلا حسبي ونسبي». ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: لا يسأل بعضهم بعضاً عن حاله وخبره، كما كانوا يسألون في الدنيا لشغل كل واحد بنفسه، عن الجبائي. وقيل: لا يسأل بعضهم بعضاً أن يحمل عنه ذنبه، ولا تنافي بين هذه الآية وبين قوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾ لأن للقيامة أحوالاً ومواطن، فمنها حال يشغلهم عظم الأمر فيها عن المسألة، ومنها حال يلتفتون فيها فيتساءلون. وهذا معنى قول ابن عباس لما سُئِل عن الآيتين، فقال: هذه تارات يوم القيامة. وقيل: إنما يتساءلون عند دخول الجنة وإنما يسأل بعض أهل الجنة بعضاً، فإنهم لا يفزعون من أهوال القيامة، عن السدي. ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بالطاعات ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الناجون ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ عن الطاعات ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾. وقد تقدَّم تفسير الآيتين واختلاف المفسِّرين في كيفية الميزان والوزن في سورة الأعراف. ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: يصيب وجوههم لفح النار ولهبها ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ أي: عابسون، عن ابن عباس. وقيل: هو أن تتقلص شفاههم، وتبدو أسنانهم كالرؤوس المشوية، عن الحسن. ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ويقال لهم أو لم يكن القرآن يقرأ عليكم. وقيل: ألم تكن حججي وبيّناتي وأدلتي تقرأ عليكم في دار الدنيا. ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ﴿١٠٦﴾﴾

---

(١) الشدق: جانب الفم.

أي: شقاوتنا. ومعناهما واحد وهو المضرة اللاحقة في العافية، والسعادة المنفعة اللاحقة في العافية. ويقال لمن حصل في الدنيا على مضرة فادحة: شقي. والمعنى: استعلت علينا سيئاتنا التي أوجبت لنا الشقاء ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ أي: ذاهبين عن الحق، ولما كانت سيئاتهم التي شقوا بها سبب شقاوتهم، سميت شقاوة توسعاً. ومن أكبر الشقاوة أن تترك عبادة الله تعالى إلى عبادة غيره، وتترك الأدلة ويتبع الهوى ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ أي: من النار ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ لما تكره من الكفر، والتكذيب والمعاصي ﴿فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ لأنفسنا. قال الحسن: هذا آخر كلام يتكلم به أهل النار، ثم بعد ذلك يكون لهم شهيق كشهيق الحمار. ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا﴾ أي: ابعدوا بعد الكلب في النار. وهذه اللفظة زجر للكلاب. وإذا قيل ذلك للإنسان يكون للإهانة المستحقة للعقوبة ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ وهذه مبالغة للإذلال والإهانة، وإظهار الغضب عليهم، لأن من لا يُكلَّم إهانة له فقد بلغ به الغاية في الإذلال. وقيل: معناه: ولا تكلمون في رفع العذاب فإني لا أرفعه عنكم. وهي على صيغة النهي وليست بنهي، لأن الأمر والنهي مرتفعان في الآخرة لارتفاع التكليف. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى﴾ أي: طائفة من عبادي، وهم الأنبياء والمؤمنون ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي: يدعون بهذه الدعوات في الدنيا طلباً لما عندي من الثواب ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ﴾ أنتم يا معشر الكفار ﴿سِخْرِيًّا﴾ أي: كنتم تهزأون وتسخرون منهم، وقيل: معناه تستعبدونهم وتصرفونهم في أعمالكم وحوائجكم كرهاً بغير أجر. وقيل: إنهم كانوا إذا آذوا المؤمنين، قالوا: انظروا إلى هؤلاء رضوا من الدنيا بالعيش الدني طمعاً في ثواب الآخرة، وليس وراءهم آخرة ولا ثواب، فهو مثل قوله: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾. ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾ أي: نسيتم ذكري لاشتغالكم بالسخرية منهم، فنسب الإنساء إلى عبادة المؤمنين، وإن لم يفعلوه لما كانوا السبب في ذلك ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ ظاهر المعنى.

●●●

قوله تعالى: ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ حمزة والكسائي: «إنهم» بكسر الألف، و«قل كم لبثتم»، و«قل إن لبثتم» على الأمر. وقرأ ابن كثير: «قال كم لبثتم» فقط. وقرأ الباقون: «أنهم» بفتح الألف، و«قال» في الموضعين. وقرأ أهل الكوفة غير عاصم ويعقوب: «لا ترجعون» بفتح التاء، والباقون بضم التاء وفتح الجيم.

● **الحجة:** قال أبو علي: من فتح «أنَّ» فالمعنى لأنهم هم الفائزون. ويجوز أن يكون أنهم في موضع المفعول الثاني، لأن جزيت يتعدى إلى مفعولين. قال سبحانه: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢﴾، وتقديره: جزيتهم اليوم بصبرهم الفوز. وفاز الرجل: إذا نال ما أراد، وقالوا: فوَّز الرجل: إذا مات. ويشبه أن يكون ذلك على التفاؤل له أي: صار إلى ما أحب، والمفازة: المهلكة على وجه التفاؤل أيضاً. ومن كسر «إنَّ» استأنف فقطعه عما قبله ومثله: «لبيك إن الحمد والنعمة لك وإن الحمد»، بالكسر والفتح. ومن قرأ: «قل كم لبثتم»: كان على قل أيها السائل عن لبثهم. وقال: على الإخبار عنه. وزعموا أن في مصاحف أهل الكوفة «قل» في الموضعين. وحجة من قال «ترجعون»: إنا إليه راجعون، وقد تقدم ذكر هذا النحو.

● **الإعراب:** ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ كم في محل النصب لأنه ظرف زمان، والعامل فيه لبث و﴿عَدَدَ﴾ منصوب على التمييز، والعامل فيه ﴿كَمْ﴾. ولا يمنع كم من العمل الفصل الكثير، لأن كم الخبرية تجر المميز، فإذا فصل بينها وبين معمولها نصبت كالاستفهامية، فلأن تنصب الاستفهامية مع الفصل أولى. و﴿قَلِيلًا﴾ صفة مصدر محذوف تقديره: إن لبثتم إلا قليلًا عبثاً. ويجوز أن يكون مصدراً وضع موضع الحال وتقديره: أفحسبتم أنما خلقناكم عابثين. ويجوز أن يكون مفعولًا له أي: للعبث. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في موضع النصب على الحال على تقدير: فتعالى الله عديم المثل. والأولى أن يكون جملة مستأنفة. و﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ﴾ خبر المبتدأ محذوف فهي جملة أخرى مستأنفة بدلالة حسن الوقف على المواضع الثلاثة: على ﴿ٱلْحَقُّ﴾ وعلى ﴿هُوَ﴾ وعلى ﴿ٱلْكَرِيمِ﴾. ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ جملة منصوبة الموضع بأنه صفة لقوله: ﴿إِلَٰهًا﴾، فهي صفة بعد صفة.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن المؤمنين الذين سخر الكافرون منهم في دار الدنيا فقال: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ أي: بصبرهم على أذاكم وسخريتكم واستهزائكم بهم ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ أي: الظافرون بما أرادوا، الناجون في الآخرة. والمراد بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ أيام الجزاء، لا يوم بعينه ﴿قَالَ﴾ أي: قال الله تعالى للكفار يوم البعث، وهو سؤال توبيخ وتبكيت لمنكري البعث ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: في القبور ﴿عَدَدَ سِنِينَ ۝١١٢ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ لأنهم لم يشعروا بطول لبثهم ومكثهم لكونهم أمواتاً. وقيل: إنه سؤال عن مدة حياتهم في الدنيا. ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ استقلوا حياتهم في الدنيا لطول لبثهم ومكثهم في النار، عن الحسن. قال: ولم يكن ذلك كذباً منهم لأنهم أخبروا بما عندهم، وقيل: إن المراد به يوماً أو بعض يوم من أيام الآخرة. قال ابن عباس: أنساهم الله قدر لبثهم، فيرون أنهم لم يلبثوا إلا يوماً أو بعض يوم، لعظم ما هم بصدده من العذاب ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ يعني الملائكة لأنهم يحصون أعمال العباد، عن مجاهد، وقيل: يعني الحساب لأنهم يعدون الشهور والسنين، عن قتادة ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي: ما مكثتم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ لأن مكثهم في الدنيا أو في القبور وإن طال، فإنه متناه قليل بالإضافة إلى طول مكثهم في عذاب جهنم ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ صحة ما أخبرناكم به. وقيل: معناه لو كنتم تعلمون قصر أعماركم في الدنيا، وطول مكثكم في الآخرة في العذاب، لما اشتغلتم بالكفر والمعاصي وآثرتم الفاني على الباقي. ثم قال

سبحانه لهم: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾ معاشر الجاحدين للبعث والنشور، الظانين دوام الدنيا ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ أي: لعباً وباطلاً لا لغرض وحكمة، ومثله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾، والمعنى: أفظننتم أنا خلقناكم لتفعلوا ما تريدون، ثم إنكم لا تحشرون ولا تسألون عما كنتم تعملون، هذا عبث. فإن من خلق الأشياء، لا لينتفع به نفسه أو غيره، كان عابثاً، والله سبحانه غني لا يلحقه منفعة، فلا بد من أن يكون خلق الخلق لينفعهم ويعرضهم للثواب، بأن يتعبدهم. وإذا تعبدهم فلا بد من الفرق بين المطيع والعاصي، وذلك إنما يكون بعد البعث. ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ أي: وحسبتم أنكم لا ترجعون إلى حكمنا، والموضع الذي لا يملك الحكم فيه غيرنا. ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: تعالى عما يصفه به الجهال من الشريك والولد، وقيل: معناه تعالى الله من أن يفعل شيئاً عبثاً. و﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ الذي يحق له الملك بأنه ملك غير مملوك، وكل ملك غيره فملكه مستعار، ولأنه يملك جميع الأشياء من جميع الوجوه، وكل ملك سواه يملك بعض الأشياء من بعض الوجوه. والحق هو الشيء الذي من اعتقده كان على ما اعتقده. فالله هو الحق لأن من اعتقد أنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فقد اعتقد الشيء على ما هو به. ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ أي: خالق السرير الحسن، والكريم في صفة الجماد بمعنى الحسن. وقيل: الكريم الكثير الخير. وصف العرش به لكثرة ما فيه من الخير لمن حوله، ولإتيان الخير من جهته. وخصَّ العرش بالذكر مع كونه سبحانه رب كل شيء، تشريفاً وتعظيماً له كقوله: ﴿رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾. ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ أي: لا حجة له فيما يدعيه، يعني أن من صفته أنه لا حجة له به ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ معناه: فإنما معرفة مقدار ما يستحقه من الجزاء، عند ربه، فيجازيه على قدر ما يستحقه. وقيل: معناه فإنما مكافأته عند الله تعالى، والمكافأة والمحاسبة بمعنى ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: لا يظفر ولا يسعد الجاحدون لنعم الله، والمنكرون لتوحيده، والدافعون للبعث والنشور. ولما حكى سبحانه أقوال الكفار أمر نبيه ﷺ بالتبري منهم والانقطاع إليه سبحانه فقال: ﴿وَقُل﴾ يا محمد ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ﴾ الذنوب ﴿وَٱرْحَمْ﴾ وأنعم على خلقك ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي: أفضل المُنْعِمين، وأكثرهم نعمة، وأوسعهم فضلاً.



سُورَةُ النُّورِ



مدنية/آياتها(٦٤)

مدنية بلا خلاف.

● **عدد آيها:** أربع وستون آية عراقي شامي، آيتان حجازي.

● **اختلافها:** آيتان بالغُدُو والآصال، ويذهب بالأبصار، كلاهما عراقي شامي.

● **فضلها:** أُبَيّ بن كعب عن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة النور أُعْطِيَ من الأجر عشر حسنات، بعدد كل مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقي». وروى الحاكم أبو عبد الله في الصحيح بالإسناد عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا تنزلوهن الغرف ولا تعلموهن الكتابة، وعلِّموهن المغزل، وسورة النور». يعني النساء. وروى عبد الله بن مسكان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: حصِّنوا أموالكم وفروجكم بتلاوة سورة النور، وحصنوا بها نساءكم، فإن من أدمن قراءتها في كل ليلة أو في كل يوم، لم يزن أحد من أهل بيته أبداً حتى يموت فإذا مات شيَّعه إلى قبره سبعون ألف ملك، يدعون ويستغفرون الله له، حتى يدخل إلى قبره.

● **تفسيرها:** ختم الله سبحانه سورة المؤمنين بأنه لم يخلق الخلق للعبث، بل للأمر والنهي، وابتدأ هذه السورة بذكر الأمر والنهي وبيان الشرائع، فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾
ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ
تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا
زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «وفرَّضناها» بالتشديد، والباقون بالتخفيف. وقرأ ابن كثير غير ابن فليح: «رأفة» بفتح الهمزة، والباقون بسكون الهمزة. وفي الشواذ قراءة عيسى الثقفي: «سورةً» بالنصب، «والزانية والزاني» بالنصب. ورُوِيَ عن عمر بن عبد العزيز وعيسى الهمداني: «سورةً» أيضاً بالنصب.

● **الحجة:** قال أبو علي: التثقيل في «فرَّضناها» لكثرة ما فيها من الفرض. والتخفيف يصلح للقليل والكثير. ومن حجة التخفيف: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ﴾، قال: ولعل «رأفة» التي قرأها ابن كثير لغة. وأما قراءة: «سورة» بالرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف

أي: هذه سورة. ولا يجوز أن يكون مبتدأ لأنها نكرة، ولا يبتدأ بالنكرة حتى توصف. وإن جعلت أنزلناها وفرضناها صفة لها، بقي المبتدأ بلا خبر. فإن جعلت تقديره: يتلى عليكم سورة أنزلناها جاز. ومن قرأ «سورة» بالنصب، فعلى إضمار فعل يفسّره أنزلناها، والتقدير: أنزلنا سورة أنزلناها. إلا أن هذا الفعل لا يظهر، لأن التفسير يغني عنه، ومثله قول الشاعر:

أَصْبَحْتُ لا أَحْمِلُ السِّلاحَ ولا أَمْلِكُ رأسَ البَعيرِ إن نَفَرا
والذئبُ أخشاهُ إنْ مَرَرْتُ بِهِ وَحْدِي وأَخْشَى الرياحَ والمَطَرا[1]

أي: وأخشى الذئب. فلما أضمره فسَّره بقوله أخشاه، ويجوز أن يكون الفعل الناصب لـ«سورة» من غير لفظ الفعل بعدها، على معنى التخصيص أي: اقرأوا سورة وتأملوا سورة أنزلناها، كقوله سبحانه: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا﴾ أي: احفظوا ناقة الله، وكذلك قوله: انتصب بفعل مضمر أي: اجلدوا الزانية والزاني. فلما أضمر الفعل الناصب، فسرَّه بقوله ﴿فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا﴾، وجاز دخول الفاء في هذا الوجه، لأنه موضع أمر. ولا يجوز زيداً فضربته لأنه خبر، وإنما جاز في الأمر لمضارعته الشرط. ألا تراه دالّا على الشرط، ولذلك انجزم في قولك: زرني أكرمْك، لأن معناه فإنك إن تزرني أُكرِمْكِ ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ فلما آل معناه إلى الشرط جاز دخول الفاء في الفعل المفسّر للمضمر. وتقول على هذا: بزيد فامرُر، وعَلى عمرو فاغضب.

● **اللغة:** السورة مأخوذة من سور البناء، وهو ارتفاعه، وقيل: هو ساق من أسواقه. فعلى القول الأول يكون تسميتها بذلك لارتفاعها في النفوس. وعلى القول الثاني يكون تسميتها بذلك لأنها قطعة من القرآن. وقيل: إن السورة المنزلة الشريفة والجلالة. قال النابغة:

ألَمْ تَرَ أن الله أعْطاك سورَةً تَرى كل مَلكٍ دُونها يَتَذَبْذبُ
لانك شمسٌ والملوكُ كواكبٌ إذا طَلَعَتْ لم يَبْدُ مِنهُنَّ كَوْكَبُ[2]

وقيل: أصله الهمز. وقيل: اشتقاقها من أسأرت: إذا أبقيت في الإناء بقية. ومنه الحديث: «إذا شربتم فأسئروا». إلا أنه أجمع على تخفيفها كما أجمع على تخفيف برية وروية، وأصلها من برا الله الخلق، ورواًت في الأمر. وأصل الفرض من فرض القوس: وهو الحز الذي فيه الوتر، ثم اتسع فيه فجعل في موضع الإيجاب. وفصلّ بين الفرض والواجب، فإن الفرض واجب بجعل جاعل، لأنه فرضه على صاحبه كما أنه أوجبه عليه. والواجب قد يكون واجباً من غير جعل جاعل، كوجوب شكر المنعم. فجرى مجرى دلالة الفعل على الفاعل في أنه يدل من غير جعل جاعل. والزنى هو وطء المرأة في الفرج من غير عقد شرعي ولا شبهة عقد، مع العلم بذلك أو غلبة الظن. وليس كل وطء حرام زنى، لأن الوطء في الحيض والنفاس حرام ولا يكون زنى،

---

(١) الشعران لربيع بن ضبع الفزاري، وهو من معمري العرب، من أبيات قالها بعد ما بلغ مايتين وأربعين سنة، كما في أمالي الشريف (قده)، والخزانة، وغيره.

(٢) يخاطب النعمان بن المنذر ملك الحيرة. وفي البيت الثاني كلام لطيف، ذكره الشريف المرتضى (ره) في (الأمالي ج١: ٤٨٧) فراجع.

والجَلْد ضرب الجِلْد، يقال: جلده كما يقال: ظهره ورأسه وفأده، وهذا قياس، والرأفة: التحنن والتعطف، وفيه ثلاث لغات: سكون الهمزة وفتحها ومدها. وقال الأخفش: الرأفة رحمة في توجع.

● **المعنى:** ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ أي: هذه سورة قطعة من القرآن لها أول وآخر، أنزلها جبرائيل عليه السلام بأمرنا ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ أي: وأوجبنا عليكم العمل بها، وعلى من بعدكم إلى يوم القيامة. وقيل: معناه وفرضنا فيها إباحة الحلال وحظر الحرام، عن مجاهد، وهذا يعود إلى معنى أوجبناها. وقيل: معناه وقدَّرنا فيها الحدود، عن عكرمة، وهو من قوله: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾. وفسَّر أبو عمرو معنى القراءة بالتشديد بأن قال: معناها فصَّلناها بيَّناها بفرائض مختلفة. ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: دلالات واضحات على وحدانيتنا وكمال قدرتنا. وقيل: أراد بها الحدود والأحكام التي شرع فيها ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لكي تتذكروا فتعلموا بما فيها، ثم ذكر سبحانه تلك الآيات وابتدأ بحكم الزنى، فقال: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ معناه: التي تزني والذي يزني أي: من زنى من النساء ومن زنى من الرجال، فيفيد العموم في الجنس. ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ يعني: إذا كانا حرين بالغين بكرين غير محصنين. فأما إذا كانا محصنين، أو كان أحدهما محصناً، كان عليه الرجم بلا خلاف. والإحصان هو أن يكون له فرج يغدو إليه ويروح على وجه الدوام، أو يكون حراً. فأما العبد فلا يكون محصناً، وكذلك الأَمَةُ لا تكون محصنة، وإنما عليهما نصف الحد خمسون جلدة، لقوله سبحانه: ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾، وقيل: إنما قدم ذكر الزانية على الزاني، لأن الزنى منهن أشنع وأعير، وهو لأجل الحبل أضر، لأن الشهوة فيهن أكثر وعليهن أغلب. وقوله ﴿فَاجْلِدُوا﴾ هذا خطاب للأئمة، ومن يكون منصوباً للأمر من جهتهم، لأنه ليس لأحد أن يقيم الحدود إلا الأئمة وولاتهم بلا خلاف. ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ معناه: إن كنتم تصدِّقون بالله وتقرون بالبعث والنشور، فلا تأخذكم بهما رحمة تمنعكم من إقامة الحدود عليهما، فتعطلوا الحدود، عن عطاء ومجاهد. وقيل: معناه لا تأخذكم بهما رأفة تمنع من الجلد الشديد، بل أوجعوهما ضرباً ولا تخففوا كما يخفف في حد الشارب، عن الحسن وقتادة وسعيد بن المسيب والنخعي والزهري، وقوله ﴿فِي دِينِ اللَّهِ﴾ أي: في طاعة الله، وقيل: في حكم الله، عن ابن عباس، كقوله: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ أي: في حكمه. ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا﴾ أي: وليحضر حال إقامة الحد عليهما ﴿طَائِفَةٌ﴾ أي: جماعة ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم ثلاثة فصاعداً، عن قتادة والزهري، وقيل: الطائفة رجلان فصاعداً، عن عكرمة، وقيل: أقله رجل واحد، عن ابن عباس والحسن ومجاهد وإبراهيم، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام. ويدل على ذلك قوله: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾، وهذا الحكم يثبت للواحد كما يثبت للجمع، وقيل: أقلها أربعة، لأن أقل ما يثبت به الزنى شهادة أربعة، عن ابن زيد. وقيل: ليس لهم عدد محصور، بل هو موكول إلى رأي الإمام. والمقصود أن يحضر جماعة يقع بهم إذاعة الحد ليحصل الاعتبار. وقوله: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ اختلف في تفسيره على وجوه:

أحدها: أن المراد بالنكاح العقد، ونزلت الآية على سبب، وهو: أن رجلًا من المسلمين استأذن النبي ﷺ في أن يتزوج أم مهزول، وهي امرأة كانت تسافح، ولها راية على بابها تعرف بها، فنزلت الآية، عن عبد الله بن عباس وابن عمر ومجاهد وقتادة والزهري. والمراد بالآية النهي، وإن كان ظاهره الخبر، ويؤيده ما رُوِيَ عن أبي جعفر عليه السلام وأبي عبد الله عليه السلام، أنهما قالا: هم رجال ونساء كانوا على عهد رسول الله ﷺ مشهورين بالزنى، فنهى الله عن أولئك الرجال والنساء على تلك المنزلة، فمن شهر بشيء من ذلك، وأقيم عليه الحد، فلا تزوّجوه حتى تعرف توبته.

وثانيها: أن النكاح هنا الجماع، والمعنى: أنهما اشتركا في الزنى فهي مثله، عن الضحاك وابن زيد وسعيد بن جبير، وفي إحدى الروايتين، عن ابن عباس. فيكون نظير قوله: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ في أنه خرج مخرج الأغلب الأعم.

وثالثها: أن هذا الحكم كان في كل زان وزانية، ثم نسخ بقوله: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ الآية، عن سعيد بن المسيب وجماعة.

ورابعها: أن المراد به العقد، وذلك الحكم ثابت فيمن زنى بامرأة، فإنه لا يجوز له أن يتزوج بها، رُوِيَ ذلك عن جماعة من الصحابة، وإنما قرن الله سبحانه بين الزاني والمشرك، تعظيماً لأمر الزنى وتفخيماً لشأنه. ولا يجوز أن تكون هذه الآية خبراً لأنا نجد الزاني يتزوج غير الزانية، ولكن المراد هنا الحكم أو النهي، سواء كان المراد بالنكاح العقد أو الوطء. وحقيقة النكاح في اللغة الوطء. ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: حرم نكاح الزانيات، أو حرّم الزنى على المؤمنين، فلا يتزوج بهن أو لا يطأهن إلا زان أو مشرك.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

● **القراءة**: في الشواذ قراءة عبد الله بن مسلم بن يسار وأبي زرعة: «بأربعة» بالتنوين.

● **الحجة**: من قرأ: «بأربعة شهداء» بغير تنوين، أضاف العدد إلى «شهداء»، وإن كان الشهداء من الصفات. وساغ ذلك لأنهم استعملوها استعمال الأسماء كقولهم: إذا دفن الشهيد صلّت عليه الملائكة، ونحو ذلك. فحسن إضافة اسم العدد إليها، كما يضاف إلى الاسم الصريح. ومن قرأ بالتنوين جعل شهداء صفة لأربعة في موضع جر. ويجوز أن يكون في موضع نصب من جهتين:

إحداهما: أن يكون على معنى ثم لم يحضروا أربعة شهداء، وعلى الحال من النكرة أي: لم يأتوا بأربعة في حال الشهادة، قاله الزجاج.

● **الإعراب**: موضع ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ رفع بالابتداء. ومن قرأ «الزانية والزاني» بالنصب،

فيكون على ذلك موضع ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ﴾ نصباً على معنى: اجلدوا الذين يرمون المحصنات. والمحصنات هنا: اللاتي أحصن فروجهن بالعفة. و﴿ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ في محل النصب على الاستثناء من قوله: ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ﴾ عند من قال: إن شهادتهم مقبولة ويكون قوله ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ صفة لهم. ويجوز أن يكون في موضع جر على البدل من هم في ﴿لَهُمۡ﴾ ومن قال: إن شهادة القاذف غير مقبولة فعنده يكون في موضع النصب على الاستثناء من قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾.

● **المعنى:** لما تقدّم ذكر حدّ الزنى، عقّبه سبحانه بذكر حد القاذف بالزنى، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ أي: يقذفون العفائف من النساء بالفجور والزنى، وحذف لدلالة الكلام عليه. ﴿ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ أي: ثم لم يأتوا على صحة ما رموهن به من الزنى، بأربعة شهداء عدول، يشهدون أنهم رأوهن يفعلن ذلك ﴿فَٱجۡلِدُوهُمۡ﴾ أي: فاجلدوا الذين يرمونهن بالزنى ﴿ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ نهى سبحانه عن قبول شهادة القاذف على التأبيد، وحكم عليهم بالفسق. ثم استثنى من ذلك فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ﴾ أعمالهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ واختلف في هذا الاستثناء إلى ماذا يرجع على قولين:

أحدهما: أنه يرجع إلى الفسق خاصة، دون قوله ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ﴾ فيزول عنه اسم الفسق بالتوبة، ولا تقبل شهادته إذا تاب بعد إقامة الحد عليه، عن الحسن وقتادة وشريح وإبراهيم، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه.

والآخر: أن الاستثناء يرجع إلى الأمرين، فإذا تاب قبلت شهادته حداً، ولم يحد، عن ابن عباس في رواية الوالبي ومجاهد والزهري، ومسروق وعطاء وطاووس وسعيد بن جبير والشعبي، وهو اختيار الشافعي وأصحابه، وقول أبي جعفر عليه السلام وأبي عبد الله عليه السلام. قال الشافعي: أخبرنا سفيان بن عيينة عن الزهري قال: زعم أهل العراق أن شهادة القاذف لا تجوز، فاشهد لأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب قال لأبي بكرة لما شهد على المغيرة بن شعبة: تُبْ تقبل شهادتك، أو إن تبت تقبل شهادتك، فأبى أبو بكرة أن يكذب نفسه. وقال الزجاج: ليس القاذف بأشد جرماً من الكافر، والكافر إذا أسلم قبلت شهادته، فالقاذف أيضاً حقه إذا تاب أن تقبل شهادته. يعضد هذا القول: أن المتكلم بالفاحشة لا ينبغي أن يكون أعظم جرماً من مرتكبها، ولا خلاف في العاهر، أنه إذا تاب قبلت شهادته. فالقاذف إذا تاب ونزع مع أنه أيسر جرماً، يجب أن تقبل شهادته. وقال الحسن: يجلد القاذف وعليه ثيابه، ويجلد الرجل قائماً، والمرأة قاعدة، وهو المَرْوِي عن أبي جعفر عليه السلام. ومن شرط توبة القاذف أن يكذب نفسه فيما قاله، فإن لم يفعل ذلك لم يجز قبول شهادته، وبه قال الشافعي. وقيل: إنه لا يحتاج إلى ذلك، وهو قول مالك. والآية وردت في النساء، وحكم الرجال حكمهن ذلك في الإجماع. وإذا كان القاذف عبداً أو أمة، فالحد أربعون جلدة عند أكثر الفقهاء. وروى أصحابنا أن الحد ثمانون في الحر والعبد سواء. وظاهر الآية يقتضي ذلك، وبه قال عمر بن عبد العزيز والقاسم بن عبد الرحمن.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة، غير أبي بكر: «فشهادة أحدهم أربعُ شهادات» بالرفع، والباقون: «أربعَ شهادات» بالنصب. وقرأ حفص: «والخامسة» الثانية بالنصب، والباقون بالرفع. وقرأ نافع: «أن» ساكنة النون، «لعنة الله» بالرفع، و«أن غضب الله عليها» بكسر الضاد ورفع «الله». وقرأ يعقوب: «أن لعنة الله» و«أن غضب الله» برفع لعنة وغضب جميعاً، والباقون: «أنَّ لعنة الله» و«أنَّ غضب الله» بالتشديد والنصب في الموضعين.

● **الحجة:** قال أبو علي: من نصب «أربع شهادات» نصبه بالشهادة، وينبغي أن يكون قوله: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ﴾ مبنياً على ما يكون مبتدأ تقديره: فالحكم، أو فالفرض أن تشهد أربع شهادات، أو فعليهم أن يشهدوا. وإن شئت حملته على المعنى لأن المعنى يشهد أحدهم، وقوله ﴿بِٱللَّهِ﴾ يجوز أن يكون من جملة الشهادة، لأنك أوصلتها بالشهادة، ومن صلة شهادات إذا نصبت الأربع. وقياس من أعمل الثاني، أن يكون قوله ﴿بِٱللَّهِ﴾ من صلة شهادات، وحذف من الأول لدلالة الثاني عليه، كما تقول: ضربت وضربني زيد، ومن رفع فقال: «شهادة أحدهم أربع شهادات بالله» فإن الجار والمجرور من صلة شهادات، ولا يجوز أن يكون من صلة شهادة، لأنك إن وصلتها بالشهادة فقد فصلت بين الصلة والموصول. ألا ترى أن الخبر الذي هو ﴿أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ﴾ يفصل قوله ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في قول من نصب أربع شهادات يجوز أن يكون من صلة شهادة أحدهم. فتكون الجملة التي هي ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في موضع نصب، لأن الشهادة كالعلم، فيتعلق بها إن، كما يتعلق بالعلم. والجملة في موضع نصب بأنه مفعول به، و﴿أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ﴾ ينتصب انتصاب المصدر. ومن رفع «أربع شهادات» لم يكن ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ إلا من صلة شهادات، دون صلة شهادة، لأنك إن جعلته من صلة شهادة فصلت بين الصلة والموصول. ومن قرأ «أن لعنة الله عليه» و«أن غضب الله عليها» فمعناه: أنه لعنة الله عليه وأنه غضب الله عليها، خففت الثقيلة المفتوحة على إضمار القصة والحديث، ولا تكون في ذلك كالمكسورة، لأن الثقيلة المفتوحة موصولة، والموصول يتشبث بصلته أكثر من تشبث غير الموصول بما يتصل به. وأهل العربية يستقبحون أن تلي الفعل حتى يفصل بينها وبين الفعل بشيء، يقولون: استقبحوا أن تحذف ويحذف ما تعمل فيه وأن تلي ما لم تكن تليه من الفعل بلا حاجز بينهما، فتجتمع هذه الاتساعات فيها، فإن فصل بينها وبين الفعل بشيء لم يستقبحوا ذلك، كقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾، وقوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾، وعلمت أن قد قام. فإن قلت: فقد جاء ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾، وجاء: ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، فالجواب: فأن ليس يجري مجرى ما ونحوها مما ليس بفعل، وأما

قوله: ﴿نُودِيَ أَنْ بُورِكَ﴾ فإن قوله ﴿بُورِكَ﴾ على معنى الدعاء، فلم يجز دخول لا، ولا قد، ولا السين، ولا شيء مما يصح دخوله الكلام فيصح به الفصل. ووجه قراءة نافع، أن ذلك قد جاء في الدعاء ولفظه لفظ الخبر، وقد يجيء في الشعر وإن لم يكن شيء يفصل بين أنْ، وبين ما تدخل عليه من الفعل. فإن قلت: فلم لا تكون أن في قوله ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ﴾ أن الناصبة للفعل، وصل بالماضي. فيكون كقراءة من قرأ «وامرأة مؤمنة أن وهبت نفسها للنبي» فإن ذلك لا يسهل ألا ترى أنها متعلقة بالشهادة، والشهادة بمنزلة العلم لا تقع بعدها الناصبة.

النزول: الضحاك، عن ابن عباس، قال: لما نزلت الآية ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾، قال عاصم بن عدي: يا رسول الله! إن رأى رجل منا مع امرأته رجلًا، فأخبر بما رأى، جلد ثمانين. وإن التمس أربعة شهداء، كان الرجل قد قضى حاجته ثم مضى؟ قال ﷺ: «كذلك أُنزلت الآية يا عاصم». قال: فخرج سامعاً مطيعاً. فلم يصل إلى منزله حتى استقبله هلال بن أمية يسترجع، فقال: ما وراءك؟ قال: شر، وجدت شريك بن سحما على بطن امرأتي خولة! فرجع إلى النبي ﷺ، فأخبره هلال بالذي كان. فبعث إليها فقال: ما يقول زوجك؟ فقالت: يا رسول الله ﷺ: إن ابن سحما كان يأتينا فينزل بنا، فيتعلم الشيء من القرآن، فربما تركه عندي، وخرج زوجي فلا أدري أدركته الغيرة، أم بخل عليّ بالطعام. فأنزل الله آية اللعان: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ الآيات. وعن الحسن قال: لما نزلت ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ الآية، قال سعد بن عبادة: يا رسول الله، أرأيت إن رأى رجل مع امرأته رجلًا فقتله تقتلونه، وإن أخبر بما رأى جلد ثمانين، أفلا يضربه بالسيف؟ فقال رسول الله ﷺ: «كفى بالسيف شاه». أراد أن يقول: شاهداً، ثم أمسك وقال: لولا أن يتابع فيه السكران والغيران. وفي رواية عكرمة، عن ابن عباس، قال سعد بن عبادة: لو أتيت لكاع وقد يفخذها رجل، لم يكن لي أن أُهيجه حتى آتي بأربعة شهداء، فوالله ما كنت لآتي بأربعة شهداء حتى يفرغ من حاجته ويذهب. وإن قلت ما رأيت فإنّ في ظهري لثمانين جلدة. فقال النبي ﷺ: يا معشر الأنصار ما تسمعون إلى ما قال سيدكم؟ فقالوا: لا تلمه فإنه رجل غيور، ما تزوج امرأة قط إلا بكراً، ولا طلق امرأة له فاجترى رجل منا أن يتزوجها. فقال سعد بن عبادة: يا رسول الله بأبي أنت وأمي والله إني لأعرف انها من الله وانها حق، ولكن عجبت من ذلك لما أخبرتك. فقال: فإن الله يأبى إلا ذاك، فقال: صدق الله ورسوله. فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى جاء ابن عم له يقال له هلال بن أمية من حديقة له، قد رأى رجلًا مع امرأته، فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال: إني جئت أهلي عشاء، فوجدت معها رجلًا رأيته بعيني وسمعته بأذني. فكره ذلك رسول الله ﷺ حتى رأى الكراهة في وجهه، فقال هلال: إني لأرى الكراهة في وجهك، والله يعلم إني لصادق، وإني لأرجو أن يجعل الله فرجاً. فهمّ رسول الله بضربه، وقال: واجتمعت الأنصار، وقالوا: ابتلينا بما قال سعد أيجلد هلال وتبطل شهادته؟ فنزل الوحي، وأمسكوا عن الكلام حين عرفوا أن الوحي قد نزل، فأنزل الله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ الآيات. فقال ﷺ: أبشر يا هِلال فإن الله تعالى قد جعل فرجاً. فقال: قد كنت أرجو ذاك من الله تعالى. فقال ﷺ: أرسلوا إليها، فجاءت فلاعن بينهما. فلما انقضى اللعان فرّق بينهما، وقضى أن الولد لها ولا يُدعى لأب ولا

يرمى ولدها. ثم قال رسول الله ﷺ: إن جاءت به كذا وكذا فهو لزوجها، وإن جاءت به كذا وكذا، فهو للذي قيل فيه.

● **المعنى:** لما تقدَّم حكم القذف للأجنبيات، عقَّبه بحكم القذف للزوجات، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ بالزنى ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ﴾ يشهدون لهم على صحة ما قالوا ﴿إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ﴾ قال الزجاج: معناه فشهادة أحدهم التي تدرأ حد القاذف، أربع شهادات. ومن نصب فمعناه: فالذي يدرأ عنهم العذاب أن يشهد أحدهم أربع شهادات ﴿بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيما رماها به من الزنى ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ﴾ أي: والشهادة الخامسة ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فيما رماها به من الزنى. والمعنى: أن الرجل يقول أربع مرات، مرة بعد مرة أخرى: أشهد بالله إني لمن الصادقين فيما ذكرت عن هذه المرأة من الفجور. فإن هذا حكم خصَّ الله به الأزواج في قذف نسائهم، فتقوم الشهادات الأربع مقام الشهود الأربعة في دفع حد القذف عنهم. ثم يقول في المرة الخامسة: لعنة الله عليّ إن كنت من الكاذبين فيما رميتها به من الزنى. ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ ويدفع عن المرأة حد الزنى ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ معناه أن تقول المرأة أربع مرات، مرة بعد أخرى: أشهد بالله إنه لمن الكاذبين فيما قذفني به من الزنى ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ﴾ أي: وتقول في: الخامسة غضب الله عليَّ ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيما قذفني به من الزنى، ثم يفرِّق الحاكم بينهما، ولا تحل له أبداً، وكان عليها العدة من وقت لعانها. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ جواب لولا محذوف، تقديره: ولولا فضل الله عليكم بالنهي عن الزنى والفواحش وإقامة الحدود، لتهالك الناس، ولفسد النسل، وانقطعت الأنساب، عن أبي مسلم. وقيل: معناه لولا إفضال الله وإنعامه عليكم، وأن الله عواد على من يرجع عن المعاصي بالرحمة، حكيم فيما فرضه من الحدود، لنال الكاذب منهما عذاب عظيم، أي: لبيَّن الكاذب منهما، فيقام عليه الحد. وقيل: لعاجلكم بالعقوبة ولفضحكم بما تركبون من الفاحشة، ومثله قوله: لو رأيت فلاناً وفي يده السيف، والمعنى لرأيت شجاعاً أو لرأيت أمراً هائلاً. وقال جرير:

كَـذَبَ الـعـواذل لـو رَأيـنَ مَـنـاخَـنـا ... بِـحَـزيـزِ رَامـةَ والـمَـطِـيّ سَـوامُ[1]

وجاء في المثل: «لو ذات سوار لطمتني».

● ● ●

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾

(١) الحزيز في اللغة: المكان الغليظ المنقاد. وهو في مواضع كثيرة منها حزيز رامة: وهو اسم موضع قرب البصرة. والسوام: راعية. وفي رواية الحموي في المعجم: «ولقد نظرت فرد نظرتك الهوى * بحزيز رامة. . .» وعليها فلا شاهد في هذا البيت.

لَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا
جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾
وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ
﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ
ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾».

● **القراءة:** قرأ يعقوب «كُبره» بضم الكاف، وهو قراءة أبي رجا وحميد الأعرج. وقراءة الفراء «كِبره» بكسر الكاف، وفي الشواذ قراءة عائشة وابن عباس وابن يعمر: «إذ تَلِقُونَهُ»[1]، وقراءة ابن السميقع «تُلقُونَه» والقراءة المشهورة «تَلَقَّونه».

● **الحجة:** من ضم «كبره» أراد عظمه. ومن كسر أراد وزره وإثمه. قال قيس بن الخطيم:

تـنـام عَـنْ كُـبْـرِ شـأنـهـا فـإذا قـامَـتْ رُوَيْـداً تـكـادُ تَـنـعـزِف[2]

أي: عن معظم شأنها، وأما قوله «تلقونه» فمعناه: تسرعون فيه وتخفون إليه، قال الراجز: «جاءت به عَنَسٌ مِنَ الشَّأم تَلِقْ»[3] أي: تخف، وأصله تَلِقون فيه أو إليه، فحذف حرف الجر فوصل الفعل إلى المفعول. وقيل: إن الولق الكذب، فكان الكاذب يستمر في الكذب ويسرع فيه. وجاء في حديث علي عليه السلام: كذبت وولقت. وأما «تُلقُونه» فمعناه: تلقونه بأفواهكم. وأما «تَلَقَّونه» فهو من تلقيت الحديث من فلان أي: أخذته منه وقبلته.

● **النزول:** روى الزهري، عن عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب، وغيرهما عن عائشة أنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها، خرج بها. فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي، وذلك بعد ما أنزل الحجاب، فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وآله حتى فرغ من غزوه، وقفل[4]. ورُوِيَ أنها كانت غزوة بني المصطلق من خزاعة. قالت: ودنونا من المدينة فقمت حين أذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرجل، فلمست صدرتي فإذا عِقد من جزْع ظَفار[5] قد انقطع. فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه. وأقبل الرهط الذي كانوا يرحلونني، فحملوا هودجي على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه. وكانت النساء إذ ذاك خفافاً لم يهبلهن

---

(١) من ولق يلق ولقاً في سيره: أسرع.
(٢) العزف: التثني والانقصاف أي: تتثنى من دقة خصرها.
(٣) وقبله: «إنَّ الجليد زلق وملق * كذنب العقرب شوال علق * جاءت به عنس. . . » يهجو به جليد الكلابي، ويريد أنه ينزل قبل الجماع.
(٤) أي: رجع.
(٥) الجزع: الخرز اليماني. وظفار كقطام: قرية من قرى يمن، ينسب إليها الجزع الظفاري.

اللحم[١] (ولم يغشهنَّ اللحم. خ ل)، إنما يأكلن العلقة من الطعام. فبعثوا الجمل وساروا. ووجدت عِقدي وجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فسموت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدونني فيرجعون إلي. فبينا أنا جالسة إذ غلبتني عيناي فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي قد عرَّس من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم فعرفني حين رآني، فخمرت وجهي بجلبابي، ووالله ما كلَّمني بكلمة حتى أناخ راحلته، فركبتها فانطلق يقود الراحلة، حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين[٢] في حرّ الظهيرة. فهلك من هلك فيَّ، وكان الذي تولى كبره منهم عبد الله بن أبي سلول. فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمتها شهراً، والناس يفيضون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك وهو يرثيني في وجعي، غير أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل فيسلم ثم يقول: كيف تيكم؟ فذلك يحزنني ولا أشعر بالسر، حتى خرجت بعدما نقهت، وخرجت معي أم مسطح قبل المصانع، وهو متبرزنا، ولا نخرج إلا ليلًا إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكُنُف، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه، وكنا نتأذى بالكُنُف أن نتخذها عند بيوتنا. وانطلقت أنا، وأم مسطح، وأمها بنت صخرة بن عامر، خالة أبي، فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت: تعس مسطح! فقلت لها: بئس ما قلت! أتسبين رجلًا قد شهد بدراً؟ فقالت: أي بنتاه ألم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً إلى مرضي. فلما رجعت إلى بيتي دخل عليَّ رسول الله ﷺ ثم قال: كيف تيكم؟ قلت: تأذن لي أن آتي أبويَّ؟ قالت: وأنا أُريد أَنْ أتيقن الخبر من قبله. فأذن لي رسول الله ﷺ. فجئت أبويَّ وقلت لأمي: يا أماه! ماذا يتحدث الناس؟ فقالت: أي: بنية! هوني عليك، فوالله لقَلَّ ما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها، ولها ضرائر إلا أكثرن عليها. قلت: سبحان الله! أو قد يحدث الناس بهذا؟ قالت: نعم. فمكثت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي، ودعا رسول الله أسامة بن زيد وعلي بن أبي طالب عليه السلام، حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله. فأما أسامة فأشار على رسول الله ﷺ بالذي علم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الودّ، فقال: يا رسول الله! هم أهلك ولا نعلم إلا خيراً، فأما علي بن أبي طالب، عليه أفضل الصلوات، فقال: لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثيرة، وإن تسأل الجارية تصدُقك. فدعا رسول الله ﷺ بريرة! فقال: يا بريرة هل رأيتِ شيئاً يريبكِ من عائشة؟ قالت بريرة: والذي بعثك بالحق! إن رأيت عليها أمراً قط أغمضه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها. قالت: وأنا والله أعلم أني بريئة، ولما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله رؤيا يبرئني الله بها. فأنزل الله تعالى على نبيه وأخذه ما كان يأخذه من برحاء الوحي، حتى إنه لينحدر عنه مثل الجمان من العرق في اليوم الثاني من ثقل القول الذي أُنزل عليه. فلما سري عن رسول الله ﷺ

---

(١) أي: لم يكثر عليهن اللحم والشحم. والعلقة: القليل من الطعام.

(٢) الوغر: شدة توقد الحر.

قال: أبشري يا عائشة! أما الله فقد برأك. فقالت لي أمي: قومي إليه. فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله، فهو الذي أنزل براءتي. فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ﴾ الآيات العشر.

● **المعنى:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ﴾ أي: بالكذب العظيم الذي قلب فيه الأمر عن وجهه ﴿عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾ أيها المسلمون. قال ابن عباس، وعائشة: منهم عبد الله بن أبي سلول، وهو الذي تولى كبره، ومسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش. ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ هذا خطاب لعائشة وصفوان لأنهما قُصِدا بالإفك، ولمن اغتمَّ بسبب ذلك، وخطاب لكل من رُمِيَ بسبب، عن ابن عباس، أي: لا تحسبوا غم الإفك شراً لكم، بل هو خير لكم لأن الله تعالى يبرىء عائشة ويأجرها بصبرها واحتسابها، ويلزم أصحاب الإفك ما استحقوه بالإثم الذي ارتكبوه في أمرها. وقال الحسن: هذا خطاب للقاذفين من المؤمنين، والمعنى: لا تحسبوا أيها القذفة هذا التأديب شراً لكم، بل هو خير لكم، فإنه يدعوكم إلى التوبة، ويمنعكم عن المعاودة إلى مثله. ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾، أي: لكل امرىء من القذفة جزاء ما اكتسبه من الإثم، بقدر ما خاض وأفاض فيه. وقيل: معناه على كل امرىء منهم عقاب ما اكتسب، كقوله: ﴿وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾ أي: فعليها ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ﴾ أي: تحمَّل معظمه ﴿مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ والمراد به عبد الله بن أبي سلول أي: فإنه كان رأس أصحاب الإفك، كان يجتمع الناس عنده ويحدِّثهم بحديث الإفك، ويشيع ذلك بين الناس، ويقول: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت، ثم جاء يقودها، والله ما نجت منه ولا نجا منها. والعذاب العظيم: عذاب جهنم في الآخرة، وقيل: المراد به مسطح بن أثاثة. وقيل: حسان بن ثابت، فإنه روي أنه دخل على عائشة بعد ما كفَّ بصره، فقيل لها: إنه يدخل عليك، وقد قال فيك ما قال وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾، فقالت عائشة: أليس قد كفَّ بصره. فأنشد حسان قوله فيها:

حِصَانٌ رَزانٌ ما تُزَن بِرِيبَةٍ وتُصبح غَرثَى مِنْ لُحوم الغَوافِلِ(١)

فقالت عائشة: لكنك لست كذلك. ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا﴾ معناه: هلا حين سمعتم هذا الإفك من القائلين له، ظن المؤمنون والمؤمنات بالذين هم كأنفسهم خيراً، لأن المؤمنين كلهم كالنفس الواحدة فيما يجري عليها من الأمور. فإذا جرت على أحدهم محنة، فكأنها جرت على جماعتهم، فهو كقوله: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ عن مجاهد. وعلى هذا يكون خطاباً لمن سمعه، فسكت ولم يصدق ولم يكذب. وقيل: هو خطاب لمن أشاعه، والمعنى: هلا إذا سمعتم هذا الحديث ظننتم بها ما تظنونه بأنفسكم، لو خلوتم بها، وذلك لأنها كانت أم المؤمنين. ومن خلا بأمه فإنه لا يطمع فيها، وهي لا تطمع فيه. ﴿وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾ أي: وهلا قالوا هذا القول كذب ظاهر ﴿لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ﴾ أي: هلا جاؤوا على ما قالوه ببينة، وهي أربعة شهداء يشهدون بما قالوه ﴿فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ﴾ أي: فحين لم يأتوا

---

(١) الحصان هنا: العفيفة. والرزان: الملازمة موضعها التي لا تتصرف كثيراً. وامرأة رزان: إذا كانت ذات ثبات ووقار. وما تزن: أي: ما تتهم. وغرثى أي: جائعة. والغوافل جمع غافلة. يريد أنها لا ترتع في أعراض الناس.

بالشهداء ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين قالوا هذا الإفك ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: في حكمه ﴿هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ۝١٣ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ بأن أمهلكم لتتوبوا ولم يعاجلكم بالعقوبة ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ أي: أصابكم ﴿فِى مَآ أَفَضْتُمْ﴾ أي: خضتم ﴿فِيهِ﴾ من الإفك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: عذاب لا انقطاع له، عن ابن عباس.

ثم ذكر الوقت الذي كان يصيبهم العذاب فيه لولا فضله فقال: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي: يرويه بعضكم عن بعض، عن مجاهد، ومقاتل. وقيل: معناه تقبلونه من غير دليل، ولذلك أضافهُ إلى اللسان. وقيل: معناه يلقيه بعضكم إلى بعض، عن الزجاج ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ أي: تظنون أن ذلك سهل، لا إثم فيه ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ في الوزر، لأنه كذب وافتراء.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ۝١٦ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝١٩ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٢٠﴾.

● **المعنى:** ثم زاد سبحانه في الإنكار عليهم فقال: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم﴾ أي: هلا قلتم حين سمعتم ذلك الحديث ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ أي: لا يحل لنا أن نخوض في هذا الحديث، وما ينبغي لنا أن نتكلم به، ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ يا ربنا ﴿هَٰذَا﴾ الذي قالوه ﴿بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ أي: كذب وزور عظيم عقابه، أو نتحيَّر من عظمه. وقيل: إن سبحانك هنا معناه التعجب كقول الأعشى:

سُبْحَانَ مِنْ عَلْقَمَةَ الفَاخِرِ[1]

وقيل: معناه ننزهك ربنا من أن نعصيك بهذه المعصية. ثم وعظ سبحانه الذين خاضوا في الإفك فقال: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: ينهاكم الله، عن مجاهد، وقيل: يحرِّم الله عليكم ﴿أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ﴾ عن ابن عباس. وقيل: معناه كراهة أن تعودوا، أو لئلا تعودوا إلى مثله من الإفك ﴿أَبَدًا﴾ أي: طول أعماركم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: مُصدِّقين بالله ونبيِّه، قابلين موعظة الله ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ في الأمر والنهي ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يكون منكم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله، لا يضع الشيء إلا في موضعه. ثم هدَّد القاذفين فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ أي: يفشوا ويظهروا الزنى والقبائح ﴿فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بأن ينسبوها إليهم ويقذفوهم بها ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

---

(١) وقبله: «أقول لما جاءني فخره». قاله في علقمة بن علاثة.

﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ بإقامة الحد عليهم ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ وهو عذاب النار ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ ما فيه من سخط الله، وما يستحق عليه من المعاقبة ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ذلك، ثم ذكر فضله ومِنَّته عليهم فقال: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ لعاجلكم بالعقوبة. ولكنه برحمته أمهلكم لتتوبوا وتندموا على ما قلتم، وجواب ﴿وَلَوۡلَا﴾ محذوف لدلالة الكلام عليه.

● **النظم:** لمّا بيَّن سبحانه أحكام قذف المحصنات، وعظم أمره، عقَّب ذلك بأحكام قذف الزوجات. ثم عطف بعد ذلك قذف الأمهات، فإن أزواج النبي ﷺ أمهات المؤمنين بدلالة قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الآية.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ روح، عن يعقوب: «ما زكّى منكم» بالتشديد، والباقون بالتخفيف. وقرأ أبو جعفر: «ولا يتألّ» وهو قراءة زيد بن أسلم وأبي رجا وأبي مجلز، والباقون: «لا يأتل». ورُوِيَ عن علي عليه السلام: «ولتعفوا ولتصفحوا» بالتاء كما يروى بالياء أيضاً. وقرأ أهل الكوفة غير عاصم: «يوم يشهد عليهم» بالياء، والباقون: «تشهد». وفي الشواذ قراءة مجاهد وأبي روق: «يومئذٍ يوفيهم الله دينهم الحقُّ» بالرفع.

● **الحجة:** الوجه في قوله «ما زكّى» بالتشديد أنه قال والله يزكي. وأما قوله: «ولا يتألّ» فإنه من تألى إذا حلف. وفي الحديث: «ومن يتألّ على الله يكذبه»، وهو الذي يحلف فيقول: والله لا يدخل فلان الجنة وفلان النار. وأنشد الأصمعي: «عجاجة هجاجة تألى، لأصبحن الأحقر الأذلا». وأما «لا يأتل» ففيه ثلاثة أقوال:

أحدها: من الأليّة التي هي اليمين أيضاً، يقال: أْتلى وتألّى وألّى بمعنى. **والآخر**: أنه من قولهم: ما ألوت في كذا أي: ما قصَّرت. والمعنى: ولا يقصر. وقال الأخفش: إنه يحتمل الأمرين. وقوله: «ولتعفوا ولتصفحوا» بالتاء. مثل ما رُوِيَ فلتفرحوا بالتاء على الأصل، وقد تقدم القول فيه. ومن قرأ «يوم يشهد» بالياء، فلأن تأنيث الألسنة ليس بحقيقي، ولأنه حصل بين الفعل والفاعل فصل. ومن قرأ بالتاء فعلى أن الألسنة مؤنثة. ومن قرأ «الحقُّ» بالرفع جعله وصفاً لله تعالى أي: يوفيهم الله الحق دينهم، مثل قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾.

● **النزول:** قيل: إن قوله ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ الآية، نزلت في أبي بكر ومسطح بن أثاثة، وكان ابن خالة أبي بكر، وكان من المهاجرين ومن جملة البدريين، وكان فقيراً، وكان أبو بكر يجري عليه ويقوم بنفقته. فلما خاض في الإفك قطعها، وحلف أن لا ينفعه بنفع أبداً. فلما نزلت الآية عاد أبو بكر إلى ما كان، وقال: والله إني لأحب أن يغفر الله لي، والله لا أنزعها عنه أبداً، عن ابن عباس وعائشة وابن زيد، وقيل: نزلت في يتيم كان في حجر أبي بكر حلف لا ينفق عليه، عن الحسن ومجاهد. وقيل: نزلت في جماعة من الصحابة، أقسموا على أن لا يتصدقوا على رجل تكلم بشيء من الإفك ولا يواسوه، عن ابن عباس وغيره.

● **المعنى:** ثم نهى سبحانه عن اتباع الشيطان فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: آثاره وطرقه التي تؤدي إلى مرضاته، وقيل: وساوسه ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ هذا بيان سبب المنع من اتباعه ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بأن لطف لكم وأمركم بما تصيرون به أزكياء، ونهاكم عما تصيرون بتركه أزكياء ﴿مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ أي: ما صار منكم أحد زكياً. ومِنْ في ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾ مزيدة، وقيل: معناه ما ظهر منكم أحد من وسوسة الشيطان وما صلح. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ أي: يطهر بلطفه من يشاء، وهو من له لطف يفعله سبحانه به ليزكو عنده، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يفعل المصالح والألطاف بالمكلّفين، لأنه يسمع أصواتهم وأقوالهم ويعلم أحوالهم وأفعالهم. وفي الآية دلالة على أن الله سبحانه يريد من خلقه خلاف ما يريده الشيطان، لأنه إذا ذمَّ سبحانه الأمر بالفحشاء والمنكر، فخالق الفحشاء والمنكر ومريدهما أولى بالذم، تعالى وتقدّس عن ذلك، وفيها دلالة على أن أحداً لا يصلح إلا بلطفه. ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ أي: ولا يحلف أو لا يقصر ولا يترك ﴿أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ أي: وأولو الغنى والسعة في المال ﴿أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى﴾ قال الزجاج: معناه أن لا يؤتوا، فحذف لا، أي: لا يحلفوا أن لا يؤتوا. وقيل: لا يقصروا أن يؤتوا ولا يتركوا جهداً في الإنفاق على أقربائهم ﴿وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وقد اجتمع في مسطح الصفات الثلاث: كان قريناً لأبي بكر، مسكيناً، مهاجراً. قال الجبائي: وفي قصة مسطح دلالة على أنه قد يجوز أن تقع المعاصي ممن شهد بدراً بخلاف قول النوائب. ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ هذا أمر من الله تعالى للمرادين بالآية بالعفو عمن أساء إليهم والصفح عنهم. وقال لهم: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ معاصيكم جزاء على عفوكم وصفحكم عمن أساء إليكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ أي: يقذفون العفائف من النساء ﴿الْغَافِلَاتِ﴾ عن الفواحش ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ بالله ورسوله واليوم الآخر ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي: أُبعِدوا من رحمة الله في الدارين، وقيل: استحقوا اللعنة فيهما. وقيل: عُذّبوا في الدنيا بالجلد وردّ الشهادة، وفي الآخرة بعذاب النار ﴿وَلَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهذا الوعيد عام لجميع المكلفين، عن ابن عباس وابن زيد. ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)﴾ بيَّن الله سبحانه أن ذلك العذاب يكون في يوم، تشهد ألسنتهم فيه عليهم بالقذف وسائر أعضائهم بمعاصيهم. وفي كيفية شهادة الجوارح أقوال:

أحدها: أن الله تعالى يبنيها بُنية يمكنها النطق والكلام من جهتها، فتكون ناطقة.

والثاني: أن الله تعالى يفعل فيها كلاماً يتضمن الشهادة، فيكون المتكلم هو الله دون الجوارح. وأضيف الكلام إليها على التوسع لأنها محل الكلام.

والثالث: أن الله تعالى يجعل فيها علامة تقوم مقام النطق بالشهادة. وأما شهادة الألسن فبأن يشهدوا بألسنتهم إذا رأوا أنه لا ينفعهم الجحود. وأما قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ فإنه يجوز أن تخرج الألسنة ويختم على الأفواه، ويجوز أن يكون الختم على الأفواه في حال شهادة الأيدي والأرجل. ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ أي: يتمِّم الله لهم جزاءهم الحق. فالدين هنا بمعنى الجزاء، ويجوز أن يكون المراد جزاء دينهم الحق. فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه. ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: يعلمون الله ضرورة في ذلك اليوم، ويقرُون أنه الحق لأنه يقضي بالحق، ويعطي بالحق ويأخذ بالحق ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ أي: الذي يظهر لهم حقائق الأمور، ويُبيِّن جلائل الآيات.

● **النظم**: بدأ سبحانه فبيَّن حكم القاذف أولاً، وأوجب عليه الحدّ، وردّ شهادته وسمَّاه فاسقاً فعلم أن المراد به أهل الملة. ثم عقَّبه بحديث الإفك لاتصاله به. ثم ذكر صنفاً آخر من القذفة وهم المنافقون بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وبيَّن ما لهم من الغضب واللعنة. ثم عمَّ الجميع بالوعيد في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ الآيات، عن أبي مسلم.

●●●

قوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

● **اللغة**: الاستيناس: طلب الأنس بالعلم، أو غيره، تقول العرب: اذهب فاستأنس هل ترى أحداً. ومنه قوله: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ أي: علمتم. ورُوِيَ عن ابن عباس أنه قال: إنما هي تستأذنوا يعني قوله: ﴿تَسْتَأْنِسُوا۟﴾، وكذلك يُروى عن عبد الله، ورُوِيَ عن أُبَيّ «حتى تسلموا وتستأنسوا»،[1] وكذلك قرأ ابن عباس.

● **المعنى**: قال سبحانه: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ قيل في معناه أقوال:

(١) وفي نسخة: «حتى تسلموا أو تستأذنوا».

أحدها: أن الخبيثات من الكلِم للخبيثين من الرجال والخبيثون من الرجال للخبيثات من الكَلِم، والطيِّبات من الكَلِم للطيِّبين من الرجال، والطيِّبون من الرجال للطيِّبات من الكلم. ألا ترى أنك تسمع الخبيث من الرجل الصالح، فتقول: غفر الله لفلان ما هذا من خلقه، ولا مما يقول، عن ابن عباس والضحاك ومجاهد والحسن.

والثاني: أن معناه الخبيثات من السيئات للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من السيئات، والطيبات من الحسنات للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من الحسنات، عن ابن زيد.

والثالث: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء، عن أبي مسلم والجبائي، وهو المَرْوِيّ عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام، قالا: هي مثل قوله: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ الآية. إن أُناساً همُّوا أن يتزوجوا منهن، فنهاهم الله عن ذلك وكره ذلك لهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: الطيبون مبرؤون أي: منزَّهون من الكلام الخبيث، عن مجاهد. وقال الفراء: يعني به عائشة وصفوان بن المعطل. وهو بمنزلة قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾، والأم تحجب بالأخوين فجاء على تغليب لفظ الجمع. ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي: لهؤلاء الطيبين من الرجال والنساء مغفرة من الله لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: عطية من الله كريمة في الجنة.

ثم خاطب سبحانه المؤمنين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ﴾ أي: حتى تستأذنوا، عن ابن مسعود وابن عباس، قال: أخطأ الكاتب فيه وكان يقرأ حتى تستأذنوا، وقيل: تستأنسوا بالتنحنح والكلام الذي يقوم مقام الاستيذان. وقد بيّن الله تعالى ذلك في قوله: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ﴾ عن مجاهد والسدي. وقيل: معناه حتى تستعلموا وتتعرفوا، عن أبي أيوب الأنصاري، قال: قلنا يا رسول الله ما الاستيناس؟ قال: «يتكلم الرجل بالتسبيحة والتحميدة والتكبيرة ويتنحنح على أهل البيت». وعن سهل بن سعد قال: اطلع رجل في حجرة من حجر رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعه مِدَرى[1] يحكُّ به رأسه: «لو أعلم أنك تنظر لطعنت به في عينيك! إنما الاستيذان من النظر». ورُوِيَ أن رجلًا قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: أستأذن على أمي؟ فقال: نعم، قال: إنها ليس لها خادم غيري، أفأستأذن عليها كلما دخلت؟ قال: أتحب أن تراها عريانة؟ قال الرجل: لا. قال: فاستأذن عليها. ﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ قيل: إن فيه تقديماً وتأخيراً تقديره: حتى تسلموا على أهلها، وتستأنسوا وتستأذنوا، فإن أَذِنَ لكم فادخلوا. وقيل: معناه حتى تستأنسوا بأن تسلموا، فقد رُوِيَ أن رجلًا استأذن على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فتنحنح، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لامرأة يقال لها روضة: قومي إلى هذا فعلِّميه، وقولي له: قل السلام عليكم أأدخل. فسمعها الرجل فقالها، فقال: أُدخل. ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ معناه: ذلك الدخول بالاستيذان خير لكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ مواعظ الله وأوامره ونواهيه

(١) المدرى: المشط.

فتتَّبعونها ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ﴾ معناه: فإن لم تعلموا ﴿فِيهَآ أَحَدًا﴾ يأذن لكم في الدخول ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ لأنه ربما كان فيها ما لا يجوز أن تطلعوا عليه ﴿حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ أي: حتى يأذن لكم أرباب البيوت في ذلك. بيَّن الله سبحانه بهذا أنه لا يجوز دخول دار الغير بغير إذنه، وإن لم يكن صاحبها فيها، ولا يجوز أن يتطلع إلى المنزل ليرى من فيه فيستأذنه إذا كان الباب مغلقاً لقوله عليه السلام: «إنما جعل الاستيذان لأجل النظر» وإلا أن يكون الباب مفتوحاً لأن صاحبه بالفتح أباح النظر». ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُواْ فَارْجِعُواْ﴾ أي: فانصرفوا ولا تلحُّوا عليهم، وذلك بأن يأمروكم بالانصراف صريحاً، أو يوجد منهم ما يدل عليه. ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ معناه: أن الانصراف أنفع لكم في دينكم ودنياكم، وأطهر لقلوبكم، وأقرب إلى أن تصيروا أزكياء ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ أي: عالم بأعمالكم لا يخفى عليه شيء منها. ثم قال سبحانه: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي: حرج وإثم ﴿أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ يعني بغير استئذان ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ قيل: في معنى هذه البيوت أقوال:

أحدها: أنها الحانات والحمامات والأرحبة، عن الصادق عليه السلام، وعن محمد بن الحنفية وقتادة. ويكون معنى متاع لكم أي: استمتاع لكم.

الثاني: أنها الخرابات المعطلة ويدخلها الإنسان لقضاء الحاجة، عن عطاء.

والثالث: أنها الحوانيت وبيوت التجار التي فيها أمتعة الناس، عن ابن زيد. قال الشعبي: وإذنهم أنهم جاؤوا ببيوعهم فجعلوها فيها، وقالوا للناس: هلمّوا.

والرابع: أنها مناخات الناس في أسفارهم يرتفقون بها، عن مجاهد. والأولى حمله على الجميع. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ لا يخفى عليه شيء من ذلك.

● **النظم**: وجه اتصال الآية بما قبلها: أنه سبحانه لما عظم شأن الزنى والقذف، أكّد ذلك بالنهي عن دخول بيوت الناس إلا بعد الاستئذان والاستئناس، ليكونوا أبعد من التهمة وأقرب إلى العصمة من السيئة.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ التَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ النِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓاْ إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر وابن عامر وأبو بكر: «غيرَ أُولي الإِربة» بالنصب، والباقون بالجر. وقرأ ابن عامر: «أيهُ المؤمنين» و «يا أيهُ الساحر» و«أيهُ الثقلان» بضم الهاء، والباقون بفتحها.

● **الحجة:** قال أبو علي: «غير» فيمن جر صفة للتابعين، والمعنى: لا يبدين زينتهن إلا للتابعين الذين لا إربة لهم في النساء. والإربة: الحاجة. لأنهم في أنهم لا إربة لهم كالأطفال الذين لم يظهروا على عورات النساء، أي: لم يقووا عليها. ومنه قوله ﴿فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾، وجاز وصف التابعين بغير، لأنهم غير مقصودين بأعيانهم فأُجْرِيَ لذلك مجرى النكرة. وقد قيل: إن التابعين جاز أن يوصفوا بغير في هذا، لقصر الوصف على شيء بعينه، فإذا قصر على شيء بعينه زال الشياع عنه فاختص. فالتابعون ضربان: ذو إربة، وغير ذي إربة، وليس ثالث. وإذا كان كذلك جاز لاختصاصه أن يجري وصفاً على المعرفة، وعلى هذا ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾. وكذلك: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾، لأن المسلمين وغيرهم لا يخلو من أن يكونوا أصحاء أو زمنى، فإذا وصفوا بأحد الشيئين زال الشياع، فساغ الوصف به لذلك. ومن نصب «غير» احتمل ضربين:

أحدهما: أن يكون استثناء والتقدير: لا يبدين زينتهن إلا للتابعين إلا ذا الإربة منهم، فإنهن لا يبدين زينتهن لمن كان منهم ذا إربة.

والآخر: أن يكون حالًا، والمعنى: أو الذين يتبعونهن عاجزين عنهن. وذو الحال ما في التابعين من الذكر، وقال: الوقف على يا أيها، وأيها بالألف، لأنها إنما أُسقطت لسكونها وسكون لام المعرفة، فإذا وقفت عليها زال التقاء الساكنين وظهرت الألف. فأما ضم الهاء في قراءة ابن عامر فلا يتّجه، لأن آخر الاسم هو الياء الثانية من أيٍّ فينبغي أن يكون المضموم آخر الاسم، ولو جاز أن يضم هذا من حيث كان مضموماً إلى الكلمة، لجاز أن يضم الميم من اللهم، لأنه آخر الكلمة. ووجه الإشكال والشبهة في ذلك أنه وجد هذا الحرف قد صار في بعض المواضع التي يدخل فيها بمنزلة ما هو من نفس الكلمة، نحو: مررت بهذا الرجل، وغلام هذه المرأة. فلما وجدها في أوائل المبهمة، كذلك جعلها في الآخر أيضاً بمنزلة شيء من نفس الكلمة. واستجاز حذف الألف اللاحق للحرف لما رآه قد حذف في قولهم: هلمَّ، فأُجريَ عليه الإعراب لما كان كالشيء الذي من نفس الكلمة. فإن قلت: فإنه قد حرك الياء التي قبلها بالضم في «يا أيها الرجل» فإنه يجوز أن نقول: حركة أي: في هذه المواضع كحركات الإتباع في نحو امرىء. ،وامرؤ. فهذا وجه شبهته.

● **اللغة:** أصل الغض: النقصان، يقال: غض من صوته، ومن بصره أي: نقص، ومنه حديث عمرو بن العاص لما مات عبد الرحمن بن عوف: هنيئاً لك خرجت من الدنيا ببطنتك، لم تتغضغض منها بشيء. يقال: غضغضت الشيء فتغضغض: إذا نقص، والإربة: فعلة من الإرب كالمشية والجلسة. وفي الحديث: أنَّ رجلاً اعترض النبي ﷺ ليسأله، فصاحوا به

فقال ﷺ: «دعوا الرجل أربَ ما لَه». قال ابن الأعرابي: أي: احتاج فسأل ما له. وقيل: معناه حاجة جاءت به فدعوه. وما: مزيدة، عن الأزهري[١].

● **الإعراب:** ﴿يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ مجزوم لأنه جواب شرط مقدر، والتقدير: قل للمؤمنين غضوا من أبصاركم، فإنك إن تقل لهم يغضوا. ويجوز أن يكون مجزوماً على تقدير: ليغضوا من أبصارهم، ومثل ذلك قوله: ﴿يَغْضُضْنَ﴾، وإن لم يظهر فيه الإعراب لكونه مبنياً. و﴿مَا ظَهَرَ﴾ في موضع نصب على البدل من ﴿زِينَتَهُنَّ﴾، وقوله ﴿مِنْهَا﴾ من هنا: للتبيين. والجار والمجرور مع المحذوف في موضع نصب على الحال.

● **المعنى:** ثم بيَّن سبحانه ما يحلُّ من النظر وما لا يحل منه فقال: ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ عما لا يحلُّ لهم النظر إليه ﴿وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ عمن لا يحل لهم، وعن الفواحش، وقيل: إن ﴿مِنْ﴾ من مزيدة، وتقديره: يغضوا أبصارهم عن عورات النساء، وقيل: إنها للتبعيض، لأن غض البصر إنما يجب في بعض المواضع، عن أبي مسلم، والمعنى: ينقصوا من نظرهم فلا ينظروا إلى ما حرم، وقيل: إنها لابتداء الغاية. وقال ابن زيد: كل موضع في القرآن ذكر فيه حفظ الفروج، فهو عن الزنى، إلا في هذا الموضع، فإن المراد به الستر حتى لا ينظر إليها أحد، وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: فلا يحل للرجل أن ينظر إلى فرج أخيه، ولا يحل للمرأة أن تنظر إلى فرج أختها. ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أي: أنفع لدينهم ودنياهم، وأطهر لهم، وأنفى للتهمة، وأقرب إلى التقوى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ﴾ أي: عليم ﴿بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ أي: بما يعملونه، أي: على أيّ وجه يعملونه ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ أمر النساء بمثل ما أمر به الرجال من غض البصر وحفظ الفرج ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ أي: لا يظهرن مواضع الزينة لغير محرم ومن هو في حكمه. ولم يرد نفس الزينة، لأن ذلك يحل النظر إليه، بل المراد مواضع الزينة. وقيل: الزينة زينتان ظاهرة وباطنة، فالظاهرة لا يجب سترها ولا يحرم النظر إليها، لقوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ وفيها ثلاثة أقاويل:

أحدها: أن الظاهرة الثياب، والباطنة الخلخالان والقرطان والسواران، عن ابن مسعود.

وثانيها: أن الظاهرة الكحل والخاتم والخدان والخضاب في الكف، عن ابن عباس. والكحل والسوار والخاتم، عن قتادة.

وثالثها: أنها الوجه والكفان، عن الضحاك وعطاء، والوجه والبنان، عن الحسن. وفي تفسير علي بن إبراهيم: الكفان والأصابع. ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ والخُمُر المقانع جمع خمار: وهو غطاء رأس المرأة المنسدل على جبينها، أُمِرْنَ بإلقاء المقانع على صدورهن تغطية لنحورهن، فقد قيل: إنهنّ كنّ يلْقين مقانعهن على ظهورهن، فتبدو صدورهن. وكنّى عن الصدور بالجيوب لأنها ملبوسة عليها. وقيل: إنهن أُمرن بذلك ليسترن شعورهن وقرطهن وأعناقهن. قال ابن عباس: تغطي شعرها وصدرها وترائبها وسوالفها. ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾

(١) وذكروا في الحديث وجوهاً أُخر. راجع (النهاية لابن الأثير)، و(اللسان): مادة «أرب».

يعني: الزينة الباطنة التي لا يجوز كشفها في الصلاة، وقيل: معناه لا يضعن الجلباب والخمار، عن ابن عباس ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أي: لأزواجهن يبدين مواضع زينتهن لهم، استدعاء لميلهم وتحريكاً لشهوتهم، فقد رُوِيَ أنه ﷺ لعن السلتاء من النساء والمرهاء، فالسلتاء: التي لا تخضب، والمرهاء التي لا تكتحل، ولعن المسوفة والمفسلة، فالمسوفة: التي إذا دعاها زوجها إلى المباشرة قالت: سوف أفعل، والمفسلة: هي التي إذا دعاها قالت: أنا حائض، وهي غير حـــائـــض. ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ وهؤلاء الذين يحرم عليهم نكاحهن، فهم ذوو محارم لهم بالأسباب والأنساب، ويدخل أجداد البعولة فيه وإن علوا، وأحفادهم وإن سفلوا. ويجوز إبداء الزينة لهم من غير استدعاء لشهوتهم، ويجوز لهم تعمد النظر من غير تلذذ. ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾وهو يعني النساء المؤمنات ولا يحل لهن أن يتجردن ليهودية أو نصرانية أو مجوسية، إلا إذا كانت أمة، وهو معنى قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ أي: من الإماء، عن ابن جريج ومجاهد والحسن وسعيد بن المسيب، قالوا: ولا يحل للعبد أن ينظر إلى شعر مولاته، وقيل: معناه العبيد والإماء، ورُوِيَ ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام. وقال الجبائي: أراد مملوكاً له لم يبلغ مبلغ الرجال. ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ اختلف في معناه فقيل: التابع الذي يتبعك لينال من طعامك، ولا حاجة له في النساء، وهو الأبله المولى عليه، عن ابن عباس وقتادة وسعيد بن جبير، وهو المَرْوي عن أبي عبد الله عليه السلام. وقيل: هو العنين الذي لا إرب له في النساء لعجزه، عن عكرمة والشعبي. وقيل: إنه الخصي المجبوب الذي لا رغبة له في النساء، عن الشافعي، ولم يسبق إلى هذا القول. وقيل: إنه الشيخ الهرم لذهاب إربه، عن يزيد بن أبي حبيب. وقيل: هو العبد الصغير، عن أبي حنيفة وأصحابه ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ﴾ أي: الجماعة من الأطفال ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ يريد به الصبيان الذين لم يعرفوا عورات النساء، ولم يقووا عليها لعدم شهوتهم. وقيل: لم يطيقوا مجامعة النساء، فإذا بلغوا مبلغ الشهوة فحكمهم حكم الرجال ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ قال قتادة: كانت المرأة تضرب برجلها لتسمع قعقعة الخلخال فيها، فنهاهن عن ذلك، وقيل: معناه لا تضرب المرأة برجلها إذا مشت، ليتبين خلخالها أو يسمع صوته، عن ابن عباس ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: تفوزون بثواب الجنة. وفي الحديث: أنه ﷺ قال: «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فإني أتوب إلى الله في كل يوم مائة مرة» أورده مسلم في الصحيح. والمراد بالتوبة: الانقطاع إلى الله تعالى.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ

خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا
لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ
أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

● **القراءة:** في الشواذ قراءة ابن عباس وسعيد بن جبير: «من بعد إكراههن لهن غفور رحيم»، ورُوِيَ ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام.

● **الحجة:** اللام في لهن متعلقة بغفور أي: غفور لهن.

● **اللغة:** الأيامى جمع أيم، وهي المرأة التي لا زوج لها، سواء كانت بكراً أو ثيباً. ويقال للرجل الذي لا زوجة له: أيم أيضاً. قال جميل:

أُحِبُّ الأيامى إذ بثينةَ أيِّمٌ وأحْبَبْتُ لمّا أنْ غَنِيْتِ الغوانِيا[1]

وقال الشاعر:

فإن تَنْكِحي أنكِح، وإنْ تتأيمي مَدى الدَّهْرِ ما لم تَنْكِحي أتأيَّمُ[2]

والفعل منه: آمت المرأة تئيم أيمة وأيوماً. والإنكاح: التزويج، يقال: نكح إذا تزوج، وأنكح غيره: إذا زوجَّه، والاستعفاف والتعفف سواء: وهو طلب العفة واستعمالها. ويقال: رجل عف، وامرأة عفة، والكتاب والمكاتبة: أن يكاتب الرجل مملوكه على مال يؤديه إليه، فإذا أدّاه عتق، وأصله من الجمع. وكل شيء جمعته إلى شيء فقد كتبته، ومنه الكتاب لتداني بعض حروفه إلى بعض، وهنا قد جمع العبد نجوم المال. وقيل: جمع ماله إلى مال السيد.

● **الإعراب:** أحد مفعولي ﴿وَأَنكِحُوا۟﴾ محذوف تقديره: وأنكحوا رجالكم الأيامى من نسائكم، أو نساءكم الأيامى من رجالكم، وأنكحوا الصالحين من عبادكم إماءكم الصالحات، أو الصالحات من إمائكم عبادكم الصالحين، لأن الأيامى يشتمل على الرجال والنساء والصالحين يشتمل عليهما أيضاً. وقوله ﴿مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ الجار والمجرور في موضع نصب على الحال، ومن للتبيين. وكل موضع يكون من مع معموله والعامل فيه، في محل النصب على الحال، لا يكون إلا كذلك.

● **المعنى:** ثم أمر سبحانه عباده بالنكاح وأغناهم عن السفاح فقال: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ ومعناه: زوّجوا أيها المؤمنون من لا زوج له من أحرار رجالكم ونسائكم، وهذا أمر ندب واستحباب، وقد صحَّ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من أحب فطرتي فليستنَّ بسنتي ومن سنتي النكاح»، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءَة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[3]. وروى عطاء بن السايب، عن

---

(١) الغانية من النساء: الشابة المتزوجة، وجمعها غوان.

(٢) وفي بعض النسخ: «وإن كنت أفتى منكم أتأيم» بدل المصراع الأخير.

(٣) الوجاء: رض عروق البيضتين حتى تنفضح، فيكون شبيهاً بالخصاء. شبه الصوم به، لأنه يكسر الشهوة كالوجاء.

سعيد بن جبير، قال: لقيني ابن عباس في حجة حجها فقال: هل تزوجت؟ قلت: لا. قال: فتزوج. قال: ولقيني في العام المقبل، فقال: هل تزوجت؟ قلت: لا. فقال: اذهب فتزوج فإن خير هذه الأمة كان أكثرها نساء. يعني النبي ﷺ. وعن أبي هريرة قال: لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لـلقيت الله بزوجة، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «شراركم عزّابكم». وقال ﷺ: «من أدرك له ولد وعنده ما يزوجه، فلم يزوِّجه، فأحدث فالإثم بينهما»، وعن أبي امامة، عن النبي ﷺ قال: أربع لعنهم الله من فوق عرشه، وأمنت عليه ملائكته: الذي يحصر نفسه فلا يتزوج، ولا يتسرى، لئلا يولد له، والرجل يتشبه بالنساء وقد خلقه الله ذكراً، والمرأة تتشبه بالرجال وقد خلقها الله أنثى، ومضلل الناس ـ يريد الذي يهزأ بهم ـ يقول للمسكين: هلم أُعطك. فإذا جاء يقول: ليس معي شيء، ويقول للمكفوف: اتق الدابة وليس بين يديه شيء. والرجل يسأل عن دار القوم فيضلله. ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ﴾ أي: وزوِّجوا المستورين من عبيدكم وولائدكم، وقيل: إن معنى الصلاح ههنا الإيمان، عن مقاتل. ثم رجع إلى الأحرار فقال: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ﴾ لا سعة لهم للتزويج ﴿يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾ وعدهم سبحانه أن يوسِّع عليهم عند التزويج ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ المقدور كثير الفضل ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم وما يصلحهم، فيعطيهم على قدر ذلك. وقال أبو عبد الله عليه السلام: من ترك التزويج مخافة العيلة فقد أساء الظن بربه، لقوله سبحانه: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾. ﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾ هذا أمر من الله تعالى لمن لا يجد السبيل إلى أن يتزوج، بأن لا يجد المهر والنفقة، أن يتعفف ولا يدخل في الفاحشة ويصبر حتى يوسِّع الله عليه من رزقه. ثم بيَّن سبحانه ما يسهل سبيل النكاح فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: يطلبون المكاتبة ﴿مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ من العبيد والإماء ﴿فَكَاتِبُوهُمۡ﴾ والمكاتبة: أن يكاتب الإنسان عبده على مال ينجمه عليه، ليؤدِّيه إليه في هذه النجوم المعلومة. وهذا أمر ندب واستحباب وترغيب عند جميع الفقهاء. وقيل: إنه أمر حتم وإيجاب إذا طلبه العبد، وعلم فيه الخير، عن عطا وعمر بن دينار والطبري. ﴿إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرًاۖ﴾ أي: صلاحاً ورشداً، عن ابن عباس، ورُوِيَ عنه أيضاً: إن علمتم فيهم قدرة على الاكتساب لأداء مال الكتابة، ورغبة فيه وأمانة، وهو قول ابن عمر وابن زيد والثوري والزجاج. قال الحسن: إن كان عنده مال فكاتبه، وإلا فلا تعلق عليه صحيفة يغدو بها على الناس، ويروح بها فيسألهم. ورُوِيَ أن عبداً لسلمان قال له: كاتبني. قال: ألك مال؟ قال: لا. قال: تطعمني أوساخ الناس فأبى عليه. وقال قتادة: يكره أن يكاتب العبد، ويقول لا يكاتبه لئلا يسأل الناس. ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ﴾ أي: حطوا عنهم من نجوم الكتابة شيئاً، عن ابن عباس وقتادة وعطا، وقيل: معناه ردوا عليهم يا معشر السادة من المال الذي أخذتم منهم شيئاً، وهو استحباب، وقيل: هو إيجاب. وقال قوم من المفسِّرين: إنه خطاب للمؤمنين بمعونتهم على تخليص رقابهم من الرق. ومن قال: إنه خطاب للسادة اختلفوا في قدر ما يجب، فقيل: يتقدر بربع المال، عن الثوري، ورُوِيَ ذلك عن علي عليه السلام. وقيل: ليس فيه تقدير بل يحط عنه شيء منه، وهو الصحيح. وقيل: إنه يعطى سهمه من الصدقات في قوله: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾، قال الحسن: لولا الكتابة لما جاز له أخذ الصدقة. وقال أصحابنا: إن المكاتبة ضربان: مطلق

ومشروط، فالمشروط أن يقول لعبده في حال الكتابة متى عجزت عن أداء ثمنك كنت مردوداً في الرق، فإذا كان كذلك جاز له رده في الرق عند العجز. والمطلق ينعتق منه عند العجز بحساب ما أدى من المال، ويبقى مملوكاً بحساب ما بقي عليه، ويرث ويورث بحساب ما عتق. ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ﴾ أي: إمائكم وولايدكم ﴿عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ أي: على الزنى ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ أي: تعففاً وتزويجاً، عن ابن عباس، وإنما شرط إرادة التحصن لأن الإكراه لا يتصور إلا عند إرادة التحصن فإن لم ترد، المرأة التحصن، بغت بالطبع، فهذه فائدة الشرط. ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: من كسبهن وبيع أولادهن. قيل: إن عبد الله بن أُبَيّ كان له ست جوار يكرههن على الكسب بالزنى. فلما نزل تحريم الزنى أتين رسول الله ﷺ فشكون إليه، فنزلت الآية. ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ﴾ أي: ومن يجبرهن على الزنى من سادتهن ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ﴾ للمكرهات لا للمكره، لأن الوزر عليه ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهن. ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ﴾ أي: واضحات ظاهرات، ومن قرأ بفتح الباء فمعناه: مفصلات بيَّنهن الله وفصَّلهن ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وأخباراً من الذين مضوا من قبلكم، وقصصاً لهم وشبهاً من حالهم بحالكم، لتعتبروا بها ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: وزجراً للمتقين عن المعاصي، وخصهم بالذكر لأنهم المنتفعون بها.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر وابن كثير ويعقوب: «كوكب دُرّيّ» مضمومة الدال مشددة الياء، «تَوَقَّدَ» بفتح التاء والدال وتشديد القاف. وقرأ أبو عمرو: «ودِرىء» مكسورة الدال ممدودة مهموزة، «تُوقَدُ» كما تقدم، وقرأ الكسائي: «دِرىء» مكسورة الدال ممدودة مهموزة، «تُوقَدُ» بضم التاء والتخفيف والرفع. وقرأ نافع وابن عامر وحفص: «دُرّي» غير مهموزة، «يُوقد» بضم الياء والرفع. وقرأ أبو بكر وحمزة: «دُرِيء» مضمومة الدال مهموزة ممدودة، «توقد» بضم التاء وتخفيف القاف، وقرأ خلف: «دري» مضمومة الدال غير مهموزة، «توقد» بضم التاء والتخفيف، وقرأ ابن عامر وأبو بكر: «يُسَبّح له فيها» بفتح الباء، والباقون بكسرها.

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ «دُرّيّ» يحتمل قوله أمرين:

أحدهما: أن يكون نسبة إلى الدر لفرط صفائه ونوره. ويجوز أن يكون فُعِّيلًا من الدَري‌ء فخففت الهمزة فانقلبت ياء، كما تنقلب من النسيء والنبيء. ومن قال «دِرِّيء» كان فِعِّيلًا من الدرء، مثل السِّكِّير والفسِّيق، والمعنى: أن الخفاء اندفع عنه لتلألئه في ظهوره، فلم يخْفَ كما يخفى السهى ونحوه. ومن قرأ «دُرِّيء» كان فعيلًا من الدَرْء الذي هو الدفع. وقد حكى سيبويه عن أبي الخطاب: «كوكب دُرِّيء» من الصفات، ومن الأسماء المُرِّيق للعُصْفُر ومما يمكن أن يكون على هذا البناء العُلِّيّة ألا تراه أنه من علا، ومنه السُرِّيّة الأولى أن تكون فعلية، ومن قرأ «تُوقَد» كان فاعله المصباح، لأن المصباح هو الذي توقد. قال امرؤ القيس:

سمَوْتُ إليها والنجومُ كأنها مصابيحُ رُهْبانٍ تُشَبُّ لِقُفَّالِ[1]

ومن قرأ «يوقد»: كان فاعله المصباح أيضاً. ومن قرأ «تَوَقَّد»: كان فاعله الزجاجة. والمعنى: على مصباح الزجاجة. فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه، فقال: «توقد» فحمل الكلام على لفظ الزجاجة، أو يريد بالزجاجة القنديل. فقال: «توقد» على لفظ الزجاجة وإن كان يريد القنديل، ومعنى «توقد من شجرة» أي: من زيت شجرة، فحذف المضاف. يدلك على ذلك قوله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾. ومن قرأ: «يَسبح له» بفتح الباء، أقام الجار والمجرور مقام الفاعل، ثم فسَّر من يسبح فقال: رجال، أي: يسبح له رجال، فرفع رجالًا بهذا المضمر الذي دل عليه قوله: «يسبح» لأنه إذا قال: «يسبح» دلّ على فاعل التسبيح. ومثله قول الشاعر:

لِيُبْكَ يزيد ضارعٌ لِخُصُومةٍ ومُخْتَبِطٌ مما تُطيحُ الطَّوائِحُ[2]

● **اللغة:** المشكاة، قيل: إنها رومية معربة. وقال الزجاج: يجوز أن تكون عربية لأن في الكلام مثل لفظها شكوة، وهي قربة صغيرة. فعلى هذا تكون مِفعلة منها، وأصلها مشكوة، فقلبت الواو ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها، والمصباح: السراج، وأصله من البياض. والأصبح: الأبيض.

● **الإعراب:** قيل في تقدير قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وجهان:

أحدهما: أن يكون على حذف المضاف، وتقديره: ذو نور السماوات والأرض، على حد قوله ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا﴾.

والثاني: أن يكون مصدراً وضع موضع اسم الفاعل، كقوله: ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي: غائراً وكما قالت الخنساء:

تَرْتَعُ ما رَتَعَتْ حتى إذا ادَّكَرَتْ فإنما هِيَ إقْبالٌ وإدْبارُ[3]

وعلى هذا تكون الإضافة غير حقيقية. و﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في تقدير النصب، ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾:

(١) شب النار: أوقدها. والقفال: المسافرون.
(٢) الشعر في (جامع الشواهد)، وكذا الشعر الآتي. وقد مر في الكتاب أيضاً غير مرة.
(٣) مر بمعناه في ما سبق.

جملة في موضع الجر لأنها صفة مشكاة. ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ جملة في موضع رفع بأنها صفة مصباح، والعائد منها إليه، لام العهد، تقديره: فيها مصباح ذلك المصباح في زجاجة، أو: هو في زجاجة. ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾: الجملة في موضع جر بأنها صفة زجاجة، وقوله ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ بدل من شجرة، والباقي صفة. ﴿نُورٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي: هو نور على نور متعلق بمحذوف في موضع رفع بكونه صفة نور. ﴿فِى بُيُوتٍ﴾ يتعلق بمحذوف وفي موضع جر بكونه صفة لمشكاة. فانتقل الضمير من المحذوف إليه، حيث سدَّ مسده. ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ في موضع نصب بكونه صفة لمفعول محذوف، وتقديره: يرزق من يشاء رزقاً بغير حساب، أي: غير محسوب.

● **المعنى:** ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ اختلف في معناه على وجوه:

أحدها: الله هادي أهل السماوات والأرض إلى ما فيه من مصالحهم، عن ابن عباس.

والثاني: الله منوِّر السماوات والأرض، بالشمس والقمر والنجوم، عن الحسن وأبي عالية والضحاك.

والثالث: مزيِّن السماوات بالملائكة، مزيِّن الأرض بالأنبياء والعلماء، عن أُبيّ بن كعب. وإنما ورد النور في صفة الله تعالى لأن كل نفع وإحسان وإنعام منه. وهذا كما يقال: فلان رحمة، وفلان عذاب: إذا كثر فعل ذلك منه. وعلى هذا قول الشاعر:

ألم تَرَ أنّا نورُ قومٍ وإنما ... يُبَيِّنُ في الظَّلماءِ للناسِ نُورُها

وإنما المعنى: إنا نسعى فيما ينفعهم، ومنا خيرهم. وكذا قول أبي طالب في مدح النبي ﷺ:

وأبيضُ يُسْتَسْقَى الغمامُ بوَجْهِهِ ... ثِمالُ اليتامى عِصْمَةٌ لِلأراملِ
يلُوذُ به الهُلّاكُ من آل هاشم ... فَهُمْ عِنْدَهُ في نِعْمَةٍ وفَواضِلِ

لم يعن بقوله: أبيض، بياض لونه، وإنما أراد كثرة أفضاله وإحسانه ونفعه، والاهتداء به. ولهذا المعنى سماه الله تعالى سراجاً منيراً. ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ فيه وجوه:

أحدها: أن المعنى مثل نور الله الذي هدى به المؤمنين، وهو الإيمان في قلوبهم، عن أُبيّ بن كعب والضحاك، وكان أُبيّ يقرأ: مثل نور من آمن به.

والثاني: مثل نوره الذي هو القرآن في القلب، عن ابن عباس والحسن وزيد بن أسلم.

والثالث: أنه عنى بالنور محمد ﷺ، وأضافه إلى نفسه تشريفاً له، عن كعب وسعيد بن جبير، فالمعنى: مثل محمد رسول الله ﷺ.

والرابع: أن نوره سبحانه الأدلة الدالة على توحيده وعدله، التي هي في الظهور والوضوح مثل النور، عن أبي مسلم.

والخامس: أن النور هنا الطاعة، أي: مثل طاعة الله في قلب المؤمن، عن ابن عباس في

رواية أخرى. ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ المشكاة: هي الكوة في الحائط يوضع عليها زجاجة، ثم يكون المصباح خلف تلك الزجاجة، ويكون للكوة باب آخر يوضع المصباح فيه. وقيل: المشكاة عمود القنديل الذي فيه الفتيلة، وهو مثل الكوة، والمصباح: السراج، وقيل: المشكاة القنديل، والمصباح الفتيلة، عن مجاهد ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ أي: ذلك السراج في زجاجة. وفائدة اختصاص الزجاجة بالذكر أنه أصفى الجواهر فالمصباح فيه أضوأ ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أي: تلك الزجاجة مثل الكوكب العظيم المضيء الذي يشبه الدر في صفائه ونوره ونقائه، وإذا جعلته من الدرء وهو الدفع، فمعناه: المندفع السريع الوقع في الانقضاض، ويكون ذلك أقوى لضوئه. ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ أي: يشتعل ذلك السراج من دهن شجرة مباركة ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ أراد بالشجرة المباركة شجرة الزيتون، لأن فيها أنواع المنافع فإن الزيت يسرج به، وهو إدام ودهان ودباغ، ويوقد بحطبه وثفله، ويغسل برماده الإبريسم، ولا يحتاج في استخراج دهنه إلى إعصار. وقيل: إنه خصَّ الزيتون لأن دهنها أصفى وأضوأ. وقيل: لأنها أول شجرة نبتت في الدنيا بعد الطوفان، ومنبتها منزل الأنبياء. وقيل: لأنه بارك فيها سبعون نبياً، منهم إبراهيم، فلذلك سُمِّيت مباركة. ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي: لا يفيء عليها ظل شرق ولا غرب، فهي ضاحية للشمس لا يظلها جبل ولا شجر ولا كهف، فزيتها يكون أصفى، عن ابن عباس والكلبي وعكرمة وقتادة. فعلى هذا يكون المعنى: أنها ليست بشرقية لا تصيبها الشمس إذا هي غربت، ولا هي غربية لا تصيبها الشمس إذا طلعت، بل هي شرقية غربية أخذت بحظها من الأمرين. وقيل: معناه أنها ليست من شجر الدنيا فتكون شرقية أو غربية، عن الحسن، وقيل: معناه أنها ليست في مقنوة لا تصيبها الشمس بل هي بارزة للشمس، لا يصيبها الظل بل يصيبها الشمس والظل، عن السدي. وقيل: ليست من شجر الشرق ولا من شجر الغرب، لأن ما اختص بإحدى الجهتين كان أقل زيتاً، وأضعف ضوءاً، لكنها من شجر الشام، وهي ما بين الشرق والغرب، عن ابن زيد. ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ﴾ من صفائه وفرط ضيائه ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي: قبل أن تصيبه النار وتشتعل فيه. واختلف في هذا المشبه والمشبه به على أقوال:

أحدها: أنه مَثَلٌ ضربه الله لنبيه محمد ﷺ، فالمشكاة صدره، والزجاجة قلبه، والمصباح فيه النبوة، لا شرقية ولا غربية، أي: لا يهودية ولا نصرانية، توقد من شجرة مباركة، يعني شجرة النبوة وهي إبراهيم عليه السلام، يكاد نور محمد ﷺ يبين للناس، ولو لم يتكلم به، كما أن ذلك الزيت يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار أي: تصبه النار، عن كعب وجماعة من المفسِّرين. وقد قيل أيضاً: إن المشكاة إبراهيم، والزجاجة إسماعيل، والمصباح محمد ﷺ، كما سُمِّي سراجاً في موضع آخر. من شجرة مباركة: يعني إبراهيم، لأن أكثر الأنبياء من صلبه. لا شرقية ولا غربية: لا نصرانية ولا يهودية، لأن النصارى تصلي إلى المشرق، واليهود تصلي إلى المغرب. يكاد زيتها يضيء أي: تكاد محاسن محمد ﷺ تظهر قبل أن يوحى إليه، ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أي: نبي، من نسل نبي، عن محمد بن كعب، وقيل: إن المشكاة عبد المطلب ،والزجاجة عبد الله، والمصباح هو النبي ﷺ، لا شرقية ولا غربية، بل مكية، لأن مكة وسط الدنيا، عن الضحاك. ورُوِيَ عن الرضا عليه السلام أنه قال: نحن المشكاة فيها، والمصباح

محمد ﷺ يهدي الله لولايتنا من أحب. وفي كتاب التوحيد لأبي جعفر بن بابويه، رحمه الله، بالإسناد عن عيسى بن راشد، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قوله: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ قال: نور العلم في صدر النبي ﷺ المصباح في زجاجة، الزجاجة صدر علي عليه السلام، صار علم النبي ﷺ إلى صدر علي، علم النبي علياً، يوقد من شجرة مباركة نور العلم، لا شرقية ولا غربية، لا يهودية ولا نصرانية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار. قال: يكاد العالم من آل محمد ﷺ يتكلم بالعلم قبل أن يسأل. نور على نور أي: إمام مؤيد بنور العلم والحكمة، في إثر إمام من آل محمد ﷺ، وذلك من لدن آدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة. فهؤلاء الأوصياء الذين جعلهم الله خلفاء في أرضه وحججه على خلقه، لا تخلو الأرض في كل عصر من واحد منهم، ويدل عليه قول أبي طالب في رسول الله ﷺ:

أنتَ الأمِيرُ مُحَمَّدٌ قَرْمٌ أغَرُّ مُسَوَّدُ
لِمُسَوَّدِينَ أطاهِرِ كَرُمُوا وطابَ المَوْلِدُ
أَنْتَ السَّعِيدُ من السُّعُودِ تَكَنَّفَتْكَ الأَسْعُدُ
مِنْ لَدنِ آدمَ لَمْ يَزَلْ فينا وصيٌّ مُرْشِدُ
ولقد عَرَفْتُكَ صادِقاً والقَوْلُ لا يَتَفَنَّدُ
مَا زِلْتَ تَنْطِقُ بالصَّوابِ وَأَنْتَ طِفْلٌ أَمْرَدُ

تحقيق هذه الجملة يقتضي: أن الشجرة المباركة المذكورة في الآية، هي دوحة التقى والرضوان، وعترة الهدى والإيمان، شجرة أصلها النبوة، وفرعها الإمامة، وأغصانها التنزيل، وأوراقها التأويل، وخدمها جبرائيل وميكائيل.

وثانيها: أنه مثل ضربه الله للمؤمن، والمشكاة نفسه والزجاجة صدره، والمصباح الإيمان، والقرآن في قلبه، يوقد من شجرة مباركة هي الإخلاص لله وحده لا شريك له، فهي خضراء ناعمة كشجرة التفَّ بها الشجر، فلا تصيبها الشمس على أي حال كانت، لا إذا طلعت، ولا إذا غربت، وكذلك المؤمن قد احترز من أن يصيبه شيء من الفتر، فهو بين أربع خلال: إن أعطِيَ شكر وإن ابتلي صبر، وإن حكم عدل، وإن قال صدق، فهو في سائر الناس كالرجل الحي يمشي بين القبور، نور على نور، كلامه نور وعلمه نور، ومدخله نور، ومخرجه نور مصيره إلى الجنة نور يوم القيامة، عن أُبَيّ بن كعب.

وثالثها: أنه مثل القرآن في قلب المؤمن، فكما أنَّ هذا المصباح يستضاء به، وهو كما هو لا ينقص، فكذلك القرآن يهتدى به ويعمل به، فالمصباح هو القرآن، والزجاجة قلب المؤمن، والمشكاة لسانه وفمه، والشجرة المباركة شجرة الوحي، يكاد زيتها يضيء، تكاد حجج القرآن تتضح وإن لم تقرأ. وقيل: تكاد حجج الله على خلقه تضيء لمن تفكر فيها وتدبرها، ولو لم ينزل القرآن. نور على نور: يعني أن القرآن نور مع سائر الأدلة قبله، فازدادوا به نوراً على نور، عن الحسن وابن زيد. وعلى هذا فيجوز أن يكون المراد ترتب الأدلة، فإن الدلائل يترتب بعضها على بعض ولا يكاد العاقل يستفيد منها إلا بمراعاة الترتيب، فمن ذهب عن الترتيب فقد

ذهب عن طريق الاستفادة. وقال مجاهد: ضوء نور السراج، على ضوء الزيت، على ضوء الزجاجة. ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يهدي الله لدينه وإيمانه من يشاء، بأن يفعل له لطفاً يختار عنده الإيمان إذا علم أن له لطفاً. وقيل: معناه يهدي الله لنبوته وولايته من يشاء ممن يعلم أنه يصلح لذلك، ويضرب الله الأمثال للناس تقريباً إلى الأفهام، وتسهيلًا لدرك المرام. ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيضع الأشياء مواضعها ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ معناه: هذه المشكاة في بيوت هذه صفتها، وهي المساجد في قول ابن عباس والحسن ومجاهد والجبائي، ويعضده قول النبي ﷺ: «المساجد بيوت الله في الأرض، وهي تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض». ثم قيل: إنها أربعة مساجد لم يبنها إلا نبي: الكعبة بناها إبراهيم وإسماعيل، ومسجد بيت المقدس بناه سليمان، ومسجد المدينة ومسجد قبا بناهما رسول الله ﷺ. وقيل: هي بيوت الأنبياء. ورُوِيَ ذلك مرفوعاً أنه سئل النبي ﷺ لما قرأ الآية: أي بيوت هذه؟ فقال: بيوت الأنبياء، فقام أبو بكر فقال: يا رسول الله هذا البيت منها يعني بيت علي وفاطمة. قال نعم من أفاضلها. ويعضد هذا القول قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، وقوله: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾، فالإذن برفع بيوت الأنبياء والأوصياء مطلق. والمراد بالرفع التعظيم ورفع القدر من الأرجاس، والتطهير من المعاصي والأدناس. وقيل: المراد برفعها رفع الحوائج فيها إلى الله تعالى. ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ أي: يتلى فيها كتابه، عن ابن عباس، وقيل: تذكر فيها أسماؤه الحسنى ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ أي: يصلي فيها بالبكور والعشايا، عن ابن عباس والحسن والضحاك، وقال ابن عباس: كل تسبيح في القرآن صلاة. وقيل: المراد بالتسبيح تنزيه الله تعالى عما لا يجوز عليه، ووصفه بالصفات التي يستحقها لذاته، وأفعاله التي كلها حكمة وصواب. ثم بيَّن سبحانه المسبح فقال: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ﴾ أي: لا تشغلهم ولا تصرفهم ﴿تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: إقامة الصلاة، حذف الهاء لأنها عوض عن الواو في أقوام، فلما أضافه صار المضاف إليه عوضاً عن الهاء. ورُوِيَ عن أبي جعفر عليه السلام وأبي عبد الله عليه السلام أنهم قوم إذا حضرت الصلاة تركوا التجارة، وانطلقوا إلى الصلاة، وهم أعظم أجراً ممن يتجر. ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ أي: إخلاص الطاعة لله تعالى، عن ابن عباس، وقيل: يريد الزكاة المفروضة، عن الحسن. ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أراد يوم القيامة تتقلب فيه أحوال القلوب والأبصار، وتنتقل من حال إلى حال فتلفحها النار ثم تنضجها ثم تحرقها، عن الجبائي، وقيل: تتقلب فيه القلوب بين الطمع في النجاة، والخوف من الهلاك، وتتقلب الأبصار يمنة ويسرة، من أين تؤتى كتبهم وأين يؤخذ بهم، أمن قبل اليمين أم من قبل الشمال، وقيل: تتقلب القلوب ببلوغها الحناجر، والأبصار بالعمى بعد البصر. وقيل: معناه تنتقل القلوب عن الشك إلى اليقين والإيمان، والأبصار عما كانت تراه غياً فتراه رشداً. فمن كان شاكاً في دنياه أبصر في آخرته، ومن كان عالماً ازداد بصيرة وعلماً، فهو مثل قوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ عن البلخي. ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي: يفعلون ذلك طلباً لمجازاة الله إياهم بأحسن ما عملوا، ولتفضله عليهم بالزيادة على ما استحقوه بأعمالهم من

فضله وكرمه ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ﴾ أي: يعطي ﴿مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ أي: بغير مجازاة على عمل، بل تفضلًا منه سبحانه. والثواب لا يكون إلا بحساب، والتفضل يكون بغير حساب.

● **النظم:** اتصلت الآية الأولى بما قبلها اتصال المثل بالمثل، لأنه تعالى لمّا بيَّن وجوه المنافع والمصالح وعلم الشرائع فيما سبق، بيَّن بعده أن منافع أهل السماوات والأرض منه، لأن اسم النور يطلق على ذلك، كما تقدَّم بيانه، وقيل: إنها اتصلت بما قبلها اتصال العلة بالمعلول، فكأنه قال: أنزلنا آيات بينات ومواعظ بالغات فهديناكم لأنّا نهدي أهل السماوات والأرض. واتصل قوله ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ بقوله ﴿كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾ على ما تقدم بيانه. وقيل: يتصل بيسبح، ويكون فيها تكرير على التوكيد، والمعنى: يسبِّح لله رجال في بيوت أذن الله أن ترفع، فيكون كقولك: في الدار قام زيد فيها.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير في رواية البزي: «سحاب» بغير تنوين، «ظلمات» بالجر. وفي رواية القواس وابن فليح: «سحاب» بالتنوين، «ظلمات» بالجر. والباقون كلاهما بالرفع والتنوين.

● **الحجة:** قال أبو علي: قوله «أو كظلمات» معناه: أو كذي ظلمات. ويدل على حذف المضاف قوله: ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾، فالضمير الذي أضيف إليه ﴿يَدَهُۥ﴾، يعود إلى المضاف المحذوف، ومعنى ذي ظلمات، أنه في ظلمات، ومعنى ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾ ظلمة البحر، وظلمة الموج. وظلمة الموج الذي في الموج، وقوله: ﴿خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ﴾، فإنه يجوز أن يكون ظلمة الرحم، وظلمة البطن، وظلمة المشيمة. وقوله: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، وظلمة الليل. ويجوز أن يكون الالتقام كان بالليل، فهذه ظلمات. ومن قرأ: «سحابٌ ظلماتٌ» فرفع ظلمات، كان خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذه ظلمات بعضها فوق بعض. ومن قرأ «سحابٌ ظلمات»، جاز أن يكون تكريراً وبدلًا من ظلمات الأولى. ومن قرأ: «سحابُ ظلماتٍ» بإضافة سحاب إلى الظلمات، فالظلمات هي الظلمات التي تقدم ذكرها، فأضاف السحاب إلى الظلمات لاستقلال السحاب وارتفاعه في وقت كون هذه الظلمات، كما تقول سحاب رحمة وسحاب مطر، إذا ارتفع في الوقت الذي يكون فيه الرحمة والمطر.

● **اللغة:** السراب: شعاع يتخيل كالماء، يجري على الأرض نصف النهار حين يشتد الحر، والآل: شعاع يرتفع بين السماء والأرض كالماء ضحوة النهار. والآل: يرفع الشخص الذي فيه. وإنما قيل سراب لأنه ينسرب أي: يجري كالماء. وقيعة: جمع قاع وهو الواسع من

الأرض المنبسطة، وفيه يكون السراب. ولجة البحر: معظمه الذي يتراكب أمواجه، فلا يرى ساحله. والتج البحر التجاجاً.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه مثل الكفار فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ التي يعملونها ويعتقدون أنها طاعات ﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾ أي: كشعاع بأرض مستوية ﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً﴾ أي: يظنه العطشان ماء ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ أي: حتى إذا انتهى إليه رأى أرضاً لا ماء فيها، وهو قوله: ﴿لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ أي: شيئاً مما حسب وقدر، فكذلك الكافر يحسب ما قدم من علمه نافعاً، وأنّ له عليه ثواباً، ليس له ثواب، ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ﴾ قيل: معناه ووجد الله عند عمله فجازاه على كفره، وهذا في الظاهر خبر عن الظمآن، والمراد به: الخبر عن الكفار. ولكن لما ضرب الظمآن مثلًا للكفار جعل الخبر عنه كالخبر عنهم، والمعنى: وجد أمر الله ووجد جزاء الله. وقيل: معناه وجد الله عنده بالمرصاد فأتم له جزاءه. ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ لا يشغله حساب فيحاسب الجميع على أفعالهم في حالة واحدة. وسئل أمير المؤمنين عليه السلام: كيف يحاسبهم في حالة واحدة؟ فقال: كما يرزقهم في حالة واحدة. وقيل: إن المراد به عتبة بن ربيعة، كان يلتمس الدين في الجاهلية، ثم كفر في الإسلام، عن مقاتل، ثم ذكر مثلًا آخر لأعمالهم فقال: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ﴾ أي: أو أفعالهم مثل ظلمات ﴿فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ﴾ أي: عظيم اللجة لا يرى ساحله، وقيل: هو العميق الذي يبعد عمقه، عن ابن عباس ﴿يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ﴾ أي: يعلو ذلك البحر اللجي موج ﴿مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ﴾ أي: فوق ذلك الموج موج ﴿مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ﴾ أي: من فوق الموج سحاب ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾ يعني ظلمة البحر وظلمة الموج، وظلمة السحاب، والمعنى: أن الكافر يعمل في حيرة، ولا يهتدي لرشده، فهو من جهله وحيرته كمن هو في هذه الظلمات، لأنه من عمله وكلامه واعتقاده متقلب في ظلمات. ورُوِيَ عن أُبَيّ أنه قال: إن الكافر يتقلب في خمس ظلمات: كلامه ظلمة وعمله ظلمة ومدخله ظلمة ومخرجه ظلمة، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمة، وهي النار. ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾ اختلف في معناه فقيل: لا يراها ولا يقارب رؤيتها فهو نفي للرؤية ونفي مقاربة الرؤية، لأن دون هذه الظلمة لا يرى فيها، عن الحسن، وأكثر المفسرين. ويدل عليه قول ذي الرمة:

إذا غيـر الـنـأي الـمُحِبِّيـن لَمْ يَـكَـدْ عـلى كُـلِّ حـالٍ حُـبُّ مَـيَّـةَ يـبْـرَحُ(١)

ويروى: «رسيس الهوى من حب مية يبرح». وقال آخر: «ما كدت أُعرَف إلا بعد إنكاري» وقال الفراء: كاد صلة، والمعنى: أنه لم يرها، وقيل: لا يراها إلا بعد جهد ومشقة رؤية تخيل لصورتها، لأن حكم كاد إذا لم يدخل عليها حرف نفي، أن تكون نافية وإذا دخلها دلّت على أن يكون الأمر وقع بعد بطء، عن المبرد. ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ أي: من لم يجعل الله له نجاة وفرجاً، فما له من نجاة، وقيل: من لم يجعل الله له نوراً في القيامة، فما له من نور.

● ● ●

(١) مية: اسم محبوبة ذي الرمة. والنأي: البعد. يقول: إنّ العشاق إذا بعدوا عمن يحبون، زالت المحبة عنهم. وأما أنا فعلى كل حال لا يزول حبها عن قلبي. ورسيس الهوى على الرواية الثانية: مسه وأثره وبقيته.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر: «يُذهِب بالأبصار» بضم الياء وكسر الهاء، والباقون: «يذهب».

● **الحجة:** من قرأ «يُذهَب» فالباء زائدة، وتقديره: يذهب الأبصار، ومثله قوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾. وقول الهذلي:

شَرِبْنَ بِمَاءِ البَحْرِ ثُمَّ تَرَفَّعَتْ … مَتَى لَجَجٍ خُضْرٍ لَهُنَّ نَئِيجُ(١)

أي: شربن ماء البحر. قال ابن جني: إنما يزاد هذا الباء لتوكيد معنى التعدي، كما يزاد اللام لتوكيد معنى الإضافة في قوله: «يابوس للحرب ضراراً لأقوام»، وإن شئت حملته على المعنى، فكأنه قال: يكاد سنا برقه يلوي بالأبصار أي: يستأثر بالأبصار، وقد ذكرنا اختلافهم في قوله: ﴿خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ﴾ فيه، والوجه في سورة إبراهيم.

● **اللغة:** الإزجاء والتزجية: الدفع والسوق. وزجا الخراج يزجو زجاء: إذا انساق إلى أهله وتيسر جبايته. والركام: المتراكم بعضه على بعض، والركمة: الطين المجموع. والودق: المطر، ودقت السماء تدق ودقاً: إذا أمطرت، قال الشاعر:

فَلا مُزْنَةٌ وَدَقَتْ وَدْقَهَا … ولا أرضَ أَبْقَلَ أَبْقَالَهَا(٢)

والخلال: جمع الخلل وهو الفرجة بين الشيئين، والبرد: أصله من البرد خلاف الحر. وسحاب برد: أتى بالبرد، ويقال: سمي البرد لأنه يبرد وجه الأرض أي: يقشره من بردت الشيء بالمبرد. والسنا مقصوراً: الضوء وهو بالمد: الرفعة.

● **الإعراب:** ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ حال من ﴿وَٱلطَّيْرُ﴾، ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: منْ لابتداء الغاية لأن السماء مبدأ لإنزال المطر. ﴿مِن جِبَالٍ﴾: من للتبعيض لأن البرد بعض الجبال التي في السماء.

---

(١) لجج: جمع لجة، وهي في الأصل معظم الماء. وأراد لجج البحر. «نئيج»: مأخوذ من قولهم ناج: إذا مرت مراً سريعاً، يصف السحاب.

(٢) قائله: عامر بن جوين الطائي. والمزنة: السحابة البيضاء. وأبقلت الأرض: خرج بقلها.

و﴿مِن بَرَدٍ﴾ من لتبيين الجنس لأن جنس الجبال جنس البرد، عن علي بن عيسى، والتحقيق: أن قوله ﴿مِن جِبَالٍ﴾ بدل من قوله ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾، وقوله ﴿فِيهَا﴾ في يتعلق بمحذوف وتقديره: من جبال كائنة في السماء. فالجار والمجرور في موضع الصفة لجبال، تقديره: من جبال سماوية. وقوله ﴿مِن بَرَدٍ﴾ يتعلق بمحذوف آخر في محل جر، لأنه صفة بعد صفة، تقديره: من جبال سماوية بردية، ومفعول ﴿يُنَزِّلُ﴾ محذوف أي: ينزل من جبال في السماء من برد برداً، كما يقال: أخذت من المال شيئاً. وقوله: ﴿عَلَىٰ بَطْنِهِ﴾ في موضع نصب على الحال، وكذلك قوله: ﴿عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ و﴿عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾ ومن الأولى والثالثة بمعنى ما.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه الآيات التي جعلها نوراً للعقلاء العارفين بالله وصفاته، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم تعلم يا محمد لأن ما ذكر في الآية لا يرى بالأبصار وإنما يعلم بالأدلة، والخطاب للنبي ﷺ، والمراد به جميع المكلفين ﴿أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والتسبيح: التنزيه لله تعالى عما لا يجوز عليه ولا يليق به، أي: ينزهه أهل السماوات وأهل الأرض بألسنتهم، وقيل: عنى به العقلاء وغيرهم، وكنّى عن الجميع بلفظة ﴿مَن﴾ تغليباً للعقلاء على غيرهم. ﴿وَالطَّيْرُ﴾ أي: ويسبِّح له الطير ﴿صَافَّاتٍ﴾ أي: واقفات في الجو مصطفّات الأجنحة في الهواء، وتسبيحها: مايرى عليها من آثار الحدوث. ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ معناه: أن جميع ذلك قد علم الله تعالى دعاءه إلى توحيده وتسبيحه وتنزيهه، وقيل: إن الصلاة للإنسان، والتسبيح لكل شيء، عن مجاهد وجماعة. وقيل: معناه كل واحد منهم قد علم صلاته وتسبيحه، أي: صلاة نفسه وتسبيح نفسه، فيؤديه في وقته، فيكون الضمير في علم الكل، وفي الأول يعود الضمير إلى اسم الله تعالى وهو أجود، لأن الأشياء كلها لا يعلم كيفية دلالتها على الله، وإنما يعلم الله تعالى ذلك. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أي: عالم بأفعالهم فيجازيهم بحسبها ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والملك: المقدور الواسع لمن يملك السياسة والتدبير. فملك السماوات والأرض لا يصح إلا لله وحده لأنه القادر على الأجسام لا يقدر على خلقها غيره. فالملك التام لا يصحُّ إلا له سبحانه. ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع يوم القيامة. ثم قال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم تعلم ﴿أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ أي: يسوقه سوقاً رفيقاً إلى حيث يريد. ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ أي: يضم بعضه إلى بعض، فيجعل القطع المتفرقة منه قطعة واحدة ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ أي: متراكماً متراكباً بعضه فوق بعض ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أي: ترى المطر والقطر يخرج من خلال السحاب، أي: مخارج القطر منه. ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾ أي: وينزل من جبال في السماء تلك الجبال من برد برداً. والسماء: السحاب، لأن كل ما علا مطبقاً فهو سماء. ويجوز أن يكون البرد يجتمع في السحاب كالجبال، ثم ينزل منها، عن البلخي وغيره. وقيل: معناه وينزل من السماء مقدار جبال من برد، كما يقول: عندي بيتان من تبن أي: قدر بيتين، عن الفراء. وقيل: أراد السماء المعروفة فيها جبال من برد مخلوقة، عن الحسن والجبائي. ﴿فَيُصِيبُ بِهِ﴾ أي: بالبرد، أي: بضرره ﴿مَن يَشَاءُ﴾ فيهلك زرعه وماله ﴿وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾ أي: ويصرف ضرره عمن يشاء فيكون إصابته نقمة وصرفه نعمة و﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ أي: يقرب ضوء برق السحاب من أن

يذهب بالبصر، ويخطفه لشدة لمعانه، كما قال: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ﴾، ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: يصرفهما في اختلافهما وتعاقبهما، وإدخال أحدهما في الآخر ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ التقليب ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي: دلالة ﴿لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ أي: لذوي العقول والبصائر. ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ﴾ أي: كل حيوان يدبّ على وجه الأرض، ولا يدخل فيه الجن والملائكة ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ أي: من نطفة، وقيل: عنى به الماء لأن أصل الخلق من الماء، لأن الله خلق الماء وجعل بعضه ناراً فخلق الجن منها، وبعضه ريحاً فخلق منه الملائكة، وبعضه طيناً فخلق منه آدم عليه السلام. فأصل الحيوان كله الماء، ويدل عليه قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾، ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالحية والحوت والدود ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالأنس والطير ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كالأنعام والوحوش والسباع. ولم يذكر ما يمشي على أكثر من أربع، لأنه كالذي يمشي على أربع في رأي العين فترك ذكره، لأن العبرة تكفي بذكر الأربع. قال البلخي: إن الفلاسفة تقول: كل ما له قوائم كثيرة فإن اعتماده إذا سعى على أربعة قوائم فقط، وقال أبو جعفر عليه السلام: ومنهم من يمشي على أكثر من ذلك. ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: يخترع ما يشاء وينشئه من الحيوان وغيره، وقال المبرد: قوله ﴿كُلَّ دَآبَّةٍ﴾ للناس وغيرهم. وإذا اختلط النوعان حمل الكلام على الأغلب. فلذلك قال: ﴿مَّن﴾ لغير ما يعقل. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ يخلق هذه الأشياء لقدرته عليها. فاختلاف هذه الحيوانات مع اتفاق أصلها، يدل على أن لها قادراً خالقاً، عالماً حكيماً. ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ﴾ أي: دلالات واضحات بيّنات ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: من جملة تلك الدواب، وعنى به المكلفين دون من ليس بمكلف. والصراط المستقيم: الإيمان، لأنه يؤدي إلى الجنة. وقيل: إنَّ المراد يهدي في الآخرة إلى طريق الجنة.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر وقالون عن نافع ويعقوب: «ويتقه» بكسر القاف والهاء مكسورة مختلسة غير مشبعة. وقرأ أبو عمرو وحمزة في رواية العجلي وخلاد وأبو بكر في رواية حماد ويحيى: «ويَتَّقِهْ» بكسر القاف وسكون الهاء، وقرأ حفص: «ويَتَّقْهِ» بسكون القاف وكسر الهاء غير مشبعة، والباقون: «يتقِهِ» بكسر القاف والهاء مشبعة. وروي عن علي عليه السلام أنه قرأ: «قولُ المؤمنين» بالرفع، وهو قراءة الحسن بخلاف ابن أبي إسحاق، وهو مثل قراءة من قرأ «فما كان جوابُ قومه»

بالرفع، وقد ذكرنا الوجه فيه. وقرأ أبو جعفر وحده: «لِيُحْكَمَ بينهم» بضم الياء وفتح الكاف في الموضعين، وفي البقرة وآل عمران مثل ذلك، وقد ذكرناه هناك.

● **الحجة:** قال أبو علي: الوجه «ويتقه» موصولة بياء، لأن ما قبل الهاء متحرك. ومن قرأ «وَيَتَّقِهِ» لا يبلغ بها الياء، فالوجه فيه: أن الحركة غير لازمة قبل الهاء، ألا ترى أن الفعل إذا رفع دخلته الياء. ومن قرأ: «ويتقه» بسكون الهاء، فلأن ما يتبع هذه الهاء من الياء والواو زيادة، فردَّ إلى الأصل، وحذف ما يلحقه من الزيادة. ويقوّي ذلك ما حُكِيَ عن سيبويه أنه سمع من يقول: هذه أُمة الله، في الوصل والوقف. وزعم أبو الحسن أن قوله: «له أرِقانِ»[1] ونحوه، لغة يجرونها في الوصل مجراها في الوقف، فيحذفون منها كما حذفوا في الوقف، وحملها سيبويه على الضرورة. وأما قراءة حفص: «ويتّقْهِ» فوجهه أن تَقِهِ من يتقه مثل كتِف، فكما يسكن نحو كَتْف كذلك تسكن القاف من تَقْه. وعلى هذا قول الشاعر:

عَـجِـبْـتُ لِـمَـوْلـودٍ ولَيْـسَ لَهُ أَبٌ وذي وَلَدٍ لَمْ يَـلْـدَهُ أبَـوَانِ[2]

ومثله: «فبات منتصباً وما تَكَرْدَسا»[3] فلما أسكن ما قبل الهاء لهذا التشبيه، حرّك الهاء بالكسر، كما حرّك الدال بالفتح في لم يلْدَه.

● **اللغة:** قال الزجاج: الإذعان الإسراع مع الطاعة، يقال: أذعن لي بحقي، أي: طاوعني لما كنت ألتمسه منه، وصار يسرع إليه. وناقة مذعان: منقادة. والحيف: الجور ينقص الحق، والفوز: أخذ الحظ الجزيل من الخير.

● **النزول:** قيل: نزلت الآيات في رجل من المنافقين، كان بينه وبين رجل من اليهود حكومة، فدعاه اليهودي إلى رسول الله ﷺ، ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف، وحكى البلخي: أنه كانت بين علي وعثمان منازعة في أرض اشتراها من علي عليه السلام، فخرجت فيها أحجار، وأراد ردَّها بالعيب. فلم يأخذها، فقال: بيني وبينك رسول الله ﷺ. فقال الحكم بن أبي العاص: إن حاكمته إلى ابن عمه يحكم له، فلا تحاكمه إليه!، فنزلت الآيات. وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام، أو قريب منه.

● **المعنى:** ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: صدَّقنا بتوحيد الله ﴿وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ هما فيما حكما ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ أي: يعرض عن طاعتهما طائفة منهم ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: من بعد

---

(١) هذا جزء من بيت لرجل من أزد السراة، يصف برقاً وتمامه: «فظلت لدى البيت الحرام أخيله * ومطواي مشتاقان له أرقان». وقوله أخيله أي: أنظر إلى مخيلته. والهاء عائدة على البرق في بيت قبله. ومطواي أي: صاحباي.

(٢) نسب البيت إلى عمرو الجنبي، وله قصة مع امرىء القيس. وروي: «الإرب مولود وليس له ولد. . . اهـ» والمراد من المولود الذي ليس له أب: عيسى بن مريم عليه السلام، ومن الذي لم يلده أبواه: آدم عليه السلام. وقيل: أراد به القوس لأنها تؤخذ من شجرة معينة واحدة. وقيل: أراد البيضة. وهذا البيت مع بيتين بعده من الألغاز ذكره في (شرح الأشموني ج٣: ٣١٤).

(٣) التكردس: التجمع والتقبض.

قولهم: آمنا ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين يدَّعون الإيمان، ثم يعرضون عن حكم الله ورسوله ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. وفي هذه الآية دلالة على أن القول المجرد لا يكون إيماناً، إذ لو كان ذلك كذلك لما صح النفي بعد الإثبات. ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إلى كتاب الله وحكمه وشريعته ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: وإلى حكم رسوله ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ الرسول، وإنما أفرد بعد قوله ﴿إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ لأن حكم الرسول يكون بأمر الله تعالى، فحكم الله ورسوله واحد. ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عما يدعون إليه ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: وإن علموا أن الحق يقع لهم ﴿يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى النبي ﷺ ﴿مُذْعِنِينَ﴾ مسرعين طائعين منقادين. ثم قال سبحانه منكراً عليهم: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شكّ في نبوتك ونفاق؟ وهو استفهام يراد به التقرير، لأنه أشد في الذم والتوبيخ أي: هذا أمر قد ظهر حتى لا يحتاج فيه إلى البينة، كما جاء في نقيضه من المدح على طريق الاستفهام نحو قول جرير:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المطايا وأندى العالمينَ بُطُون راحِ[1]

﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ﴾ في عدلك أي: رأوا منك ما رابهم لأجله أمرك ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يجور الله عليهم ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: ويميل رسوله في الحكم ويظلمهم، لأنه لا وجه في الامتناع عن المجيء إلا أحد هذه الأوجه الثلاثة. ثم أخبر سبحانه أنه ليس شيء من ذلك فقال: ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ نفوسهم وغيرهم، وفي هذه الآية دلالة على أن خوف الحيف من الله تعالى، خلاف الدين، وإذا كان كذلك فالقطع عليه أولى أن يكون خلافاً للدين. ثم وصف سبحانه الصادقين في إيمانهم فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: سمعنا قول النبي ﷺ وأطعنا أمره، وإن كان ذلك فيما يكرهونه ويضرهم، عن ابن عباس ومقاتل. وقيل: معناه قبلنا هذا القول وانقدنا له، وأجبنا إلى حكم الله ورسوله. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الفائزون بالثواب الظافرون بالمراد. ورُوِيَ عن أبي جعفر عليه السلام أن المَعْنيّ بالآية أمير المؤمنين، عليه أفضل الصلوات. ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيما أمراه ونهيا عنه ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ أي: ويخش عقاب الله في ترك أوامره وارتكاب نواهيه. ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ أي: ويتق عقابه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ وقيل: معناه ويخش الله في ذنوبه التي عملها ويتقه فيما بعد.

● **النظم:** قيل: اتصلت الآية الأولى بقوله: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾، ويعود الضمير في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ إليهم، وإن كان يقع على بعضهم، فكأنه قال: ويقول جماعة من هؤلاء الناس آمنّاه عن أبي مسلم، وقيل: إنه لما تقدَّم ذكر المؤمن والكافر، عقَّبه سبحانه بذكر المنافق.

●●●

(١) الشعر في (جامع الشواهد)، وقد مر في الكتاب أيضاً غير مرة.

قوله تعالى: ﴿۞ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾

● **القراءة:** قرأ أبو بكر: «كما استخلف» بضم التاء، والباقون بفتح التاء. وقرأ ابن كثير وأبو بكر ويعقوب وسهل: «وليبْدِلنهم» من الإبدال، والباقون بالتشديد من التبديل.

● **الحجة:** قال أبو علي: الوجه في «كما استخلف» بفتح التاء واللام، لأن اسم الله قد تقدم ذكره، والضمير في «ليستخلفنهم» يعود إليه، فكذلك في قوله «كما استخلف». والوجه في استخلف أنه يراد به ما يراد باستخلف. والتبديل والإبدال بمعنى، وقيل: إن التبديل تغيير حال إلى حال أخرى، يقال: بدل صورته. والإبدال: رفع الشيء بأن يجعل غيره مكانه. قال: «عزل الأمير بالأمير المبدل».

● **الإعراب:** ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أصله وأقسموا بالله يجهدون الأيمان جهداً، فحذف الفعل، وأقيم مصدره مضافاً إلى المفعول مقامه، كقوله: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾، وحكم هذا المنصوب حكم الحال، كأنه قال: جاهدين أيمانهم. ﴿طَاعَةٌ﴾ مبتدأ وخبره محذوف تقديره: طاعة معروفة أولى بكم وأفضل لكم. ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ جواب قسم يدل عليه قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ لأن وعده سبحانه كالقسم. ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾: يجوز أن يكون جملة مستأنفة على طريق الثناء عليهم، ويجوز أن يكون في موضع نصب على الحال.

● **المعنى:** ولما بيّن الله سبحانه كراهتهم لحكمه، قالوا للنبي ﷺ: والله لو أمرتنا بالخروج من ديارنا وأموالنا، لفعلنا. فقال الله سبحانه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ أي: حلفوا بالله أغلظ أيمانهم وقدر طاقتهم، انك إن أمرتنا بالخروج في غزواتك لخرجنا. ﴿قُل﴾ لهم يا محمد ﴿لَّا تُقْسِمُوا﴾ أي: لا تحلفوا، وتمّ الكلام. ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ أي: طاعة حسنة للنبي ﷺ خالصة صادقة، أفضل وأحسن من قسمكم بما لا تصدقون به. فحذف خبر المبتدأ للعلم به. وقيل: معناه ليكن منكم طاعة، والقول المعروف هو المعروف صحته. ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: من طاعتكم بالقول ومخالفتكم بالفعل. ثم أمرهم سبحانه بالطاعة، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ فيما أمركم به ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فيما أتاكم به، واحذروا المخالفة. ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: فإن تعرضوا عن طاعة الله وطاعة رسوله، والأصل تتولوا فحذف أحد التاءين ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾ أي: على الرسول ﴿مَا حُمِّلَ﴾ أي: كلّف وأُمِر من التبليغ وأداء الرسالة

﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ أي: كُلِّفتم من الطاعة والمتابعة ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ﴾ أي: وإن تطيعوا الرسول ﴿تَهْتَدُوا﴾ إلى الرشد والصلاح، وإلى طريق الجنة ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي: ليس عليه إلا أداء الرسالة وبيان الشريعة، وليس عليه الاهتداء، وإنما ذلك عليكم ونفعه عائد إليكم، والمبين: البيِّن الواضح. ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: صدَّقوا بالله وبرسوله، وبجميع ما يجب التصديق به ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: الطاعات الخالصة لله ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ليجعلنهم يخلفون من قبلهم. والمعنى: ليورثنهم أرض الكفار من العرب والعجم، فيجعلهم سكانها وملوكها ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾. قال مقاتل: يعني بني إسرائيل إذ أهلك الله الجبابرة بمصر، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم.

وعن أُبَيّ بن كعب قال: لمّا قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة، وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا مع السلاح، ولا يصبحون إلا فيه. فقالوا: ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين، لا نخاف إلا الله؟ فنزلت هذه الآية. وعن المقداد بن الأسود، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يبقى على الأرض بيت مدر ولا وبر، إلا أدخله الله تعالى كلمة الإسلام بعز عزيز أو ذل ذليل، إما أن يعزهم الله فيجعلهم من أهلها، وإما أن يذلهم فيدينون لها». وقيل: إنه أراد بالأرض أرض مكة، لأن المهاجرين كانوا يسألون ذلك. ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ يعني دين الإسلام الذي أمرهم أن يدينوا به، وتمكينه أن يظهره على الدين كله، كما قال: «زويت لي الأرض، فأُريت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها». وقيل: تمكينه بإعزاز أهله وإذلال أهل الشرك، وتمكين أهله من إظهاره بعد أن كانوا يخفونه. ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ أي: وليصيرهم بعد أن كانوا خائفين بمكة، آمنين بقوة الإسلام وانبساطه. قال مقاتل: وقد فعل الله ذلك بهم وبمن كان بعدهم من هذه الأمة: مكَّن لهم في الأرض وأبدلهم أمناً من بعد خوف، وبسط لهم في الأرض، فقد أنجز وعده لهم. وقيل: معناه وليبدلنهم من بعد خوفهم في الدنيا، أمناً في الآخرة. ويعضده ما رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال حاكياً عن الله سبحانه: «إني لا أجمع على عبد واحد بين خوفين، ولا بين أمنين: إنْ خافني في الدنيا أمنته في الآخرة، وإن أمنني في الدنيا، خوَّفته في الآخرة. ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ هذا استئناف كلام في الثناء عليهم، ومعناه: لا يخافون غيري، عن ابن عباس، وقيل: معناه لا يراؤون بعبادتي أحداً. وفي الآية دلالة على صحة نبوة نبينا ﷺ من جهة الإخبار عن غيب لا يعلم إلا بوحي من الله عز وجل. ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد هذه النعم ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ذكر الفسق بعد الكفر مع أن الكفر أعظم من الفسق، لأن الفسق في كل شيء هو الخروج إلى أكثره. والمعنى: أولئك هم الخارجون إلى أقبح وجوه الكفر وأفحشه. وقيل: معناه من جحد تلك النعمة بعد إنعام الله تعالى بها، فأولئك هم العاصون لله، عن ابن عباس. واختلف في الآية فقيل: إنها واردة في أصحاب النبي ﷺ، وقيل: هي عامة في أمة محمد ﷺ، عن ابن عباس ومجاهد. والمَرْوي عن أهل البيت عليهم السلام:

أنها في المهدي من آل محمد صلى الله عليه وآله. وروى العياشي بإسناده عن علي بن الحسين عليه السلام أنه قرأ الآية، وقال: هم والله شيعتنا أهل البيت، يفعل الله ذلك بهم على يدي رجل منا، وهو مهدي هذه الأمة، وهو الذي قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطوَّل الله ذلك اليوم حتى يلي رجل من عترتي، اسمه اسمي، يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً»، ورُوِيَ مثل ذلك عن أبي جعفر عليه السلام وأبي عبد الله عليه السلام. فعلى هذا يكون المراد بـ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ النبي وأهل بيته، صلوات الرحمن عليهم، وتضمنت الآية البشارة لهم بالاستخلاف والتمكن في البلاد، وارتفاع الخوف عنهم عند قيام المهدي عليه السلام منهم. ويكون المراد بقوله: ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ هو أن جعل الصالح للخلافة خليفة مثل آدم، وداود وسليمان عليهم السلام، ويدل على ذلك قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، و﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾، وقوله ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾. وعلى هذا إجماع العترة الطاهرة، وإجماعهم حجة، لقول النبي صلى الله عليه وآله: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، لن يفترقا حتى يردا عَلَيّ الحوض». وأيضاً فإن التمكين في الأرض على الإطلاق، لم يتفق فيما مضى، فهو منتظر لأن الله عزّ اسمه لا يخلف وعده.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧)﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن عامر وحمزة: «لا يحسبن» بالياء، والباقون بالتاء.

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ بالياء جاز أن يكون فاعله أحد شيئين: إما أن يكون تضمن ضميراً للنبي صلى الله عليه وآله أي: لا يحسبن النبي الذين كفروا معجزين. فالذين في موضع نصب بأنه المفعول الأول، ومعجزين المفعول الثاني. ويجوز أن يكون فاعل الحسبان الذين كفروا، ويكون المفعول الثاني محذوفاً وتقديره: لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم معجزين. ومن قرأ بالتاء ففاعل تحسبن المخاطب.

● **المعنى:** ثم أمر سبحانه بإقامة أُمور الدين فقال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: قوموا بأدائها وإتمامها في أوقاتها ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ المفروضة ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: لترحموا جزاء على ذلك، وتثابوا بالنعم الجزيلة. ثم قال: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ يا محمد أو أيها السامع ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ﴾ أي: سابقين فائتين ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ يقال: طلبته فأعجزني أي: فاتني وسبقني أي: لا يفوتونني. ومن قرأ بالياء فمعناه: لا يظنن الكافرون أنهم يفوتونني. ﴿مَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ أي: مستقرهم ومصيرهم النار ﴿وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: بئس المستقر والمأوى. وإنما وصفها بذلك، وإن كانت حكمة وصواباً من فعل الله تعالى، لما ينال الصائر إليها من الشدائد والآلام.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا
الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ
الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم
بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ
الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ
لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا
فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ
لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠)﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة، غير حفص: «ثَلاثَ عورات» بالنصب، والباقون بالرفع. وفي الشواذ عن الأعمش: «عَوَرات» بفتح الواو، وقرأ أبو جعفر وأبو عبد الله عليه السلام: «يضعن من ثيابهن»، ورُوِيَ ذلك عن ابن عباس وسعيد بن جبير.

● **الحجة:** قال أبو علي: من رفع كان خبر المبتدأ محذوفاً، كأنه قال: هذا ثلاث عورات، فأجمل بعد التفصيل. ومن نصب جعله بدلاً من قوله ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾، فإن قلت: فإن قوله ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ زمان بدلالة أنه فسر بزمان وهو قوله: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾، وليس العورات بزمان، فكيف يصح وليس هي هو؟ قيل: يكون ذلك على أن تضمر الأوقات، كأنه قال: أوقات ثلاث عورات. فلما حذف المضاف أعرب المضاف إليه بإعراب المضاف. والعورات: جمع عورة. وحكم ما كان على فَعلة من الأسماء تحريك العين في الجمع، نحو: جَفْنة وجَفَنات، إلا أن عامة العرب كرهوا تحريك العين فيما كان عينه واواً أو ياءً، لما كان يلزم من الانقلاب إلى الألف، فأسكنوا وقالوا: عورات وبيضات، إلا هذيلًا حرّكوا العين منها فقالوا: عَوَرات ولَوَزات. وأنشد بعضهم:

أَخُـو بَـيَـضَـاتٍ رائـحٌ مُـتَـأَوِّبٌ   رَفِـيـقٌ بِـمَـسْـحِ الـمَـنْـكِـبَـيْـنِ سَـبُـوحُ(١)

فحرك الياء من بيضات. والجيد عند النحويين الأول. ومن قرأ: «من ثيابهن» فلأنه لا يوضع كل الثياب وإنما يوضع بعضها. ورُوِيَ عن عبد الله عليه السلام أنه قال: هو الجلباب، إلا أن تكون أَمة فليس عليها جناح أن تضع خمارها.

● **اللغة:** التبرج: إظهار المرأة من محاسنها ما يجب عليها ستره، وأصله: الظهور، ومنه البرج: البناء العالي لظهوره.

● **المعنى:** لما تقدّم أحكام النساء والرجال، ومن أُبيح له الدخول على النساء، استثنى

(١) الرائح بمعنى الذاهب. والمتأوب: الراجع. ورفيق بمسح المنكبين أي: عالم بتحريكها كناية عن حسن جريه ومهارته في السير. وسبوح أي: حسنُ الحركة. وفي اللسان: «أبو بيضات. . . ».

سبحانه هٰهنا أوقاتاً من ذلك، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ معناه: مُرُوا عبيدكم وإماءكم أن يستأذنوا عليكم إذا أرادوا الدخول إلى مواضع خلواتكم عن ابن عباس. وقيل: أراد العبيد خاصة، عن ابن عمر، وهو المَرْوِيّ عن أبي جعفر عليه السلام، وأبي عبد الله عليه السلام. ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ من أحراركم، وأراد به الصبي الذي يميز بين العورة وغيرها. وقال الجبائي: الاستئذان واجب على كل بالغ في كل حال، وعلى الأطفال في هذه الأوقات الثلاثة، بظاهر الآية ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ أي: في ثلاث أوقات من ساعات الليل والنهار. ثُمَّ فسَّرها فقال: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ وذلك أن الإنسان ربما يبيت عرياناً، أو على حال لا يحب أن يراه غيره في تلك الحال. ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ يريد عند القائلة. ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ الآخرة، حين يأوي الرجل إلى امرأته ويخلو بها، أمر الله بالاستئذان في هذه الأوقات التي يتخلى الناس فيها وينكشفون، وفصّلها، ثم أجملها بعد التفصيل، فقال: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ أي: هذه الأوقات ثلاث عورات لكم. سمَّى سبحانه هذه الأوقات عورات لأن الإنسان يضع فيها ثيابه فتبدو عورته. قال السدي: كان أُناس من الصحابة يعجبهم أن يواقعوا نساءهم في هذه الأوقات والساعات، ليغتسلوا ثم يخرجوا إلى الصلاة، فأمرهم الله سبحانه أن يأمروا الغلمان والمملوكين أن يستأذنوا في هذه الساعات الثلاث. ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ يعني المؤمنين الأحرار ﴿وَلَا عَلَيْهِمْ﴾ يعني الخدم والغلمان ﴿جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ﴾ أي: حرج في أن لا يستأذنوا في غير هذه الأوقات الثلاثة. ثم بيَّن المعنى فقال: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾ أي: هم خدمكم، فلا يجدون بداً من دخولهم عليكم في غير هذه الأوقات، ويتعذر عليهم الاستئذان في كل وقت، كما قال سبحانه: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: يخدمهم. وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إنها من الطوافين عليكم والطوافات» جعل الحرة بمنزلة العبيد والإماء. وقال مقاتل: ينقلبون فيكم ليلًا ونهاراً. ﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: يطوف بعضكم، وهم المماليك، على بعض، وهم الموالي. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما بيَّن لكم ما تعبدكم به في هذه الآية ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي: الدلالات على الأحكام ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يصلحكم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾ يعني من الأحرار ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ﴾ أي: في جميع الأوقات ﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأحرار الكبار، الذين أُمروا بالاستئذان على كل حال في الدخول عليكم، فالبالغ يستأذن في كل الأوقات، والطفل والعبد يستأذن في العورات الثلاث. ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ مرَّ معناه. قال سعيد بن المسيب: ليستأذن الرجل على أمه فإنما نزلت هذه الآية في ذلك. ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ وهن المسنات من النساء اللاتي قعدن عن التزويج، لأنه لا يرغب في تزويجهن. وقيل: هن اللاتي ارتفع حيضهن وقعدن عن ذلك، اللاتي لا يطمعن في النكاح أي: لا يطمع في جماعهن لكبرهن ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ يعني الجلباب فوق الخمار، عن ابن مسعود وسعيد بن جبير. وقيل: يعني الخمار والرداء، عن جابر بن زيد. وقيل: ما فوق الخمار من المقانع وغيرها، أُبيح لهن القعود بين يدي الأجانب في ثياب أبدانهن مكشوفة الوجه واليد. فالمراد بالثياب ما ذكرناه، لا كلّ الثياب. ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ أي: غير قاصدات بوضع ثيابهن إظهار زينتهن، بل يقصدن به

التخفيف عن أنفسهن. فإظهار الزينة في القواعد وغيرهن محظور، وأما الشابات فإنهن يمنعن من وضع الجلباب أو الخمار، ويؤمرن بلبس أكثف الجلابيب لئلا تصفهن ثيابهن. وقد رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: «للزوج ما تحت الدرع، وللابن والأخ ما فوق الدرع، ولغير ذي محرم أربعة أثواب: درع وخمار وجلباب وإزار». ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾ أي: واستعفاف القواعد وهو أن يطلبن العفة بلبس الجلابيب. ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ من وضعها، وإن سقط الحرج عنهن فيه. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في قلوبكم.

●●●

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١)﴾.

● **اللغة:** الحَرَج: الضيق مشتق من الحَرَجَة، وهي: الشجر الملتف بعضه ببعض لضيق المسالك فيه، وجمعها حَرَجَات وحِراج. قال:

أيا حَرَجاتِ الحيِّ حين تَحمَّلوا   بذي سَلَم لاجادَكُنَّ رَبيعُ[(١)]

وحرج فلان: إذا أثم، وتحرج من كذا: إذا تأثم من فعله، والأشتات: المتفرقون وهو جمع شت.

● **الإعراب:** ﴿جَمِيعًا﴾ نصب على الحال، وكذلك ﴿أَشْتَاتًا﴾، و﴿تَحِيَّةً﴾: منصوب لأنها مصدر ﴿سَلِّمُوا﴾ لأن التحية بمعنى التسليم. ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ صفة ﴿تَحِيَّةً﴾.

● **المعنى:** لما تقدَّم ذكر الاستئذان عقَّبه سبحانه بذكر رفع الحرج عن المؤمنين في الانبساط بالأكل والشرب، فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ الذي كفَّ بصره ﴿وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ﴾ الذي يعرج من رجليه أو أحدهما ﴿حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ﴾ العليل ﴿حَرَجٌ﴾ أي: إثم. واختلف في تأويله على وجوه:

أحدها: أن المعنى: ليس عليكم في مؤاكلتهم حرج، لأنهم كانوا يتحرَّجون من ذلك، ويقولون: إن الأعمى لا يبصر فنأكل جيد الطعام دونه. والأعرج لا يتمكن من الجلوس، والمريض يضعف عن الأكل، عن ابن عباس والفراء.

---

(١) قيل: إنه يعاتب الطرق التي سارت فيها المحبوبة للفراق.

وثانيها: أن المسلمين كانوا إذا غزوا، خلفوا زمناهم وكانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم، ويقولون: قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا، فكان أُولئك يتحرَّجون من ذلك ويقولون: لا ندخلها وهم غيب. فنفى الله سبحانه الحرج عن الزمنى في أكلهم من بيت أقاربهم، أو من بيت من يدفع إليهم المفتاح إذا خرج للغزو، عن سعيد بن المسيب والزهري.

وثالثها: أن المعنى: ليس على الأعمى والأعرج والمريض ضيق، ولا إثم في ترك الجهاد والتخلف عنه، ويكون قوله: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ كلاماً مستأنفاً. فأول الكلام في الجهاد وآخره في الأكل، عن ابن زيد والحسن والجبائي.

ورابعها: أن العمي، والعرج، والمرضى، كانوا يتنزهون عن مؤاكلة الأصحاء، لأن الناس كانوا يتقذرون منهم ويكرهون مؤاكلتهم، وكان أهل المدينة لا يخالطهم في طعام أعمى ولا أعرج ولا مريض، عن سعيد بن جبير والضحاك.

وخامسها: أن الزمنى والمرضى رخَّص الله سبحانه لهم في الأكل من بيوت من سمَّاهم في الآية، وذلك أن قوماً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا إذا لم يكن عندهم ما يطعمونهم، ذهبوا بهم إلى بيوت آبائهم وأمهاتهم وقراباتهم، فكان أهل الزمانة يتحرجون من أن يطعموا ذلك الطعام، لأنه يطعمهم غير مالكيه، عن مجاهد. ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: وليس عليكم حرج في أنفسكم ﴿أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ أي: بيوت عيالكم وأزواجكم، وبيت المرأة كبيت الزوج. وقيل: معناه من بيوت أولادكم، فنسب بيوت الأولاد إلى الآباء، لأن الأولاد كسبهم وأموالهم كأموالهم، ويدل عليه قوله ﷺ: «أنت ومالك لأبيك». وقوله ﷺ: «إن أن أطيب ما يأكل المؤمن كسبه وإن ولده من كسبه». ولذلك لم يذكر الله بيوت الأبناء حين ذكر بيوت الآباء والأقارب اكتفاء بهذا الذكر. ثم ذكر بيوت الأقارب بعد الأولاد فقال: ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ﴾. وهذه الرخصة في أكل مال القرابات وهم لا يعلمون ذلك، كالرخصة لمن دخل حائطاً وهو جائع أن يصيب من ثمره، أو مرَّ في سفره بغنم وهو عطشان، أن يشرب من رِسْله[1]، توسعة منه على عباده، ولطفاً لهم ورغبة بهم عن دناءة الأخلاق وضيق العطن. وقال الجبائي: إنَّ الآية منسوخة بقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ وبقول النبي ﷺ: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيبة نفس منه». والمَرْوِيّ عن أئمة الهدى، صلوات الله عليهم، أنهم قالوا: لا بأس بالأكل لهؤلاء من بيوت من ذكر الله تعالى بغير إذنهم، قدر حاجتهم من غير إسراف. وقوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ معناه: أو بيوت عبيدكم ومماليككم وذلك أن السيد يملك منزل عبده، والمفاتح هنا الخزائن، لقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾، وقيل: هي التي يفتح الغيب بها، عن ابن عباس قال: عنى بذلك وكيل الرجل وقيمه في ضيعته وماشيته، فلا بأس عليه أن يأكل من ثمر حائطه ويشرب من لبن ماشيته. وقيل: إذا ملك الرجل المفتاح فهو خازن، فلا بأس أن

---

(١) الرسل: اللبن.

يطعم الشيء اليسير، عن عكرمة. وقيل: هو الرجل يولى طعام غيره يقوم عليه، فلا بأس أن يأكل منه، عن السدي ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْۚ﴾ رفع الحرج عن الأكل من بيت صديقه بغير إذن، إذا كان عالماً بأنه تطيب نفسه بذلك. والصديق: هو الذي صدقك عن مودّته، وقيل: هو الذي يوافق باطنه باطنك، كما وافق ظاهره ظاهرك. ولفظ الصديق يقع على الواحد وعلى الجمع. قال جرير:

دَعَوْنَ الهَوى ثم ارتَمَيْنَ قُلوبَنا بأَسْهُمِ أعداءٍ وهُنَّ صَدِيقُ

وقال الحسن وقتادة: يجوز دخول الرجل بيت صديقه، والتحرم بطعامه من غير استئذان منه في الأكل. وقال أبو عبد الله عليه السلام: لهو والله الرجل يأتي بيت صديقه فيأكل طعامه بغير إذنه. ورُوِيَ أن صديقاً للربيع بن خيثم، دخل منزله وأكل من طعامه، فلما عاد الربيع إلى المنزل أخبرته جاريته بذلك، فقال: إن كنت صادقة فأنت حرة. ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًاۚ﴾ أي: مجتمعين أو متفرّقين، وذكر في تأويله وجوه:

أحدها: أن حيّاً من كنانة كان الرجل منهم لا يأكل وحده، فإن لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيئاً. وربما كانت معه الإبل الحُفَّل(١)، فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشاربه، فأعلم الله سبحانه أن الرجل منهم إن أكل وحده فلا إثم عليه، عن قتادة والضحاك وابن جريج.

وثانيها: إن معناه: لا بأس بأن يأكل الغني مع الفقير في بيته، فإن الغني كان يدخل على الفقير من ذوي قرابته أو صداقته، فيدعوه إلى طعامه فيتحرَّج، عن ابن عباس.

وثالثها: أنهم كانوا إذا نزل بهم ضيف، تحرَّجوا أن يأكلوا إلا معه، فأباح الله سبحانه الأكل على الانفراد وعلى الاجتماع، عن أبي صالح، والأقوال متقاربة، والأولى الحمل على العموم. ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: ليسلم بعضكم على بعض، عن الحسن. فيكون كقوله: ﴿أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾، وقيل: معناه فسلموا على أهليكم وعيالكم، عن جابر وقتادة والزهري والضحاك. وقيل: معناه فإذا دخلتم بيوتاً يعني المساجد، فسلموا على من فيها، عن ابن عباس. والأولى حمله على العموم. وقال إبراهيم: إذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد، فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. وقال أبو عبد الله عليه السلام: هو تسليم الرجل على أهل البيت حين يدخل، ثم يردون عليه، فهو سلامكم على أنفسكم. ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: هذه تحية حياكم الله بها، عن ابن عباس، وقيل: معناه علّمها الله وشرّعها لكم، فإنهم كانوا يقولون: عم صباحاً. ثم وصف التحية فقال: ﴿مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةًۚ﴾ أي: إذا أُلزمتموها كثر خيركم وطاب أجركم. وقيل: مؤبدة حسنة جميلة، عن ابن عباس. وقيل: إنما قال: مباركة لأن معنى السلام عليكم حفظكم الله وسلّمكم الله من الآفات، فهو دعاء بالسلامة من آفات الدنيا والآخرة. وقال: طيبة لما فيها من طيب العيش بالتواصل، وقيل: لما فيها من الأجر الجزيل والثواب العظيم.

---

(١) التحفيل: أن لا تحلب الناقة أياماً ليجتمع اللبن في ضرعها. وحفل: جمع حافل: الممتلئة الضروع.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما بيَّن لكم هذه الأحكام والآداب ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي: الأدلة على جميع ما يتعبدكم به ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لتعقلوا معالم دينكم.

●●●

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾.

● **اللغة:** التسلل: الخروج في خفية، يقال: تسلل فلان من بين أصحابه: إذا خرج من جملتهم. والسلة: السرقة في الخفية، وكذلك الإسلال. ومنه الحديث: «لا إغلال ولا إسلال». واللواذ: أن يستتر بشيء مخافة من يراه. وقيل: اللواذ الاعتصام بالشيء بأن يدور معه حيث دار من قولهم: لاذ به. وقال الزجاج: الملاوذة المخالفة هٰهنا، بدلالة قوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾، ويقال: خالفه إلى الأمر إذا ذهب إليه دونه. ومنه قوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾، وخالفه عن الأمر: إذا صد عنه دونه.

الإعراب: ﴿لِوَاذًا﴾ مصدر وضع موضع الحال والتقدير: يتسللون منكم ملاوذين، ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ أي: يخالفون الله عن أمره بمعنى يجاوزون أمره. ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ﴾: يوم منصوب بالعطف على محذوف وهو ظرف زمان، والتقدير: ما أنتم تثبتون عليه الآن ويوم يرجعون إليه خرج من الخطاب إلى الغيبة.

● **المعنى:** لمّا تقدَّم ذكر المعاشرة مع الأقرباء والمسلمين، بيَّن سبحانه في هذه الآية كيفية المعاشرة مع النبي ﷺ، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: ليس المؤمنون على الحقيقة إلا الذين صدَّقوا بتوحيد الله وعدله، وأقرُّوا بصدق رسوله ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أي: مع رسوله ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ وهو الذي يقتضي الإجماع عليه، والتعاون فيه، من حضور حرب أو مشورة في أمر أو صلاة جمعة، أو ما أشبه ذلك، ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ أي: لم ينصرفوا عن الرسول أو عن ذلك الأمر، إلا بعد أن يطلبوا الإذن منه في الانصراف ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾ يا محمد ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: فهم الذين يصدِّقون بالله ورسوله على الحقيقة، دون الذين ينصرفون بلا استئذان ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ أي: متى ما استأذنك هؤلاء المؤمنون أن يذهبوا لبعض مهماتهم وحاجاتهم ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ خيَّر سبحانه نبيه ﷺ بين أن يأذن وأن لا يأذن، وهكذا حكم من قام مقامه من الأئمة. ﴿وَٱسْتَغْفِرْ

لَهُمُ ٱللَّهَۚ﴾ أي: واطلب المغفرة لهم من الله بخروجهم من جملة من معك، واستغفار النبي ﷺ لهم هو دعاؤه لهم باللطف الذي تقع معه المغفرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ للمؤمنين أي: ساتر لذنوبهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم أي: منعم عليهم. ثم أمر سبحانه جميع المكلَّفين فقال: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾ اختلف في تأويله على وجوه:

أحدها: أنه سبحانه علَّمهم تفخيم النبي ﷺ في المخاطبة، وأعلمهم فضله فيه على سائر البرية. والمعنى: لا تقولوا له عند دعائه: يا محمد أو يابن عبد الله، ولكن قولوا: يا رسول الله يا نبي الله، في لين وتواضع وخفض صوت، عن ابن عباس ومجاهد وقتادة.

وثانيها: أنه نهى عن التعرض لدعاء رسوله عليهم، فالمعنى: احذروا دعاءه عليكم إذا أسخطتموه، فإن دعاءه موجب مجاب بغير شك، وليس كدعاء غيره، عن ابن عباس في رواية أخرى.

وثالثها: أن المعنى: ليس الذي يأمركم به الرسول ويدعوكم إليه كما يدعو بعضكم بعضاً، لأن في القعود عن أمره قعوداً عن أمر الله تعالى، عن أبي مسلم. ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ﴾ قال ابن عباس: هو أن يلوذ بغيره فيهرب، وذلك أن المنافقين كان يثقل عليهم خطبة النبي ﷺ يوم الجمعة، فيلوذون ببعض أصحابه، فيخرجون من المسجد في استتار من غير استئذان. وفيه معنى التهديد بالمجازاة. وقال مجاهد: كانوا يتسللون في الجهاد رجوعاً عنه، وقيل: معناه يستترون ويستخفون تقية والتجاء. ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ﴾ حذَّرهم سبحانه عن مخالفة نبيه ﷺ أي: فليحذر الذين يعرضون عن أمر الله تعالى، وإنما دخلت ﴿عَنۡ﴾ لهذا المعنى. وقيل: عن أمر النبي ﷺ. ﴿أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ﴾ أي: بلية تظهر ما في قلوبهم من النفاق. وقيل: عقوبة في الدنيا. ﴿أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة. وفي هذا دلالة على أنّ أوامر النبي ﷺ على الإيجاب لأنها لو لم تكن كذلك لما حذَّر سبحانه من مخالفته. ثم عظَّم سبحانه نفسه بأن قال: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي: له التصرف في جميع ذلك، ولا يجوز لأحد الاعتراض عليه ولا مخالفة أمره. فليس للعبد أن يخالف أمر مالكه. ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ من الخيرات والمعاصي ومن الإيمان والنفاق، لا يخفى عليه شيء من أحوالكم ﴿وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ يعني يوم البعث، يعلمه الله سبحانه متى هو ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ﴾ من الخير والشر والطاعات والمعاصي ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾ من أعمالهم وغيرها ﴿عَلِيمُۢ﴾ معناه: يُردّون إليه للجزاء، فيجازي كلًا على قدر عمله من الثواب والعقاب.


سُورَةُ الفُرقَانِ


مكية/آياتها(٧٧)

مكية كلها، عن مجاهد وقتادة. وقال ابن عباس: إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة من قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

● **عدد آيها:** وهي سبع وسبعون آية، بلا خلاف.

● **فضلها:** أُبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الفرقان، بعث يوم القيامة وهو يؤمن أن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، ودخل الجنة بغير حساب»، وروى إسحاق بن عمار عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: يا بن عمار! لا تدع قراءة ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ فإن من قرأها في كل ليلة، لم يعذّبه الله أبداً ولم يحاسبه، وكان منزلته في الفردوس الأعلى.

● **تفسيرها:** اتصلت هذه السورة بسورة النور اتصال النظير بالنظير، فإنَّ مختتم تلك السورة تضمن: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وأنه ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، ومفتتح هذه السورة أن: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، سبحانه من قدير حكيم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى
لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ
شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا
يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾
وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ
ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا
ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ
نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ
إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير عاصم: «نأكل منها» بالنون، والباقون: بالياء. وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر: «ويَجْعَلُ لك» بالرفع، والباقون بالجزم.

● **الحجة:** من قرأ: «يأكل منها» بالياء فإنه يعني به النبي ﷺ. ومن قرأ «نأكل منها» فكأنه أراد أنه تكون له المزية علينا في الفضل بأكلنا من جنته. ومن قرأ: «ويجعل لك» بالجزم، عطف على موضع جعل لأنه جزاء الشرط. قال الشاعر:

أنـى سَـلكْـتَ فـإنَّـنـي لَكَ كـاشِـحٌ وعلى انتِقاصِك في الحَياةِ وأَزْدَدِ(١)

ومن رفع قطعه مما قبله، واستأنف.

● **الإعراب:** قال الزجاج: التقدير جاؤوا بظلم وزور. فلما سقطت الباء أفضى الفعل فنصب الفعل. وأقول: إنه يجوز جاؤوا ظلماً بمعنى أتوا ظلماً. قال طرفة:

عـلى غـيـرِ ذَنْـبٍ جِـئْـتُـهُ غـيْـرَ أَنَّـنِـي نَـشَـدْتُ فَـلَمْ أُغْـفِـلْ حَـمُـولَةَ مَـعْـبَـدِ(٢)

فمعنى جئته فعلته. ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾: جملة في موضع نصب على الحال من ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾. وقد: مضمرة، و﴿أَسَٰطِيرُ﴾ خبر مبتدأ محذوف. و﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ حال والعامل فيه ما تعلق به اللام في قوله: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ فيكون منصوباً بإضمار أن. ﴿كَيْفَ ضَرَبُواْ﴾ كيف في محل النصب على المصدر والتقدير: ضرب، أي: ضربوا لك الأمثال، ويجوز أن يكون في موضع نصب على الحال من الواو في ﴿ضَرَبُواْ﴾، التقدير: أنظر أمنكرين ضربوا لك الأمثال أم لا، ﴿إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾: الشرط والجزاء صلة الذي، و﴿جَنَّٰتٍ﴾ بدل من قوله ﴿خَيْرًا﴾.

● **المعنى:** ﴿تَبَارَكَ﴾ تفاعل من البركة معناه: عظمت بركاته وكثرت، عن ابن عباس. والبركة: الكثرة من الخير، وقيل: معناه تقدَّس وجلَّ بما لم يزل عليه من الصفات، ولا يزال كذلك فلا يشاركه فيها غيره. وأصله من بروك الطير، فكأنه قال: ثبت ودام فيما لم يزل ولا يزال، عن جماعة من المفسرين. وقيل: معناه قام بكل بركة وجاء بكل بركة. ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ أي: القرآن الذي يفرق بين الحق والباطل والثواب والخطأ في أُمور الدين، بما فيه من الحث على أفعال الخير، والزجر عن القبائح والشر. ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ محمد ﷺ ﴿لِيَكُونَ﴾ محمد ﷺ بالقرآن ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: لجميع المكلفين من الإنس والجن ﴿نَذِيرًا﴾ أي: مخوِّفاً بالعقاب وداعياً لهم إلى الرشاد. ثم وصف سبحانه نفسه فقال: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما زعمت اليهود والنصارى والمشركون ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ يشاركه فيما خلق، ويمنعه عن مراده ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ مما يطلق عليه اسم المخلوق ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ على ما اقتضته الحكمة، والتقدير: تبيين مقادير الأشياء للعباد، فيكون معناه: قدر الأشياء بأن كتبها

---

(١) الكاشح: العدو الذي يضمر العداوة.

(٢) هذا بيت من معلقته الشهيرة، ومعبد هذا أخوه. والحمولة: الإبل التي تطيق أنْ يحمل عليها. ولهذا البيت قصة طويلة مذكورة في هامش المعلقات العشر برواية الزوزني، وغيره هكذا.

في الكتاب الذي كتبه الملائكة، لطفاً لهم. وقيل: خلق كل شيء فقدّر طوله وعرضه ولونه، وسائر صفاته ومدة بقائه، عن الحسن. ثم أخبر سبحانه عن الكفار فقال: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي: من دون الله ﴿ءَالِهَةً﴾ من الأصنام والأوثان، وجهوا عبادتهم إليها، ثم وصف آلهتهم بما ينبىء أنها لا تستحق العبادة، فقال: ﴿لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ أي: وهي مخلوقة مصنوعة ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا﴾ فيدفعونه عن أنفسهم ﴿وَلَا نَفۡعٗا﴾ فيجرّونه إلى أنفسهم، أي: لا يقدرون على دفع ضرّ ولا على جرّ نفع، ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ﴾ أي: لا يستطيعون إماتة ولا إحياء ﴿وَلَا نُشُورٗا﴾ أي: إعادة بعد الموت. يقال: أنشره الله فنشر، فإن جميع ذلك يختص الله تعالى بالقدرة عليه. والمعنى: فكيف يعبدون من لا يقدر على شيء من ذلك، ويتركون عبادة ربهم الذي يملك ذلك كله. ثم أخبر سبحانه عن تكذيبهم بالقرآن فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ أي: ما هذا القرآن إلا كذب افتراه محمد ﷺ، واختلقه من تلقاء نفسه ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ﴾ قالوا: أعان محمداً ﷺ على هذا القرآن عداس مولى حويطب بن عبد العزى، ويسار غلام العلاء بن الحضرمي، وحبر مولى عامر، وكانوا من أهل الكتاب. وقيل: إنهم قالوا أعانه قوم من اليهود، عن مجاهد ﴿فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا﴾ أي: فقد قالوا إشراكاً وكذباً؟ حين زعموا أن القرآن ليس من الله. ومتى قيل: كيف اكتفى بهذا القدر في جوابهم؟ قلنا: أنه لما تقدم التحدّي وعجزهم عن الإتيان بمثله، اكتفى هٰهنا بالتنبيه على ذلك ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا﴾ معناه: وقالوا أيضاً هذه أحاديث المتقدمين، وما سطروه في كتبهم انتسخها. وقيل: استكتبها ﴿فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ أي: تملى عليه طرفي نهاره حتى يحفظها وينسخها، والأصيل: العشي لأنه أصل الليل وأوله. وفي هذا بيان مناقضتهم وكذبهم لأنهم قالوا: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ ثم قالوا: ﴿تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾ فقد افتراه غيره. وقالوا: إنه كتب، وقد علموا أنه كان لا يحسن الكتابة فكيف كتب ولم يستكتب. ثم قال سبحانه: ﴿قُلۡ﴾ يا محمد لهم تكذيباً لقولهم ﴿أَنزَلَهُ﴾ أي: أنزل القرآن ﴿ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ أي: الخفيات ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ على ما اقتضاه علمه ببواطن الأمور، لا على ما تقتضيه أهواء النفوس والصدور ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ حيث لم يعاجلهم بالعذاب، بل أنعم عليهم بإرسال الرسول إليهم لتأكيد الحجة وقطع المعذرة. ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ كما نأكل ﴿وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ في طلب المعاش كما نمشي ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ أي: هلا أنزل إليه ملك فيكون معيناً له على الإنذار والتخويف. وهذا أيضاً من مقالاتهم الفاسدة، لأن المَلَك لو كان معيناً له على أداء الرسالة، ومخوفاً من ترك قبولها، ولو فعل تعالى ذلك، لأدّى ذلك إلى استصغار كل واحد منهما من حيث إنه لم يقم بنفسه في أداء الرسالة، ولأن الجنس إلى الجنس أميل وبه آنس. ﴿أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ﴾ يستغني به عن طلب المعاش، قال ابن عباس: أو ينزل إليه مال من السماء ﴿أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَا﴾ أي: بستان يأكل من ثمارها. ومن قرأ بالنون فالمعنى: نأكل نحن معه ونتبعه. ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: المشركون للمؤمنين ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا﴾ أي: ما تتبعون إلا رجلاً مخدوعاً مغلوباً على عقله، وقد سبق تفسير المسحور في بني إسرائيل ﴿ٱنظُرۡ﴾ يا محمد ﴿كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ أي: الأشباه لأنهم قالوا

تارة هو مسحور وتارة هو محتاج متروك، حتى تمنوا له الكنز، وتارة إنه ناقص عن القيام بالأمور. ﴿فَضَلُّوا﴾ بهذا عن الهدى وعن وجه الصواب وطريق الحق ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ لإلزامك الحجة من الوجوه المذكورة. وقيل: معناه لا يستطيعون سبيلًا إلى إبطال أمرك. وقيل: معناه لا يستطيعون سبيلًا إلى الحق مع ردهم الدلائل والحجج، واتباعهم التقليد والإلف والعادة. ﴿تَبَارَكَ﴾ أي: تقدس ﴿الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ الذي اقترحوه من الكنز والبستان. ثم فسّر الذي هو خير مما اقترحوه فقال: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ليكون أبلغ في الزهو، وأسرع في نضج الثمار ﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾أي: وسيجعل لك قصوراً في كل بستان قصراً، والقصور: البيوت المبنية المشيدة المطولة، عن مجاهد. وأراد في الآخرة أي: سيعطيك الله في الآخرة أكثر مما قالوا. وقيل: أراد به في الدنيا، لأن جبرائيل عليه السلام عرض عليه ذلك كله، فاختار الزهد في الدنيا.

●●●

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا
رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ
دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ
أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ
فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا
يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ
﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ
وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا
تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا
قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا
بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر وابن كثير وحفص ويعقوب: «ويوم يحشرهم» بالياء، والباقون بالنون. وقرأ ابن عامر: «فنقول» بالنون، والباقون بالياء. وقرأ أبو جعفر وزيد عن يعقوب: «أن نُتَّخذ» بضم النون وفتح الخاء، وهو قراءة زيد بن ثابت وأبي الدرداء. ورُوِيَ عن جعفر بن محمد عليه السلام وزيد بن علي. والباقون: «نَتخذ» بفتح النون وكسر الخاء. وروى بعضهم عن ابن كثير: «فقد كذبوكم بما يقولون» بالياء، والقراءة المشهورة بالتاء. وقرأ حفص: «فما تستطيعون» بالتاء، والباقون بالياء. ورُوِيَ عن علي عليه السلام: «ويُمشّون في الأسواق» بضم الياء وفتح الشين المشددة.

● **الحجة:** قال أبو علي: حجة من قرأ: «يحشرهم» بالياء قوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾، ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ ومن قرأ: «نحشرهم» بالنون، ﴿فَيَقُولُ﴾ بالياء، فعلى أنه أفرد بعد

أن جمع كما أفرد بعد الجمع في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلى قوله ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا﴾. وقراءة ابن عامر: «ويوم نحشرهم» «فنقول» حسن لإجرائه المعطوف مجرى المعطوف عليه في لفظ الجمع. قال ابن جني: من قرأ: «أن نتخذ» بضم النون فإن قوله: ﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ في موضع الحال، أي: ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك أولياء. ودخلت ﴿مِنْ﴾ زائدة لمكان النفي، تقول: اتخذت زيداً وكيلاً. فإن نفيت قلت: ما اتخذت زيداً من وكيل. وكذلك أعطيته درهماً وما أعطيته من درهم. وهذا في المفعول به. وأما قراءة الجماعة: «إن نتخذ من دونك من أولياء» فإن قوله «من أولياء» في موضع المفعول، أي أولياء، فهو كقولك: ضربت رجلاً، فإن نفيت قلت: ما ضربت من رجل، والمعنى في قوله: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ﴾: لسنا ندَّعي استحقاق الولاء ولا العبادة لنا، والمعنى في قوله: «فقد كذبوكم بما تقولون» بالتاء: كذَّبوكم في قولكم إنهم شركاء وانهم آلهة، وذلك في قولهم: «تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون»، ومن قرأ: «بما يقولون» بالياء فالمعنى: فقد كذَّبوكم أي: ما كنتم تعبدون بقولهم. وقولهم هو نحو ما قالوه في قوله: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾، وقوله: ﴿فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾. وقوله: «فما يستطيعون» بالياء معناه: فما يستطيع الشركاء صرفاً ولا نصراً لكم. ومن قرأ بالتاء فمعناه: فما تستطيعون أنتم أيها المتخذون للشركاء من دونه صرفاً ولا نصراً ومن قرأ: «يُمشّون» بالتاء فمعناه فما تستطيعون أنتم أيها المتخذون للشركاء من دونه صرفاً ولا نصراً. ومن قرأ «يُمشّون» فمعناه: يدعون إلى المشي ويحملهم حامل على المشي. وجاء على فعَّل لتكثير فعلهم لأنهم جماعة.

● **اللغة:** السعير: النار الملتهبة مأخوذة من إسعار النار: وهو شدة إيقادها، أسعرتها إسعاراً وسعَّرها الله تسعيراً. والتغيظ: الهيجان والغليان، ومنه قيل لشدة الغضب الغيظ. ومقرنين: مأخوذ من القرن وهو الحبل يشد به بعيران أو أبعرة، ثم يستعمل في كل مجتمعين. والثبور: الهلاك، وثبر الرجل فهو مثبور: أهلك. قال ابن الزبعرى:

إذْ أُجَارِي الشيطانَ في سَنَنِ الغيِّ ومَنْ مالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ

ويقال: ما ثبرك عن هذا الأمر أي: ما صرفك عنه، فكأن المثبور ممنوع من كل خير حتى هلك. والبور: الهلكى وهو جمع البابر. وقيل: هو مصدر لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث. قال ابن الزبعرى:

يا رَسُولَ المليك إنَّ لِساني راتِقٌ ما فَتَقْتُ إذْ أنا بُورُ

وأصل الباب من بارت السلعة تبور: إذا كسدت فلا تشترى، فكأنها بقيت وفسدت.

● **الإعراب:** ﴿مَكَانًا﴾ ظرف لألقى، ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ نصب على الحال، ﴿ثُبُورًا﴾ مصدر فعل محذوف تقديره: ثبر ثبوراً، و﴿دَعَوْاْ﴾ هنا بمعنى قالوا، و﴿هُنَالِكَ﴾ يحتمل أن يكون ظرف زمان، وأن يكون ظرف مكان أي: دعوا في ذلك اليوم، أو في ذلك المكان.

﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾ في موضع نصب على الحال من وعد. وقد: مضمرة. وذو الحال الضمير المحذوف العائد من الصلة إلى الموصول، ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ جملة أخرى

في موضع الحال من قوله: ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ مفعول ﴿أَرْسَلْنَا﴾ محذوف تقديره: وما أرسلنا قبلك رسلًا. ويدل عليه قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. ﴿إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ إن مع اسمه وخبره مستثنى عن الرسل المحذوفة، تقديره: وما أرسلنا قبلك رسلًا إلا هم يأكلون الطعام. وهذا كما يقال: ما قدم علينا أمير إلا إنه مكرّم لي وليست كسرة إن لأجل اللام، فإن دخولها وخروجها واحد في هذا الموضع. وقيل: ما في الآية كقول الشاعر:

ما أعْطَيَاني ولا سَألْتُهُما إلا وإني لَحاجِزٌ كَرَمِي

● **المعنى:** ثم بيَّن سبحانه سوء اعتقادهم، وما أعدَّه لهم على قبيح فعالهم ومقالهم فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾ أي: ما كذَّبوك لأنك تأكل الطعام وتمشي في الأسواق، بل لأنهم لم يقرُّوا بالبعث والنشور والثواب والعقاب ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ أي: ناراً تتلظى. ثم وصف ذلك السعير فقال: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: من مسيرة مائة عام، عن السدي والكلبي، وقال أبو عبد الله عليه السلام: من مسيرة سنة. ونسب الرؤية إلى النار، وإنما يرونها هم، لأن ذلك أبلغ كأنها تراهم رؤية الغضبان الذي يزفر غيظاً. وذلك قوله: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ وتغيُّظها: تقطُّعها عند شدة اضطرابها، وزفيرها: صوتها عند شدة التهابها، كالتهاب الرجل المغتاظ. والتغيظ لا يسمع، وإنما يعلم بدلالة الحال عليه. وقيل: معناه سمعوا لها صوت تغيظ وغليان، قال عبيد بن عمير: إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى نبي ولا ملك إلا خرَّ لوجهه. وقيل: التغيظ للنار والزفير لأهلها، كأنه يقول: رأوا للنار تغيظاً، وسمعوا لأهلها زفيراً. ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ معناه: وإذا أُلقوا من النار في مكان ضيق يضيق عليهم، كما يضيق الزج في الرمح، عن أكثر المفسرين. وفي الحديث قال عليه السلام في هذه الآية: والذي نفسي بيده، إنهم يستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط. ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ أي: مصفدين قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال. وقيل: قرنوا مع الشياطين في السلاسل والأغلال، عن الجبائي. ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ أي: دعوا بالويل والهلاك على أنفسهم، كما يقول القائل: واثبورا أي: واهلاكاه، وقيل: وانصرافاه عن طاعة الله! فتجيبهم الملائكة: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ أي: لا تدعوا ويلًا واحداً وادعوا ويلًا كثيراً، أي: لا ينفعكم هذا وإن كثر منكم. قال الزجاج: معناه هلاككم أكبر من أن تدعوا مرة واحدة ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿ذَٰلِكَ﴾ يعني ما ذكره من السعير ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ﴾ تلك الجنة ﴿لَهُمْ جَزَآءً﴾ على أعمالهم ﴿وَمَصِيرًا﴾ أي: مرجعاً ومستقراً ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ ويشتهون من المنافع واللذات ﴿خَٰلِدِينَ﴾ مؤبَّدين لا يفنون فيها ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ قال ابن عباس: معناه أن الله سبحانه وعد لهم الجزاء، فسألوه الوفاء، فوفى. وقيل: معناه أن الملائكة سألوا الله تعالى ذلك لهم، فأُجيبوا إلى مسألتهم، وذلك قولهم: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾، عن محمد بن كعب. وقيل: إنهم سألوا الله تعالى في الدنيا الجنة بالدعاء، فأجابهم في الآخرة إلى ما سألوا وأتاهم ما طلبوا. ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي: نجمعهم ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني عيسى وعزير والملائكة، عن مجاهد، وقيل: يعني الأصنام، عن عكرمة والضحاك ﴿فَيَقُولُ﴾ الله تعالى لهؤلاء المعبودين ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ

﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ أي: طريق الجنة والنجاة ﴿قَالُوا﴾ يعني المعبودين من الملائكة والإنس أو الأصنام، إذا أحياهم الله وأنطقهم ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيهاً لك عن الشريك، وعن أن يكون معبود سواك ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: ليس لنا أن نوالي أعداءك بل أنت ولينا من دونهم. وقيل: معناه ما كان يجوز لنا وللعابدين، وما كان يحق لنا أن نأمر أحداً بأن يعبدنا ولا يعبدك، فإنا لو أمرناهم بذلك لكنا والنياهم ونحن لا نوالي من يكفر بك. ومن قرأ: «نتخذ» فمعناه: ما كان يحق لنا أن نعبد. ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾ معناه: ولكن طوّلت أعمارهم وأعمار آبائهم ومتعتهم بالأموال والأولاد بعد موت الرسل، حتى نسوا الذكر المنزل على الأنبياء وتركوه ﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ أي: هلكى فاسدين. هذا تمام الحكاية عن قول المعبودين من دون الله. فيقول الله سبحانه عند تبرؤ المعبودين من عبدتهم: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ﴾ أي: كذّبكم المعبودون أيها المشركون ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي: بقولكم إنهم آلهة شركاء لله. ومن قرأ بالباء فالمعنى: فقد كذّبوكم بقولهم: ﴿سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا﴾ الآية. ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا﴾ أي: فما يستطيع المعبودون صرف العذاب عنكم ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ لكم بدفع العذاب عنكم. ومن قرأ بالتاء فالمعنى: فما تستطيعون أيها المتخذون الشركاء صرف العذاب عن أنفسكم، ولا أن تنصروا أنفسكم بمنعها من العذاب. ﴿وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ﴾ نفسه بالشرك وارتكاب المعاصي ﴿نُذِقْهُ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابًا كَبِيرًا﴾ أي: شديداً عظيماً. ثم رجع سبحانه إلى مخاطبة النبي ﷺ فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾ يا محمد ﴿مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ قال الزجاج: وهذا احتجاج عليهم في قوله: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ أي: فقل لهم كذلك كان من خلا من الرسل، فكيف يكون محمد بدعاً منهم. ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ أي: امتحاناً وابتلاء، وهو افتتان الفقير بالغني، يقول: لو شاء الله لجعلني مثله غنياً، والأعمى بالبصير يقول: لو شاء الله لجعلني مثله بصيراً، وكذلك السقيم بالصحيح، عن الحسن. وقيل: هو ابتلاء فقراء المؤمنين بالمستهزئين من قريش، كانوا يقولون: انظروا إلى هؤلاء الذين اتبعوا محمداً من موالينا ورذالنا. فقال الله لهؤلاء الفقراء: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ أيها الفقراء على الأذى والاستهزاء ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ إن: صبرتم فاصبروا. فأنزل الله فيهم ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾، عن مقاتل. وقيل: معناه أتصبرون أيها الفقراء على فقركم، ولا تفعلون ما يؤدي إلى مخالفتنا. أتصبرون أيها الأغنياء فتشكرون ولا تفعلون ما يؤدي إلى مخالفتنا. ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أي: عليماً فيغني من أوجبت الحكمة إغناءه ويفقر من أوجبت الحكمة إفقاره. وقيل: بصيراً بمن يصبر وبمن يجزع، عن ابن جريج.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿۞ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا

﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ
وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا
﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ
لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى وَكَانَ
ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا
﴿٣٠﴾﴾ .

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة وأبو عمرو: «تشقق» خفيفة الشين هٰهنا وفي سورة ق، والباقون: «تشقق» مشددة الشين. وقرأ ابن كثير: «ننزل» بنونين خفيفة، «الملائكة» بالنصب، والباقون: «ونزِّل» بنون واحدة وتشديد الزاي وفتح اللام، و«الملائكة» بالرفع.

● **الحجة:** تشقق: أصله تتشقق، فأدغم التاء في الشين، والتخفيف أكثر في الكلام، لأن الحذف أخف عليهم من الإدغام. ومن قرأ «ونُنزِّل الملائكة تنزيلاً» فإنَّ أنزل مثل نَزَّل، ومثله في التنزيل: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾. فجاء المصدر على فعَّل. قال الشاعر: «وقد تَطوَّيْتُ انْطواءَ الخِضْبِ»[١].

● **اللغة:** الرجاء: ترقب الخير الذي يقوّي في النفس وقوعه، ومثله الطمع والأمل. واللقاء: المصير إلى الشيء من غير حائل، والعتو: الخروج إلى أفحش الظلم، وأصل الحِجْر الضيق، وسمي الحرام حجْراً لضيقه بالنهي عنه. قال المتلمس:

حنَّتْ إلى النَّخْلَةِ القُصْوى فَقُلْتُ لها   حِجْرٌ حرامٌ إلى تِلْك الدَّهارِيس[٢]

ومنه حِجْرُ الكعبة لأنه لا يدخل عليه في الطواف، وإنما يطاف من ورائه لتضييقه بالنهي عنه. والحِجْر: العقل لما فيه من التضييق في القبيح. والهباء: غبار كالشعاع لا يمكن القبض عليه. وفلان: كناية عن واحد بعينه من الناس لأنه معرفة. وقال ابن دريد عن أبي حاتم عن العرب: إنهم كنوا عن كل مذكر بفلان، وعن كل مؤنثة بفلانة، فإذا كنوا عن البهائم أدخلوا عليه الألف واللام فقالوا الفلان والفلانة.

● **الإعراب:** ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾: العامل في ﴿يَوْمَ﴾ معنى قوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ فإنه يدل على يحزنون، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾: توكيد لـ ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ ولا يجوز أن

---

(١) قائله: رؤبة، وبعده: «بين قتاد ردهة وشقب». والخصب: ضرب من الحيات. قيل: ويجوز أن يكون أراد الوتر لأنه من معاني الخصب أيضاً.

(٢) فاعل حنت: النوق. والدهاريس بمعنى الدواهي. وهذا البيت من قصيدة له قالها بعدما هجا هو وطرفة عمرو بن هند، ملك العراق، فقتل طرفة بيد عامله ببحرين، وهرب المتلمس إلى الشام. وبلغه أن عمرو يقول: لئن وجده بالعراق ليقتلنه. وقصتهما طويلة ذكرها في (الأغاني ٢١ : ١٢٧). و(معجم البلدان ٧ : ٢٠٨)، و(مجمع الأمثال ١ : ٣٥)، و(أمالي الشريف ١ : ١٨٣). وغيرها.

يكون ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ منصوباً بـ ﴿لَا بُشْرَىٰ﴾ لأن ما يتصل بلا لم يعمل فيما قبلها. و﴿حِجْرًا﴾ منصوب لأنه مفعول ثان لفعل مقدر، وهو: جعل الله عليكم الجنة حِجْراً محجوراً، ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ﴾: العامل في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ﴿خَيْرٌ﴾. ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ﴾: العامل فيه محذوف تقديره: واذكر يوم تشقق. ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾: يومئذٍ من صلة الملك الذي هو المصدر. و﴿ٱلْحَقُّ﴾ صفة له، والجار والمجرور الذي هو ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾: في موضع خبر المبتدأ الذي هو ﴿ٱلْمُلْكُ﴾. ويجوز أن يكون ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرفاً: وهو بدل من ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ﴾ ويكون العامل فيهما الظرف الذي هو قوله ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ وإن تقدما عليه. ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ﴾ يجوز أن يكون العامل فيه اذكر، ويجوز أن يكون معطوفاً على ما قبله. و﴿يَقُولُ﴾ جملة في موضع الحال. ﴿يَٰلَيْتَنِى﴾ المنادى محذوف وتقديره يا صاحبي ليتني. و﴿يَٰوَيْلَتَىٰ﴾ منادى مضاف: أصله يا ويلتي تعالي فإنه وقتك فأبدل من الكسرة فتحة، ومن الياء ألفاً، لثقل الكسرة والياء، وخفة الفتحة والألف.

● **النزول:** قال ابن عباس: نزل قوله ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ﴾ في عقبة بن أبي معيط، وأُبَيّ بن خلف، وكانا متخالين، وذلك أن عقبة كان لا يقدم من سفر إلا صنع طعاماً، فدعا إليه أشراف قومه، وكان يكثر مجالسة الرسول فقدم من سفره ذات يوم، فصنع طعاماً ودعا الناس، فدعا رسول الله ﷺ إلى طعامه. فلما قربوا الطعام قال رسول الله ﷺ: «ما أنا بآكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله». فقال عقبة: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. وبلغ ذلك أُبَيّ بن خلف فقال: صبأت يا عقبة؟ قال: لا والله ما صبأت، ولكن دخل علي رجل، فأبى أن يطعم من طعامي إلا أن أشهد له، فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم، فشهدت له فطعم. فقال أُبَيّ: ما كنت براض عنك أبداً حتى تأتيه فتبزق في وجهه. ففعل ذلك عقبة، وارتد وأخذ رحم دابة فألقاها بين كتفيه. فقال النبي ﷺ: «لا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف». فضرب عنقه يوم بدر صبراً[(1)]. وأما أُبَيّ بن خلف فقتله النبي ﷺ يوم أُحد بيده في المبارزة. وقال الضحاك: لما بزق عقبة في وجه رسول الله ﷺ، عاد بزاقه في وجهه فأحرق خدَّيه. وكان أثر ذلك فيه حتى مات. وقيل: نزلت في كل كافر أو ظالم تبع غيره في الكفر أو الظلم، وترك متابعة أمر الله تعالى. وقال أبو عبد الله عليه السلام: ليس رجل من قريش إلا وقد نزلت فيه آية أو آيتان، تقوده إلى جنة، أو تسوقه إلى نار، تجري فيمن بعده إن خيراً فخيراً وإنْ شراً فشراً.

● **المعنى:** ثم حكى سبحانه عن حال الكفار بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أي: لا يأملون لقاء جزائنا. وهذا عبارة عن إنكارهم البعث والمعاد. وقيل: معناه لا يخافون، فهي لغة تهامة. وهذيل يضعون الرجاء في موضع الخوف إذا كان معه جحد، لأن من رجا شيئاً خاف فوته، فإنه إذا لم يخف كان يقيناً. ومن خاف شيئاً رجا الخلاص منه، فوضع أحدهما موضع الآخر. ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: هلا أنزل الملائكة ليخبرونا بأن محمداً نبي ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ فيخبرنا بذلك ويأمرنا باتباعه وتصديقه. قال الجبائي: وهذا يدل على أنهم كانوا

---

(1) يقال للرجل إذا شدت يداه ورجلاه، أو أمسكه رجل آخر حتى يضرب عنقه: قتل صبراً.

مُجسِّمة، فلذلك جوّزوا الرؤية على الله. ثم أقسم الله عز اسمه فقال: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾ بهذا القول ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: طلبوا الكبر والتجبر بغير حق ﴿وَعَتَوْ﴾ بذلك أي: طغوا وعاندوا ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ أي: طغياناً وعناداً عظيماً، وتمرّدوا في ردّ أمر الله تعالى غاية التمرّد. ثم أعلم سبحانه أن الوقت الذي يرون فيه الملائكة هو يوم القيامة، وأن الله تعالى قد حرمهم البشرى في ذلك اليوم فقال: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ يعني يوم القيامة ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: لا بشارة لهم بالجنة والثواب، قال الزجاج: والمجرمون الذين أجرموا الذنوب، وهم في هذا الموضع الذين اجترموا الكفر بالله عز وجل. ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي: ويقول الملائكة لهم حراماً محرماً عليكم سماع البشرى، عن قتادة والضحاك. وقيل: معناه ويقول المجرمون للملائكة كما كانوا يقولون في الدنيا إذا لقوا من يخافون منه القتل حِجْراً محجوراً دماؤنا، عن مجاهد وابن جريج. قال الخليل: كان الرجل يرى الرجل الذي يخاف منه القتل في الجاهلية في الأشهر الحرم، فيقول: حجراً أي: حرام عليك حرمتي في هذا الشهر، فلا يبدأه بشرٍّ، فإذا كان يوم القيامة رأوا الملائكة فقالوا ذلك ظناً منهم أنه ينفعهم. وقيل: معناه يقول الملائكة حراماً محرماً أن يدخل الجنة إلا من قال لا إله إلا الله، عن عطاء عن ابن عباس. وقيل: يقولون حِجْراً محجوراً عليكم أن تتعوذوا فلا معاذ لكم. ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ﴾ أي: قصدنا وعمدنا، كما في قول الشاعر:

وقَدِمَ الخَوارِجُ الضُّلّالُ إلى عِبادِ رَبِّهِم فقالوا:
إنّ دِماءَكُم لَنا حَلالُ

وفي هذا بلاغة عجيبة لأن التقدير: قصدنا إليه قصد القادم على ما يكرهه مما لم يكن رآه قبل، فيغيّره. وأراد به العمل الذي عمله الكفار في الدنيا، مما رجوا به النفع والأجر، وطلبوا به الثواب والبر، نحو إنصافهم لمن يعاملهم ونصرهم للمظلوم وإعتاقهم وصدقاتهم، وما كانوا يتقرّبون به إلى الأصنام. ﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ وهو الغبار يدخل الكوة من شعاع الشمس، عن الحسن ومجاهد وعكرمة. وقيل: هو رهج الدواب(١)، عن ابن زيد. وقيل: هو ما تسفيه الرياح وتزريه من التراب، عن قتادة وسعيد بن جبير. وقيل: هو الماء المهراق، عن ابن عباس، والمنثور المتفرق، وهذا مثل. والمعنى: تذهب أعمالهم باطلًا، فلم ينتفعوا بها من حيث عملوها لغير الله. ثم ذكر سبحانه فضل أهل الجنة على أهل النار فقال: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ﴾ يعني يوم القيامة ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ أي: أفضل منزلًا في الجنة ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أي: موضع قائلة. قال الأزهري: القيلولة عند العرب الاستراحة نصف النهار إذا اشتد الحر، وإن لم يكن مع ذلك نوم، والدليل على ذلك أن الجنة لا نوم فيها. وقال ابن عباس وابن مسعود: لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار. وقال البلخي: معنى خير وأحسن هنا أنه خير في نفسه، وحسن في نفسه، لا بمعنى أنه أفعل من غيره، كما في قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ

---

(١) الرهج: ما أثير من الغبار.

﴿عَلَيۡهِ﴾ أي: هو هيِّن عليه. وكما يقال: الله أكبر. لا بمعنى أنه أكبر من شيء غيره. ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ عطف على قوله: ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ﴾ المعنى: تتشقق السماء وعليها غمام، كما يقال: ركب الأمير بسلاحه وخرج بثيابه، أي: وعليه سلاحه وثيابه، عن أبي علي الفارسي. وقيل: تتشقق السماء عن الغمام الأبيض، عن الفراء، وإنما تتشقق السماء لنزول الملائكة، وهو قوله: ﴿وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ وقال ابن عباس: تتشقق السماء الدنيا فينزل أهلها، وهم أكثر ممن في الأرض من الجن والإنس، ثم تتشقق السماء الثانية فينزل أهلها، وهم أكثر ممن في السماء الدنيا من الإنس والجن، ثم كذلك حتى تتشقق السماء السابعة، وأهل كل سماء يزيدون على أهل السماء التي قبلها. ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ أي: الملك الذي هو الملك حقاً ملك الرحمن يوم القيامة، ويزول ملك سائر الملوك فيه. وقيل: إن الملك ثلاثة أضرب: ملك عظمة وهو لله تعالى وحده، وملك ديانة وهو بتمليك الله تعالى، وملك جبرية وهو بالغلبة. ﴿وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ أعسر عليهم ذلك اليوم لشدته ومشقته، ويهون على المؤمنين كأدنى صلاة صلّوها في دار الدنيا.

وفي هذا بشارة للمؤمنين، حيث خصَّ بشدة ذلك اليوم الكافرين. ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ﴾ ندماً وأسفاً، وقيل: هو عقبة بن أبي معيط بن أُمية بن عبد شمس، على ما مضى ذكره، عن ابن عباس. وقيل: هو عام في كل ظالم نادم يوم القيامة، وكل خليل يخالّه غيره في غير ذات الله، قال عطاء: يأكل يديه حتى تذهبا إلى المرفقين ثم تنبتان، ولا يزال هكذا كلما نبتت يده أكلها ندامة على ما فعل. ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ أي: ليتني اتبعت محمداً ﷺ واتخذت معه سبيلًا إلى الهدى ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا﴾ يعني أُبيّاً ﴿خَلِيلًا﴾ وقيل: أراد به الشيطان، عن مجاهد. وإن قلنا: إن المراد بالظالم هنا جنس الظلمة، فالمراد به كل خليل يضلُّ عن الدين. ولو قال: لما اتخذ فرعون وهامان وإبليس وجميع المضلين لطال، فقال: فلاناً، حتى يتناول كل خليل مضلّ عن الدين. ﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي﴾ أي: صرفني وردّني ﴿عَنِ ٱلذِّكۡرِ﴾ أي: عن القرآن والإيمان به ﴿بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ﴾ مع الرسول، وتمَّ الكلام هنا. ثم قال الله: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ لأنه يتبرأ منه في الآخرة، ويسلّمه إلى الهلاك ولا يغني عنه شيئاً. ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ يعني محمداً ﷺ يشكو قومه ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورًا﴾ يعني هجروا القرآن وهجروني وكذّبوني، عن ابن عباس، والمعنى: جعلوه متروكاً لا يسمعونه ولا يتفهمونه. وقيل: إن قوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ معناه: ويقول، كما في قول الشاعر:

مِثْلُ العَصَافيرِ أحلاماً وَمَقْدُرَةً ... لو يُوزَنُون بِزِفّ الرِّيشِ مَا وَزَنُوا[1]

أي: ما يزنون.

● ● ●

(١) قائله: قعنب بن أم صاحب. والزف: صغار الريش. قاله في هجاء قوم وحقرهم.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا
وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ
فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾
ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ
ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ
ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ
وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ
وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ
أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا
يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

● **القراءة:** في الشواذ قراءة مسلم بن محارب: «فَدَمِّرانِّهمْ تدميراً» على التأكيد بالنون الثقيلة. ورُوِيَ ذلك عن علي عليه السلام وعنه: «فَدَمِّراهُمْ» وهذا كأنه أمر لموسى وهارون أن يدمّراهم.

● **اللغة:** العدو: المتباعد عن النصرة للبغضة، من عدا يعدو: إذا باعد خطوه. وعدا عليه: باعد خطوه للإيقاع به، وتعدى في فعله: إذا أبعد في الخروج عن الحق، ومنه عُدْوتا الوادي: لأنهما بعداه ونهايتاه، والترتيل: التبيين في تثبيت وترسل، وثغر رَتَل ورَتْل بفتح التاء وسكونها: إذا كان مفلجاً لا لصص فيه[1]. والتدمير: الإهلاك لأمر عجيب، ومنه التنكيل. يقال: دمر على فلان: إذا هجم عليه بالمكروه، والرس: البئر التي لم تطوَ بحجارة ولا غيرها. والتتبير: الإهلاك، والاسم منه التبار، ومنه قيل: التِبْر لِقطعِ الذهب.

● **الإعراب:** قال الزجاج: ﴿هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ منصوب على وجهين:

أحدهما: الحال، أي: كفى ربك في حال الهداية والنصر.

والآخر: أن يكون منصوباً على التمييز، أي: كفى ربك من الهداة والنصار، جملة نصب على الحال معناه مجموعاً. ﴿وَأَحْسَنَ﴾ مجرور بالعطف على ﴿الحَقِّ﴾. ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ في موضع نصب على الحال وتقديره: يحشرون مكبوبين. ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ منصوب بفعل مضمر يفسّره هذا الظاهر، تقديره: أغرقنا قوم نوح. والعامل فيه لما أغرقناهم. ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟﴾ وما بعد ذلك. عطف على الهاء والميم في قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾، ويجوز أن يكون عطفاً على معنى وأعتدنا للظالمين عذاباً. ويكون تقديره: وعدنا للظالمين بالعذاب ووعدنا عاداً. ﴿وَكُلًّا﴾ منصوب بفعل

---

(١) المفلجة من الأسنان: المنفرجة. واللصص تقارب الأسنان.

مضمر الذي ظهر تفسيره، المعنى: وأنذرنا كلًا ضربنا له الأمثال وتبرنا كلًا. ﴿مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ منصوب لأنه مصدر أمطرت تقديره: إمطار السوء.

● **المعنى:** ثم عزّى الله سبحانه نبيه بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: وكما جعلنا لك عدواً من مشركي قومك، جعلنا لكل نبي عدواً من كفار قومه، عن ابن عباس. والمعنى في جعله إياهم عدواً لأنبيائه: أنه تعالى أمر الأنبياء عليهم السلام أن يدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى، وترك ما ألفوه من دينهم ودين آبائهم، وإلى ترك عبادة الأصنام وذمها، وكانت هذه أسباباً داعية إلى العداوة، فإذا أمرهم بها فقد جعلهم عدواً لهم. ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ أي: حسبك بالله هادياً إلى الحق وناصراً لأوليائه في الدنيا والآخرة على أعدائهم. وقيل: هادياً للأنبياء إلى التحرز عن عداوة المجرمين بالاعتصام بحبله. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ معناه: وقال الكفار لرسول الله ﷺ: هلا أتيتنا بالقرآن جملة واحدة، كما أُنزلت التوراة والإنجيل والزبور جملة واحدة. قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: نزّلناه كذلك متفرّقاً ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ أي: لنقوّي به قلبك فتزداد بصيرة، وذلك أنه إذا كان يأتيه الوحي متجدداً في كل حادثة وكل أمر، كان ذلك أقوى لقلبه وأزيد في بصيرته. وقيل: إنما أُنزلت الكتب جملة واحدة لأنها نزلت على أنبياء يكتبون ويقرأون فنزلت عليهم مكتوبة، والقرآن إنما نُزِّل على نبي أميّ لا يكتب ولا يقرأ، ولذلك نزل متفرّقاً، وأيضاً فإن في القرآن الناسخ والمنسوخ، وفيه ما هو جواب لمن سأله عن أُمور، وفيه ما هو إنكار لما كان، وفيه ما هو حكاية شيء جرى، فاقتضت الحكمة إنزاله متفرقاً. ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ أي: بيّناه تبييناً ورسّلناه ترسيلًا، بعضه في اثر بعض، عن ابن عباس ومجاهد وقتادة. وقيل: فصّلناه تفصيلًا، عن السدي، وقيل: فرّقناه تفريقاً، عن النخعي. ورُوِيَ أن النبي ﷺ قال: «يا بن عباس إذا قرأت القرآن فرتله ترتيلًا، قال: وما الترتيل؟ قال: بيّنه تبييناً ولا تنثره نثر الدقل، ولا تهذه هذّ الشعر[1]، قفوا عند عجائبه وحرّكوا به القلوب، ولا يكونن همُّ أحدكم آخر السورة». ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي: ولا يأتيك المشركون بمثل يضربونه لك في إبطال أمرك ومخاصمتك ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الذي يبطله ويدحضه ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أي: وبأحسن تفسيراً مما أتوا به من المثل أي: بياناً وكشفاً. ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي: يُسْحبون على وجوههم إلى النار وهم كفار مكة، وذلك أنهم قالوا لمحمد ﷺ وأصحابه هم شرُّ خلق الله سبحانه. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي: منزلًا ومصيراً ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي: ديناً وطريقاً من المؤمنين. وروى أنس أن رجلًا قال: يا نبي الله! كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: «إن الذي أمشاه على رجليه قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة». أورده البخاري في الصحيح. ثم ذكر سبحانه حديث الأنبياء وأممهم تسلية للنبي فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني التوراة ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾ أي: معيناً يعينه على تبليغ الرسالة، ويتحمل عنه بعض أثقاله ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ

---

(١) الدقل: رديء التمر ويابسه، وما ليس له اسم خاص، فتراه ليبسه ورداءته لا يجتمع، ويكون منثوراً. والهذ: سرعة القراءة.

إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يعني فرعون وقومه، وفي الكلام حذف أي: فذهبا إليهم فلم يقبلوا منهما وجحدوا نبوتهما ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ أي: أهلكناهم إهلاكاً بأمر فيه أُعجوبة. ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ أي: وأغرقنا قوم نوح بالطوفان، وهو مجيء السماء بماء منهمر، وتفجير الأرض عيوناً حتى التقى الماء على أمر قد قدر. قال الزجاج: من كذَّب نبياً فقد كذَّب بجميع الأنبياء. ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ أي: عبرة وعظة ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ أي: وهيَّأنا ﴿لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ سوى ما حلَّ بهم في الدنيا ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟﴾ أي: وأهلكنا عاداً وثمود، ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ وهو بئر رسوا فيها نبيهم أي: ألقوه فيها، عن عكرمة، وقيل: إنهم كانوا أصحاب مواش ولهم بئر يقعدون عليها، وكانوا يعبدون الأصنام، فبعث الله إليهم شعيباً فكذَّبوه، فانهار البئر وانخسفت بهم الأرض فهلكوا، عن وهب. وقيل: الرس قرية باليمامة يقال لها فلج قتلوا نبيهم فأهلكهم الله، عن قتادة. وقيل: كان لهم نبي يسمى حنظلة، فقتلوه فأُهلكوا، عن سعيد بن جبير والكلبي. وقيل: هم أصحاب رس، والرس: بئر بأنطاكية، قتلوا فيها حبيباً النجار، فنسبوا إليها، عن كعب ومقاتل. وقيل: أصحاب الرس كان نساؤهم سحاقات، عن أبي عبد الله عليه السلام. ﴿وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ أي: وأهلكنا أيضاً قروناً كثيراً بين عاد وأصحاب الرس على تكذيبهم. وقيل: بين نوح وأصحاب الرس. والقرن: سبعون سنة. وقيل: أربعون سنة، عن إبراهيم. ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ أي: وكلا بيَّنا لهم أن العذاب نازل بهم إن لم يؤمنوا، عن مقاتل. وقيل: معناه بيَّنا لهم الأحكام في الدين والدنيا ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ أي: وكلًا أهلكنا إهلاكاً على تكذيبهم وجحودهم. قال الزجاج: كل شيء كسرته وفتته فقد تبرته. ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟﴾ يعني كفار مكة ﴿عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ يعني قرية قوم لوط أُمطروا بالحجارة ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾ في أسفارهم إذا مرُّوا فيخافوا ويعتبروا ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ يعني: بل رأوها وإنما لم يعتبروا بها لأنهم كانوا لا يخافون البعث، وقيل: لا يأملون ثواباً ولا يؤمنون بالنشأة الثانية، فركبوا المعاصي.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا
﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ
يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ
وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ
هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ
جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ
لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا
بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ

مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ البرجمي: «نَسقيه» بفتح النون، والباقون: «نُسقيه» بضم النون. وفي الشواذ قراءة الأعرج: «من اتخذ الألاهة هواه»، وقراءة ابن السميقع: «الرياح بشرى».

● **الحجة:** قد مضى الفرق بين نسقي ونُسقي فيما تقدم[1]. والألاهة: الشمس، وقيل: ألهة بالضم غير مصروفة، وأنشد:

تَـرَوَّحْـنـا مِـنَ الـلَّـعْـبَـاءِ عَـصْـراً ... وَأَعْـجَـلْـنـا الأَلاهَـةَ أَنْ تَـؤُوبَـا[2]

ويروى: «وأعجلنا الإلاهة». ومن قرأ: «وألاهتكَ» فمعناه: وعبادتك، وقد يجوز أن يكون أراد هذه المعرفة، فأضافها إليه لعبادته لها، فيكون كقولك: ويذرك وشمسك أي: والشمس التي تعبدها. ومن قرأ: «بشرى» فهو مصدر وضع موضع الحال أي: مبشرة كقولهم: هلم جراً أي: جاراً أو منجراً، ويأتينك سعياً. وقد ذكرنا الاختلاف بين القراء فيه وما لهم من الاحتجاج في كل وجه منه في سورة الأعراف، وذكرنا اختلافهم في «ليذكروا» في سورة بني إسرائيل.

● **اللغة:** القبض: جمع الأجزاء المنبسطة، واليسير: السهل القريب، واليسير أيضاً: نقيض العسير. وأيسر الرجل: ملك من المال ما تتيسّر به الأمور عليه. وقيل: اليد اليسرى، لأنه يتيسر بها العمل مع اليمنى، وتياسر: أخذ في جهة اليد اليسرى، والسبات: قطع العمل، ومنه سبت رأسه يسبته سبتاً: إذا حلقه. ومنه يوم السبت: وهو يوم قطع العمل. والنشر: خلاف الطيّ. وأناسيّ: جمع إنسان جعلت الياء عوضاً عن النون، وقد قالوا أيضاً: أناسين. وقد يجوز أن يكون جمع إنسي، فيكون مثل كرسي وكراسي.

● **الإعراب:** ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ العائد من الصلة إلى الموصول محذوف لطول الكلام أي: بعثه الله. ﴿رَسُولًا﴾ منصوب على الحال من الهاء المحذوفة. و﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ إن مخففة، واسمه محذوف تقديره: إنه كاد، وهو ضمير الأمر والشأن. واللام في ﴿لَيُضِلُّنَا﴾ لام التأكيد التي تقع في خبر إن. ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ كيف في محل النصب على الحال من الضمير المستكن في مد. والتقدير: أمبدعاً مد الظل أم لا. ويجوز أن يكون في موضع المصدر والتقدير: أي: مدٍّ مدَّ الظل. وقال الزجاج: الأجود أن يكون «ألم تر» من رؤية القلب، ويجوز أن يكون من رؤية العين. و﴿بُشْرًا﴾ نصب على الحال في الوجوه كلها من الرياح، والعامل فيه ﴿أَرْسَلَ﴾. ﴿مِمَّا خَلَقْنَآ﴾ الجار والمجرور في موضع نصب على الحال.

● **المعنى:** ثم حكى سبحانه عن الكفار الذين وصفهم فيما تقدَّم فقال: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ﴾ أي: وإذا شاهدوك يا محمد ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي: ما يتخذونك إلا مهزواً به،

---

(١) يعني في سورة النحل فراجع ج٣ من هذه الطبعة.

(٢) قيل: إن الشعر لمية بنت عتبة، وهي أم البنين.

والمعنى أنهم يستهزئون بك ويستصغرونك، ويقولون على وجه السخرية: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ أي: بعثه الله إلينا رسولاً ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ قال ابن عباس: معناه لقد كاد يصرفنا عن عبادة آلهتنا، وتأويله: قد قارب أن يأخذ بنا في غير جهة عبادة آلهتنا، على وجه يؤدي إلى هلاكنا، فإن الإضلال: الأخذ بالشيء إلى طريق الهلاك. ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أي: على عبادتها لأزلنا عن ذلك، وحذف الجواب لدلالة الكلام عليه. فقال سبحانه متوعداً لهم ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ الذي ينزل بهم في الآخرة عياناً ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي: من أخطأ طريقاً عن الهدى، أهم أم المؤمنون. ثم عجَّب سبحانه نبيه ﷺ من نهاية جهلهم فقال: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أي: من جعل إلٰهه ما يهواه، وهو غاية الجهل. وكان الرجل من المشركين يعبد الحجر والصنم، فإذا رأى أحسن منه رمى به وأخذ يعبد الآخر، عن سعيد بن جبير. وقيل: معناه أرأيت من ترك عبادة خالقه وإلٰهه ثم هوى حجراً فعبده، ما حاله عندك؟ عن عطاء، عن ابن عباس. وقيل: من أطاع هواه واتبعه فهو كالإله له، وترك الحق، عن القتيبي. ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ أي: أفأنت كفيل حافظ يحفظه من اتباع هواه، وعبادة ما يهواه من دون الله أي: لست كذلك، وقيل: معناه أتقدر أنت يا محمد أن تهديه إذا لم يتدبّر ولم يتفكّر؟ أي: لا تقدر على ذلك لأن الوكيل هو الكافي للشيء، ولا يكون كذلك إلا وهو قادر عليه. ثم قال للنبي ﷺ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾ يا محمد، ﴿أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ ما تقوله سماع طالب للإفهام ﴿أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ ما تقوله لهم وتقرأ عليهم، وما يعاينونه من المعجزات والحجج، أي: لا تظن ذلك ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: ما هم إلا كالبهائم التي تسمع النداء ولا تعقل ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ من الأنعام لأنهم مكّنوا من المعرفة، فلم يعرفوا. والأنعام لم يمكّنوا منها، ولأن الأنعام أُلهمت منافعها ومضارها، فهي لا تفعل ما يضرّها، وهؤلاء عرفوا طريق الهلاك والنجاة وسعوا في هلاك أنفسهم، وتجنبوا سبيل نجاتهم، فهم أضل منها. ثم نبَّه سبحانه على النظر فيما يدل على وحدانيته وكمال قدرته فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والمراد به سائر المكلفين ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ أي: ألم تر إلى فعل ربك، ثم حذف المضاف، عن مقاتل. وقيل: معناه ألم تعلم فيكون من رؤية القلب، عن الزجاج: وذكر أن هذا على القلب، وتقديره: ألم تر إلى الظل كيف مده ربك، يعني الظل من وقت طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، عن ابن عباس والضحاك وسعيد بن جبير. وجعله ممدوداً لأنه لا شمس معه، كما قيل في ظل الجنة ممدوداً إذا لم تكن معه الشمس. وقال أبو عبيدة: الظل ما نسخته الشمس وهو بالغداة، والفيء ما نسخ الشمس وهو بعد زوال الشمس، وسمي فيئاً لأنه فاء من جانب المشرق إلى جانب المغرب. وقيل: مدّ الظل من وقت غروب الشمس إلى وقت طلوعها، فيكون الظل بالليل، لأنه ظل الأرض، عن الجبائي والبلخي. ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ أي: مقيماً دائماً لا يزول ولا تنسخه الشمس. يقال: فلان يسكن بلد كذا: إذا أقام به. فهو مثل قوله سبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، في المعنى. وفي هذا إشارة إلى أنه قادر على تسكين الشمس حتى يبقى الظل ممدوداً، بخلاف ما يقوله الفلاسفة. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ﴾ أي: على الظل ﴿دَلِيلًا﴾ قال ابن عباس: تدل الشمس على

الظل، بمعنى: أنه لولا الشمس لما عرف الظل، ولولا النور لما عرفت الظلمة، وكل الأشياء تعرف بأضدادها. وقيل: معناه ثم جعلنا الشمس عليه دليلًا بإذهابها إياه عند مجيئها، عن ابن زيد. وقيل: لأن الظل يتبع الشمس في طوله وقصره، كما يتبع السائر الدليل، فإذا ارتفعت الشمس قصر الظل وإذا انحطت الشمس طال الظل. وقيل: إنَّ على هنا بمعنى مع، فالمعنى: ثم جعلنا الشمس مع الظل دليلًا على وحدانيتنا ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ أي: قبضنا الظل بارتفاع الشمس، لأن الشمس كلما تعلو ينقص الظل فجعل سبحانه ذلك قبضاً. وأخبر أن ذلك يسير بمعنى أنه سهل عليه لا يعجزه. قال الكلبي: إذا طلعت الشمس قبض الله الظل قبضاً خفياً، والمعنى: ثم جمعنا أجزاء الظل المنبسط بتسليط الشمس عليه حتى ننسخها شيئاً فشيئاً. وقيل: معناه ثم قبضنا الظل بغروب الشمس إلينا أي: إلى الموضع الذي حكمنا بكون الظل فيه. قبضاً يسيراً أي: خفياً. وإنما قيل ذلك لأن الظل لا يذهب بغروب الشمس دفعة، بل يذهب جزءاً فجزءاً بحدوث الظلام، فكلما حدث جزء من الظلام نقص جزء من الظل. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي: غطاء ساتراً للأشياء بالظلام، كاللباس الذي يشتمل على لابسه. فالله سبحانه ألبسنا الليل وغشانا به لنسكن ونستريح من كدِّ الأعمال، كما قال في موضع آخر ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾. ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أي: راحة لأبدانكم وقطعاً لأعمالكم، قال الزجاج: السبات أن ينقطع عن الحركة والروح في بدنه. ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ لانتشار الروح باليقظة فيه، مأخوذ من نشور البعث. وقيل: لأن الناس ينتشرون فيه لطلب حوائجهم ومعايشهم، فيكون النشور هنا بمعنى التفرق لابتغاء الرزق، عن ابن عباس. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ مضى الكلام فيه في سورة الأعراف ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ أي: طاهراً في نفسه ومطهِّراً لغيره، مزيلًا للأحداث والنجاسات ﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ قد مات بالجدب، وأراد بالبلدة: البلد أو المكان. فلذلك قال: ﴿مَّيْتًا﴾ بالتذكير، والمعنى: لنحيي بالمطر بلدة ليس فيها نبت، قال ابن عباس: لنخرج به النبات والثمار ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا﴾ أي: ولنسقي من ذلك الماء أنعاماً جمة أو نجعله سقياً لأنعام ﴿وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ أي: أناساً كثيرة. ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ﴾ أي: صرفنا المطر ﴿بَيْنَهُمْ﴾ يدور في جهات الأرض. وقيل: قسّمناه بينهم يعني المطر، فلا يدوم على مكان فيهلك، ولا ينقطع عن مكان فيهلك، ويزيد لقوم وينقص لآخرين على حسب المصلحة ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ أي: ليتفكروا ويستدلوا به على سعة مقدورنا، ولأنه لا يستحق العبادة غيرنا ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي: جحوداً لما عدَّدناه من النعم وإنكاراً، فيقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، عن عكرمة، وقيل: فأبوا إلا كفوراً بالبعث والنشور.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا

مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ
نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ
ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ
وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا
بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ
لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾ .

● **القراءة:** قرأ حمزة والكسائي: «لما يأمرنا» بالياء، والباقون بالتاء.

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ بالتاء قال: إنهم تلقوا أمر النبي ﷺ إياهم بالرد، وزادهم أمره إياهم بالسجود نفوراً عما أُمروا به. ومن قرأ بالياء فالمعنى: أنسجد لما يأمرنا محمد بالسجود على وجه الإنكار منهم لذلك، ولا يكون أنسجد لما يأمرنا الرحمن بالسجود له، لأنهم أنكروا الرحمن تعالى بقولهم: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾. وأقول: إذا جعلت ما بمعنى الذي على ما ذكره، فالتقدير: أنسجد لما يأمرنا بالسجود له، وترتيب الحذف فيه على الوجه الذي تقدم بيانه في قوله سبحانه ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فلا وجه لإعادته(1). وإن جعلت ما مصدرية فإنك لا تحتاج إلى حذف شيء ويكون تقديره: أنسجد لأمرك أو لأمره.

● **اللغة:** أصل المرج: الخلط، ومنه أمر مريج أي: مختلط، وفي الحديث: «مرجت عهودهم» أي: اختلطت. ومرجت الدابة وأمرجتها: إذا خليتها ترعى. وعذب الماء عذوبة فهو عذب. والفرات أعذب المياه، يقال: فرت الماء يفرت فروتة فهو فرات: إذا عذب، والملح الأُجاج: الشديد الملوحة، والنسب: ما يرجع إلى ولادة قريبة، والصهر: خلطة تشبه النسب. القرابة والمصاهرة في النكاح: المقاربة، وفي الحديث: «كان يؤسّس مسجد قبا فيصهر الحجر العظيم إلى بطنه» أي: يدنيه يقال: صهره وأصهره.

● **الإعراب:** ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ مبتدأ وخبر في موضع نصب على الحال، وكذلك قوله: ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ بالعطف عليه، وذو الحال أحد البحرين. ﴿مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ نصب على الحال، و﴿مَن شَآءَ﴾ نصب على الاستثناء، والمستثنى منه الكاف، والميم في ﴿أَسْـَٔلُكُمْ﴾. و﴿أَن يَتَّخِذَ﴾ في موضع نصب بأنه مفعول شاء. ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ في موضع جر تقديره: وتوكل على الحي الذي لا يموت، خالق السماوات والأرض. ويحتمل أن يكون في موضع نصب أو رفع على المدح والثناء، على تقدير: أعني الذي خلق، أو هو الذي خلق. و﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ بالرفع القراءة. وورد عن بعضهم في الشواذ بالجر، ففي الرفع وجوه:

---

(1) راجع في سورة الحجر آية: ٩٤.

أحدها: الابتداء، وخبره ﴿فَسْئَلْ بِهِۦ﴾ عن الزجاج. وفيه نظر، لأن الفاء إنما يجوز في خبر ما فيه الألف واللام، إذا جاز فيه معنى الشرط، ولا يصح ذلك هنا.

والثاني: أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي: هو الرحمن.

والثالث: أن يكون بدلًا من الضمير المستكن في ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾.

والرابع: أن يكون فاعل ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾.، وأما الجر فعلى أن يكون صفة وتقديره: وتوكَّل على الحي الخالق الرحمن. و﴿نُفُورًا﴾ مفعول ثان لزاد.

● **المعنى**: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾﴾ ينذرهم، ولكن بعثناك يا محمد إلى القرى كلها رسولًا، لعظيم منزلتك لدينا، والنذير: هو الداعي إلى ما يؤمن معه الخوف من العقاب. وقيل: إنه إخبار عن قدرته سبحانه، والمعنى: لو شئنا لقسمنا بينهم النذر، كما قسمنا الأمطار بينهم، ولكنا نفعل ما هو الأصلح لهم والأعود عليهم في دينهم ودنياهم، فبعثناك إليهم كافة. ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فيما يدعونك إليه من المداهنة والإجابة إلى ما يريدون. ﴿وَجَٰهِدْهُم﴾ في الله ﴿بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن، عن ابن عباس ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ أي: تاماً شديداً، وفي هذا دلالة على أن مِنْ أَجَلِّ الجهاد وأَعْظَمه منزلة عند الله سبحانه جهاد المتكلمين في حلِّ شبه المبطلين وأعداء الدين. ويمكن أن يتأول عليه قوله: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي: أرسلهما في مجاريهما وخلاهما كما يرسل الخيل في المرج، وهما يلتقيان فلا يختلط الملح بالعذب ولا العذب بالملح، وهو قوله: ﴿هَٰذَا﴾ يعني أحد البحرين ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ أي: طيِّب شديد الطيب ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ شديد الملوحة، وقيل: الفرات البارد، والأُجاج الحاد. وقيل: الأجاج المر، عن قتادة ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ أي: حجاباً وحاجزاً من قدرة الله تعالى، يمنعهما من الاختلاط ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي: حراماً محرماً أن يفسد الملح العذب ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ أي: خلق من النطفة إنساناً، وقيل: أراد به آدم عليه السلام، فإنه خلق من التراب الذي خلق من الماء. وقيل: أراد به أولاد آدم فإنهم المخلوقون من الماء ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ أي: فجعله ذا نسب وصهر، والصهر: حرمة الختونة. وقيل: النسب الذي لا يحل نكاحه، والصهر: النسب الذي يحل نكاحه كبنات العم والخال، عن الفراء، وقيل: النسب سبعة أصناف والصهر خمسة، ذكرهم الله في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾، عن قتادة والضحاك. وقد تقدَّم بيانه في سورة النساء. وقيل: النسب البنون، والصهر البنات اللاتي يستفيد الإنسان بهن الإصهار فكأنه قال: فجعل منه البنين والبنات. وقال ابن سيرين: نزلت في النبي صلى الله عليه وآله وعلي بن أبي طالب زوج فاطمة عليها السلام، فإن علياً عليه السلام هو ابن عمه وزوج ابنته، فكان نسباً وصهراً. ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ أي: قادراً على ما أراد. ثم أخبر سبحانه عن الكفار فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ من الأصنام والأوثان ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ الظهير: العون والمعين أي: معيناً للشيطان على ربه بالمعاصي، عن الحسن ومجاهد. وقال الزجاج: لأنه يتابع الشيطان ويعاونه على معصية الله، فإن عبادتهم الأصنام معاونة للشيطان، وقيل: ظهيراً أي: هيناً كالمطرح من قولهم: ظهر فلان بحاجته: إذا

جعلها خلف ظهره فلم يلتفت إليها واستهان بها. والظهير: بمعنى المظهور وهو المتروك المستخف به، ومنه قوله: ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾. والأول أوجه. وقالوا: عنى بالكافر أبا جهل. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمد ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ من النار، وقد سبق معناه. ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على القرآن وتبليغ الوحي ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ تعطونيه ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ بإنفاقه ماله في طاعة الله واتباع مرضاته. والمعنى: إني لا أسألكم لنفسي أجراً، ولكني لا أمنع من إنفاق المال في طلب مرضاة الله سبحانه، بل أرغب فيه وأحث عليه. وفي هذا تأكيد لصدقه، لأنه لو طلب على تبليغ الرسالة أجراً، لقالوا: إنما يطلب أموالنا. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ أي: فوّض أمورك إليه، فإنه ينتقم لك ولو بعد حين، فإنه الحي الذي لا يموت، فلن يفوته الانتقام ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ أي: احمده منزّهاً له عما لا يجوز عليه في صفاته بأن تقول: الحمد لله رب العالمين، الحمد لله على نعمه وإحسانه الذي لا يقدر عليه غيره، الحمد لله حمداً يكافىء نعمه في عظيم المنزلة وعلوّ المرتبة. وما أشبه ذلك. وقيل: معناه واعبده وصلِّ له شكراً منك له على نعمه. ﴿وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ أي: عليماً فيحاسبهم ويجازيهم بها. فحقيق بهم أن يخافوه ويراقبوه ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: ما بين هذين الصنفين ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ﴾ قد سبق تفسيره في سورة الأعراف. ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ اختلف في تأويله فقيل: إن المعنى فاسأل عنه خبيراً، والباء بمعنى عن، والخبير ههنا هو الله تعالى، عن ابن جريج، وأنشد في قيام (الباء) مقام (عن) قول علقمة بن عبدة:

فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنَّنِي ... خَبِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبُ
يُرِدْنَ ثَرَاءَ المَالِ حَيْثُ وَجَدْنَهُ ... وَشَرْخُ الشَّبَابِ عِنْدَهُنَّ عَجِيبُ(١)
إذا شَابَ رأسُ المَرْءِ أو قَلَّ مَالُهُ ... فَلَيْسَ لَهُ فِي وُدِّهِنَّ نَصِيبُ

وقول الأخطل:

دَعِ المُعَمَّرَ لا تَسْأَلْ بِمَصْرَعِهِ ... واسْأَلْ بِمَصْقَلَةَ البَكْرِيِّ ما فَعَلا

وقيل: إن الخبير هنا محمد ﷺ، والمعنى: ليسأل كل منكم عن الله تعالى محمداً فإنه الخبير العارف به، وقيل: إن الباء على أصلها، والمعنى: فاسأل بسؤالك أيها الإنسان خبيراً يخبرك بالحق في صفته. ودل قوله: ﴿فَاسْأَلْ﴾ على السؤال، كما قالت العرب: «من كذب كان شراً له»، أي: كان الكذب شراً له. ودلَّ عليه كذب. وقد مر ذكر أمثاله، وقيل: إن الباء فيه مثل الباء في قولك: لقيت بفلان ليثاً: إذا وصفت شجاعته، ولقيت به غيثاً: إذا وصفت سماحته، والمعنى: إنك إذا رأيته رأيت الشيء المشبه به، والمعنى: فاسأله عنه فإنه لخبير به. ورُوِيَ أن اليهود حكوا عن ابتداء خلق الأشياء، بخلاف ما أخبر الله تعالى عنه. فقال سبحانه: ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾، قال نفطويه: أي: سلني عنه فإنك تسأل بسؤالك(٢) خبيراً. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي:

---

(١) الثراء: كثرة المال. وشرخ الشباب: أوله. (٢) [إياي].

لهؤلاء المشركين ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي: وأي شيء الرحمن، والمعنى: أنّا لا نعرف الرحمن، قال الزجاج: الرحمن اسم من أسماء الله عز اسمه، مذكور في الكتب الأولى، ولم يكونوا يعرفونه من أسماء الله. فقيل لهم: إنه من أسماء الله، ومعناه عند أهل اللغة: ذو الرحمة التي لا غاية بعدها في الرحمة، لأن فعلان من أبنية المبالغة، تقول: رجل ريان وعطشان في النهاية من الري والعطش، وفرحان وجذلان: إذا كان في النهاية من الفرح والجذل. ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ مرَّ تفسيره ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ أي: زادهم ذكر الرحمن تباعداً من الإيمان، عن مقاتل. والمعنى: أنهم ازدادوا عند ذلك نفوراً عن الحق وقبول قول النبي ﷺ.

● **النظم:** وجه اتصال الآية بما قبلها: أن فيها إخباراً أنه سبحانه أفرده بالإرسال مراعاة لحسن التدبير في تمييزه بالإكرام والإجلال، لعلمه بما فيه من الخلال الموجبة في الحكمة إرساله إلى الخلق على غاية الكمال. فعلى هذا يتعلق بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾، ثم ذكر من التصريف للآيات بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ ما يدل على وحدانيته وكمال قدرته. ثم عجب سبحانه من إعراضهم عن الآيات مع وضوحها وظهورها، ومقابلتهم لنعمه بالكفران بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية. ثم بيَّن أنه أراد بتصريف الآيات الخير والإحسان بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ الآية. ثم بيَّن أنه لا يسألهم عليه أجراً لئلا ينفروا عنه. ثم بيَّن سبحانه أنه كما لا يسألهم أجراً، إنه يتوكل عليه في أمره، ويفوّض إليه علم المصالح فيما كلّفه. ثم هدَّد سبحانه عباده بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ فإنه إذا لم يذهب عليه ذنوبهم، لا يذهب عليه جزاؤهم.

●●●

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا
(٦١) وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢)
وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا (٦٣)
وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا (٦٤) وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ
جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟
لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا
ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا
(٦٨) يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ
عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠)﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير عاصم: «سُرُجاً» بضمتين من غير ألف، والباقون: «سراجاً»، وقرأ حمزة وخلف: «أن يَذْكُرَ» خفيفاً، والباقون: «يَذَّكَّر» بتشديدتين. وقرأ أهل

المدينة وابن عامر: «يقتروا» بضم الياء، وقرأ أهل الكوفة بفتح الياء وضم التاء. وقرأ أهل البصرة وابن كثير بفتح الياء وكسر التاء. وقرأ أبو جعفر وابن عامر ويعقوب وسهل: «يضعف له العذاب» بالتشديد والجزم، و«يخلد» بالجزم، وقرأ ابن عامر: «يضعف» بالتشديد والرفع، و«يخلد» بالرفع، وقرأ أبو بكر: «يضاعف» بالألف والرفع، و«يخلد» بالرفع. وقرأ نافع وأبو عمرو وأهل الكوفة إلا أبا بكر: «يضاعف» بالألف والجزم، و«يخلد» بالجزم، وقرأ ابن كثير وحفص: «فيهي مهاناً» بإشباع كسرة الهاء، وذلك مذهب ابن كثير في جميع القرآن، ووافقه حفص في هذا الموضع فقط، وقرأ: «يبدل الله» بسكون الباء البرجمي، عن أبي بكر مختلفاً عنه، والباقون بالتشديد.

● **الحجة:** من قرأ «سراجاً» فحجته قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾، ومن قرأ «سرجاً» فحجته قوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ فشبهت الكواكب بالمصابيح كما شبهت المصابيح بالكواكب في قوله: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾. وإنما المصباح الزجاجة في المعنى، وقد سبق القول في يذكر ويذَّكَّر فيما مضى. والإقتار: خلاف الإسراف. قال الشاعر:

لَكُمْ مَسْجِدِ اللهِ المزوران والحصَى لكمْ قِبْصُهُ من بين أثرى وأقترا[1]

تقديره: من بين رجل أثرى، ورجل أقترا. فأقام الصفة مقام الموصوف. ومثله في التنزيل: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ قال أبو علي: يجوز أن يكون على قبيل مردوا مثل قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾، وأما قَتَر يَقْتِرُ ويَقْتُرُ فمثل عَكَفَ يَعْكُفُ ويَعْكِفُ وعَرَشَ يعرِش ويَعْرُشُ. فمن ضمَّ الياء أراد لم يُقْتِروا في إنفاقهم، لأن المسرف مشرف على الإقتار. ومن فتح الياء فالمعنى: لم يضيقوا في الإنفاق. ومن قرأ «يضاعف» بالجزم: جعله بدلًا من الفعل الذي هو جزاء الشرط، وهو قوله: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ وذلك أن تضعيف العذاب هو لقي جزاء الأثام في المعنى. ومثله قول الشاعر:

إن يَجْبُنُوا أو يَغْدروا أو يَبْخَلُوا لا يحفِلُوا يَغدوا عليكَ مُرَجَّلين كأنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا

فغدوهم مرجلين في المعنى ترك الاحتفال. وقد أبدل من الشرط كما أبدل من الجزاء، وذلك في قول الشاعر:

متى تأتِنا تُلْمِمْ بنا في ديارنا تَجِدْ حَطباً جَزْلًا ونار تَأَجَّجا[2]

فأبدل تلمم من تأتنا، لأن الإلمام إتيان في المعنى. قال أبو علي: ومثل حذف الجزاء الذي هو مضاف في المعنى في قوله: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ أي: جزاء أثام قوله: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا

---

(١) قائله الكميت. وأراد من قوله «مسجد الله» مسجد مكة. ومسجد المدينة. «والحصى»: أراد به العدد العديد من الأهل والتبع. والقبص: بمعنى العدد الكثير من الناس. والضمير في «قبصه» يعود إلى الحصى، يقال: إنَّ بني فلان لفي قبص الحصى.

(٢) الشعر في (جامع الشواهد).

﴿كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾، المعنى: من جزاء ما كسبوا، وقال أبو عبيدة: يلق أثاماً أي: عقوبة. وأنشد لمسافع الليثي:

جـزى الله ابـنَ عـزوةَ حـيـثُ أَمْـسَـى عُـقُـوقـاً والـعُـقُـوقُ لَهُ أَثـامُ

قال: وابن عروة رجل من ليث، كان دل عليهم ملكاً من غسان، فأغار عليهم. قال أبو علي: ويمكن أن يكون هذا من قول بشر:

فـكـان مـقـامُـنـا نـدعـو عَـلَيْـهِـم بِـأَسْـفَـلِ ذي الـمَـجـازِ لَهُ أثـام(١)

ومن رفع يضاعف ويخلد قطعه عما قبله واستأنف. وأما يضاعف ويضعف فهما في المعنى سواء وكذلك يبدِّل ويبدل.

● **اللغة:** قال أبو عبيدة: الخلفة كل شيء بعد شيء، الليل خلفة النهار والنهار خلفة الليل لأن أحدهما يخلف الآخر. قال زهير:

بـهـا الـعَـيْـن والآرامُ يـمـشِـيـن خِـلْفَـةً وأطلاؤها يـنـهـضْـنَ من كـل مَـجْـثَـمِ(٢)

والهون: مصدر الهين في السكينة والوقار. والغرام: أشد العذاب وهو اللازم الملحّ، ومنه الغريم لملازمته وإلحاحه. وفلان مغرم بالنساء أي: ملازم لهن لا يصبر عنهن. قال بشر بن أبي حازم:

ويـومُ الـنِّـسَـارِ ويـومُ الـجِـفَـارِ كـانـا عـذابـاً وكـانـا غـرامـاً(٣)

وقال آخر:

إن يُـعَـاقِـبْ يَـكُـنْ غَـرامـاً وإن يُـعْـطِ جَـزِيـلًا فـإنَّـهُ لا يُـبـالـي

● **الإعراب:** ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ﴾ خبر المبتدأ الذي هو ﴿عِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، ويجوز أن يكون خبره ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾، ويكون ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ﴾ صفة العباد. و﴿هَوْنًا﴾ في موضع الحال، و﴿سَلَٰمًا﴾ نصب على المصدر بفعل محذوف وتقديره: فنسلِّم منكم سلاماً لا نجاهلكم، كأنهم قالوا تسلماً منكم. و﴿مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ منصوبان على التمييز، والمخصوص بالذم محذوف وتقديره: ساءت مستقراً جهنم. ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ أي: كان الإنفاق ذا قوام بين الإسراف والإقتار، فقوله ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ تبيين لقوام. وإن شئت علقته بنفس كان. وإن شئت علقته بخبر كان أي: ثابتاً بين ذلك فيكون خبر بعد خبر.

---

(١) في (اللسان) «بأبطع ذي المجاز». وذو المجاز: موضع سوق خلف العرفة بفرسخ، كانت تقوم في الجاهلية ثمانية أيام.

(٢) هذا بيت من معلقته الشهيرة يصف داراً. وبها العين أي: البقر العين. فحذف الموصوف. والعين: جمع عيناء واسعة العين. والأرام: جمع ريم الظبي الأبيض والأطلاء جمع طلا: ولد الظبية. والجثوم: القعود.

(٣) النسار والجفار: موضعان وقعت فيهما حروب للعرب.

● **المعنى:** ثم مدح سبحانه نفسه بأنه قال: ﴿تَبَارَكَ﴾ وقد مرَّ معناه في أول السورة ﴿الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ يريد منازل النجوم السبعة السيارة التي هي: زحل والمشتري والمريخ والشمس والزهرة وعطارد والقمر، وهي اثنا عشر برجاً: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت، وقيل: هي النجوم الكبار، عن الحسن ومجاهد وقتادة، وسُمِّيت بروجاً لظهورها. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾ يعني الشمس، ومن قرأ «سُرُجاً» أراد الشمس والكواكب معها، ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ أي: مضيئاً بالليل إذا لم تكن شمس. ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي: يخلف كل واحد منهما صاحبه فيما يحتاج أن يعمل فيه. فمن فاته عمل الليل استدركه بالنهار. ومن فاته عمل النهار استدركه بالليل. وهو قوله لمن أراد أن يذكر، عن عمر بن الخطاب وابن عباس والحسن، وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام قال: تقضي صلاة النهار بالليل، وصلاة الليل بالنهار. وقيل: معناه أنه جعل كل واحد منهما مخالفاً لصاحبه، فجعل أحدهما أسود والآخر أبيض، عن مجاهد. ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ أي: يتفكّر ويستدل بذلك على أن لهما مدبِّراً ومصرِّفاً لا يشبههما ولا يشبهانه، فيوجّه العبادة إليه ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ يقال: شكر يشكر شكراً وشكوراً أي: أراد شكر نعمة ربه عليه فيها، وعلى القول الأول فمعناه: أو أراد النافلة بعد أداء الفريضة ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ﴾ يريد: أفاضل عباده، وهذه إضافة التخصيص والتشريف، كما يقال: ابني من يطيعني أي: ابني الذي أنا عنه راض، ويكون توبيخاً لأولاده الذين لا يطيعونه. ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي: بالسكينة والوقار والطاعة غير أشرين ولا مرحين، ولا متكبرين ولا مفسدين، عن ابن عباس ومجاهد. وقال أبو عبد الله عليه السلام: هو الرجل يمشي بسجيته التي جبل عليها، لا يتكلف ولا يتبختر. وقيل: معناه حلماء علماء لا يجهلون، وإن جهل عليهم، عن الحسن، وقيل: أعفاء أتقياء، عن الضحاك ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ بما يكرهونه أو يثقل عليهم ﴿قَالُوا﴾ في جوابه ﴿سَلَامًا﴾ أي: سداداً من القول لا يقابلونهم بمثل قولهم من الفحش، عن مجاهد، وقيل: سلاماً أي: قولًا يسلمون فيه من الإثم، أو سلموا عليهم، دليله قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾. وقال قتادة: كانوا لا يجاهلون أهل الجهل. وقال ابن عباس: لا يجهلون مع من يجهل. قال الحسن: هذه صفة نهارهم إذا انتشروا في الناس، وليلهم خير ليل إذا خلوا فيما بينهم وبين ربهم، يراوحون بين أطوافهم، وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾﴾ قال الزجاج: كل من أدركه الليل فقد بات، نام أو لم ينم، والمعنى: يبيتون لربهم بالليل في الصلاة ساجدين وقائمين، طالبين لثواب ربهم، فيكونون سُجّداً في مواضع السجود، وقياماً في مواضع القيام ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾ أي: يدعون بهذا القول. وغراماً أي: لازماً مُلحّاً دائماً غير مفارق. ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ أي: إن جهنم بئس موضع قرار وإقامة هي: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ واختلف في معنى الإسراف فقيل: هو النفقة في المعاصي، والإقتار: الإمساك عن حق الله تعالى، عن ابن عباس وقتادة، وقيل: السرف مجاوزة الحد في النفقة، والإقتار: التقصير عما لا بد منه، عن إبراهيم النخعي. ورُوِيَ عن معاذ أنه قال: سألت

رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «من أعطى في غير حق فقد أسرف، ومن منع عن حق فقد قتر». ورُوِيَ عن أمير المؤمنين، عليه أفضل الصلاة، أنه قال: ليس في المأكول والمشروب سرف، وإن كثر. ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ أي: وكان إنفاقهم بين الإسراف والإقتار، لا إسرافاً يدخلون به في حد التبذير، ولا تضييقاً يصيرون به في حد المانع لما يجب، وهذا هو المحمود. والقوام من العيش: ما أقامك وأغناك، وقيل: القوام بالفتح وهو العدل والاستقامة، وبالكسر ما يقوم به الأمر ويستقر، عن تغلب. وقال أبو عبد الله عليه السلام: القوام هو الوسط. وقال عليه السلام: أربعة لا يستجاب لهم: دعوة رجل فاتح فاه جالس في بيته فيقول: يارب ارزقني، فيقول له: ألم آمرك بالطلب. ورجل كانت له امرأة يدعو عليها يقول: يا رب أرحني منها، فيقول: ألم أجعل أمرها بيدك. ورجل كان له مال فأفسده فيقول: يارب ارزقني، فيقول: ألم آمرك بالاقتصاد. ورجل كان له مال فأدانه بغير بينة فيقول: ألم آمرك بالشهادة. ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ أي: لا يجعلون لله سبحانه شريكاً، بل يوجهون عبادتهم إليه وحده. ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي: حرَّم الله قتلها ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ والنفس المحرَّم قتلها: نفس المسلم والمعاهد. والمستثناة قتلها نفس الحربي. ومن يجب قتلها على وجه القود والارتداد، أو للزنى بعد الإحصان، وللسعي في الأرض بالفساد. ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ والزنى هو الفجور بالمرأة في الفرج، وفي هذا دلالة على أن أعظم الذنوب بعد الشرك القتل والزنى. وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما بالإسناد عن عبد الله بن مسعود قال: سألت رسول الله ﷺ: أيُّ الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك. قال، قلت: ثم أيُّ: قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك، قال، قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك. فأنزل الله تصديقها ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ الآية. ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ قال مقاتل: هذه الخصال جميعاً ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ أي: عقوبة وجزاء لما فعل. قال الفراء: أثمه الله يأثمه إثماً وأثاماً أي: جزاه جزاء الإثم. وقال الشاعر:

وهل يأثمني الله في أن ذكرتها … وعللت أصحابي بها ليلة النفر[1]

وقيل: إن أثاماً اسم واد في جهنم، عن عبد الله بن عمر وقتادة ومجاهد وعكرمة. ثم فسّر سبحانه لقي الأثام بقوله: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يريد سبحانه مضاعفة أجزاء العذاب لا مضاعفة الاستحقاق، لأنه تعالى لا يجوز أن يعاقب بأكثر من الاستحقاق، لأن ذلك ظلم وهو منفي عنه. وقيل: معناه أنه يستحق على كل معصية منها عقوبة، فيضاعف عليه العقاب. وقيل: المضاعفة عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، عن قتادة. ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ أي: ويدوم في العذاب مستحقاً به. وإنما قال ذلك لأنه عز اسمه قد يوصل الآلام إلى بعض المكلَّفين، لا على وجه الاستخفاف والإهانة فبيّن أنه يوصل العقاب إليهم على وجه الإهانة. ثم استثنى من جملتهم التائب بقوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ قال قتادة:

---

(١) قائله: صعيب بن الأسود. يعني هل يجزيني الله جزاء إثمي بأن ذكرت هذه المرأة في غنائي. وليلة النفر: ليلة الخروج من (منى) إلى (مكة).

إلا من تاب من ذنبه وآمن بربه، وعمل صالحاً فيما بينه وبين ربه. قال: والتبديل في الدنيا طاعة الله بعد عصيانه، وذكر الله بعد نسيانه، والخير يعمله بعد الشر. وقيل: يبدلهم الله بقبائح أعمالهم في الشرك محاسن الأعمال في الإسلام بالشرك إيماناً، وبقتل المؤمنين قتل المشركين، وبالزنى عفة وإحصاناً، عن ابن عباس ومجاهد والسدي. وقيل: إن معناه أن يمحو السيئة عن العبد ويثبت له بدلها الحسنة، عن سعيد بن المسيب ومكحول وعمرو بن ميمون. واحتجّوا بالحديث الذي رواه مسلم في الصحيح مرفوعاً إلى أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه ونحُّوا عنه كبارها. فيقال: عملت يوم كذا وكذا، كذا وكذا، وهو مقر لا ينكر، وهو مشفق من الكبائر، فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة، فيقول: إن لي ذنوباً ما أراها هٰهنا؟ قال: ولقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه». ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ أي: ساتراً لمعاصي عباده ﴿رَّحِيمًا﴾ أي: منعماً عليهم بالرحمة والفضل.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو عمرو وأهل الكوفة غير حفص: «وذريتنا»، والباقون: «ذرياتنا» على الجمع. وقرأ «يلقون» بفتح الياء والتخفيف أهل الكوفة غير حفص، والباقون: «يلّقون» بضم الياء والتشديد. وفي قراءة أهل البيت عليهم السلام: «واجعل لنا من المتقين إماماً» والقراءة المشهورة: «واجعلنا للمتقين إماماً» وفي قراءة ابن عباس وابن الزبير: «فقد كذب الكافرون».

● **الحجة:** قال أبو علي: الذرية تكون واحدة، وتكون جمعاً. فمن قرأ: «وذريتنا» على الإفراد فإنه أراد به الجمع، فاستغنى عن جمعه، لما كان جمعاً. ومن جمع فكما يجمع هذه الأسماء التي تدل على الجمع نحو قوم وأقوام. وجاء في الحديث: «صواحبات يوسف». وحجة من قرأ: «ويُلَقَّون» قوله: «ولقاهم نضرة وسروراً»، وحجة من خفف: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾، ومن قرأ: «فقد كذب الكافرون» ترك لفظ الحضور إلى الغيبة، ألا ترى أن قبله: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾.

● **اللغة:** القُرَّة: مصدر، يقال: قرَّت عينه قرة. ويكون من القرور وهو برد العين عند السرور، ويكون أيضاً من استقرارها عند السرور، وقوله إماماً: مصدر من أَمَّ فلان فلاناً إماماً، كما قيل: قام قياماً وصام صياماً. ولذلك وحده هنا من جمع إماماً فقال: أئمة، فلأنه قد كثر في

معنى الصفة. وقيل: إنه إنما وحّد لأنه جاء على الجواب، كقول القائل: من أميركم؟ فيقول المجيب: هؤلاء أميرنا. قال الشاعر:

يا عاذلاتي لا تُرِدْنَ ملامتي ... إنَّ العواذِلَ لَسْنَ لي بأميرِ(١)

وقيل: إنما وحد لأن المعنى: واجعل كل واحد منا إماماً، فأجمل. فالمعنى معنى التفصيل. وقال الزجاج: تأويل ﴿مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ﴾ أي: وزن يكون لكم عنده، كما يقال: ما عبأت بفلان أي: ما كان له عندي وزن ولا قدر. وأصل العبء في اللغة: الثقل. وقيل: أصله من تهيئة الشيء. يقال: عبئت الطيب أعبؤ عبأ: إذا هيأته. قال الشاعر يصف أسداً:

كأَنَّ بِنَخرِهِ وبِمَنكَبَيْهِ ... عَبيراً باتَ تعبأه عَروسُ(٢)

أي تهيئه. وعبأت الجيش بالتشديد والتخفيف: إذا هيأته. وما أعبؤ به أي: لا أهيء به أمراً.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه: ﴿وَمَن تَابَ﴾ أي: أقلع عن معاصيه وندم عليها ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ أي: يرجع إليه مرجعاً عظيماً جميلًا. وفرّق علي بن عيسى بين التوبة إلى الله، والتوبة من القبيح لقبحه بأن التوبة إلى الله تقتضي طلب ثوابه، وليس كذلك التوبة من القبيح لقبحه. فعلى هذا يكون المعنى: من عزم على التوبة من المعاصي، فإنه ينبغي أن يوجه توبته إلى الله بالقصد إلى طلب جزائه ورضائه عنه، فإنه يرجع إلى الله فيكافيه. وقيل: معناه من تاب وعمل صالحاً فقد انقطع إلى الله، فاعرفوا ذلك له. فإن من انقطع إلى خدمة بعض الملوك فقد أحرز شرفاً، فكيف المنقطع إلى الله سبحانه. ثم عاد سبحانه إلى وصف عباده المخلصين فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ أي: لا يحضرون مجالس الباطل، ويدخل فيه مجالس الغناء والفحش والخناء. وقيل: الزور الشرك، عن الضحاك. قال الزجاج: الزور في اللغة: الكذب ولا كذب فوق الشرك بالله. وقيل: الزور أعياد أهل الذمة كالشعانين(٣) وغيرها، عن محمد بن سيرين. وقيل: هو الغناء، عن مجاهد، وهو المَرْوي عن أبي جعفر عليه السلام، وأبي عبد الله عليه السلام. وقيل: يعني شهادة الزور، عن علي بن أبي طلحة. فيكون المراد أنهم لا يشهدون شهادة الزور. فحذف المضاف. وكان عمر بن الخطاب يجلد شاهد الزور أربعين جلدة، ويسخم وجهه ويطوف به في السوق. وأصل الزور: تمويه الباطل بما يوهم أنه حق. ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ واللغو: المعاصي كلها، أي: مروا به مرّ الكرماء الذين لا يرضون باللغو، لأنهم يجلون عن الدخول فيه والاختلاط بأهله، عن الحسن والكلبي. والتقدير: إذا مروا بأهل اللغو وذوي اللغو، مرّوا منزّهين أنفسهم معرضين عنهم، فلم يجاروهم فيه ولم يخوضوا معهم في ذلك، فهذه صفة الكرام. يقال: تكرم فلان عما يشينه: إذا تنزه وأكرم نفسه

(١) الشعر في (جامع الشواهد).
(٢) العبير: الزعفران.
(٣) الشعانين: عيد معروف للنصارى قبيل عيدهم الكبير بأسبوع، كما قاله ابن الأثير في (النهاية).

عنه، وقيل: مرورهم كراماً هو أن يمروا بمن يسبّهم فيصفحون عنه، وبمن يستعين بهم على حق فيعينونه. وقيل: هم الذين إذا أرادوا ذكر الفرج، كنوا عنه، عن أبي جعفر عليه السلام ومجاهد. وأصل اللغو هو الفعل الذي لا فائدة فيه، ولهذا يقال للكلمة التي لا تفيد لغو، وليس المراد به القبيح، فإن فعل الساهي والنائم لغو، وليس بحسن ولا قبيح، إلا ما يتعدى إلى الغير على الخلاف فيه. ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أي: إذا وعظوا بالقرآن والأدلة التي نصبها الله لهم، نظروا فيها وتفكروا في مقتضاها، ولم يقعوا عليها صمّاً كأنهم لم يسمعوها، وعمياناً كأنهم لم يروها، لكنهم سمعوها وأبصروها، وانتفعوا بها وتدبَّروا لها. قال الحسن: كم من قارىء يقرؤها فخرَّ عليها أصم وأعمى. وقال الأخفش: لم يخروا عليها أي: لم يقيموا. وقال ابن قتيبة: لم يتغافلوا عنها كأنهم صم لم يسمعوها وعمي لم يروها. ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ أي: اجعل أزواجنا وذرياتنا قرة أعين بأن نراهم يطيعون الله، عن الحسن. وقيل: معناه ارزقنا من أزواجنا أولاداً، ومن ذرياتنا أعقاباً، قرة أعين أي: أهل طاعة تقر بهم أعيننا في الدنيا بالصلاح، وفي الآخرة بالجنة ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي: اجعلنا ممن يقتدى بنا. المتقون طلبوا العزَّ بالتقوى لا بالدنيا، وقيل: معناه اجعلنا نأتم بمن قبلنا حتى يأتم أي: يقتدي بنا من بعدنا وعلى هذا فيجوز أن يكون اللام في اللفظ في المتقين، وفي المعنى في نا، والتقدير: واجعل المتقين لنا إماماً. ومثله قول الشاعر:

كأننا رعنُ قُفٍّ يرفع الآلا[1]

والتقدير: يرفعه الآل. ثم أخبر سبحانه عن جميع هذه الأوصاف فقال: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾ أي: يثابون الدرجة الرفيعة في الجنة ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ على أمر ربهم وطاعة نبيهم، وعلى مشاق الدنيا وصعوبة التكليف، وقيل: هي غرف الزبرجد والدر والياقوت، عن عطا. والغرفة في الأصل: بناء فوق بناء، وقيل: الغرفة اسم لأعلى منازل الجنة وأفضلها، كما أنها في الدنيا أعلى المساكن. ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ أي: تتلقاهم الملائكة فيها بالتحية، وهي كل قول يسرُّ به الإنسان، وبالسلام بشارة لهم بعظيم الثواب، وقيل: التحية: الملك العظيم، والسلام جميع أنواع السلامة. وقيل: التحية: البقاء الدائم. وقال الكلبي: يُحَيِّي بعضهم بعضاً بالسلام، ويرسل إليهم الرب بالسلام. ﴿خَالِدِينَ﴾ أي: مقيمين ﴿فِيهَا﴾ من غير موت ولا زوال ﴿حَسُنَتْ﴾ الغرفة ﴿مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي: موضع قرار واستقامة ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي﴾ أي: ما يصنع بكم ربي، عن مجاهد وابن زيد. وقيل: ما يبالي بكم ربي، عن أبي عمرو بن العلاء. وما لا يعبؤ به فوجوده وعدمه سواء. ﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ أي: لولا دعاؤه إياكم إلى الدين والإسلام، عن ابن عباس. فيكون المصدر مضافاً إلى المفعول، والمعنى: قل للمشركين ما يفعل بكم ربي أي: أيُّ نفع له فيكم وأيُّ ضرر يعود إليه من عدمكم، وأيُّ قدر لكم عند الله حتى يدعوكم إلى

(١) عجز بيت للنابغة. وصدره: «حتى لحقنا بهم تعدى فوارسنا». والرعن: الأنف العظيم من الجبل تراه متقدماً. والقف: ما ارتفع من الأرض وغلظ. والآل: السراب.

الإيمان لكن الواجب في الحكمة دعاؤكم إلى الدين، وإرسال الرسول، وقد فعل. وقيل: معناه لولا عبادتكم له وإيمانكم به وتوحيدكم إياه، عن الكلبي ومقاتل والزجاج. فيكون الدعاء بمعنى العبادة. وفي هذا دلالة على أن من لا يعبد الله ولا يطيعه فلا وزن له عند الله. وقيل: معناه ما يعبؤ بعذابكم ربي لولا دعاء بعضكم بعضاً إلى الشرك والشر، عن البلخي. ودليله ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ الآية. وقيل: معناه لولا دعاؤكم له إذا مسكم ضرٌّ أو أصابكم سوء، رغبة له وخضوعاً له. وروى العياشي بإسناده عن يزيد بن معاوية العجلي، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: كثرة القراءة أفضل، أم كثرة الدعاء أفضل؟ قال: كثرة الدعاء أفضل. وقرأ هذه الآية: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ الخطاب لأهل مكة أي: إن الله دعاكم بالرسول إلى توحيده وعبادته ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ يا معاشر الكفار الرسول ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي: فسوف يكون عقابه لتكذيبكم إياه، لازماً لكم. قال صخر الغي:

فإمَّا يَنْجوا من حتف أرضي ... فقد لقيا حُتُوفَهما لزاماً(١)

أي: إنه واقع لا محالة. قال الزجاج: تأويله فسوف يكون تكذيبكم لزاماً يلزمكم، فلا تعطون التوبة، وتلزمكم به العقوبة. وقال أبو عبيدة: لزاماً فيصلاً. وقيل في تفسير اللزام: إنه القتل يوم بدر، عن ابن مسعود وأُبيّ بن كعب. وقيل: هو عذاب الآخرة. وقال أبو ذؤيب في اللزام:

ففاجأه بعادية لِزامٍ ... كما يَتَفَجَّرُ الحَوْضُ اللَّقِيفُ(٢)

فلزام: معناه كثيرة يلزم بعضها بعضاً. ولقيف: متساقط متهدم، وبالله التوفيق.

---

(١) الحتف: الموت.
(٢) العادية: جماعة القوم يعدون للقتال. يصف كثرة الجيش، وشبهها بحوض متهدم. يتفجر الماء من جوانبه.



سُورَة الشُّعَرَاء



مكية/آياتها(٢٢٧)

مكية كلها غير قوله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ الآيات إلى آخر السورة، فإنها نزلت بالمدينة.

● **عدد آيها:** مائتان وسبع وعشرون آية كوفي وشامي، والمدني الأول، وست في الباقين.

● **اختلافها:** أربع آيات ﴿طسٓمٓ﴾ كوفي ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ غير الكوفي، ﴿مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ غير البصري، ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ عراقي شامي، والمدني الأول.

● **فضلها:** أبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات، بعدد من صدَّق بنوح عليه السلام وكذَّب به، وهود وشعيب وصالح وإبراهيم عليه السلام، وبعدد من كذَّب بعيسى عليه السلام وصدَّق بمحمد ﷺ». وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: أُعطيت السورة التي يذكر فيها البقرة من الذكر الأول، وأُعطيت طه وطواسين من ألواح موسى، وأُعطيت فواتح القرآن وخواتيم السورة التي يذكر فيها البقرة من تحت العرش، وأُعطيت المفصلة نافلة». وروى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأ الطواسين الثلاث في ليلة الجمعة، كان من أولياء الله وفي جواره وكنفه، وأسكنه الله في جنة عدن وسط الجنة، مع النبيين والمرسلين والوصيين الراشدين، ولم يصبه في الدنيا بؤس أبداً، وأُعطِيَ في الآخرة من الأجر الجنة، حتى يرضى وفوق رضاه، وزوَّجه الله مائة حوراء من الحور العين.

● **تفسيرها:** ذكر الله سبحانه في مختتم سورة الفرقان تكذيبهم بالكتاب. وذكر في مفتتح هذه السورة وصف الكتاب، فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ
﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ
مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير الأعشى والبرجمي وحفص: «طسم، ويس، وحم»

بالإمالة. والباقون بالفتح والتفخيم. وابن كثير أشد فتحاً وتفخيماً، وكذلك عاصم، ثم يعقوب، والآخرون لا يفتحون فتحاً شديداً. وقرأ أبو جعفر وحمزة بإظهار النون من سين عند الميم. والآخرون يدغمون.

● **الحجة:** قال أبو علي: تبيين النون هو الوجه لأن حروف الهجاء في تقدير الانفصال والانقطاع مما بعدها. فإذا كان كذلك، وجب تبيين النون لأنها إنما تخفى إذا اتصلت بحرف من حروف الفم. فإذا لم تتصل بها لم يكن شيء يوجب إخفاءها. ووجه إخفائها مع هذه الحروف: أنّ همزة الوصل قد وصلت ولم تقطع، وهمزة الوصل إنما تذهب في الدرج. فلما سقطت همزة الوصل، وهي لا تسقط إلا في الدرج مع هذه الحروف في ألف لام ميم الله، كذلك لا يبين النون، ويقدر فيها الاتصال بما قبلها ولا يقدر الانفصال.

● **الإعراب:** ﴿أَلَّا يَكُونُوا﴾ في محل نصب بأنه مفعول له، والتقدير: لأن لا يكونوا، أو بأن لا يكونوا. ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ﴾ في موضع جزم عطفاً على تنزل من ذكر في محل رفع. ومن مزيدة، وكم: في موضع نصب بأنه مفعول أنبتنا و﴿أَنْبَتْنَا﴾: في موضع نصب على الحال. وقد: مضمرة والتقدير: مثبتاً.

● **المعنى:** ﴿طسم ۝١﴾ قد بيّنا معاني هذه الحروف المقطعة في أول البقرة، فلا معنى لإعادته. وقال مجاهد والضحاك: إن طسم وطس من أسماء القرآن. وقال ابن عباس في رواية الوالبي: طسم قسم، وهو من أسماء الله عز وجل. وقال القرظي: أقسم الله بطوْله وسنائه وملكه. ورُوِيَ عن ابن الحنفية عن علي عليه السلام، عن النبي صلى الله عليه وآله، لما نزلت طسم قال: «الطاء طور سيناء، وسين الإسكندرية، والميم مكة». وقيل: الطاء شجرة طوبى، والسين سدرة المنتهى، والميم محمد المصطفى صلى الله عليه وآله. ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أشار بـ ﴿تِلْكَ﴾ إلى ما ليس بحاضر، لكنه متوقع فهو كالحاضر لحضور المعنى في النفس، والتقدير: تلك الآيات التي وُعِدْتم بها هي آيات الكتاب أي: القرآن. والمبين: الذي يبيِّن الحق من الباطل. ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: لعلك مهلك نفسك وقاتل نفسك بأن لا يكونوا مؤمنين، وبأن يقيموا على الكفر، إنما قال ذلك سبحانه تسلية لنبيه صلى الله عليه وآله، وتخفيفاً عنه بعض ما كان يصيبه من الاغتمام لذلك. ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً﴾ أي: دلالة وعلامة تلجئهم وتضطرهم إلى الإيمان ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا﴾ أي: لتلك الآية ﴿خَاضِعِينَ﴾ منقادين. وقيل في ذلك وجوه:

أحدها: أن المراد فظل أصحاب الأعناق لها خاضعين. فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه لدلالة الكلام عليه.

وثانيها: أنه جعل الفعل أولًا للأعناق، ثم جعل خاضعين للرجال، لأن الأعناق إذا خضعت فأربابها خاضعون.

وثالثها: أن الخضوع مردود إلى المضمر الذي أُضيف الأعناق إليه، عن الأخفش والمبرد

وأبي عبيدة. وأنشدوا قول جرير:

أرى مَرَّ السِّنين أَخَذْنَ مِنّي كما أَخَذَ السِّرار من الهِلالِ(١)

ورابعها: أن المراد بالأعناق الرؤساء والجماعات. يقال: جاءني عنق من الناس، أي: جماعة.

وخامسها: أنه لما وصف الأعناق بصفة ما يعقل، نسب إليها ما يكون من العقلاء. كما قال الشاعر:

تمزّزتُها والدّيكُ يدعو صِيَاحه إذا ما بَنُو نَعْشٍ دَنَوْا فتصوَّبوا(٢)

وروي: «نادى صياحه». وذكر أبو حمزة الثمالي في هذه الآية: أنها صوت يسمع من السماء في النصف من شهر رمضان، وتخرج له العواتق من البيوت. وقال ابن عباس: نزلت فينا وفي بني أمية، قال: سيكون لنا عليهم الدولة فتخضع لنا أعناقهم بعد صعوبتها وتلين. ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥﴾ أخبر سبحانه عن هؤلاء الكفار أنه لا يأتيهم ذكر من الرحمن محدث، أي: جديد. يعني القرآن، كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾. وقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ إلا أعرضوا عن الذكر ولم يتدبّروا فيه. ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ فيما بعد يعني يوم القيامة ﴿أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وهي مفسَّرة في سورة الأنعام. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ معناه: من كل نوع معه قرينه ﴿كَرِيمٍ﴾ أي: حسن، وقيل: نافع محمود مما يحتاج إليه. وقيل: من كل صنف يكرم على أهله، وقيل: كريم مما يأكل الناس والأنعام، عن مجاهد. وقال الشعبي: الناس نبات الأرض، كما قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧﴾ فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي: لدلالة على وحدانيتنا وكمال قدرتنا ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: لا يصدِّقون بذلك ولا يعترفون به، عناداً وتقليداً لأسلافهم وهرباً من مشقة التكاليف. قال سيبويه: كان هنا مزيدة ومجازه: وما أكثرهم مؤمنين ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي: القادر والذي لا يعجز، والغالب الذي لا يغلب ﴿الرَّحِيمُ﴾ أي: المنعم على عباده بأنواع النعم.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا
يَتَّقُونَ ۝١١ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ
إِلَىٰ هَارُونَ ۝١٣ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝١٤ قَالَ كَلَّا ۖ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُم
مُّسْتَمِعُونَ ۝١٥ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ
۝١٧ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ

(١) السرار: آخر الشهر ليلة يستتر الهلال.

(٢) مر البيت بمعناه في هذا الجزء.

وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ
فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم
مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ
رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ
بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ يعقوب: «ويضيق ولا ينطلق» بالنصب فيهما، والباقون بالرفع. وفي الشواذ قراءة عبد الله بن مسلم بن يسار وحماد بن سلمة: «ألا تتقون» بالتاء، وقراءة الشعبي: «وفَعَلْتَ فِعْلَتَكَ».

● **الحجة:** من قرأ: «يضيقُ ولا ينطلقُ» بالرفع عطف على «أخاف». ومن قرأ بالنصب عطف على «أن يكذبون» أي: أخاف أن يكذبون وأن يضيق صدري ولا ينطلق لساني. ومن قرأ: «ألا تتقون» بالتاء فهو على إضمار القول، أي: فقل لهم ألا تتقون. ومن قرأ: «فعلتك» بكسر الفاء فهي مثل الرِكْبة والجِلْسة، تكون كناية عن الحال التي يكون عليها. وقد يكون المصدر على هذه الزنة تقول: نشدته بالله نِشْدة.

● **الإعراب:** قال الزجاج: موضع ﴿إِذْ﴾ نصب على معنى: واتل عليهم هذه القصة فيما تتلو، والدليل عليه قوله: عطفاً على هذه القصة ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾، ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ موضعه نصب بأنه مفعول نادى أي: ناداه بهذه الكلمة، رسول رب العالمين واحد في معنى الجمع كقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ﴾، ويجوز أن يكون كل واحد منهما رسولًا. ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ في موضع رفع لأنه بدل من نعمة، تقديره: وتلك نعمة تعبيدك بني إسرائيل وتركك إياي غير عبد. ويجوز أن يكون في موضع نصب بأنه مفعول له أي: إنما صارت نعمة لأن عبدت بني إسرائيل، والمعنى: لو لم تفعل ما فعلت لكفلني أهلي ولم يلقوني في اليم. فإنما صارت نعمة لما فعلت من البلاء. ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ يجوز أن يكون ما في موضع رفع بالابتداء، وذا: بمعنى الذي على تقدير: فأي شيء الذي تأمرونه، ويجوز أن يكون في موضع نصب بأنه مفعول ﴿تَأْمُرُونَ﴾، ويكون مع ذا بمنزلة اسم واحد وتقديره: أي شيء تأمرون.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه أقاصيص رسله، تسلية للرسول ﷺ، وتحريضاً له على الصبر ثقة بنزول النصر، وابتدأ بقصة موسى وفرعون فقال: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ﴾ أي: واذكر يا محمد واتل عليهم الوقت الذي نادى فيه ربك الذي خلقك ﴿مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هذا أمر بعد النداء وتقديره: قال له: ياموسى أن ائت القوم الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب المعاصي، وظلموا بني إسرائيل بأن ساموهم سوء العذاب. ثم بيَّن القوم الموصوفين بهذه الصفة فقال: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ وهو عطف بيان ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ إنما قاله بالياء لأنه على الحكاية، ومعناه: أما آن

لهم أن يتقوا، ويصرفوا عن أنفسهم عقوبة الله بطاعته. والتقوى: مجانبة القبائح بفعل المحاسن، وأصله صرف الأمر بحاجز بين الصارف وبينه. ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ بالرسالة ولا يقبلوا مني، والخوف: انزعاج الناس بتوقيع الضر، ونقيضه: الأمن وهو سكون النفس إلى خلوص النفع. ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ بتكذيبهم إياي ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ أي: لا ينبعث بالكلام للعقدة التي كانت فيه، وقد مرَّ بيانها، وقد يتعذر ذلك لآفة في اللسان وقد يتعذر لضيق الصدر وغروب المعاني التي تطلب للكلام ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ أخي يعني ليعاونني كما يقال: إذا نزلت بنا نازلة أرسلنا إليك أي: لتعيننا، وإنما طلب المعاونة حرصاً على القيام بالطاعة. وقال الجبائي: لم يسأل موسى عليه السلام ذلك إلا بعد أن أذن الله له في ذلك، لأن الأنبياء لا يسألون الله إلا ما يؤذن لهم في مسألته ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ﴾ يعني قتل القبطي الذي قتله موسى عليه السلام أي: لهم عليّ دعوى ذنب ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ خاف أن يقتلوه بتلك النفس، لا لإبلاغ الرسالة، فإنه علم أن الله تعالى إذا بعث رسولًا تكفَّل بمعونته على تبليغ رسالته. ﴿قَالَ﴾ الله ﴿كَلَّاۖ﴾ وهو زجر أي: لا يكون ذلك، ولن يقتلوك به فإني لا أسلطهم عليك. ﴿فَاذْهَبَا﴾ أنت وأخوك، وحذف ذكر هارون وإجابة موسى إلى ما اقترحه من إرساله معه إلى فرعون، لدلالة قوله ﴿فَاذْهَبَا﴾ عليه ﴿بِـَٔايَٰتِنَآۖ﴾ أي: بدلالاتنا ومعجزاتنا التي خصَّصناكما بها ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ أي: نحن نحفظكم ونحن سامعون ما يجري بينكم، ومستمع هنا في موضع سامع، لأن الاستماع طلب السمع بالإصغاء إليه، وذلك لا يجوز عليه سبحانه، وإنما أتى بهذه اللفظة لأنه أبلغ في الصفة وأوكد، وهو قوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾، وإنما قال: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ لأنه أجراهما مجرى الجماعة ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ أرسلنا الله إليك لندعوك إلى عبادته. وترك الإشراك به، ولم يقل رسولا رب العالمين، لأن الرسول قد يكون في معنى الجمع. قال الهذلي:

أَلِـكْـنِـي إلـيـهـا وخـيـر الـرَّسُـو ... لِ أَعْـلَـمُـهُـمْ بِـنَـواحـي الـخَـبَـر[1]

أي: وخير الرسل. وقيل: إن الرسول بمعنى الرسالة، كما في قوله:

لقد كَذَبَ الوَاشُون ما بُحْتُ عِنْدَهُمْ ... بِـسِـرٍّ ولا أرسـلْـتُـهُـمْ بِـرَسُـولِ

أي: برسالة. وقال العباس بن مرداس:

ألا مِـنْ مُـبَـلِّغٍ عَـنِّـي خُـفَـافـاً ... رسُـولًا بَـيْـتُ أَهْـلِكَ مُـنْـتَـهـاهـا

فأنث الرسول تأنيث الرسالة. وقد يقع المصدر موقع الصفة، كما تقع الصفة موقع المصدر، فيكون مجازه: انا ذوا رسالة رب العالمين. ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ أي: أمرك الله بأن أرسلهم وأطلقهم من الاستعباد وخلّ عنهم. وفي الكلام حذف تقديره: انهما أتيا فرعون وبلغا الرسالة على ما أمرهما الله تعالى به. ﴿قَالَ﴾ فرعون لموسى ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ والتربية:

---

(١) قوله: ألكني إليها أي: كن رسولي، وتحمل رسالتي إليها.

تنشئة الشيء حالاً بعد حال، معناه: ألم تكن فينا صبياً صغيراً فربّيناك ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ أي: أقمت سنين كثيرة عندنا، وهي ثماني عشرة سنة، عن ابن عباس. وقيل: ثلاثين سنة، عن مقاتل. وقيل: أربعين سنة، عن الكلبي. وإنما قال ذلك امتناناً عليه بإحسانه إليه. وقيل: إنه أظهر لؤمه حيث ذكر صنائعه. ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ يعني: قتل القبطي ﴿وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ لنعمتنا وحق تربيتنا، عن ابن عباس وعطاء ومقاتل. وقيل: معناه وأنت من الكافرين بإلهك، إذ كنت معنا على ديننا الذي تعيب، وتقول: إنه كفر، عن الحسن والسدي. ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي: فعلت هذه الفعلة وأنا من الجاهلين، لم أعلم بأنها تبلغ القتل. وقيل: معناه من الناسين، عن ابن زيد، وقيل: من الضالين عن العلم بأن ذلك يؤدي إلى قتله، عن الجبائي، وقيل: من الضالين عن طريق الصواب لأني ما تعمدته، وإنما وقع مني خطأ كمن يرمي طائراً فيصيب إنساناً. وقيل: من الضالين عن النبوة أي: لم يوح إليّ تحريم قتله. ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ أي: ذهبت من بينكم حذراً على نفسي إلى مدين، لما خفتكم أن تقتلوني بمن قتلته ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ أي: نبوة، وقيل: إن الحكم العلم بما تدعو إليه الحكمة، وهو الذي وهبه الله تعالى لموسى من التوراة، والعلم بالحلال والحرام وسائر الأحكام. ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: نبياً من جملة الأنبياء ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يقال: عبده وأعبده: إذا اتخذه عبداً. وقيل في معناه أقوال:

أحدها: أن فيه اعترافاً بأن تربيته له كانت نعمة منه على موسى عليه السلام، وإنكاراً للنعمة في ترك استعباده. ويكون ألف التوبيخ مضمراً فيه. فكأنه يقول: أو تلك نعمة تمنها عليّ أن عبدت بني إسرائيل ولم تعبدني.

وثانيها: أنه إنكار للمنة أصلاً، ومعناه: أتمنّ عليّ بأن ربّيتني مع استعبادك قومي؟ هذه ليست بنعمة، يريد: إن اتخاذك بني إسرائيل الذين هم قومي عبيداً أحبط نعمتك التي تمنّ بها عليّ.

وثالثها: أن معناه أنك لو كنت لا تستعبد بني إسرائيل، ولا تقتل أبناءهم، لكانت أُمّي مستغنية عن قذفي في اليم، فكأنك تمتن عليّ بما كان بلاؤك سبباً له، عن الزجاج. وزاد الأزهري لهذا بياناً فقال: إن فرعون لما قال لموسى عليه السلام ألم نربك فينا وليداً، فاعتد عليه بأن رباه وليداً منذ ولد إلى أن كبر فكان من جواب موسى عليه السلام له: تلك نعمة تعتد بها عليّ، لأنك عبَّدت بني إسرائيل، ولو لم تعبدهم لكفلني أهلي فلم يلقوني في اليم، فإنما صارت لك عليّ نعمة لما أقدمت عليه مما حظره الله عليك.

ورابعها: أن فيه بيان أنه ليس لفرعون عليه نعمة، لأن الذي تولى تربيته أمه وغيرها من بني إسرائيل بأمر فرعون لما استعبدهم. فيكون معناه: أنك تمن عليّ بأن استعبدت بني إسرائيل حتى ربوني وحفظوني، عن الجبائي. ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: أيّ جنس رب العالمين الذي تدعوني إلى عبادته ﴿قَالَ﴾ موسى في جوابه ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مبدعهما ومنشئهما وخالقهما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الحيوان والجماد والنبات. ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾

بأن الرب من كان بهذه الصفة، أو موقنين بأن هذه الأشياء محدثة وليست من فعلكم، والمُحْدَث لا بد له من مُحْدِث. ولم يشتغل موسى لجواب ما سأله فرعون، لأن الله تعالى ليس بذي جنس، بل اشتغل ببيان ربوبيته وصفاته وبيان الحجة الدالة عليه من خلقه، الذي يعجز المخلوقون عن مثله. ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ يريد: ألا تستمعون مقالة موسى، عن ابن عباس. وقيل: معناه ألا تصغون إليه وتفهمون ما يقوله معجباً من قوله، وإنما عجَّب فرعون مَنْ حوله من جوابه، لأنه طلب منه أيُّ أجناس الأجسام هو، جهلًا منه بالتوحيد، لأنه لو كان كأحد أجناس الأجسام لكان محدثاً كسائر الأجسام التي هي من جنسه، لحلول الحوادث فيه، ودلَّه موسى على الله بدلالة أفعاله التي بها يجب أن يستدل عليه تعالى فقال فرعون: أُنظروا إلى هذا أسأله عن شيء فيجيب عن غيره. فجرى موسى عليه السلام على عادته في الرفق، وتأكيد الحجة وتكريرها. ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ وإنما ذكره تأييداً لما قبله وتوكيداً له، فإن فرعون كان يدَّعي الربوبية على أهل عصره دون من قبله، فبيَّن أن المستحق للربوبية من هو رب أهل كل عصر، ومالك تدبيرهم، فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ فرعون إذ لم يقدر على جواب لكلام موسى عليه السلام، يموه عليهم ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ لأني أسأله عن ماهية رب العالمين فيجيبني عن غير ذلك، كما يفعل المجنون. فعند ذلك لم يشتغل موسى عليه السلام بالجواب عما نسبه إليه من الجنون، ولكن اشتغل بتأكيد الحجة والزيادة في الإبانة بأن ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ ذلك وتتدبرونه. وقيل: إن كنتم تعلمون أنه إنما يستحق العبادة من كان بهذه الصفة. فلما طال على فرعون الاحتجاج من موسى ﴿قَالَ﴾ مهدداً له ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ أي: من المحبوسين، قالوا: وكان إذا سجن أحداً لم يخرجه حتى يموت، فلما توعده بالسجن ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ معناه: أتسجنني ولو جئتك بأمر ظاهر، تعرف به صدقي وكذبك، وحجة ظاهرة تدل على نبوتي.

●●●

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ
ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ
﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ
فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ
مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ
﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ
إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ
وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ
﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ

ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

● **المعنى:** ﴿قَالَ﴾ فرعون لموسى ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: هات ما ادّعيت من المعجزات، إن كنت صادقاً ﴿فَأَلْقَىٰ﴾ حينئذٍ موسى ﴿عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ﴾ أي: حية عظيمة، وقيل: الثعبان الذكر من الحيات ﴿مُّبِينٌ﴾ ثعبان لا شبهة فيه ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ أي: وأخرج يده من كمّه أو جيبه على ما رُوِيَ، فإذا هي بيضاء بياضاً نورياً، كالشمس في إشراقها للناظرين إليها. ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿لِلْمَلَإِ﴾ الأشراف من قومه ﴿حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا﴾ يعني موسى ﴿لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ بالسحر والحيل ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ ودياركم ويتغلّب عليها ﴿بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ في بابه. وإنما شاور قومه في ذلك مع أنه كان يقول لهم: إنه إله، لأنه يجوز أن يكون ذهب عليه وعلى قومه أن الإله لا يجوز أن يشاور غيره، كما ذهب عليهم أن الإله لا يجوز أن يكون جسماً محتاجاً، فاعتقدوا إلهيته مع ظهور حاجته. ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ قد مرَّ تفسيره، واختلاف القراء فيه في سورة الأعراف، ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ يحشرون الناس من جميع البلدان ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ وفي الكلام حذف تقديره: انه أنفذ الحاشرين في البلدان، فحشروهم ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾﴾ أي: لوقت يوم بعينه اختاروه وعيّنوه، وهو يوم عيدهم، يومَ الزينة ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ﴾ أي: لأهل مصر ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ لموسى وأخيه. ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ وحضروا بين يدي فرعون ﴿قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ﴾ له ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ أي: هل لنا أجرة وجزاء على غلبتنا إياه، إن نحن غلبناه؟ ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿نَعَمْ﴾ لكم على ذلك الأجر الجزيل ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ مع ما تعطون من الجزاء والأجر ﴿إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ والمقرب: المدني من مجلس الكرامة ﴿قَالَ لَهُم﴾ أي: للسحرة ﴿مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ هذا بصورة الأمر والمراد به التحدي ﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾ أي: طرحوا ما كان معهم من الحبال والعصي ﴿وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ والعزة: القوة التي يمتنع بها من لحاق ضيم لعلو منزلتها، وهذا القول قَسَمٌ منهم، وإن كان غير مبرور ﴿فَأَلْقَىٰ﴾ عند ذلك ﴿مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي: ان العصا تتناول جميع ما موّهوا به في أوجز مدة من الزمان ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ لما بهرهم موسى عليه السلام من قلب العصا حية وتلقفها جميع ما أتعبوا به نفوسهم فيه، وعلموا أن ذلك من عند الله، إذ أحد من البشر لا يقدر عليه ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ فرعون مهدِّداً لهم ﴿ءَامَنتُمْ﴾ أي: صدَّقتم ﴿لَهُۥ﴾ فيما يدعو إليه ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي: آذن أنا في تصديقه ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ﴾ أي: أستاذكم وعالمكم ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فيما بعد ما أفعله بكم عقوبة لكم على تصديقكم إياه. ثم فسَّر ذلك بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ يعني قطع اليد من جانب والرجل من الجانب الآخر، كقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ مع ذلك على الجذوع، ولا أترك أحداً منكم لا تناله عقوبتي.

﴿قَالُوا﴾ في جوابه عن ذلك ﴿لَا ضَيْرَ﴾ أي: لا ضرر علينا فيما تفعله. يقال: ضاره يضيره ضيراً وضرَّه يضرُّه ضرراً ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أي: إلى ثواب ربنا راجعون، فيجازينا على إيماننا وصبرنا بالنعيم الدائم الذي لا ينقضي، ولا يضرنا قطعك وصلبك، فإنه ألم ساعة عن قريب ينقضي. قال الحسن: لم يصل فرعون إلى قتل واحد منهم ولا قطعه. وقيل: إن أول من قطع الأيدي والأرجل فرعون.

●●●

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١)
وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣)
إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن
جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) فَأَتْبَعُوهُم
مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ
رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ
كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ
أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ (٦٨)﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن عامر وأهل الكوفة: «حاذرون» بالألف، والباقون بغير ألف. وقرأ «فاتبعوهم» موصولة الألف، مشدَّدة التاء زيد عن يعقوب. وقرأ الباقون: «فأتبعوهم» بقطع الألف وسكون التاء. وقرأ حمزة ونصير عن الكسائي وخلف: «ترىء الجمعان» بكسر الراء، والباقون بفتحها. وفي الشواذ قراءة أبان بن تغلب: «إن كنا أول المؤمنين» بكسر الهمزة من «إن»، وقراءة ابن أبي عامر «حادرون» بالدال غير المعجمة. وقراءة الأعرج وعبيد بن عمير: «إنا لمدّركون» بتشديد الدال. وقراءة عبد الله بن الحرث: «وأزلقنا» بالقاف.

● **الحجة:** قال أبو علي: قال أبو عبيدة رجل حَذِر وحَذُر وحاذر، قال ابن أحمر:

هلَ ينسَأنْ يومي إلى غيرِه ... أنّي حَوالي وأنّي حَذِر

حوالي أي: ذو حيلة. وقال العباس بن مرداس:

وإني حاذرٌ أنمي سِلاحي ... إلى أوصالِ ذيَّالٍ مَنيعِ(١)

ووجه إمالة الحركة على الراء من ترائى أنّ قياسه أن يكون ترآى في الموقف مثال تراعى،

---

(١) فرس ذيال أي: طويل القد، وقيل: طويل الذنب. والأوصال: بمعنى المفاصل.

فأمال فتحة الراء لإمالة فتحة الهمزة التي أُميلت ليميل الألف نحو الياء، كما قالوا رأى، أمالوا فتحة الراء لإمالة فتحة الهمزة، فإن قيل: فإذا وصل وقيل: تراه الجمعان، فهلا لم يجز إمالة الفتحة التي على الراء، لأنه إذا كان إمالتها لإمالة فتحة الهمزة، وما يوجب إمالة الفتحة، فقد سقط، وهو الألف المنقلبة من الياء التي سقطت لالتقاء الساكنين، فإذا سقطت لم يجز إمالة فتحة الهمزة. فإذا لم يجز إمالة فتحة الهمزة، وجب أن لا يجوز إمالة فتحة الراء؟ فقيل: إن إمالة فتحة الراء في تراآى جائزة في الوصل مع سقوط الألف من تفاعل، لالتقاء الساكنين، وما سقط الألف عن تفاعل لالتقاء الساكنين فهو عندهم في حكم الثابت. يدل على ذلك قولهم:

ولا ذاكـراً الله إلا قـليـلًا(١)

فنصب مع سقوط التنوين لالتقاء الساكنين، كما ينصب إذا ثبت. وزعم أبو الحسن أنه قد قرأ في القتلى الحر بإمالة فتحة اللام مع سقوط الألف. وقال ابن جني: قوله ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من الكلام الذي يعتاده المستظهر المدل بما عنده. يقول الرجل لصاحبه: أنا أحفظه عليك إن كنت وافياً. ولن يضيع لك جميل عندي. إن كنت شاكراً، أي: فكما تعلم أن هذا معروف من حالي فثق بوفائي وشكري، ومثله بيت كتاب سيبويه:

أَتَـغْـضِـبُ أَنْ أُذْنـا قُـتَـيْـبَـةَ حُـزَّتـا ... جِـهـاراً ولـم تَـغْـضِـبْ لِقَـتْـلِ ابْـنِ حـازِمِ

فشرط بذلك، وقد كان ووقع قبل ذلك. وقد جاء به أبو تمام فقال:

وَمَـكـارِمـاً عُـتُـقَ الـنِّـجـارِ تَـلِيـدَةً ... إن كـان هَـضْـبُ عِـمـايَـتَـيْـنِ تـلـيـدا(٢)

أي: كما كان هضب عمايتين تليداً، فكذلك هذه المكارم. وأما قوله: «حادرون» فالحادر: القويّ الشديد، ومنه الحادرة: الشاعرة. وحدر الرجل: إذا قوي جسمه وامتلأ لحماً وشحماً. قال الأعشى:

وعَـسـيـرِ أدمـاءَ حـادِرَةِ الـعَـيْـنِ ... خَـنُـوفٍ عَـيْـرانَـةٍ شِـمْـلالِ(٣)

ويقال: أدركت الشيء وأدركته بمعنى. ومن قرأ: «وأزلفنا» بالفاء، فالآخرون موسى وأصحابه. ومن قرأ بالقاف، فالآخرون فرعون وأصحابه، أي: أهلكناهم.

● **اللغة:** سرى وأسرى لغتان وقد فرّق بينهما. والشرذمة: العصبة الباقية من عصب كثيرة، وشرذمة كل شيء: بقيته القليلة. قال الراجز:

جـاءَ الـشِّـتـاءُ وقـمـيـصـي أَخـلاقْ ... شَـراذِمٌ يَـضْـحَـكُ مِـنْـهـا الـتَّـواقْ(٤)

---

(١) هذا عجز بيت لأبي الأسود الدؤلي. وصدره: «فألفيته غير مستعتب» والشعر بتمامه مذكور في (جامع الشواهد). وكذا الشعر الآتي.

(٢) النجار: الأصل. وعتق جمع عتيق: الكريم. والتليد: القديم. والهضب: الجبل. وعمايتين: جبلان.

(٣) العسير: الناقة التي اعتاطت فلم تحمل سنتها. والأدمة في الإبل: البياض الشديد. والخنوف: الدابة التي تميل رأسها إلى فارسها في عدوها. والعيرانة: القوية. وناقة شملال: خفيفة سريعة.

(٤) قيل: إنَّ التواق في البيت: اسم ابنه.

والفرق بين الحذر والحاذر، أن الحاذر الفاعل للحذر، والحذر: المطبوع على الحذر. والكنوز: الأموال المخبأة في مواضع غامضة من الأرض بعضها على بعض، ومنه كناز التمر وغيره مما يعبأ بعضه على بعض. والمقام: الموضع الذي يقام فيه. والكريم: الحقيق بإعطاء الخير الجزيل، وهي صفة تعظيم في المدح، واتبع فلان فلاناً وتبعه: إذا اقتفى أثره. والإشراق: الدخول في وقت شروق الشمس، ويقال: شرقت الشمس إذا طلعت، وأشرقت: إذا أضاءت وصفت، وأشرقنا: دخلنا في الشروق، وتراءى الجمعان أي: تقابلا بحيث يرى كل منهما صاحبه. ويقال: تراءى ناراهما: إذا تقابلا، وإنما جاز تثنية الجمع لأنه يقع عليه صفة التوحيد، فتقول: هذا جمع واحد، كما تقول جملة واحدة. والإدراك: اللحاق، يقال: أدرك قتادة الحسن أي: لحقه. وأدرك الزرع أي: لحق ببلوغه، وأدرك الغلام أي: بلغ. وأدركت القدر: نضجت. والطود: الجبل. قال الأسود بن يعفر:

حَلُّوا بأنقرة يَجِيشُ عَلَيْهِمُ ماءُ الفُراتِ يجيءُ مِنْ أَطْوَادِ(١)

والازدلاف: الإدناء والتقريب، ومنه المزدلفة(٢)، أبو عبيدة: أزلفنا جمعنا. وليلة المزدلفة: ليلة الجمع. قال الشاعر:

وكلُّ يومٍ مضى أو لَيْلَةٍ سَلَفَتْ فيها النُّفُوسُ إلى الآجالِ تزدَلِفُ

والآخر بفتح الخاء: الثاني من قسمي أحد، يقال: نجّى الله أحدهما وأهلك الآخر. وبكسر الخاء: هو الثاني من قسمي الأول، يقال: نجا الأول وهلك الآخِر.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن السحرة أنهم قالوا لفرعون حين آمنوا: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾ أي: ما فعلناه من السحر وغيره ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لأنا كنا أول من صدّق موسى وأقر بنبوته، وبما دعانا إليه من التوحيد ونفي التشبيه. وقيل: إنهم أول من آمن عند تلك الآية، أو أول من آمن من آل فرعون، لأن بني إسرائيل كانوا آمنوا به. ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ﴾ سبق تفسيره في سورة طه ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ يتبعكم فرعون وجنوده، ليحولوا بينكم وبين الخروج من أرض مصر ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ يحشرون إليه الناس ويجمعون له الجيوش، ليقبضوا على موسى وقومه لما ساروا بأمر الله عز وجل، فلما حضروا عنده قال لهم ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني أصحاب موسى ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ أي: عصابة من الناس قليلة. قال الفراء: يقال عصبة قليلة وقليلون وكثيرة وكثيرون. قال المفسرون: وكان الشرذمة الذين قَلَّلَهُمْ فرعون ستمائة ألف، ولا يحصى عدد أصحاب فرعون ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾ يقال غاظه واغتاظه غيظة: إذا أغضبه، أي: إنهم غاظونا لمخالفتهم إيانا في الدين، ثم لخروجهم من أرضنا على كره منا، وذهابهم بالحلي التي استعاروها وخلوصهم من استعبادنا ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: خائفون شرهم وحاذرون أي: مؤدون مقوون أي: ذوو أداة وقوة مستعدون شاكون

---

(١) هي أنقرة التي ببلاد الروم، واختاره الحموي في (المعجم)، وفيه: «نزلوا بأنقرة يسيل عليهم» بدل المصراع الأول.

(٢) [قال].

في السلاح. وقال الزجاج: الحاذر المستعد، والحذر: المتيقظ. ثم أخبر سبحانه عن كيفية إهلاكهم بقوله ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم﴾ يعني آل فرعون ﴿مِّن جَنَّاتٍ﴾ أي: بساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ جارية فيها ﴿وَكُنُوزٍ﴾ أي: أموال مخبأة وخزائن ودفائن ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ أي: منابر يخطب عليها الخطباء، عن ابن عباس. وقيل: هو مجالس الأمراء والرؤساء التي كان يحفُّ بها الأتباع فيأتمرون بأمرهم. وقيل: المنازل الحسان التي كانوا مقيمين فيها في كرامة. وقيل: يريد مرابط الخيل لتفرد الرؤساء بارتباطها عدة وزينة، فصار مقامها أكرم مقام متروك ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما وصفنا لك أخبارهم ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وذلك أن الله سبحانه رد بني إسرائيل إلى مصر بعدما أغرق فرعون وقومه، وأعطاهم جميع ما كان لفرعون وقومه من الأموال والعقار والمساكن والديار ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ يعني قوم فرعون أدركوا موسى وأصحابه حين شرقت الشمس وظهر ضوؤها، وذلك قوله: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ﴾ أي: تقابلا بحيث يرى كل فريق صاحبه ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أي: سيدركنا جمع فرعون ولا طاقة لنا بهم ﴿قَالَ﴾ موسى ثقة بنصر الله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ لن يدركونا ولا يكون ما تظنون. فانتهوا عن هذا القول ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ بنصره ﴿سَيَهْدِينِ﴾ أي: سيرشدني إلى طريق النجاة، وقيل: سيكفيني، عن السدي ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ وهو نهر النيل ما بين أيلة ومصر. وقيل: هو بحر قلزم ما بين اليمن ومكة إلى مصر. وفيه حذف أي: فضرب ﴿فَانفَلَقَ﴾ أي: فانشق البحر وظهر فيه اثنا عشر طريقاً وقام الماء عن يمين الطريق ويساره كالجبل العظيم وذلك قوله: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ أي: فكان كل قطعة من البحر كالجبل العظيم، والفرق: الاسم لما انفرق والفرق مصدر. ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: قرَّبنا إلى البحر فرعون وقومه حتى أغرقناهم، عن ابن عباس وقتادة. وقيل: معناه جمعنا في البحر فرعون وقومه، عن أبي عبيدة. وقيل: معناه وقرَّبناهم إلى المنية لمجيء وقت هلاكهم. ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾﴾ يعني بني إسرائيل أنجينا جميعهم من الغرق والهلاك ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ فرعون وجنوده ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ معناه: إن في فرق البحر وإنجاء موسى وقومه، وإغراق فرعون وقومه، لدلالة واضحة على توحيد الله وصفاته التي لا يشاركه فيها غيره ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ معناه: أنهم مع هذا السلطان الظاهر والبرهان الباهر والمعجز القاهر، ما آمن أكثرهم، فلا تستوحش يا محمد من قعود قومك عن الحق الذي تأتيهم به وتدلهم عليه، فقد جروا على عادة أسلافهم في إنكار الحق وقبول الباطل ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في سلطانه ﴿الرَّحِيمُ﴾ بخلقه، وقيل: العزيز في انتقامه من عدائه، الرحيم في إنجائه من الهلاك لأوليائه. وقيل: إنه لم يؤمن من أهل مصر غير آسية امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون ومريم التي دلّت على عظام يوسف.

●●●

قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ

﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى
فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى
يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى
حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ
جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا
يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾
وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ
يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا
يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ
أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً
فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

● **اللغة:** الأقدم: الموجود قبل غيره، ومثله الأول والأسبق، والقدم: وجود الشيء لا إلى أول، والتبريز: الإظهار، يقال: أبرزه وبرَّزه فبرز يبرز بروزاً. والغاوي: العامل بما يوجب الخيبة من الثواب. كبكبوا: أصله كببوا إلا أنه ضوعف بتكرير الفاء، أي: دهدهوا وطرح فيها بعضهم على بعض جماعة جماعة. والحميم: القريب الذي تودّه ويودُّك.

● **الإعراب:** ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ أصله أن يتعدى إلى ما كان صوتاً مسموعاً، تقول: سمعت كلامك. فإن وقع على جوهر تعدّى إلى مفعولين، ولا يكون الثاني منهما إلا صوتاً كقولك: سمعت زيداً يقرأ. ولا يجوز سمعت زيداً يقوم، لأن القيام لا يكون مسموعاً. وقوله: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ على حذف المضاف، والتقدير: هل يسمعون دعاءكم، فحذف المضاف ودلّ عليه قوله: ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾. ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ استثناء منقطع، ويجوز أن يكون غير منقطع على تقدير: فإن جميع ما عبدتم عدو لي إلا رب العالمين، وقد عبدوا مع الله تعالى الأصنام. ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ﴾ الموصول والصلة في محل النصب على البدل من مفعول ينفع المحذوف. تقديره: يوم لا ينفع أحداً مال ولا بنون إلا من أتى الله. ويجوز أيضاً أن يكون منصوباً على الاستثناء، ﴿هُمْ فِيهَا﴾ مبتدأ وخبر. ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ في موضع نصب على الحال، ويجوز أن يكون ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ خبر المبتدأ، و﴿فِيهَا﴾ يتعلق به فيكون منصوباً بإضمار أن في جواب التمني.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ يا محمد ﴿نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: خبر إبراهيم فإنه شجرة الأنبياء، وبه افتخار العرب، وفيه تسلية لك، وعظة لقومك ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ على وجه الإنكار عليهم ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: أيُّ شيء تعبدون من دون الله ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ

لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾ أي: فنظل لها مصلِّين، عن ابن عباس. وقيل: معناه فنقيم على عبادتها مداومين ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ أي: هل يسمعون دعاءكم ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ معناه: هل يستجيبون دعاءكم إذا دعوتموهم ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ﴾ إذا عبدتموهم ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ إن تركتم عبادتها. وفي هذا بيان أن الدين إنما يثبت بالحجة، ولولا ذلك لم يحاجهم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا الحجاج. ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ وهذا إخبار عن تقليدهم آباءهم في عبادة الأصنام ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ منكراً عليهم التقليد ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ أي: والذي كنتم تعبدونه من الأصنام ﴿أَنتُمْ﴾ الآن ﴿وَءَابَاؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾ أي: المتقدمون، أي: والذين كان آباؤكم يعبدونهم. وإنما دخل لفظة كان لأنه جمع بين الحال والماضي. ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ معناه: أن عبادة الأصنام مع الأصنام عدو لي، إلا أنه غلب ما يعقل. وقيل: إنه يعني الأصنام وإنما قال: ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ فجمعها جمع العقلاء لما وصفها بالعداوة التي لا تكون إلا من العقلاء، وجعل الأصنام كالعدو في الضرر من جهة عبادتها، ويجوز أن يكون قال ﴿فَإِنَّهُمْ﴾: لأنه كان منهم من يعبد الله مع عبادته الأصنام، فغلب ما يعقل، ولذلك استثنى فقال: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ استثناء من جميع المعبودين. قال الفراء: إنه من المقلوب، والمعنى: فإني عدو لهم ومن عاديته فقد عاداك. ثم وصف رب العالمين فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾ وأخرجني من العدم إلى الوجود ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ أي: يرشدني إلى ما فيه نجاتي، وقيل: الذي خلقني لطاعته فهو يهديني إلى جنته ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ معناه أنه يرزقني ما أتغذى به ويفعل ما يصحّ بدني ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ أي: يميتني بعد أن كنت حياً، ويحييني يوم القيامة بعد أن أكون ميتاً ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ أي: يوم الجزاء، وإنما قال ذلك على سبيل الانقطاع منه إلى الله تعالى، لا على سبيل أن له خطيئة يحتاج إلى أن يغفر له يوم القيامة، لأن عندنا لا يجوز أن يقع من الأنبياء شيء من القبائح، وعند جميع أهل العدل، وإن جوَّزوا عليهم الصغائر، فإنها تقع عندهم محبطة مكفرة، فليس شيء منها غير مغفور، فيحتاج إلى أن يغفر يوم القيامة. وقيل: معناه أطمع أن يغفر لمن يشفعني فيه، فأضافه إلى نفسه كقوله سبحانه لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾. وإنما قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ فأضاف المرض إلى نفسه وإن كان من الله استعمالاً لحسن الأدب، فإن المقصود شكر نعمة الله تعالى، ولو كان المقصود بيان القدرة لأضافه إلى الله تعالى، ونظيره قول الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾. ثم قال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾، وإنما حذف الياءات لأنه رؤوس الآيات. وهذا الكلام من إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إنما صدر على وجه الاحتجاج على قومه والإخبار بأنه لا يصلح للإلٰهية إلا من فعل هذه الأفعال. ثم حكى الله عنه أنه سأله وقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا﴾ والحكم بيان الشيء على ما تقتضيه الحكمة، وقيل: إنه العلم، عن ابن عباس، يعني علماً إلى علم، وفقهاً إلى فقه. وقيل: إنه النبوة، عن الكلبي. ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: بمن قبلي من النبيين في الدرجة والمنزلة، وقيل: معناه افعل بي من اللطف ما يؤديني إلى الصلاح والاجتماع مع النبيين في الثواب. وفي هذا دلالة على عظم شأن الصلاح، وهو الاستقامة على ما أمر الله تعالى به ودعا إليه. ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ أي: ثناء حسناً في آخر الأمم وذكراً

جميلًا، وقبولًا عاماً في الذين يأتون بعدي إلى يوم القيامة. فأجاب الله سبحانه دعاءه. فكل أهل الأديان يثنون عليه ويقرُون بنبوته، والعرب تضع اللسان موضع القول على الاستعارة لأن القول يكون بها، وكذلك يسمون اللغة لساناً. قال أعشى باهلة:

إنـي أتـتـنـي لِسـانـاً لَا أسُرُ بـه   مِنْ عَلْو لا عَجَبٌ مِنها ولا سَخرُ

وقيل: إن معناه واجعل لي ولد صدق في آخر الأمم يدعو إلى الله ويقوم بالحق، وهو محمد ﷺ. ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ أي: من الذين يرثون الفردوس ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ أي: من الذاهبين عن الصواب في اعتقاده، ووصفه بأنه ضال يدل على أنه كان كافراً كفر جهالة لا كفر عناد، وقد ذكرنا الوجه في استغفار إبراهيم لأبيه في سورة التوبة. ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: لا تفضحني ولا تعيرني بذنب يوم تحشر الخلائق. وهذا الدعاء كان منه عليه السلام على وجه الانقطاع إلى الله تعالى، لما بيّنّا أن القبيح لا يجوز وقوعه من الأنبياء عليهم السلام. ثم فسَّر ذلك اليوم بأن قال: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ أي: لا ينفع المال والبنون أحداً، إذ لا يتهيأ لذي المال أن يفتدي من شدائد ذلك اليوم به، ولا يتحمل من صاحب البنين بنوه شيئاً من معاصيه ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ من الشرك والشك، عن الحسن ومجاهد. وقيل: سليم من الفساد والمعاصي، وإنما خصَّ القلب بالسلامة لأنه إذا سلم القلب، سلم سائر الجوارح من الفساد، من حيث إن الفساد بالجارحة لا يكون إلا عن قصد بالقلب الفاسد. ورُوِيَ عن الصادق عليه السلام أنه قال: هو القلب الذي سلم من حب الدنيا. ويؤيده قول النبي ﷺ: «حبُّ الدنيا رأس كل خطيئة». ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾﴾ أي: قربت لهم ليدخلوها ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ أي: أظهرت وكشف الغطاء عنها للضالين عن طريق الحق والصواب ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ في ذلك اليوم على وجه التوبيخ: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام والأوثان وغيرهما. وإنما وُبّخوا بلفظ الاستفهام لأنه لا جواب لهم عن ذلك إلا بما فيه فضيحتهم ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ بدفع العذاب عنكم في ذلك اليوم ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ لكم إذا عوقبتم. وقيل: ينتصرون أي: يمتنعون من العذاب ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا﴾ أي: جمعوا وطرح بعضهم على بعض، عن ابن عباس. وقيل: نُكِسُوا فيها على رؤوسهم، عن السدي ﴿هُمْ﴾ يعني الآلهة التي يعبدونها ﴿وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ أي: والعابدون، والمعنى: اجتمع المعبودون من دون الله والعابدون لها في النار ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ أي: وكبكب معهم جنود إبليس، يريد من اتبعه من ولده وولد آدم. ﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي: قال هؤلاء وهم في النار يخاصم بعضهم بعضاً: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾. وإنْ هذه هي المخففة من الثقيلة أي: إنا كنا في ضلال، ومعناه: لقد كنا في ضلال عن الحق بيِّن، وذهاب عن الصواب ظاهر، إذ سويناكم بالله وعدلناكم به في توجيه العبادة إليكم. ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ أي: إلا أولونا الذين اقتدينا بهم، عن الكلبي. وقيل: إلا الشياطين، عن مقاتل. وقيل: الكافرون الذين دعونا إلى الضلال. ثم أظهروا الحسرة فقالوا: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ يشفعون لنا ويسألون في أمرنا ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ أي: ذي قرابة يهمّه أمرنا. والمعنى: ما لنا من شفيع من الأباعد ولا صديق من الأقارب، وذلك حين

يشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون. وفي الخبر المأثور عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرجل يقول في الجنة: ما فعل صديقي فلان وصديقه في الجحيم، فيقول الله تعالى: أخرجوا له صديقه إلى الجنة. فيقول من بقي في النار: فما لنا من شافعين ولا صديق حميم». وروى العياشي بالإسناد عن حمران بن أعين عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «والله لنشفعن لشيعتنا حتى يقول الناس: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ إلى قوله ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾». وفي رواية أخرى: حتى يقول عدونا. وعن أبان بن تغلب قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إن المؤمن ليشفع يوم القيامة لأهل بيته، فيشفع فيهم حتى يبقى خادمه، فيقول ويرفع سبابتيه: يا رب خويدمي كان يقيني الحرَّ والبرد! فيشفع فيه». وفي خبر آخر عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إن المؤمن ليشفع لجاره وما له حسنة، فيقول: يا رب جاري كان يكف عني الأذى! فيشفع فيه. وإن أدنى المؤمنين شفاعة ليشفع لثلاثين إنساناً». ثم قالوا: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ أي: رجعة إلى الدنيا ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدِّقين، فتحل لنا الشفاعة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما قصصناه ﴿لَءَايَةً﴾ أي: دلالة لمن نظر فيها واعتبر بها ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فيها تسلية للنبي ﷺ، وإعلام له بأن الشر قديم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ مضى معناه.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦)
إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا
عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٠٩) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ
(١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَآ
أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١١٥) قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ (١١٧) فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٢٢)﴾.

● **القراءة:** قرأ يعقوب: «وأتباعك» وهو قراءة ابن مسعود والضحاك وابن السميقع والفراء، والباقون: «واتبعك».

● **الحجة:** يحتمل قوله: «وأتباعك» وجهين:

أحدهما: أن يكون مبتدأ، و﴿ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ خبره، والمعنى: لماذا نؤمن لك، وإنما أتباعك الأرذلون.

والآخر: أن يكون معطوفاً على الضمير في ﴿أَنُؤْمِنُ﴾، أي: أنؤمن نحن وأتباعك. و﴿ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ صفة للأتباع، وجاز العطف على الضمير المرفوع المتصل من غير توكيد لما وقع

هناك من الفصل وهو قوله: ﴿لَكَ﴾ فصار طول الكلام به كالعوض من توكيد الضمير بقوله: ﴿نحن﴾، والمعنى: أنؤمن لك وأتباعك الأرذلون فَنُعَدُّ في عدادهم.

● **اللغة:** الأرذلون والأراذل: السفلة وأوضاع الناس. والرذل: الوضيع، والرذيلة: نقيض الفضيلة، والطرد: إبعاد الشيء على وجه التنفير، طرده يطرده. وأطرده: جعله طريداً، وأطرد في الذهاب: استمر في الذهاب كالطريد، والرجم: الرمي بالحجارة، ولا يقال للرمي بالقوس رجم. ويسمى المشتوم: مرجوماً. لأنه يرمى بما يذم، والانتهاء: بلوغ الحد من غير مجاوزة إلى ما وقع عنه النهي، وأصل النهاية: بلوغ الحد. والنهي: الغدير، لانتهاء الماء إليه، والفتح: الحكم، والفتاح: الحاكم، لأنه يفتح على وجه الأمر بالحكم الفصل. قال الشاعر:

ألا أَبْـلِغْ بـنـي أعـيـا رَسُـولًا فـإنـي عـن فـتَـاحَـتِـكـم غَـنِـيُّ

والفلك: السفن، يقع على الواحد والجمع، والمشحون: من شحنه يشحنه شحناً: إذا ملأه بما يسد خلله، وشحن الثغر بالرجال ومنه الشحنة.

● **الإعراب:** ﴿مَا عِلْمِى﴾: «ما» حرف نفي، و﴿عِلْمِى﴾، مبتدأ، وتقديره: ما علمي ثبت، أو حصل بما كانوا يعملون.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه حديث نوح عليه السلام فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ دخلت التاء في كذبت والقوم مذكر، لأن المراد بالقوم الجماعة، أي: كذبت جماعة نوح المرسلين، لأن من كذَّب رسولًا واحداً من رسل الله فقد كذَّب الجماعة، لأن كل رسول يأمر بتصديق جميع الرسل. وقال أبو جعفر عليه السلام: يعني بالمرسلين نوحاً والأنبياء الذين كانوا بينه وبين آدم عليه السلام. ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ أي: في النسب لا في الدين ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله تعالى في تكذيبي ومخالفتي ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ على الرسالة فيما بيني وبين ربكم ﴿فَاتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ بطاعته وعبادته ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به من الإيمان والتوحيد ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على الدعاء إلى التوحيد ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ من مزيدة ﴿إِنْ أَجْرِىَ﴾ ما جزائي وثوابي ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وخالق الخلائق أجمعين. ثم كرَّر عليهم قوله: ﴿فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ لاختلاف المعنى، لأن التقدير: فاتقوا الله وأطيعوني، لأني رسول أمين واتقوا الله وأطيعوني لأني لا أسألكم عليه أجراً، فتخافوا تلف أموالكم به، وكل واحد من هذين المعنيين يقوّي الداعي إلى قبول قول الغير، ويبعد عنه التهمة. ﴿قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾ أي: نصدِّقك فيما تقول ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ أي: وقد اتبعك سفلة الناس وأراذلهم وخساسهم، عن قتادة. وقيل: يعنون المساكين الذين ليس لهم مال ولا عز، عن عطا. وقيل: يعنون الحاكة والأساكفة، عن الضحاك وعلقمة. والمعنى: أن أتباعك أراذلنا وفقراؤنا وأصحاب الأعمال الدنية، والمهن الخسيسة، فلو اتبعناك لصرنا مثلهم ومعدودين في جملتهم، وهذا جهل منهم لأنه ليس في إيمان الأرذلين به ما يوجب تكذيبه، فإن الرذل إذا أطاع سلطانه، استحق التقرب عنده دون الشريف العاصي. ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾﴾ أي: ما أعلم أعمالهم وصنائعهم، ولم أكلف ذلك، وإنما كلفت أن أدعوهم إلى الله وقد أجابوني إليه ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ أي: ليس حسابهم إلا على ربي

الذي خلقني وخلقهم، لو تعلمون ذلك ما عبتموهم بصنائعهم. ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾ أي: ما أنا بالذي لا يقبل الإيمان من الذين تزعمون أنهم الأرذلون، لأني لست إلا نذيراً مخوفاً من معصية الله، داعياً إلى طاعته مبيناً لها. ﴿قَالُوا۟﴾ له عند ذلك: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ﴾ أي: إن لم ترجع عما تقوله وتدعو إليه ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ بالحجارة، عن قتادة. وقيل: من المرجومين بالشتم، عن الضحاك. ﴿قَالَ﴾ نوح ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ أي: فاقض بيننا قضاء بالعذاب، لأنه قال: ﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: من ذلك العذاب ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي: فخلصناه ومن معه من المؤمنين في السفينة المملوءة من الناس وغيرهم من الحيوانات.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ أي: بعد نجاة نوح عليه السلام ومن معه ﴿ٱلْبَاقِينَ﴾ أي: الخارجين عن السفينة الكافرين به ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ واضحة على توحيد الله ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وليس هذا بتكرار، وإنما كل واحد في قصة على حدة، فهذا ذكر آية في قصة نوح عليه السلام وما كان من شأنه، بعد ذكر آية مما كان في قصة إبراهيم، وذكر آية أخرى في قصة موسى وفرعون. فبيَّن أنه ذكر كلًّا من ذلك لما فيه من الآية الباهرة ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في إهلاك قوم نوح عليه السلام بالغرق ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ في إنجائه نوحاً ومن معه في الفلك.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى
لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ
رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ
﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا
تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير، وأهل البصرة، وأبو جعفر، والكسائي، «خَلْقُ» بفتح الخاء، والباقون بضم الخاء واللام. وفي الشواذ قراءة قتادة: «تخلدون»، بضم التاء وكسر اللام.

● **الحجة:** قال أبو علي «خلق الأولين» عادتهم، و﴿خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ اختلاقهم، وكذبهم مثل قوله ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾، و﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾، وخلد الشيء: إذا بقي. وأخلدته وخلّدته وأخلد إلى كذا: إذا أقام عليه ولزمه، وقيل: أخلد الرجل: إذا أبطأ عنه الشيب.

● **اللغة:** الريع: الارتفاع من الأرض، وجمعه أرياع وريعة. قال ذو الرمة:

طِراق الخَوافِي مشرفٌ فوق رَبعةٍ نَدَى لَيلهِ في ريشه يَترقرقُ(١)

ومنه: الريع في الطعام وهو ارتفاعه بالزيادة والنماء. وقال أبو عبيدة: الريع: الطريق بين الجبلين في الارتفاع. وقيل: هو الفج الواسع. والمصانع: مأخذ الماء، جمع مصنع. قال أبو عبيدة: كل بناء مصنعه. وقال: قتادة، ومجاهد: المصانع: هي القصور والحصون. والبطش: العسف قتلًا بالسيف وضرباً بالسوط. والجبار: العالي على غيره بعظيم سلطانه، وهو في صفة الله سبحانه مدح، وفي صفة غيره ذم، لأن معناه في العبد أنه يتكلف الجبرية.

المعنى: ثم أخبر سبحانه عن عاد فقال: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٢٣﴾ والتأنيث لمعنى القبيلة لأنه أراد بعاد القبيلة ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ في النسب ﴿هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله باجتناب معاصيه ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ إلى قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مرَّ تفسيره ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ أي: بكل مكان مرتفع، وقيل: بكل شرف، عن ابن عباس، وقيل: بكل طريق، عن الكلبي والضحاك ﴿ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ أي: بناء لا تحتاجون إليه لسكناكم، وإنما تريدون العبث بذلك واللعب واللهو، كأنه جعل بناهم ما يستغنون عنه عبثاً منهم، عن ابن عباس في رواية عطاء، ويؤيده الخبر المأثور عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ خرج فرأى قبة مشرفة فقال: ما هذه؟ قال له أصحابه: هذا لرجل من الأنصار. فمكث حتى إذا جاء صاحبها فسلم في الناس، أعرض عنه، وصنع ذلك بهمراراً حتى عرف الرجل الغضب والإعراض عنه، فشكا ذلك إلى أصحابه، وقال: والله إني لأنكر نظر رسول الله ﷺ ما أدري ما حدث فيَّ وما صنعت؟ قالوا: خرج رسول الله ﷺ فرأى قبتك فقال: لمن هذه؟ فأخبرناه، فرجع إلى قبته فسوّاها بالأرض، فخرج رسول الله ﷺ ذات يوم فلم يرَ القبة فقال: ما فعلت القبة التي كانت ههنا؟ قالوا: شكا إلينا صاحبها إعراضك عنه فأخبرناه، فهدمها فقال: إنّ لكلّ بناء يبنى وبال على صاحبه يوم القيامة إلا ما لا بدَّ منه، وقيل: معناه أنهم كانوا يبنون بالمواضع المرتفعة ليشرفوا على المارة والسائلة فيسخروا منهم ويعبثوا بهم، عن الكلبي والضحاك، وقيل: إن هذا في بنيان الحمام. أنكر هود عليهم اتخاذهم بروجاً للحمام عبثاً، عن سعيد بن جبير، ومجاهد ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ أي: حصوناً وقصوراً مشيدة، عن مجاهد، وقيل: مأخذاً للماء تحت الأرض، عن قتادة ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ كأنكم تخلدون فيها فلا تموتون فإن هذه الأبنية بناء من يطمع في الخلود، قال الزجاج: معناه تتخذون مباني للخلود، لا تتفكرون في الموت ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝١٣٠﴾ البطش: الأخذ باليد أي: إذا بطشتم بأحد تريدون إنزال عقوبة به عاقبتموه عقوبة من يريد التجبر بارتكاب العظائم، كما قال: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وقيل: معناه وإذا عاقبتم قتلتم، فمعنى الجبار: القتال على الغضب بغير حق ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ مرَّ معناه ﴿وَٱتَّقُوا ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝١٣٢﴾ أي: أعطاكم ما تعلمون من الخير، والإمداد: أتباع الثاني ما قبله شيئاً بعد شيء على انتظام. وهؤلاء أُمدُّوا بأنواع من النعم وهو قوله: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٣٤﴾ فأعطاهم رزقهم على إدرار ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن

(١) الطراق في الريش: أنْ يكون بعضها فوق بعض. والخوافي: ريشان من الجناح، إذا ضمَّ الطائر جناحيه خفيت. وترقرق: بمعنى تلألأ.

عصيتموني ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يريد يوم القيامة وصفه بالعظم لما فيه من الأهوال العظيمة ﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ أي: أنهيتنا أم لم تكن من الناهين لنا، عن الكلبي، والمعنى: انّا لا نقبل ما تدعونا إليه على كل حال أوعظت أم سكتَّ أي: حصول الوعظ منك وارتفاعه مستويان عندنا. ثم قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ أي: ما هذا الذي جئتنا به إلا كذب الأولين الذين ادعوا النبوة ولم يكونوا أنبياء، وأنت مثلهم. ومن قرأ «خُلق الأولين» بضم الخاء، فالمعنى: ما هذا الذي نحن عليه من تشييد الأبنية، واتخاذ المصانع، والبطش الشديد، إلا عادة الأولين من قبلنا، وقيل: معناه ما هذا الذي نحن فيه إلا عادة الأولين في أنهم كانوا يحيون ويموتون ولا بعث ولا حساب، وقيل: معناه ما الذي تدعيه من النبوة والرسالة إلا عادة الأولين ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ على ما تدعيه لا في الدنيا ولا بعد الموت ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ بعذاب الاستئصال ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾ قد مرّ تفسيره.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾
إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا
عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ
وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ
﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ
أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾
قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ
يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا
كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة، والشام: «فارهين» بالألف، والباقون: «فرهين» بغير الألف.

● **الحجة:** قال الزجاج: فرهين: أشرين مرحين. وفارهين: حاذقين. أبو عبيدة قال: قد جاء فارهين في معنى فرهين. وأنشد:

لا أَسْتَكِينُ إذا ما أَزْمَةٌ أَزَمَتْ ... وَلَنْ تَراني بِخَيْرٍ فارِهَ اللَّبَبِ(١)

أي: مرح اللبب.

---

(١) الأزمة: الشدة والقحط. وفي (اللسان): «فاره الطلب».

● **اللغة:** الهضيم: اللطيف في جسمه، ومنه: هضيمة الحشا أي: لطيفة الحشا، ومنه: هضمه حقه أي: نقصه لأنه لطف جسمه بنقصه، ومنه: هضم الطعام: إذا لطف واستحال إلى مشاكلة البدن. والمُسَحَّر: الذي قد سحر مرة بعد أخرى، وهو أن يكون ممن له سَحْر أي: رئة، ومنه قولهم انتفخ سحره. قال لبيد:

فَإِنْ تسألينا فيم نَحْنُ فَإِنَّنا عصافيرُ منْ هذا الأنامِ المُسَحَّرِ

أي: المعلل بالطعام والشراب على أمر يخفى كخفاء السحر. والشرب: الحظ من الماء. قال:

لم يمنع الشُّرْبَ مِنها غير أن نَطَقَتْ حَمامَةٌ في غُصونٍ ذات أوقالِ(١)

أي لم يمنع حظها من الماء، والسوء: الضر الذي يشعر به صاحبه لأنه يسوؤه وقوعه. والعقر: قطع شيء من بدن الحي فإذا كثر انتفت منه الحياة، وإذا قل لم تنتفِ.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن ثمود فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ وهو مفسّر في هذه السورة إلى قوله: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾ معناه: أتظنون أنكم تتركون فيما أعطاكم الله من الخير في هذه الدنيا، آمنين من الموت والعذاب، وهذا إخبار بأن ما هم فيه من النعم لا يبقى عليهم وأنها ستزول عنهم، ثم عدّد نعمهم التي كانوا فيها فقال: ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ أي: بساتين يسترها الشجر ﴿وَعُيُونٍ﴾ جارية ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾ الطلع: الكفرى مشتق من الطلوع لأنه يطلع من النخل، والهضيم: اليانع النضيج، عن ابن عباس. وقيل: هو الرطب اللين، عن عكرمة، وقيل: هو الضامر بدخول بعضه في بعض، عن الضحاك، وقيل: هو الذي إذا مُسّ تفتت، عن مجاهد، وقيل: هو الذي ليس فيه نوى، عن الحسن ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ أي: حاذقين بنحتها، من فره الرجل فراهة، فهو فاره. وفرهين: أشرين بطرين، عن ابن عباس ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في مخالفته ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أمركم به ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾﴾ يعني الرؤساء منهم وهم تسعة رهط من ثمود الذين عقروا الناقة، ثم وصفهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓاْ﴾ في جوابه ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ قد أُصبت بسَحْر ففسد عقلك، فصرت لا تدري ما تقول، وهو بمعنى المسحورين، والمراد: سحرت مرة بعد أخرى، وقيل: معناه من المخدوعين، وقيل: من المخلوقين المعللين بالطعام والشراب، عن ابن عباس، وقيل: معناه أنت مخلوق مثلنا لك سحر أي: رئة تأكل وتشرب فلم صرت أولى منا بالنبوة ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي: آدمي مثلنا ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ﴾ أي: بمعجزة تدل على صدقك ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ﴾ وهي الناقة التي أخرجها الله تعالى من الصخرة عشراء ترغو على ما اقترحوه ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي: لها حظ من الماء لا تزاحموها فيه، لكم حظ لا تزاحمكم فيه، وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: إن أول عين

(١) الوقل: ثمرة شجر المقل. وجمعه أوقال. وفي (اللسان): «سحوق ذات أوقال» وقال: السحوق ما طال من شجر المقل.

نبعت في الأرض هي التي فجرها الله لصالح فقال: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾ هذا مع ما بعده مفسَّر في سورة الأعراف، والقصة مشروحة هناك.

• • •

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾

● **اللغة:** العادي، والظالم، والجائر، نظائر. وهو من العدوان، وأصله من العدو والذي هو الإسراع في السعي. والقالي: المبغض، يقال: قلاه يقليه قلى: أبغضه، والغابر: الباقي في قلة كالتراب الذي يذهب بالكنس ويبقى غباره. والغبر: البقية من اللبن في الأخلاف. قال الحرث بن حلزة:

لا تكسع الشول بأغبارها إنك لا تدري مَنِ الناتجُ[(١)]

والتدمير: الإهلاك بأهول الأمور.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن قوم لوط فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ وقد فسّرناه إلى قوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾ أي: تصيبون الذكور من جملة الخلائق ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ أي: وتتركون ما خلقه الله لكم من الأزواج والنساء، والزوجة: هي التي وقع عليها العقد بالنكاح الصحيح، يقال لها: زوجة وزوج. قال سبحانه: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾. ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ أي: ظالمون معتدون الحلال إلى الحرام، والطاعة إلى المعصية ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ﴾ وترجع عما تقوله ولم تمتنع عن دعوتنا وتقبيح أفعالنا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ عن بلدنا. ﴿قَالَ﴾ لوط لهم عند ذلك: ﴿إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ أي: من المبغضين الكارهين، ثم دعا ربه فقال: ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ أي: من عاقبة ما يعملونه وهو العذاب النازل بهم.

---

(١) الكسع: أن يؤخذ ماء بارد، فيضرب به ضروع الإبل الحلوبة إذا أرادوا تغزيرها، ليجف لبنها، ويكون أقوى لأولادها التي تنتجها. والشول: جمع الشائلة التي أتى عليها من حملها، أو وضعها سبعة أشهر، فخف لبنها. يوصي الشاعر ابنه بإطعام الأضياف. يقول: لا تضرب الماء البارد على ضرع الإبل، تطلب بذلك قوة نسلها، واحلبها للأضياف فلعل عدواً يغير عليها، فيكون نتاجها له دونك.

وأجاب الله سبحانه دعاءه، قال: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ١٧٠﴾ يعني من العذاب الذي وقع بهم. ويجوز أن يكون أراد: نجيناه وأهله من نفس عملهم وتكون النجاة من العذاب النازل بهم تبعاً لذلك، والأول أوضح ويدل عليه قوله: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ وأراد بالعجوز امرأته لأنها كانت تدل أهل الفساد على أضيافه فكانت من الباقين في العذاب، وهلكت فيما بعد مع من خرج من القرية بما أمطره الله من الحجارة ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ١٧٢﴾ أهلكناهم بالخسف، وقيل: بالائتفاك وهو الانقلاب. ثم أمطر على من كان غائباً منهم عن القرية الحجارة من السماء وهو قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ١٧٣﴾ أي: بئس واشتد مطر الكافرين. مطرهم وما بعده مفسّر قبل.

●●●

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٧٦ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧
إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٧٨ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٧٩ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ
إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٨٠ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ١٨١ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ
ٱلْمُسْتَقِيمِ ١٨٢ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ١٨٣ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى
خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ١٨٤ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا
وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ١٨٦ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ
١٨٧ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ١٨٨ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ
يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٨٩ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ١٩٠ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ ١٩١﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الحجاز، والشام، «ليكةَ» بالنصب، غير مهموز هٰهنا وفي سورة ص، والباقون «الأيكة» بإثبات الهمزة والجر في الموضعين.

● **الحجة:** قال أبو علي: الأيكة تعريف أيكة، فإذا خففت الهمزة حذفتها وألقيت حركتها على اللام، فقلت: الَيْكة كما قالوا: الَحْمَر، ومن قال لَحمر قال لَيْكة، وقول من قال: «أصحاب ليكة»، بفتح التاء مشكل لأنه فتح مع لحاق لام المعرفة الكلمة. وهذا في الامتناع كقول من قال: بلحمر فيفتح، وإنما يخرج هذا على أن المعنى قد سمي بكلمة تكون اللام فيها فاء ولم أسمع بها. وقال الزجاج: جاء في التفسير: أن اسم المدينة التي أرسل إليها شعيب كان ليكة.

● **اللغة:** الأيكة: الغيضة ذات الشجر الملتف، والجمع الأيك. قال:

تَجلو بِقادمَتي حَمامةِ أيكةٍ ... بَرَداً أُسِفَّ لِثاثُهُ بالإثْمِدِ[1]

المخسر: المعرض للخسران في رأس المال بالنقصان، أخسر يخسر إخساراً: إذا جعله

(١) شبه شفتي محبوبته بمقدمي جناح الحمامة، وثغرها بالبرد ذر بالإثمد.

يخسر في ماله، ونقيضه أربحه، والجبلة: الخليقة التي طبع عليها الشيء بكسر الجيم والباء. وقيل: أيضاً بضمها ويسقطون الهاء أيضاً. قال أبو ذؤيب:

منايا يقرِّبن الحُتوفَ لأهلِها جِهاراً ويستمتعن بالأنسِ الجِبل(١)

وقال آخر:

والمَوْتُ أَعْظَمُ حادثٍ مما يمرُّ على الجِبِلَّةِ

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن شعيب فقال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وهم أهل مدين عن ابن عباس، وقيل: إنهم غيرهم، عن قتادة. وقال: إن الله سبحانه أرسل شعيباً إلى أمتين ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ولم يقل أخوهم لأنه لم يكن من نسبهم، وكان من أهل مدين فلذلك قال في ذلك الموضع ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ مفسَّر فيما قبل إلى قوله ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وإنما حكى الله سبحانه دعوة كل نبي بصيغة واحدة ولفظ واحد، إشعاراً بأن الحق الذي تأتي به الرسل ويدعون إليه واحد، من اتقاء الله تعالى، واجتناب معاصيه، والإخلاص في عبادته، وطاعة رسله، وأن أنبياء الله تعالى لا يكونون إلا أمناء الله في عباده، فإنه لا يجوز على واحد منهم أن يأخذ الأجرة على رسالته لما في ذلك من التنفير عن قبولهم، ثم قال: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾ أي: أعطوا الكيل وافياً غير ناقص. ويدخل الوفاء في الكيل، والوزن، والذرع، والعدد ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾ أي: من الناقصين للكيل والوزن ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ أي: بالعدل الذي لا حيف فيه، يعني زنوا وزناً يجمع الإيفاء والاستيفاء، وذكرنا الأقوال في القسطاس في سورة بني إسرائيل ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ أي: ولا تنقصوا الناس حقوقهم ولا تمنعوها ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: ولا تسعوا في الأرض بالفساد والعثي أشد الفساد والخراب، عن أبي عبيدة ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ أي: أوجدكم بعد العدم ﴿وَٱلْجِبِلَّةَ﴾ أي: الخليقة ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعني: وخلق الأمم المتقدمين ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ مرَّ معناه ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: وإنا نظنك كاذباً من جملة الكاذبين، وإنْ هذه مخففة من الثقيلة ولذلك لزمها اللام في الخبر ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: قطعاً من السماء جمع كسفة، عن ابن عباس ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعواك ﴿قَالَ﴾ شعيب: ﴿رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ومعناه أنه إن كان في معلومه أنه إن بقاكم تبتم أو تاب بعضكم، لم يقتطعكم بالعذاب، وإن كان في معلومه أنه لا يفلح واحد منكم فسيأتيكم عذاب الاستئصال. ثم قال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ أصابهم حرٌّ شديد سبعة أيام وحبس عنهم الريح، ثم غشيتهم سحابة، فلما خرجوا إليها طلباً للبرد من شدة الحر الذي أصابهم، أمطرت عليهم ناراً فأحرقتهم، فكان من أعظم الأيام في الدنيا عذاباً، وذلك قوله ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ومعنى الظلة هٰهنا السحابة التي قد أظلتهم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ مفسَّر إلى آخره.

● ● ●

(١) يقول: الناس كلهم متعة للموت، يستمتع بهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ
لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ
ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا
كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ
يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ
﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟
يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ
﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا
يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الحجاز، وأبو عمرو، وحفص، وزيد: «نَزَلَ» بالتخفيف، «الروحُ الأمينُ» بالرفع، والباقون: «نزّل» بالتشديد، «الروحَ الأمينَ» بالنصب. وقرأ ابن عامر: «أو لم تكن» بالتاء، «آيةٌ» بالرفع، والباقون: ﴿أَوَلَمْ يَكُن﴾ بالياء «آيةً» بالنصب. وفي الشواذ قراءة الحسن: «الأعجميين» وقراءته أيضاً «فتأتيهم بغتة» بالتاء «وما تنزلت به الشياطون».

● **الحجة:** قال أبو علي: حجة من قال: «نزّل به» بالتشديد قوله ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ و﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ فإنه مطاوع«نزل»، وقوله ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾، ومن أسند الفعل إلى الروح فقال «نزل به الروح الأمين» فإنه ينزل بأمر الله تعالى فمعناه معنى المثقلة، والوجه في قراءة ابن عامر: «أو لم تكن لهم آية» أن في «تكن» ضمير القصة والحديث لأن ما يقع تفسيراً للقصة والحديث، من الجملة إذا كان فيها اسم مؤنث، جاز تأنيث المضمر على شريطة التفسير، كقوله ﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وقوله ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ وكذلك ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ لما كان فيه المؤنث جاز أن يؤنث «تكن» فـ «آية» مرتفعة بأنها خبر المبتدأ الذي هو ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾. ولا يمتنع أن لا يضمر القصة والحديث، ولكن يرفع ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ بقوله ﴿تَكُن﴾ وإن كان في «تكن» علامة التأنيث لأن ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ في المعنى هو الآية، فيحمل الكلام على المعنى كما حمل على المعنى في قوله ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ فأنث لما كان المراد بالأمثال الحسنات، وكذلك قراءة من قرأ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ . وقال ابن جني في قراءة الحسن «الأعجميين»: إنها تفسير للغرض في القراءة المجمع عليها، وهي قوله بعض الأعجميين، وذلك أن ما كان من الصفات على أفعل ومؤنثه فعلى لا يجمع بالواو والنون ولا بالألف والتاء، فكان قياسه أن لا يجوز فيه الأعجمون لأن مؤنثه عجمى، لكن سببه أنه أريد به الأعجميون، ثم حذف ياء النسب وجعل جمعه بالواو والنون دليلًا عليها وأمارة لإرادتها، كما جعلت الواو في عواور، أمارة لإرادة الياء في عواوير. وقوله «فتأتيهم بغتة» بالتاء فتأتيهم الساعة، فأضمر الساعة لدلالة العذاب الواقع فيها عليها ولكثرة

ما يرد في القرآن من ذكر إتيانها. وأما قوله «الشياطون» فقد قال الفراء: فيه غلط الشيخ يعني الحسن، فقيل ذلك للنضر بن شميل، فقال: إذا جاز أن يحتج بقول العجاج ورؤبة، فهلا جاز أن يحتج بقول الحسن مع أنا نعلم أنه لم يقرأ به إلا وقد سمعه. قال ابن جني: هذا مما يعرض مثله للفصيح لتداخل الجمعين عليه وتشابههما عنده، ونحو منه قولهم: مسيل، فيمن أخذه من السيل، ثم قالوا في جمعه: مسلان وأمسلة، وفي معين: معنان وأمعنة، مع أن الأقوى أن يكون معنان من العين. فالشياطون غلط لكن يشبهه كما أن من همز مصائب كذلك عندهم. وقال الزمخشري: الوجه فيه أنه رأى آخره كآخر يبرين وفلسطين، فتخيَّر بين أن يجري الإعراب على النون وبين أن يجريه على ما قبله، فيقول الشياطين والشياطون. كما تخيَّرت العرب بين أن تقول هذه يبرون ويبرين، وفلسطون وفلسطين. وحقه أن يشتق من الشيطوطة، وهي الهلاك، كما قيل له الباطل.

● **اللغة:** الأعجم: الذي يمتنع لسانه عن العربية، والعجمي: نقيض العربي، والأعجمي: نقيض الفصيح.

● **الإعراب:** ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ في موضع النصب عن الحال، و﴿بَغْتَةً﴾ مصدر وضع موضع الحال، ﴿سِنِينَ﴾ ظرف زمان لـ ﴿مَّتَّعْنَٰهُمْ﴾. ﴿مَآ أَغْنَىٰ﴾ ﴿مَآ﴾ نافية ومفعول ﴿أَغْنَىٰ﴾ محذوف وتقديره: ما أغنى عنهم تمتعهم شيئاً. ﴿ذِكْرَىٰ﴾ في محل النصب لأنه مفعول له. ﴿وَمَا يَنۢبَغِى﴾ فاعل ﴿يَنۢبَغِى﴾ مستكن فيه عائد إلى مصدر تنزيل تقديره وما ينبغي لهم أن يتنزلوا به.

● **المعنى:** ثم بيّن سبحانه أمر القرآن بعد أن قصَّ أخبار الأنبياء عليهم السلام ليتّصل بها حديث نبينا صلى الله عليه وآله فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ﴾ أي: نزل الله بالقرآن ﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ يعني جبرائيل عليه السلام، وهو أمين الله لا يغيره ولا يبدله، وسماه روحاً لأنه يحيي به الدين، وقيل: لأنه يحيي به الأرواح بما ينزل من البركات، وقيل: لأنه جسم روحاني ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يا محمد، وهذا على سبيل التوسع لأن الله تعالى يسمعه جبرائيل عليه السلام، فيحفظه وينزل به على الرسول، ويقرأه عليه، فيعيه، ويحفظه بقلبه، فكأنه نزل به على قلبه، وقيل: معناه لقنك الله حتى تلقنته وثبته على قلبك، وجعل قلبك وعاء له ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ أي: لتخوّف به الناس وتنذرهم بآيات الله ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ أي: بلغة العرب مبيِّن للناس ما بهم إليه الحاجة في دينهم، وقيل: أراد به لسان قريش ليفهموا ما فيه ولا يقولوا: ما نفهم ما قال محمد، عن مجاهد، وقيل: لسان جرهم، وإنما جعله عربياً لأن المنزل عليه عربي والمخاطبون به عرب، ولأنه تحدى بفصاحته فصحاء العرب.

وقد تضمنت هذه الآية تشريف هذه اللغة لأنه سماها مبيناً، ولذلك اختارها لأهل الجنة ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: وإن ذكر القرآن، وخبره ﴿لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: في كتب الأولين على وجه البشارة به وبمحمد صلى الله عليه وآله، لا بمعنى أن الله أنزله على غير محمد صلى الله عليه وآله وواحد الزبر: زبور. وقيل: معناه أنه أنزل على سائر الأنبياء من الدعاء إلى التوحيد، والعدل، والاعتراف بالبعث وأقاصيص الأمم، مثل الذي نزل في القرآن: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾

معناه: أولم يكن لهم علم علماء بني إسرائيل بمجيئه على ما تقدمت البشارة دلالة لهم على صحة نبوته، لأن العلماء الذين آمنوا من بني إسرائيل كانوا يخبرون بوجود ذكره في كتبهم، وكانت اليهود تبشر به وتستفتح على العرب، وكان ذلك سبب إسلام الأوس والخزرج على ما مرَّ بيانه، وعلماء بني إسرائيل عبد الله بن سلام، وأصحابه، عن ابن عباس، وقيل: هم خمسة عبد الله بن سلام، وابن يامين، وثعلبة، وأسد، وأُسيد، عن عطية ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾﴾ أي: ولو نزلنا القرآن على رجل ليس من العرب وعلى من لا يفصح ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم﴾ أي: على العرب ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: لم يؤمنوا وأنفوا من اتباعه لكنا أنزلناه بلسان العرب على أفصح رجل منهم من أشرف بيت، ليتدبروا فيه وليكون ادعى إلى اتباعه وتصديقه. وقيل: معناه لو نزلناه على أعجم من البهائم أو غيرها لما آمنوا به وإن كان فيه زيادة أعجوبة، عن عبد الله بن مطيع، وروي عن عبد الله بن مسعود أنه سئل عن هذه الآية وهو على بعير فأشار إليه وقال: هذا من الأعجمين ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾﴾ أي: كما أنزلنا القرآن عربياً مبيناً أمررناه وأدخلناه وأوقعناه في قلوب الكافرين بأن أمرنا النبي ﷺ، حتى قرأه عليهم وبيَّنه لهم. ثم بيَّن أنهم مع ذلك ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾ فيلجئهم إلى الإيمان به وهذا خبر عن الكفار الذين علم الله أنهم لا يؤمنون أبداً ﴿فَيَأْتِيَهُم﴾ العذاب الذي يتوقعونه ويستعجلونه ﴿بَغْتَةً﴾ أي: فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بمجيئه ﴿فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ أي: مؤخرون لنؤمن ولنصدق. قال مقاتل: لما أوعدهم النبي ﷺ بالعذاب، استعجلوا العذاب تكذيباً له فقال الله: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ توبيخاً لهم ثم قال: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ أي: أرأيت إن أنظرناهم، وأخرناهم سنين، ومتعناهم بشيء من الدنيا، ثم أتاهم العذاب، لم يغن عنهم ما متّعوا في تلك السنين من النعيم لازديادهم في الآثام واكتسابهم من الإجرام، وهو استفهام في معنى التقرير ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ أي: وما أهلكنا قرية ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ أي: إلا بعد إقامة الحجج عليهم بتقديم الإنذار وإرسال الرسل ﴿ذِكْرَىٰ﴾ أي: تذكيراً وموعظة لهم ليتعظوا ويصلحوا فإذا لم يصلحوا مع التخويف والتحذير واستحقوا عذاب الاستئصال بإصرارهم على الكفر والعناد أهلكناهم ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي: وما ظلمناهم بالإهلاك لأنا لا نظلم أحداً. نفى سبحانه عن نفسه الظلم، وفي هذا تكذيب لمن زعم أن كل ظلم وكفر في الدنيا هو من خلقه وإرادته، وغاية الظلم أن يعاقب عباده على ما خلقه فيهم وأراده منهم تعالى الله عن ذلك وتقدس ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ﴾ أي: بالقرآن ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ كما يزعمه بعض المشركين ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾ إنزال ذلك أي: الشياطين ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذلك ولا يقدرون عليه لأن الله تعالى يحرس المعجزة عن أن يموه بها المبطل، فإنه إذا أراد أن يدل بها على صدق الصادق أخلصها بمثل هذه الحراسة حتى تصح الدلالة بها. ومعنى قول العرب: ينبغي لك أن تفعل كذا أنه يطلب منك فعله في مقتضى العقل من البغية التي هي الطلب ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ أي: مصروفون عن استماع القرآن أي: عن المكان الذي يستمعون ذلك فيه، ممنعون عنه بالشهب الثاقبة، وقيل: معناه أن الشياطين عن سمع القرآن منحون، عن قتادة، فإن العزل تنحية الشيء عن موضع إلى خلافه

وإزالته عن أمر إلى نقيضه. قال مقاتل: قالت قريش: إنما تجيء بالقرآن الشياطين فتلقيه على لسان محمد ﷺ فأكذبهم الله تعالى بأن قال إنهم لا يقدرون بأن يأتوا بالقرآن من السماء، قد حيل بينهم وبين السمع بالملائكة والشهب.

●●●

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل المدينة، وابن عامر: «فتوكل» بالفاء. والباقون بالواو.

● **الحجة:** هو في مصاحف أهل المدينة والشام بالفاء، وفي مصاحف مكة والعراق بالواو، والوجهان حسنان.

● **اللغة:** عشيرة الرجل: قرابته، سموا بذلك لأنه يعاشرهم وهم يعاشرونه.

● **المعنى:** ثم خاطب سبحانه نبيه ﷺ والمراد به سائر المكلفين فقال: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ بسبب ذلك وإنما أفرده بالخطاب ليعلم أن العظيم الشأن إذا أوعد فمن دونه كيف حاله؟ وإذا حذر هو فغيره أولى بالتحذير ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ أي: رهطك الأدنين أي: أنذرهم بالإفصاح من غير تليين بالقول كما تدعو إليه مقاربة العشيرة. وإنما خصهم بالذكر تنبيهاً على أنه ينذر غيرهم، وأنه لا يداهنهم لأجل القرابة ليقطع طمع الأجانب عن مداهنته في الدين. وقيل: إنه ﷺ أمر بأن يبدأ بهم في الإنذار والدعاء إلى الله ثم بالذين يلونهم كما قال ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾، لأن ذلك هو الذي يقتضيه حسن الترتيب، وقيل: إنه إنما خصهم لأنه يمكنه أن يجمعهم ثم ينذرهم، وقد فعل ذلك النبي ﷺ، واشتهرت القصة بذلك عند الخاص والعام. وفي الخبر المأثور، عن البراء بن عازب أنه قال: لما نزلت هذه الآية جمع رسول الله ﷺ بني عبد المطلب، وهم يومئذٍ أربعون رجلًا، الرجل منهم يأكل المسنة[1] ويشرب العس، فأمر علياً عليه السلام برجل شاة فأدمها[2] ثم قال: ادنوا بسم الله فدنا القوم عشرة عشرة فأكلوا حتى صدروا، ثم دعا بقعب[3] من لبن فجرع منه جرعة، ثم قال لهم: اشربوا بسم الله، فشربوا حتى رووا، فبدرهم أبو لهب فقال: هذا ما سحركم به الرجل فسكت ﷺ يومئذٍ ولم يتكلم. ثم دعاهم من الغد على مثل ذلك من الطعام

(١) وفي بعض الروايات: «الجذعة»، وفي بعضها: «الجفرة». وهي من أولاد المعز ما بلغ أربعة أشهر، وفصل عن أمه، وأخذ في الرعي. والعس: القدح الكبير.
(٢) أدم الخبز: خلطه بالأدام.
(٣) القعب: القدح الضخم الغليظ.

والشراب، ثم أنذرهم رسول الله ﷺ فقال: يا بني عبد المطلب! إني أنا النذير إليكم من الله عزّ وجل، والبشير فأسلموا، وأطيعوني تهتدوا، ثم قال: من يؤاخيني، ويؤازرني، ويكون وليّي، ووصي بعدي، وخليفتي في أهلي، ويقضي ديني؟ فسكت القوم، فأعادها ثلاثاً كل ذلك يسكت القوم، ويقول علي عليه السلام: أنا! فقال في المرة الثالثة: أنت! فقام القوم وهم يقولون لأبي طالب: أطع ابنك فقد أُمِّرَ عليك، أورده الثعلبي في تفسيره. وروي عن أبي رافع هذه القصة وأنه جمعهم في الشعب، فصنع لهم رجل شاة، فأكلوا حتى تضلعوا، وسقاهم عساً، فشربوا كلهم، حتى رووا. ثم قال: إن الله تعالى أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، وأنتم عشيرتي ورهطي وان الله لم يبعث نبياً إلا جعل له من أهله أخاً ووزيراً ووارثاً ووصياً وخليفة في أهله، فأيكم يقوم فيبايعني على أنه أخي ووارثي ووزيري وصيّي، ويكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي؟ فسكت القوم، فقال: ليقومن قائمكم أو ليكونن في غيركم ثم لتندمن، ثم أعاد الكلام ثلاث مرات، فقام علي عليه السلام فبايعه وأجابه ثم قال: ادن مني، فدنا منه، ففتح فاه، ومج في فيه من ريقه، وتفل بين كتفيه وثدييه. فقال أبو لهب فبئس ما حبوت به[1] ابن عمك أن أجابك فملأت فاه ووجهه بزاقاً! فقال ﷺ: ملأته حكمة وعلماً. وعن ابن عباس قال: لما نزلت الآية صعد رسول الله ﷺ على الصفا فقال: يا صباحاه فاجتمعت إليه قريش فقالوا: ما لك فقال: أرأيتكم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم ما كنتم تصدقونني؟ قالوا: بلى، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، قال أبو لهب: تباً لك ألهذا دعوتنا جميعاً؟ فأنزل الله تعالى ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ إلى آخر السورة. وفي قراءة عبد الله بن مسعود «وأنذر عشيرتك الأقربين ورهطك منهم المخلصين»، وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ أي: ألن جانبك وتواضع لهم وحسِّن أخلاقك معهم، عن أبي زيد، وغيره ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ يعني أقاربك بعد إنذارك إياهم وخالفوك فيما تدعوهم إليه ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: من أعمالكم القبيحة وعبادتكم الأصنام ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ أي: فوِّض أمرك إلى العزيز المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه ليكفيك كيد أعدائك الذين عصوك فيما أمرتهم به ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾ أي: الذي يبصرك حين تقوم من مجلسك أو فراشك إلى الصلاة وحدك وفي الجماعة، وقيل: معناه يراك حين تقوم في صلاتك عن ابن عباس، وقيل: حين تقوم بالليل لأنه لا يطلع عليه أحد غيره، وقيل: حين تقوم للإنذار وأداء الرسالة ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ أي: ويرى تصرفك في المصلين بالركوع والسجود والقيام والقعود، عن ابن عباس، وقتادة، والمعنى: يراك حين تقوم إلى الصلاة مفرداً وتقلبك في الساجدين إذا صليت في جماعة، وقيل: معناه وتقلبك في أصلاب الموحدين من نبي إلى نبي حتى أخرجك نبياً، عن ابن عباس في رواية عطاء وعكرمة، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله صلوات الله عليهما قالا: في أصلاب النبيين نبي بعد نبي حتى أخرجه من صلب أبيه من نكاح غير سفاح من لدن آدم عليه السلام. وروى جابر عن أبي

(١) أي: أعطيت به.

جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «لا ترفعوا قبلي ولا تضعوا قبلي فإني أراكم من خلفي كما أراكم من أمامي» ثم تلا هذه الآية ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يسمع ما تتلو في صلاتك ويعلم ما تضمر فيها.

●●●

قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ نافع «يَتْبعهم» ساكنة التاء، والباقون «يَتَّبعهم».

● **الحجة:** الوجهان حسنان، يقال: تبعت القوم وأَتبعهم وأَتبعتهم.

● **اللغة:** الأفاك: الكذاب. وأصل الإفك: القلب، والأفاك: الكثير القلب للخبر عن جهة الصدق إلى جهة الكذب. والأثيم: الفاعل للقبيح، يقال أثم يأثم إثماً: إذا ارتكب القبيح، وتأثم: إذا ترك الإثم. والهائم: الذاهب على وجهه، عن الكسائي، وقيل: هو المخالف للقصد عن أبي عبيدة.

● **الإعراب:** انتصب قوله ﴿أَىَّ مُنقَلَبٍ﴾ لأنه صفة مصدر محذوف، وتقديره: سيعلم الذين ظلموا انقلاباً أي انقلاب ينقلبون. ولا يجوز أن يكون معمول ﴿وَسَيَعْلَمُ﴾ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله وإنما يعمل فيه ما بعده، والعلة في ذلك الاستخبار قبل الخبر، ورتبة الاستخبار التقديم فلا يجوز أن يعمل فيه الخبر لأن الخبر بعده وذلك أنه موضوع على أنه جواب مستخبر.

● **المعنى:** لما أخبر الله سبحانه أن القرآن ليس مما تتنزل به الشياطين وأنه وحي من الله عقَّبه بذكر من تنزل عليه الشياطين فقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ أي: إنما يتنزل الشياطين على كل كذاب فاجر عامل بالمعاصي وهم الكهنة، وقيل: طليحة ومسيلمة، عن مقاتل. ولست بكذاب ولا أثيم فلا يتنزل عليك الشياطين، وإنما يتنزل عليك الملائكة ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ معناه: أن الشياطين يلقون ما يسمعونه إلى الكهنة والكذابين ويخلطون به كثيراً من الأكاذيب ويوحونه إليهم ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ أي: وأكثر الشياطين ﴿كَٰذِبُونَ﴾ وقيل: أكثر الكهنة كاذبون. قال الحسن: هم الذين يسترقون السمع من الملائكة فيلقون إلى الكهنة. وهذا كان قبل أن أُوحي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبعد ذلك ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ قال ابن عباس: يريد شعراء المشركين، وذكر مقاتل أسماءهم فقال: منهم عبد الله بن الزبعرى السهمي، وأبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، ومسافع بن عبد مناف الجمحي، وأبو عزة عمرو بن عبد الله،

كلهم من قريش وأمية بن أبي الصلت الثقفي، تكلموا بالكذب والباطل وقالوا: نحن نقول مثل ما قال محمد ﷺ وقالوا الشعر، واجتمع إليهم غواة من قومهم يستمعون أشعارهم ويروون عنهم حين يهجون النبي ﷺ وأصحابه فذلك قوله﴿يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾، وقيل: الغاوون الشياطين، عن قتادة، ومجاهد، وقيل: أراد بالشعراء الذين غلبت عليهم الأشعار حتى اشتغلوا بها عن القرآن والسنة، وقيل: هم الشعراء الذين إذا غضبوا سبّوا وإذا قالوا كذبوا، وإنما صار الأغلب عليهم الغي لأن الغالب عليهم الفسق. فإن الشاعر يصدر كلامه بالتشبيب، ثم يمدح للصلة ويهجو على حمية الجاهلية فيدعوه ذلك إلى الكذب ووصف الإنسان بما ليس فيه من الفضائل والرذائل، وقيل: إنهم القصاص الذين يكذبون في قصصهم، ويقولون ما يخطر ببالهم وفي تفسير علي بن إبراهيم: أنهم الذين يغيّرون دين الله تعالى ويخالفون أمره. قال: وهل رأيتم شاعراً قط تبعه أحد إنما عني بذلك الذين وضعوا ديناً بآرائهم فتبعهم الناس على ذلك. وروى العياشي بالإسناد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: هم قوم تعلموا وتفقهوا بغير علم فضلّوا وأضلّوا ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾ أي: في كل فن من الكذب يتكلمون، وفي كل لغو يخوضون يمدحون ويذمون بالباطل، عن ابن عباس، وقتادة، والمعنى: أنهم لما يغلب عليهم من الهوى كالهائم على وجهه في كل واد يعن له فيخوضون في كل فن من الكلام والمعاني التي تعن لهم ويريدونها، فالوادي مثل لفنون الكلام وهيمانهم فيه قولهم على الجهل بما يقولون من لغو وباطل وغلو في مدح وذم ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ أي: يحثون على أشياء لا يفعلونها وينهون عن أشياء يرتكبونها. ثم استثنى من جملتهم فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهم شعراء المؤمنين مثل عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك، وحسان بن ثابت، وسائر شعراء المؤمنين الذين مدحوا رسول الله ﷺ وردوا هجاء من هجاه. وفي الحديث عن الزهري قال: حدثني عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال: يا رسول الله! ماذا تقول في الشعر؟ فقال: إن المؤمن مجاهد بسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأنما ينضحونهم بالنبل. وقال النبي ﷺ لحسان بن ثابت: «اهجهم أو هاجهم وروح القدس معك». رواه البخاري ومسلم في الصحيحين، وقال الشعبي: كان أبو بكر يقول الشعر وكان عمر يقول الشعر وكان علي عليه السلام أشعر من الثلاثة ﴿وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ لم يشغلهم الشعر عن ذكر الله ولم يجعلوا الشعر همهم ﴿وَٱنتَصَرُوا۟﴾ من المشركين للرسول والمؤمنين ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ قال: الحسن انتصروا بما يحبون الانتصار به في الشريعة وهو نظير قوله﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ أي: ردوا على المشركين ما كانوا يهجون به المؤمنين. ثم هدد الظالمين فقال: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ أيّ: سوف يعلمون أيّ مرجع يرجعون وأيّ منصرف ينصرفون لأن منصرفهم إلى النار نعوذ بالله منها.



سُورَةُ النَّمْلِ



مكية/آياتها(٩٣)

● **عدد آيها:** خمس وتسعون آية حجازي، أربع بصري شامي، ثلاث كوفي.

● **اختلافها:** آيتان: ﴿وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ حجازي، ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ غير الكوفي.

● **فضلها:** أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ طس سليمان كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بسليمان، وكذب به، وهود، وشعيب، وصالح، وإبراهيم، ويخرج من قبره وهو ينادي: لا إله إلا الله».

● **تفسيرها:** لما ختم الله سبحانه سورة الشعراء بذكر القرآن افتتح هذه السورة بذكره أيضاً فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) ٱلَّذِينَ
يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ
زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ
ٱلْأَخْسَرُونَ (٥) وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦) إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ
ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ
أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٨) يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي
لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ (١٠)﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة، ورويس، عن يعقوب، ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ منوناً غير مضاف، وقرأ الباقون: «بشهابِ قبسٍ» مضافاً.

● **الحجة واللغة:** قال أبو عبيدة: الشهاب: النار، والقبس: ما اقتبست. وأنشد:

فــي كـفّــهِ صـعــدةٌ مـثـقـفـةٌ   فـيـهـا سِـنـانٌ كـشُـعْـلَـةِ الـقَـبَـسِ[1]

وقال غيره: كل ذي نور فهو شهاب. قال أبو علي: يجوز أن يكون قبس صفة، ويجوز أن

(١) الصعدة: القناة التي نبتت مستوية. ومثقفة أي: مستوية.

يكون اسماً غير صفة، فأما الصفة فإنهم يقولون: قبسته أقبسه قبساً. والقبس: الشيء المقبوس، فإذا كان القبس صفة فالأحسن أن يجري على شهاب كما جرى على الموصوف في قوله: «كأنه ضرم بالكف مقبوس»، وإن كان مصدراً غير صفة حسنت فيه الإضافة، ولا يحسن ذلك في الصفة لأن الموصوف لا يضاف إلى صفته. وقال أبو الحسن: الإضافة أجود وأكثر في القراءة كما تقول: دارُ آجرٍ وسوارُ ذهب ولو قلت: سوارٌ «ذهبٌ» ودارٌ آجرٌ كان عربياً. قال أبو علي: جعل أبو الحسن القبس فيه غير وصف ألا ترى أنه جعله بمنزلة الآجر والذهب وليس واحد منهما صفة.

● **الإعراب:** ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ﴾ في محل النصب أو الرفع فالنصب على الحال أي: هادية ومبشرة، والعامل فيهما معنى الإشارة، والرفع على ثلاثة أوجه. على: هي «هدى وبشرى» وعلى البدل من ﴿ءَايَٰتُ﴾ وعلى أن يكون خبراً بعد خبر، ﴿أَنۢ بُورِكَ﴾ «أن» هي المفسرة لأن النداء فيه معنى القول، يعني فيهما قيل له بورك. ولا يجوز أن تكون مخففة عن الثقيلة على تقدير أنه بورك لأنه كان يكون لا بد من قَدْ والهاء في ﴿إِنَّهُۥ﴾ ضمير الشأن، و﴿أَنَا ٱللَّهُ﴾ مبتدأ وخبر و﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ عطف على ﴿بُورِكَ﴾ أي: نودي أن بورك وأن ألق عصاك.

● **المعنى:** ﴿طسٓ﴾ سبق تفسيره ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى ما وعدوا بمجيئه من القرآن ﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أضاف الآيات إلى القرآن، وآيات القرآن هي القرآن فهو كقوله ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾، والقرآن والكتاب معناهما واحد وصفه بالصفتين ليفيد أنه مما يظهر بالقراءة ويظهر بالكتابة، وهو بمنزلة الناطق بما فيه من الأمرين جميعاً، ووصفه بأنه ﴿مُّبِينٍ﴾تشبيه له بالناطق بكذا، ومعناه أن الله يبيِّن فيه أمره ونهيه وحلاله وحرامه ووعده ووعيده، وإذا وصفه بأنه بيان فإنه يجري مجرى وصفه له بالنطق بهذه الأشياء في ظهور المعنى به للنفس، والبيان: هو الدلالة التي تبين بها الأشياء. والمبين: المظهر ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ أي: هدى من الضلالة إلى الحق بالبيان الذي فيه والبرهان وباللطف فيه من جهة الإعجاز الدال على صحة أمر النبي ﷺ، وبشرى للمؤمنين بالجنة والثواب، ويجوز أن يكون في موضع نصب على أن يكون تقديره: هادياً ومبشراً، ويجوز أن يكون في موضع رفع والتقدير: هو هدى وبشرى، ثم وصف المؤمنين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بحدودها وواجباتها ويداومون على أوقاتها ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: ويخرجون ما يجب عليهم من الزكاة في أموالهم إلى من يستحقها ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ﴾ أي: بالنشأة الآخرة والبعث والجزاء ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ لا يشكّون فيه. ثم وصف من خالفهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤﴾ اختلف في معناه فقيل: إن المعنى زيَّنا لهم أعمالهم التي أمرناهم بها بأحسن وجوه التزيين والترغيب، فهم يتحيَّرون بالذهاب عنها، عن الحسن، والجبائي، وأبي مسلم، وقيل: زيَّنا لهم أعمالهم بأن خلقنا فيهم شهوة القبيح الداعية لهم إلى فعل المعاصي ليجتنبوا المشتهى، فهم يعمهون عن هذا المعنى ويترددون في الحيرة، وقيل: معناه حرمناهم التوفيق عقوبة لهم على كفرهم فتزينت أعمالهم في أعينهم وحليت في صدورهم ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: شدة العذاب وصعوبته ﴿وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ أي: لا أحد أخسر صفقة منهم لأنهم يخسرون الثواب ويحصل لهم بدلًا منه العقاب ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: لتعطى ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ﴾ في أمره ﴿عَلِيمٍ﴾ بخلقه أي:

من عند الله لأن الملك يلقيه من قبل الله سبحانه، وقيل: معناه لتلقن. قال علي بن عيسى: عليم بمعنى عالم، إلا أن في عليم مبالغة، فهو مثل سامع وسميع، لأن في قولنا عالم يفيد أن له معلوماً، كما أن قولنا سامع يفيد أن له مسموعاً، وإذا وصفناه بأنه عليم أفاد أنه متى يصح معلوم فهو عالم به. كما أن سميعاً يفيد أنه متى وجد مسموع فلا بد أن يكون سامعاً له ﴿إِذْ﴾ قال الزجاج: العامل في ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ اذكر أي: اذكر في قصة موسى إذ قال لأهله أي: امرأته وهي بنت شعيب ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ﴾ أي: أبصرت ورأيت ﴿نَارًا﴾ ومنه اشتقاق الإنس لأنهم مرئيون وقيل آنست أي: أحسست بالشيء من جهة يؤنس بها وما آنست به فقد أحسست به مع سكون نفسك إليه ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ معناه: فألزموا مكانكم لعلي آتيكم من هذه النار بخبر الطريق وأهتدي بها إلى الطريق لأنه كان أضل الطريق ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ أي: بشعلة نار، والشهاب: نور كالعمود من النار، وكل نور يمتد مثل العمود يسمى شهاباً. وإنما قال لامرأته: ﴿ءَاتِيكُم﴾ على لفظ خطاب الجمع، لأنه أقامه مقام الجماعة في الأنس بها، والسكون إليها في الأمكنة الموحشة ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي: لكي تستدفئوا بها، وذلك لأنهم كانوا قد أصابهم البرد وكانوا شاتين، عن الحسن، وقتادة ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾ أي: جاء موسى إلى النار يعني التي ظن أنها نار وهي نور ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ قال وهب: لما رأى موسى عليه السلام النار، وقف قريباً منها فرآها تخرج من فرع شجرة خضراء شديدة الخضرة، لا تزداد النار إلا اشتعالاً، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة وحسناً، فلم تكن النار بحرارتها تحرق الشجرة، ولا الشجرة برطوبتها تطفىء النار. فعجب منها وأهوى إليها بضغث في يده ليقتبس منها، فمالت إليه فخافها فتأخر عنها، ثم لم تزل تطمعه ويطمع فيها إلى أن نودي، والمراد به نداء الوحي، ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: بورك فيمن في النار وهم الملائكة، وفيمن حولها يعني موسى عليه السلام، وذلك أن النور الذي رأى موسى عليه السلام كان فيه ملائكة لهم زجل بالتقديس والتسبيح، ومن حولها هو موسى عليه السلام لأنه كان بالقرب منها ولم يكن فيها، فكأنه قال: بارك الله على من في النار وعليك يا موسى، ومخرجه الدعاء، والمراد الخبر. قال الكسائي: تقول العرب باركه الله وبارك عليه وبارك فيه، وقيل: بورك من في النار معناه من في النار سلطانه وقدرته وبرهانه، فالبركة ترجع إلى اسم الله، وتأويله: تبارك من نور هذا النور ومن حولها، يعني موسى والملائكة. وهذا معنى قول ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير. وقيل: معناه بورك من في طلب النار وهو موسى عليه السلام فحذف المضاف ومن حولها الملائكة أي: دامت البركة لموسى والملائكة، وهذا تحية من الله سبحانه لموسى عليه السلام بالبركة كما حيًا إبراهيم عليه السلام بالبركة على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه فقالوا: رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت، ثم نزّه سبحانه نفسه فقال: ﴿وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي: تنزيهاً له عما لا يليق بصفاته تعالى عن أن يكون جسماً يحتاج إلى جهة أو عرضاً يحتاج إلى محل أو يكون ممن يتكلم بآلة، ثم أخبر سبحانه موسى عن نفسه وتعرف إليه بصفاته فقال: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾ أي: إن الذي يكلمك هو الله العزيز أي: القادر الذي لا يغالب ولا يمتنع عليه شيء، الحكيم في أفعاله المحكم لتدابيره ثم أراه سبحانه آية يعلم

بها صحة النداء فقال: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ وفي الكلام حذف: تقديره فألقاها فصارت حية ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ أي: تتحرك كما يتحرك الجان وهو الحية التي ليست بعظيمة، وإنما شبهها بالجان في خفة حركتها، واهتزازها، مع أنها ثعبان في عظمها، ولذلك هاله ذلك حتى ولّى مدبراً، وقيل: إن الحالتين مختلفتان لأن الحال التي صارت ثعباناً هي الحال التي لقي فيها فرعون، والحال التي صارت جاناً هي الحال التي خاطبه الله في أول ما بعثه نبياً ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ أي: رجع إلى ورائه ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: لم يرجع، وكلّ راجع معقب، والمفسرون يقولون لم يلتفت ولم يقف فقال الله سبحانه: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ وهذا تسكين من الله سبحانه لموسى ونهي له عن الخوف. يقول له: إنك مرسل والمرسل لا يخاف لأنه لا يفعل قبيحاً ولا يخلّ بواجب فيخاف عقابي على ذلك.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

● **القراءة:** في الشواذ قراءة زيد بن أسلم، وأبي جعفر القاري: «ألاَ من ظلم» بفتح الهمزة خفيفة اللام. وقرأ علي بن الحسين عليه السلام، وقتادة: «مَبْصَرة» بفتح الميم والصاد.

● **الحجة:** قال ابن جني: من عدل إلى هذه القراءة فكأنه خفي عليه انقطاع الاستثناء في القراءة الفاشية، فإن ﴿مَن﴾ في هذه القراءة في موضع رفع بالابتداء، أو يكون للشرط كقولك: من يقم اضرب، و﴿مَن﴾ هناك منصوبة على الاستثناء وهو استثناء منقطع بمعنى لكن. وقوله «مَبْصَرة» كقولك «هدى ونوراً»، وقد كثرت المفعلة بمعنى الشياع والكثرة في الجواهر والأحداث جميعاً كقولهم: أرض مضبة: كثيرة الضباب. ومفعاة: كثيرة الأفاعي، ومحياة، ومحواة: كثيرة الحيات، هذا في الجواهر. وأما الأحداث فكقولك: البطنة موسنة وأكل الرطب مَورَدة ومحمة، ومنه المسعاة والمعلاة، والحق مجدرة بك ومخلقة، وفي كله معنى الكثرة من موضعين:

أحدهما: المصدرية التي فيه والمصدر إلى الشياع والعموم.

والآخر: التاء وهي لمثل ذلك.

● **الإعراب:** ﴿بَيْضَآءَ﴾ منصوبة على الحال، و﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ يتعلق ببيضاء. و﴿فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ يتعلق بـ ﴿أَلْقِ﴾، ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ﴾: ومعناه إلقاء العصا وإدخال اليد في جيبك من جملة الآيات التسع التي يظهرها له. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ يتعلق بمحذوف، والتقدير: مرسلاً إلى فرعون فهو في موضع الحال. ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ مفعول له، و﴿كَيْفَ﴾ في موضع نصب بأنه خبر كان.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ المعنى: لكن من ظلم نفسه بفعل القبيح

من غير المرسلين، لأن الأنبياء لا يقع منهم ظلم لكونهم معصومين من الذنوب والقبائح، فيكون هذا استثناء منقطعاً، وإنما حسن ذلك لاجتماع الأنبياء وغيرهم في معنى شملهم وهو التكليف ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ أي: بدَّل توبة وندماً على ما فعله من القبيح، وعزماً أن لا يعود إليه في المستقبل ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: ساتر لذنبه، قابل لتوبته ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أعطاه آية أخرى وقد سبق بيانها ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ أي: مع تسع آيات أُخر أنت مرسل بها ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ فحذف، أو يكون تقديره: مرسلًا بها إلى فرعون ومبعوثاً إليه ومثله قول الشاعر:

رأتني بِحَبْلَيها فصدَّت مَخافةً ... وفي الحَبْلِ رَوْعاءُ الفؤادِ فَروقُ(١)

والتقدير: رأتني مقبلًا بحبليها. وقال الزجاج: في تسع آيات معناه: من تسع آيات، أي: أظهر هاتين الآيتين من جملة تسع آيات كقولهم: خذ لي عشراً من الإبل فيها فحلان، والمعنى: منها فحلان، والآيات التسع مفسرة في سورة بني إسرائيل ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله إلى أقبح وجوه الكفر ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا﴾ أي: حججنا ومعجزاتنا ﴿مُبْصِرَةً﴾ أي: واضحة بيِّنة على من أبصر أنها خارجة عن قدرة البشر، وهو مثل قوله ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾، وقد مرَّ بيانه. ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر بيِّن ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾ وأنكروها ولم يقروا بأنها من عند الله تعالى. قال أبو عبيدة: الباء زائدة، والمعنى جحدوها، كما قال العجاج: نضرب بالسيف ونرجو بالفرج». ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: عرفوها وعلموها يقيناً بقلوبهم وإنما جحدوها بألسنتهم ﴿ظُلْمًا﴾ على بني إسرائيل، وقيل: ظلماً على أنفسهم ﴿وَعُلُوًّا﴾ أي: طلباً للعلو والرفعة وتكبُراً عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى عليه السلام ﴿فَٱنظُرْ﴾ يا محمد أو أيها السامع ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض بالمعاصي.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾.

● **اللغة:** الوزع: أصله المنع والكف، يقال: وزعه عن الظلم. قال النابغة:

---

(١) قائله حميد بن ثور. وروعاء الفؤاد: حديده. وفروق: بمعنى الخائف.

على حين عاتَبْتُ المشيب على الصبا وقلت: ألمّا تَصْحُ والشيبُ وازعُ(١)

وقال آخر:

ألم تَزِعِ الهوى إذْ لم تواتي بلى وَسَلَوْتُ عَنْ طَلَبِ الفتاةِ

والحطم: الكسر، ومنه الحطمة: من أسماء جهنم، والحطام: ما تحطم والإيزاع: الإلهام وفلان موزع بكذا أي: مولع به. قال الزجاج: أوزعني تأويله في اللغة: كفّني عن الأشياء إلا عن شكر نعمتك، وكفني عما يباعد منك.

● **الإعراب:** ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ في موضع جزم لأنه جواب الأمر. قال الزجاج: ﴿ضَاحِكًا﴾ حال مؤكدة لأن ﴿تَبَسَّمَ﴾ في معنى ضحك. وقال بعض المتأخرين: يجوز أن يكون حالاً بعد الفراغ من الفعل، لأن التبسم دون الضحك، فكأنه تبسم أولًا ثم آل أمره إلى الضحك.

● **المعنى:** ثم عطف سبحانه على قصة موسى عليه السلام قصة داود وسليمان عليهما السلام فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ أي: علماً بالقضاء بين الخلق وبكلام الطير والدواب، عن ابن عباس ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: اختارنا من بين الخلق بأن جعلنا أنبياء، وبالمعجزة والملك والعلم الذي آتاناه وبإلانة الحديد وتسخير الشياطين والجن والإنس. وإنما نكر قوله ﴿عِلْمًا﴾ ليدل على أنه أراد علمه احتاجا إليه مما ينبىء عن صدقهما في دعوى الرسالة ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُودَ﴾ في هذا دلالة على أن الأنبياء يورثون المال كتوريث غيرهم، وهو قول الحسن، وقيل: معناه إنه ورثه علمه ونبوته وملكه دون سائر أولاده. ومعنى الميراث هنا: أنه قام مقامه في ذلك فأطلق عليه اسم الإرث كما أطلق على الجنة اسم الإرث، عن الجبائي. وهذا خلاف للظاهر، والصحيح عند أهل البيت عليهم السلام هو الأول ﴿وَقَالَ﴾ سليمان مظهراً لنعمة الله وشاكراً إياها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ أهل العربية: يقولون إنه لا يطلق النطق على غير بني آدم، وإنما يقال الصوت لأن النطق عبارة عن الكلام، ولا كلام للطير إلا أنه لما فهم سليمان معنى صوت الطير سماه منطقاً مجازاً، وقيل: إنه أراد حقيقة المنطق لأن من الطير ما له كلام مهجى كالطيطوى. قال المبرد: العرب تسمي كل مبين عن نفسه ناطقاً ومتكلماً. قال رؤبة:

لو انني أُعْطِيتُ عِلمَ الحُكْلِ عِلْمَ سُلَيْمانَ كَلامَ النَّمْلِ

والحكل: ما لا يسمع له صوت. وقال علي بن عيسى: إن الطير كانت تكلم سليمان معجزة له كما أخبر عن الهدهد. ومنطق الطير: صوت يتفاهم به معانيها على صيغة واحدة بخلاف منطق الناس الذي يتفاهمون به المعاني على صيغ مختلفة. ولذلك لم نفهم عنها مع طول مصاحبتها، ولم تفهم هي عنا لأن أفهامها مقصورة على تلك الأمور المخصوصة، ولما جعل سليمان يفهم عنها كان قد

(١) المشيب: الشيب وابيضاض الشعر. والصبا: الميل إلى هوى النفس. وقوله: «تصح» من الصحو، وهو زوال السكر. وقوله: «على حين» الجار والمجرور متعلق بأسبل في البيت الذي قبله وهو قوله:

«فأسبل مني عبرة، فرددتها على النحر منها مستهل، ودامع»

علم منطقها ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: من كل شيء يؤتى الأنبياء والملوك، وقيل: من كل ما يطلبه طالب لحاجته وانتفاعه به، وقيل: من كل شيء علماً وتسخيراً في كل ما يصلح أن يكون معلوماً لنا أو مسخراً لنا، غير أن مخرجه مخرج العموم فيكون أبلغ وأحسن. وروى الواحدي بالإسناد عن محمد بن جعفر بن محمد، عن أبيه عليه السلام، قال: أُعطي سليمان بن داود ملك مشارق الأرض ومغاربها، فملك سبعمائة سنة وستة أشهر، ملك أهل الدنيا كلهم من الجن والإنس والشياطين والدواب والطير والسباع وأُعطي علم كل شيء ومنطق كل شيء، وفي زمانه صنعت الصنائع المعجبة التي سمع بها الناس وذلك قوله: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: هذا فضل الله الظاهر الذي لا يخفى على أحد، وهذا قول سليمان على وجه الاعتراف بنعم الله عليه، ويحتمل أن يكون قول الله سبحانه على وجه الإخبار بأنّ ما ذكره هو الفضل المبين ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ﴾ أي: جمع له جموعه وكل صنف من الخلق جند على حدة بدلالة قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ قال المفسرون: كان سليمان إذا أراد سفراً أمر فجمع له طوائف من هؤلاء الجنود على بساط، ثم يأمر الريح فتحملهم بين السماء والأرض، والمعنى: «وحشر لسليمان جنوده» أي: جمع له جموعه في مسير له. وقال محمد بن كعب: بلغنا أن سليمان بن داود كان معسكره مائة فرسخ، خمسة وعشرون منها للإنس، وخمسة وعشرون للجن، وخمسة وعشرون للوحش، وخمسة وعشرون للطير، وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلاثمائة صريحة وسبعمائة سرية، فيأمر الريح العاصف فترفعه، ويأمر الرخاء فتسير به، فأوحى الله تعالى إليه وهو يسير بين السماء والأرض: «اني قد زدت في ملكك أنه لا يتكلم أحد من الخلائق بشيء إلا جاءت به الريح فأخبرتك». وقال مقاتل: نسجت الشياطين لسليمان بساطاً فرسخاً في فرسخ ذهباً في إبريسم وكان يوضع فيه منبر من الذهب في وسط البساط فيقعد عليه، وحوله ثلاثة آلاف كرسي من ذهب وفضة فيقعد الأنبياء على كراسي الذهب والعلماء على كراسي الفضة، وحولهم الناس، وحول الناس الجن والشياطين، وتظلّله الطير بأجنحتها حتى لا تقع عليه الشمس، وترفع الريح الصبا البساط مسيرة شهر من الصباح إلى الرواح ومن الرواح إلى الصباح ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يمنع أولهم على آخرهم، عن ابن عباس، ومعنى ذلك: أن على كل صنف من جنوده وزعة ترد أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ولا يتفرقوا، كما تقوم الجيوش إذا كثرت بمثل ذلك وهو أن تدفع أخراهم وتوقف أولاهم، وقيل: معناه يحبسون، عن ابن زيد، وهو مثل الأول في أنه يحبس أولاهم على أخراهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ أي: فسار سليمان وجنوده حتى إذا أشرفوا على واد وهو بالطائف، عن كعب. وقيل: هو بالشام عن قتادة، ومقاتل ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ أي: صاحت بصوت خلق الله لها، ولما كان الصوت مفهوماً لسليمان عبَّر عنه بالقول. وقيل: كانت رئيسة النمل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ أي: لا يكسرنكم ﴿سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بحطمكم ووطئكم فإنهم لو علموا بمكانكم لم يطؤوكم، وهذا يدل على أن سليمان وجنوده كانوا ركباناً ومشاة على الأرض ولم تحملهم الريح لأن الريح لو حملتهم بين السماء والأرض لما خافت النمل أن يطأوها بأرجلهم. ولعلَّ هذه القصة كانت قبل تسخير الله الريح لسليمان، فإن قيل: كيف عرفت النملة سليمان وجنوده حتى قالت هذه المقالة؟ قلنا: إذا كانت مأمورة بطاعته فلا بدَّ أن يخلق لها من

الفهم ما تعرف به أمور طاعته ولا يمتنع أن يكون لها من الفهم ما يستدرك به ذلك، وقد علمنا أنه تشق ما تجمع من الحبوب بنصفين مخافة أن يصيبها الندى، فتنبت إلا الكزبرة فإنها تكسرها بأربع قطع لأنها تنبت إذا شقت بنصفين، فمن هداها إلى هذا؟ فإنه جلّ جلاله يهديها إلى تمييز ما يحطمها مما لا يحطمها، وقيل: إن ذلك كان منها على سبيل المعجز الخارق للعادة لسليمان عليه السلام. قال ابن عباس: فوقف سليمان بجنوده حتى دخل النمل مساكنه ﴿فَتَبَسَّمَ﴾ سليمان ﴿ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ وسبب ضحك سليمان التعجب، وذلك أن الإنسان إذا رأى ما لا عهد له به تعجب وضحك، وقيل: إنه تبسم بظهور عدله حيث بلغ عدله في الظهور مبلغاً عرفه النمل، وقيل: إنّ الريح أطارت كلامها إليه من ثلاثة أميال حتى سمع ذلك، فانتهى إليها وهي تأمر النمل بالمبادرة فتبسّم من حذرها ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾ أي: ألهمني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ بأن علمتني منطق النمل وأسمعتني قولها من بعيد حتى أمكنني الكف، وأكرمتني بالنبوة والملك ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ أي: أنعمت على والدي بأن أكرمته بالنبوة وفصل الخطاب وألنت له الحديد، وعلى والدتي بأن زوّجتها نبيك، وجعل النعمة عليهما نعمة لله سبحانه عليه ويلزمه شكرها ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ أي: وفِّقني لأن أعمل صالحاً في المستقبل ترضاه ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قال ابن عباس: يعني إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ومن بعدهم من النبيين، أي: أدخلني في جملتهم وأثبت اسمي مع أسمائهم، واحشرني في زمرتهم، وقال ابن زيد ﴿فِي عِبَادِكَ﴾ معناه: مع عبادك. قال الزجاج: جاء لفظ ﴿ٱدْخُلُوا۟﴾ كلفظ ما يعقل، لأن النمل هٰهنا أُجري مجري الآدميين حتى نطق كما ينطق الآدميون، وإنما يقال لما لا يعقل ادخلي. وفي الخبر دخلت أو دخلن. وروي أن نمل سليمان هذا كان كأمثال الذئاب والكلاب.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ
(٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ
بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً
تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ
لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ
(٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا
تُعْلِنُونَ (٢٥) ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ (٢٦)﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير: «أو ليأتينّني» بنونين أولاهما مشددة مفتوحة، والباقون بنون واحدة مشددة. وقرأ عاصم، ويعقوب ﴿فَمَكَثَ﴾ بفتح الكاف، والباقون بضم الكاف. وقرأ أبو عمرو وابن كثير في رواية البزي «من سبأَ» بفتح الهمزة. وقرأ ابن كثير في رواية القواس،

وابن فليح «من سبا» بغير همزة. وقرأ الباقون ﴿مِن سَبَإٍ﴾ مجرورة منونة، ومثله سواء في سورة سبأ ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ وقرأ أبو جعفر، والكسائي، ورويس، عن يعقوب «ألايسجدوا» خفيفة اللام، وقرأ الباقون ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ مثل قوله ﴿لَّا يَقُولُوا﴾ ومن خفف وقف على «ألا يا» وابتدأ «اسجدوا». وقرأ الكسائي، وحفص، عن عاصم ﴿مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بالتاء، والباقون بالياء.

● **الحجة:** من قرأ ﴿لَيَأْتِيَنِّي﴾ حذف النون الثالثة التي هي قبل ياء المتكلم لاجتماع النونات. ومن قرأ «ليأتينّني» فهو على الأصل. ومَكث ومَكُث: لغتان. ومما يقوي الفتح قوله ﴿إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ وقوله: ﴿مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾، وقال سيبويه: ثمود وسبأ مرة للقبيلتين ومرة للحيين. قال أبو علي: يريد أن هذه الأسماء منها ما جاء على أنه اسم الحي نحو معد وقريش وثقيف، ومنها ما يستوي فيه الأمران كثمود وسبأ. وقال أبو الحسن في سبأ: إن شئت صرفت فجعلته اسم أبيهم أو اسم الحي، وإن شئت لم تصرف فجعلته اسم القبيلة. قال: والصرف أحب إلي لأنه قد عرف أنه اسم أبيهم وإن كان اسم الأب يصير كالقبيلة، إلا أني أحمله على الأصل. وقال غيره: هو اسم رجل واليمانية كلها تنسب إليه. يقولون: سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. قال الزجاج: من قال إن سبأ اسم رجل فغلط، لأن سبأ هي مدينة تعرف بمأرِب من اليمن، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام. قال الشاعر:

مِنْ سَبَأِ الحاضرينَ مَأربِ إذْ ... يَبْنونَ مِنْ دونِ سَيْلِهِ العَرِما

فمن لم يصرف فلأنه اسم مدينة ومن صرفه فلأن يكون اسماً للبلد. قال جرير:

الواردون وَتَيْمٌ في ذُرى سبأٍ ... قَدْ عَضَّ أَعْناقَهُم جِلْدُ الجواميسِ(١)

ومن قرأ ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ فالتقدير: فصدهم عن السبيل لأن لا يسجدوا، على أنه مفعول له. قال أبو علي: وهذا هو الوجه لتجري القصة على سننها، ولا يفصل بين بعضها وبعض ما ليس منها، وإن كان الفصل بهذا النحو غير ممتنع، لأنه يجري مجرى الاعتراض، وكأنه لما قيل ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ فدلَّ هذا الكلام على أنهم لا يسجدون لله، قال: ألا يا قوم! اسجدوا لله خلافاً عليهم. ووجه دخول حرف التنبيه على الأمر: أنه موضع يحتاج فيه إلى استعطاف المأمور لتأكيد ما يؤمر به عليه، كما أن النداء موضع يحتاج فيه إلى استعطاف المنادى لما ينادى له من إخبار أو أمر أو نهي، ونحو ذلك مما يخاطب به، وإذا كان كذلك فيجوز أن لا تريد منادى في نحو ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ كما لا تريد المنادى في نحو قوله:

يا لَعْنَةُ اللهِ والأقوامِ كُلِّهِمُ ... والصالِحينِ على سِمعانَ من جارِ(٢)

وكذلك ما حكي عن أبي عمرو من قوله: يا ويل له! ويجوز أن يراد بعد «يا مأمورون» فحذفوا كما حذف في قوله: يا لعنة الله! فكما أن «يا» هٰهنا لايجوز أن يكون إلا لغير اللعنة، كذلك يجوز أن يكون المأمورون مرادين، وحذفوا من اللفظ. وقد جاء هذا في مواضع من الشعر

(١) الذرى جمع الذروة: أعلى كل شيء.
(٢) الشعر في (جامع الشواهد). وسمعان: اسم رجل.

فمن ذلك ما أنشده أبو زيد:

فقالت ألا يا اسْمَع نَعِظْكَ بِخِطَّةٍ فَقُلْتُ سميعاً فانطِقي وأصيبي

وأنشد الزجاج لذي الرمة:

ألا يا اسلمي يا دارَ مَيٍّ على البِلى ولا زالَ مُنْهَلّاً بِجرْعائكِ القَطْرُ[١]

وللأخطل:

ألا يا اسلمي يا هِنْدُ هِنْد بَني بَدْرِ[٢] ولا زالَ حَيّانا عِدىً آخِرَ الدَّهْرِ[٣]

ومما يؤكّد قراءة من قرأ ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟﴾ بالتشديد: أنها لو كانت مخففة لما كانت في ﴿يَسْجُدُوا۟﴾ ياء، لأنها اسجدوا. ففي ثبات الياء في المصحف دلالة على التشديد. ومن قرأ «يخفون ويعلنون» بالياء فلأن الكلام على الغيبة، وقراءة الكسائي فيهما بالتاء لأن الكلام قد دخله خطاب على قراءة «اسجدوا لله»، ومن قرأ: «ألا يا اسجدوا» فيجوز أن يكون الخطاب للمؤمنين والكافرين الذين جرى ذكرهم على لفظ الغيبة.

● **الإعراب:** كان أبو عمرو يسكّن الياء في قوله: ﴿مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ ويفتح في قوله: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ لئلا يقف الواقف على مالي ويبتدىء بلا أعبد، و ﴿لَآ أَرَى﴾ في موضع نصب على الحال. ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾. ﴿أَمْ﴾: منقطعة. التقدير: بل أهو من الغائبين و﴿كَانَ﴾ بمعنى يكون، واللام في ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ﴾ جواب قسم مقدر أي: والله لأعذبنه. ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ منصوب لأنه صفة ظرف أو صفة مصدر، تقديره: فمكث وقتاً غير بعيد أو مكثاً غير بعيد. و﴿يَسْجُدُونَ﴾ في موضع نصب على الحال من ﴿وَجَدتُّ﴾.

● **المعنى:** ثم أخبر سبحانه عن سليمان فقال: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ أي: طلبه عند غيبته ﴿فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ أي: ما للهدهد لا أراه، تقول العرب مالي أراك كئيباً، ومعناه: مالك. ولكنه من القلب الذي يوضح المعنى، واختلف في سبب تفقده الهدهد فقيل: إنه احتاج إليه في سفره، وليدله على الماء لأنه يقال: إنه يرى الماء في بطن الأرض كما يراه في القارورة، عن ابن عباس، وروى العياشي بالإسناد قال: قال أبو حنيفة لأبي عبد الله عليه السلام: كيف تفقد سليمان الهدهد من بين الطير؟ قال: لأن الهدهد يرى الماء في بطن الأرض كما يرى أحدكم الدهن في القارورة، فنظر أبو حنيفة إلى أصحابه وضحك، قال أبو عبد الله عليه السلام: ما يضحكك؟ قال: ظفرت بك جعلت فداك. قال: وكيف ذلك؟ قال: الذي يرى الماء في بطن الأرض لا يرى

---

(١) قوله: اسلمي أمر من السلامة، وهي البراءة من العيوب. المنادى محذوف تقديره: «يا دارمية اسلمي». وقوله: «يا دارمي» تأكيد للمنادى الأول. و«مي» مرخم مية، محبوبته. وورد ذكرها كثيراً في شعر ذي الرمة. والبلى: الاندراس. والانهلال: انصباب المطر بشدة. والجرعاء: رملة مستوية لا تنبت شيئاً. والقطر: المطر.

(٢) وفي رواية: «بني بكر».

(٣) أي: ولو كان بين قبيلتي وقبيلتك عداوة.

الفخ في التراب حتى يؤخذ بعنقه؟ قال أبو عبد الله عليه السلام: يا نعمان، أما علمت أنه إذا نزل القدر أغشى البصر؟ وقيل: إنما تفقده لإخلاله بنوبته، عن وهب، وقيل: كانت الطيور تظلّله من الشمس فلما أخل الهدهد بمكانه بان بطلوع الشمس عليه ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ معناه: أتأخر عصياناً أم غاب لعذر وحاجة؟ قال: المبرد لما تفقد سليمان الطير ولم ير الهدهد، قال: مالي لا أرى الهدهد؟ على تقدير: أنه مع جنوده وهو لا يراه. ثم أدركه الشك فشك في غيبته عن ذلك الجمع، بحيث لم يره فقال: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ أي: بل أكان من الغائبين كأنه ترك الكلام الأول واستفهم عن حاله وغيبته ثم أوعده على غيبته فقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ معناه: لأعذبنه بنتف ريشه وإلقائه في الشمس، عن ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، وقيل: بأن أجعله بين أضداده. وكما صحَّ نطق الطير وتكليفه في زمانه معجزة له جازت معاقبته على ما وقع منه من تقصير فإنه كان مأموراً بطاعته فاستحق العقاب على غيبته ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ أي: لأقطعن حلقه عقوبة على عصيانه ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي: بحجة واضحة تكون له عذراً في الغيبة ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: فلم يلبث سليمان إلا زماناً يسيراً حتى جاء الهدهد، وقيل: معناه فلبث الهدهد في غيبته قليلًا ثم رجع، وعلى هذا فيجوز أن يكون التقدير: فمكث في مكان غير بعيد. قال ابن عباس: فأتاه الهدهد بحجة ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ أي: اطلعت على ما لم تطلع عليه وجئتك بأمر لم يخبرك به ولم يعلم به الإنس وبلغت ما لم تبلغه أنت ولا جنودك وهو قوله: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ أي: بخبر صادق. وعلم الإحاطة: وهو أن يعلم الشيء من جميع جهاته التي يمكن أن يعلم عليها تشبيهاً بالسور المحيط بما فيه، وفي الكلام حذف تقديره: ثم جاء الهدهد فسأله سليمان عن سبب غيبته، فقال: أحطت بما لم تحط به، وفي هذا دلالة على أنه يجوز أن يكون في زمن الأنبياء من يعرف ما لا يعرفونه. وسبأ: مدينة بأرض اليمن، عن قتادة، وقيل: إن الله تعالى بعث إلى سبأ اثني عشر نبياً، عن السدي، وروى علقمة بن وعلة، عن ابن عباس، قال: سئل النبي صلى الله عليه وآله عن سبأ فقال: هو رجل ولد له عشرة من العرب تيامَنَ منهم ستة وتشأم أربعة، فالذين تشأموا: لخم وجذام وغسان وعاملة، والذين تيامنوا: كندة والأشعرون والأزد ومذحج وحمير وأنمار، ومن الأنمار: خثعم وبجيلة ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ أي: تتصرف فيهم بحيث لا يعترض عليها أحد ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ وهذا إخبار عن سعة ملكها أي: من كل شيء من الأموال وما يحتاج إليه الملوك من زينة الدنيا. وقال الحسن: وهي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ، وقيل شرحبيل ولدها أربعون ملكاً آخرهم أبوها [شرحبيل][1]. قال قتادة: وكان أولو مشورتها ثلاثمائة واثني عشر قَيْلاً[2]، كل قيل منهم تحت رايته ألف مقاتل ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ أي: سرير أعظم من سريرك وكان مقدمه من ذهب مرصع بالياقوت الأحمر والزمرد الأخضر ومؤخره من فضة، مكلل بألوان الجواهر، وعليه سبعة أبيات، على كل بيت باب مغلق، وعن ابن عباس قال: كان عرش بلقيس ثلاثين ذراعاً في ثلاثين ذراعاً وطوله في الهواء ثلاثون

---

(١) ما بين المعقوفتين غير موجود في المخطوطتين، وكذا في نسخة (البحار).

(٢) القيل: الرئيس.

ذراعاً. وقال: أبو مسلم: المراد بالعرش الملك. ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: عبادتهم للشمس من دون الله ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: صرفهم عن سبيل الحق ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ قال الجبائي: لم يكن الهدهد عارفاً بالله تعالى وإنما أُخبر بذلك كما يخبر مراهقو صبياننا لأنه لا تكاليف إلا على الملائكة والإنس والجن فيرانا الصبي على عبادة الله، فيتصور أن ما خالفها باطل، فكذلك الهدهد تصور له أن ما خالف فعل سليمان عليه السلام باطل، وهذا الذي ذكره خلاف ظاهر القرآن لأنه لا يجوز أن يفرِّق بين الحق الذي هو السجود لله وبين الباطل الذي هو السجود للشمس، وأن أحدهما حسن والآخر قبيح، إلا العارف بالله سبحانه وبما يجوز عليه وما لا يجوز، هذا مع نسبة تزيين أعمالهم وصدهم عن طريق الحق إلى الشيطان، وهذا مقالة من يعرف العدل وأن القبيح غير جائز على الله سبحانه ﴿أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ﴾ قد بينّا أن التخفيف إنما هو على معنى الأمر بالسجود، ودخلت الياء للتنبيه أو على تقدير: «ألا يا قوم اسجدوا لله». وقيل: إنه أمر من الله تعالى لجميع خلقه بالسجود له، اعترض في الكلام، وقيل: إنه من كلام الهدهد قاله لقوم بلقيس حين وجدهم يسجدون لغير الله، وقاله لسليمان عليه السلام عند عوده إليه استنكاراً لما وجدهم عليه. والقراءة بالتشديد على معنى زيَّن لهم الشيطان ضلالتهم لئلا يسجدوا لله. وذكر الفراء أن القراءة بالتشديد لا توجب سجدة التلاوة، وهذا غير صحيح لأن الكلام قد تضمن الذم على ترك السجود، فيكون فيه دلالة على وجوب السجود، وهو كقوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الآية. ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الخبء: المخبوء وهو ما أحاط به غيره حتى منع من إدراكه، وهو مصدر وصف به يقال: خبأته أخبؤه خبأً، وما يوجده الله تعالى فيخرجه من العدم إلى الوجود يكون بهذه المنزلة. وقيل: الخبء: الغيب، وهو كل ما غاب عن الإدراك، فالمعنى يعلم غيب السماوات والأرض، عن عكرمة، ومجاهد. وقيل: إن خبء السماوات: المطر، وخبء الأرض: النبات والأشجار، عن ابن زيد ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي: يعلم السر والعلانية ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ إلى هٰهنا تمام الحكاية لما قاله الهدهد، ويحتمل أن يكون ابتداء إخبار من الله تعالى. والعرش: سرير الملك الذي عظَّمه الله ورفعه فوق السماوات السبع، وجعل الملائكة تحفُّ به وترفع أعمال العباد إليه وتنشأ البركات من جهته، فهو عظيم الشأن كما وصفه الله تعالى، وهو أعظم خلق الله تعالى.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى
هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ
كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى
مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

● **القراءة:** في الشواذ ما رواه وهب، عن ابن عباس «ألاّ تغلوا» بالغين المعجمة من الغلو.

● **المعنى:** ولما سمع سليمان ما اعتذر به الهدهد في تأخره ﴿قَالَ﴾ عند ذلك ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ في قولك الذي أخبرتنا به ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ وهذا ألطف وألين في الخطاب من أن يقول: أم كذبت، لأنه قد يكون من الكاذبين بالميل إليهم، وقد يكون منهم بالقرابة تكون بينه وبينهم، وقد يكون منهم بأن يكذب كما كذبوا، ثم كتب سليمان كتاباً وختمه بخاتمه ودفعه إليه فذلك قوله: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ يعني إلى أهل سبأ ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: استتر منهم قريباً بعد إلقاء الكتاب إليهم، فانظر ماذا يرجعون، عن وهب بن منبه، وغيره. وقيل: إنه على التقديم والتأخير ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: ماذا يردون من الجواب. ثم تول عنهم لأن التولي عنهم بعد الجواب، عن مقاتل، وابن زيد، والجبائي، وأبي مسلم، والأول أوجه لأن الكلام إذا صح من غير تقديم وتأخير كان أولى. وفي الكلام حذف تقديره: فمضى الهدهد بالكتاب وألقاه إليهم فلما رأته بلقيس ﴿قَالَتْ﴾ لقومها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾ أي: الأشراف ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ قال قتادة: أتاها الهدهد وهي نائمة مستلقية على قفاها، فألقى الكتاب على نحرها، فقرأت الكتاب، وقيل: كانت لها كوة مستقبلة للشمس، تقع الشمس عندما تطلع فيها فإذا نظرت إليها سجدت، فجاء الهدهد إلى الكوة فسدها بجناحه فارتفعت الشمس ولم تعلم، فقامت تنظر، فرمى الكتاب إليها، عن وهب، وابن زيد، فلما أخذت الكتاب جمعت الأشراف، وهم يومئذٍ ثلاثمائة واثنا عشر قيْلاً، ثم قالت لهم: ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ سمته كريماً لأنه كان مختوماً، عن ابن عباس، ويؤيده الحديث: «إكرام الكتاب ختمه». وقيل: وصفته بالكريم لأنه صدره بـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. وقيل: لحسن خطه وجودة لفظه وبيانه. وقيل: لأنه كان ممن يملك الإنس والجن والطير وقد كانت سمعت بخبر سليمان فسمته كريماً لأنه من كريم رفيع الملك عظيم الجاه ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ معناه: أن الكتاب من سليمان وأن المكتوب فيه ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ فإن هذا القدر جملة ما في الكتاب، وأول من استفتح ببسم الرحمن الرحيم سليمان عليه السلام ولم تعرفه هي ولا قومها، وقيل إن هذا حكاية ما قالته على المعنى باللغة العربية وإن لم تقل هي بهذا اللفظ، والحكاية على ثلاثة أوجه: حكاية على المعنى فقط، وحكاية على اللفظ فقط ممن حكاه من غير أن يعلم معناه وحكاية على اللفظ والمعنى وهو الأصل في الحكاية التي لا يجوز العدول عنها إلا بقرينة، وموضع ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟﴾ يجوز أن يكون رفعاً بالبدل من ﴿كِتَٰبٌ﴾ ويجوز أن يكون نصباً على معنى بأن «لا تعلوا»، والصحيح أنّ ﴿أن﴾ في مثل هذا الموضع بمعنى أي: على ما قاله سيبويه في نحو قوله: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟﴾ أي: امشوا ومعناه لا ترفعوا ولا تتكبروا ﴿عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ أي: منقادين طائعين لأمري فيما أدعوكم، وقيل مسلمين مؤمنين بالله تعالى ورسوله مخلصين في التوحيد. قال قتادة: وكذا كانت الأنبياء تكتب كتبها موجزة مقصورة على الدعاء إلى الطاعة من غير بسط.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ حمزة ويعقوب «أتمدوني» بنون واحدة مشددة على الإدغام، والباقون بنونين مظهرين.

● **الإعراب:** ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ انتصب ﴿تَشْهَدُونِ﴾ بإضمار أن والنون فيه نون عماد. ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ﴾ فاعل ﴿جَآءَ﴾ الضمير المستكن فيه الراجع إلى مفعول ﴿مُرْسِلَةٌ﴾ المحذوف لأن تقديره: إني مرسلة رسولًا، ﴿أَذِلَّةً﴾ نصب على الحال ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾جملة في موضع الحال معطوفة على ﴿أَذِلَّةً﴾.

● **المعنى:** ولما وقفت بلقيس على كتاب سليمان ﴿قَالَتْ﴾ لأشراف قومها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ أي: أشيروا عليّ بالصواب. والفتيا والفتوى: الحكم بما فيه صواب بدلًا من الخطأ وهو الحكم بما يعمل عليه فجعلت المشورة هنا فتيا ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ أي: ما كنت ممضية أمراً ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ أي: تحضروني. تريد: إلا بحضرتكم ومشورتكم، وهذا ملاطفة منها لقومها في الاستشارة منهم لما تعمل عليه ﴿قَالُوٓا۟﴾ لها في الجواب عن ذلك ﴿نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ﴾ أي: أصحاب قوة وقدرة وأهل عدد ﴿وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي: وأصحاب شجاعة شديدة ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ أي: إن الأمر مفوّض إليك في القتال وتركه ﴿فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ أي: ما الذي تأمرين، أي: ما الذي تأمريننا به لنمتثله، فإن أمرت بالصلح صالحنا وإن أمرت بالقتال قاتلنا ﴿قَالَتْ﴾ مجيبة لهم عن التعريض بالقتال ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ أي: إذا دخلوها عنوة عن قتال وغلبة أهلكوها وخربوها ﴿وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ أي: أهانوا أشرافها وكبراءها كي يستقيم لهم الأمر والمعنى: أنها حذرتهم مسير سليمان عليه السلام إليهم ودخوله بلادهم وانتهى الخبر عنها. وصدقها الله فيما قالت فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: وكما قالت هي ﴿يَفْعَلُونَ﴾ وقيل: إن الكلام متصل بعضه ببعض وكذلك يفعلون من قولها ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم﴾ أي: إلى سليمان وقومه ﴿بِهَدِيَّةٍ﴾ أُصانعه بذلك عن ملكي ﴿فَنَاظِرَةٌۢ﴾ أي: فمنتظرة ﴿بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ بقبول أم رد، وإنما فعلت ذلك لأنها عرفت عادة الملوك في حسن موقع الهدايا عندهم، وكان غرضها أن يتبيّن لها بذلك أنه ملك أو نبي، فإن قبل الهدية تبيّن أنه ملك وعندها ما يرضيه. وإن، ردّها تبيّن أنّه نبي. واختلف في الهدية فقيل: أهدت إليه وصفاء ووصائف ألبستهم لباساً واحداً حتى لا يعرف ذكر من أنثى، عن ابن عباس، وقيل: أهدت مائتي غلام ومائتي جارية، ألبست الغلمان لباس الجواري وألبست الجواري ألبسة الغلمان، عن مجاهد، وقيل: أهدت له صفائح الذهب في

أوعية من الديباج. فلما بلغ ذلك سليمان عليه السلام أمر الجن فموَّهوا له الآجر بالذهب، ثم أمر به فأُلقي في الطريق، فلما جاؤوا رأوه ملقى في الطريق في كل مكان، فلما رأوا ذلك صغر في أعينهم ما جاؤوا به، عن ثابت اليماني، وقيل: إنها عمدت إلى خمسمائة غلام وخمسمائة جارية، فألبست الجواري الأقبية والمناطق وألبست الغلمان في سواعدهم أساور من ذهب وفي أعناقهم أطواقاً من ذهب وفي آذانهم أقراطاً وشنوفاً مرصعات بأنواع الجواهر، وحملت الجواري على خمسمائة رمكة والغلمان على خمسمائة برذون، على كل فرس لجام من ذهب مرصع بالجواهر، وبعثت إليه خمسمائة لبنة من ذهب وخمسمائة لبنة من فضة وتاجاً مكللًا بالدر والياقوت المرتفع، وعمدت إلى حقة فجعلت فيها درة يتيمة غير مثقوبة وخرزة جزعية مثقوبة معوجة الثقب، ودعت رجلًا من أشراف قومها اسمه المنذر بن عمرو، وضمَّت إليه رجالًا من قومها أصحاب رأي وعقل، وكتبت إليه كتاباً بنسخة الهدية قالت فيها: إن كنت نبياً فميِّز بين الوصفاء والوصائف، وأخبر بما في الحقة قبل أن تفتحها، واثقب الدرة ثقباً مستوياً، وأدخل الخرزة خيطاً من غير علاج إنس ولا جن. وقالت للرسول: انظر إليه إن دخلت عليه فإن نظر إليك نظرة غضب فاعلم أنه ملك فلا يهولنَّك أمره، فإنا أعز منه، وإن نظر إليك نظر لطف فاعلم أنه نبي مرسل. فانطلق الرسول بالهدايا، وأقبل الهدهد مسرعاً إلى سليمان عليه السلام فأخبره الخبر فأمر سليمان الجن أن يضربوا لبنات الذهب ولبنات الفضة ففعلوا، ثم أمرهم أن يبسطوا من موضعه الذي هو فيه إلى بضعة فراسخ ميداناً واحداً بلبنات الذهب والفضة، وأن يجعلوا حول الميدان حائطاً شرفه من الذهب والفضة ففعلوا. ثم قال للجن: عليّ بأولادكم فاجتمع خلق كثير فأقامهم على يمين الميدان ويساره، ثم قعد سليمان عليه السلام في مجلسه على سريره، ووضع له أربعة آلاف كرسي عن يمينه ومثلها عن يساره، وأمرالشياطين أن يصطفوا صفوفاً فراسخ، وأمر الإنس فاصطفوا فراسخ، وأمر الوحش والسباع والهوام والطير فاصطفوا فراسخ عن يمينه ويساره. فلما دنا القوم من الميدان، ونظروا إلى ملك سليمان، تقاصرت إليهم أنفسهم ورموا بما معهم من الهدايا. فلما وقفوا بين يدي سليمان عليه السلام نظر إليهم نظراً حسناً بوجه طلق وقال: ما وراءكم؟ فأخبره رئيس القوم بما جاءوا له، وأعطاه كتاب الملكة فنظر فيه، وقال: أين الحقة؟ فأُتي بها وحركها، وجاءه جبرائيل عليه السلام فأخبره بما في الحقة، فقال: إن فيها درة يتيمة غير مثقوبة، وخرزة مثقوبة معوجة الثقب. فقال الرسول: صدَقت فاثقب الدرة وأدخل الخيط في الخرزة، فأرسل سليمان عليه السلام إلى الأَرَضَة فجاءت، فأخذت شعرة في فيها، فدخلت فيها حتى خرجت من الجانب الآخر، ثم قال: من لهذه الخرزة يسلكها الخيط؟ فقالت دودة بيضاء: أنا لها يا رسول الله! فأخذت الدودة الخيط في فيها ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر. ثم ميَّز بين الجواري والغلمان بأن أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم، فكانت الجارية تأخذ الماء من الآنية بإحدى يديها ثم تجعله على اليد الأخرى، ثم تضرب به الوجه، والغلام كان يأخذ من الآنية يضرب به وجهه وكانت الجارية تصب على باطن ساعدها والغلام على ظهر الساعد، وكانت الجارية تصب الماء صباً والغلام يحدر الماء على يده حدراً فميَّز بينهما بذلك، هذا كله مروي عن وهب، وغيره. وقيل: إنها أنفذت مع هداياها عصاً كان يتوارثها ملوك

حمير، وقالت: أريد أن تعرفني رأسها من أسفلها، وبقدح ماء، وقالت، تملأها ماء رواءً ليس من الأرض ولا من السماء، فأرسل سليمان عليه السلام العصا إلى الهواء، وقال: أي الرأسين سبق إلى الأرض فهو أسفلها، وأمر الخيل فأُجريت حتى عرقت وملأ القدح من عرقها، وقال: ليس هذا من ماء الأرض ولا من ماء السماء ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ﴾ أي: فلما جاء الرسول سليمان ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ أي: تزيدونني مالاً وهذا استفهام إنكار يعني أنه لا يحتاج إلى مالهم ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ أي: ما أعطاني الله من الملك والنبوة والحكمة خير مما أعطاكم من الدنيا وأموالها ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ إذا أهدى بعضكم إلى بعض، وأما أنا فلا أفرح بها، أشار إلى قلة اكتراثه بأموال الدنيا، ثم قال عليه السلام للرسول: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ بما جئت من الهدايا ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي: لا طاقة لهم بها ولا قدرة لهم على دفعها ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً﴾ أي: من تلك القرية ومن تلك المملكة، وقيل: من أرضها وملكها ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أي: ذليلون صغيرو القدر إن لم يأتوني مسلمين. فلما ردَّ سليمان عليه السلام الهدية وميَّز بين الغلمان والجواري إلى غير ذلك علموا أنه نبي مرسل وأنه ليس كالملوك الذين يغترّون بالمال.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

● **القراءة:** في الشواذ قراءة أبي رجاء وعيسى الثقفي «عفرية».

● **الحجة:** والمعنى معنى العفريت، يقال: رجل عفرية نفرية أي: خبيث داه. قال ذو الرمة:

كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ فِي إِثْرِ عِفْرِيَةٍ ... مُسَوَّمٌ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ مُنْقَضِبُ(١)

وأصل العفريت والعفرية من العفر: وهو التراب، لأنه يصرع قرنه في العفر، ومنه قيل

(١) قوله مسوم أي: معلم بعلامة. ومنقضب أي: منقض من مكانه: يصف ثوراً وحشياً.

للأسد: عفرني، وللناقة الشديدة: عفرناة. قال الأعشى:

بِذاتِ لَوْثٍ عَفَرناةٍ إذا عثرت فالتَّعْسُ أدنى لها مِن أن يقال لعا[١]

● **اللغة:** التنكير: تغيير الشيء من حال إلى حال ينكرها صاحبها إذا رآه، والصرح: القصر، وكل بناء مشرف: صرح، وصرحة الدار ساحتها وقارعتها وصحنها، وأصله من الوضوح يقال: صرح بالأمر أي: كشفه وأوضحه. وصرَّح بالتشديد لازم ومتعد، واللجة: معظم الماء والجمع لجج، ولج البحر: خلاف الساحل ومنه لج بالأمر: إذا بالغ بالدخول فيه، والممرد: المملس، ومنه الأمرد، وشجرة مرداء أي: ملساء لا ورق عليها، والمارد المتملس عن الحق الخارج منه.

● **المعنى:** فلما رجع إليها الرسول، وعرفت أنه نبي، وأنها لا تقاومه فتجهزت للمسير إليه، وأخبر جبرائيل سليمان عليه السلام أنها خرجت من اليمن مقبلة إليه فـ﴿قَالَ﴾ سليمان لأماثل جنده وأشراف عسكره ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾، واختلف في السبب الذي خصَّ به العرش بالطلب على أقوال:

أحدها: أنه أعجبته صفته فأراد أن يراه، وظهر له آثار إسلامها فأحب أن يملك عرشها قبل أن تسلم فيحرَّم عليه أخذ مالها، عن قتادة.

وثانيها: أنه أراد أن يختبر بذلك عقلها وفطنتها، ويختبر هل تعرفه أو تنكره، عن ابن زيد. وقيل: أراد أن يجعل ذلك دليلًا ومعجزة على صدقه ونبوته لأنها خلفته في دارها وأوثقته ووكلت به ثقات قومها يحرسونه ويحفظونه، عن وهب. وقال ابن عباس: كان سليمان رجلًا مهيباً لا يبتدىء بالكلام حتى يكون هو الذي يسأل عنه، فخرج يوماً، فجلس على سريره، فرأى رهجاً[٢] قريباً منه فقال: ما هذا؟ فقالوا: بلقيس يا رسول الله! وقد نزلت منا بهذا المكان وكان ما بين الكوفة والحيرة على قدر فرسخ، فقال: أيكم يأتيني بعرشها؟

وقوله﴿مُسْلِمِينَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه أراد مؤمنين موحدين.

والآخر: مستسلمين منقادين على ما مرَّ بيانه ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي: مارد قوي داهية، عن ابن عباس ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ أي: من مجلسك الذي تقضي فيه، عن قتادة. ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ أي: وإني على حمله لقوي وعلى الإتيان به في هذه المدة قادر وعلى ما فيه من الذهب والجواهر أمين، وفي هذا دلالة على أن القدرة قبل الفعل لأنه أخبر بأنه قوي عليه قبل أن يجيء به، وكان سليمان عليه السلام يجلس في مجلسه للقضاء غدوة إلى نصف النهار فقال سليمان عليه السلام: أريد أسرع من ذلك. فعند ذلك ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو آصف بن برخيا وكان وزير سليمان، وابن أخته، وكان صديقاً يعرف اسم الله الأعظم الذي إذا

---

(١) اللوث: القوة. والعرب تدعو على العاثر من الدواب إذا كان جواداً بالتعس، فتقول: تعساً له، وإنْ كان بليداً كان دعاؤهم له إذا عثر: لعاً لك.

(٢) أي: غباراً.

دعي به أجاب، عن ابن عباس. وقيل: إن ذلك الاسم الله والذي يليه الرحمن، وقيل: هو يا حي يا قيوم وبالعبرانية أهيا شراهيا[١]، وقيل: هو يا ذا الجلال والإكرام، عن مجاهد، وقيل: إنه قال: يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت، عن الزهري، وقيل: إن الذي عنده علم من الكتاب كان رجلًا من الإنس يعلم اسم الله الأعظم اسمه بلخيا، عن مجاهد، وقيل: اسمه أسطوم، عن قتادة، وقيل: الخضر عليه السلام عن أبي لهيعة، وقيل: إن الذي عنده علم من الكتاب هو جبرائيل عليه السلام، أذن الله له في طاعة سليمان عليه السلام بأن يأتيه بالعرش الذي طلبه. وقال الجبائي: هو سليمان عليه السلام قال ذلك للعفريت ليريه نعمة الله عليه، وهذا قول بعيد لم يؤثر عن أهل التفسير وأما الكتاب المعرف في الآية بالألف واللام فقيل: إنه اللوح المحفوظ، وقيل: أراد به جنس كتب الله المنزلة على أنبيائه وليس المراد به كتاباً بعينه والجنس قد يعرَّف بالألف واللام، وقيل: إن المراد به كتاب سليمان عليه السلام إلى بلقيس. ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ اختلف في معناه، فقيل: يريد قبل أن يصل إليك من كان منك على قدر مدّ البصر، عن قتادة، وقيل: معناه قبل أن يبلغ طرفك مداه وغايته ويرجع إليك. قال سعيد بن جبير: قال لسليمان: انظر إلى السماء فما طرف حتى جاء به فوضعه بين يديه، والمعنى حتى يرتد إليك طرفك بعد مدّه إلى السماء، وقيل: ارتداد الطرف: إدامة النظر حتى يرتد طرفه خاسئاً، عن مجاهد. فعلى هذا معناه: أن سليمان مد بصره إلى أقصاه وهو يديم النظر، فقبل أن ينقلب بصره إليه حسيراً، يكون قد أتى بالعرش. قال الكلبي: خرَّ آصف ساجداً ودعا باسم الله الأعظم فغار عرشها تحت الأرض حتى نبع عند كرسي سليمان. وذكر العلماء في ذلك وجوهاً:

أحدها: أن الملائكة حملته بأمر الله تعالى.

والثاني: أن الريح حملته.

والثالث: أن الله تعالى خلق فيه حركات متوالية.

والرابع: أنه انخرق مكانه حيث هو هناك ثم نبع بين يدي سليمان.

والخامس: أن الأرض طويت له، وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام.

والسادس: أنه أعدمه الله في موضعه وأعاده في مجلس سليمان، وهذا لا يصح على مذهب أبي هاشم، ويصح على مذهب أبي علي الجبائي، فإنه يجوز فناء بعض الأجسام دون بعض. وفي الكلام حذف كثير لأن التقدير: قال سليمان له: افعل. فسأل الله تعالى في ذلك، فحضر العرش فرآه سليمان عليه السلام مستقراً عنده ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ أي: فلما رأى سليمان عليه السلام العرش محمولًا إليه موضوعاً بين يديه في مقدار رجع البصر ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ أي: من نعمته عليّ وإحسانه لديّ لأن تيسير ذلك وتسخيره مع صعوبته وتعذره معجزة له ودلالة على علو قدره وجلالته وشرف منزلته عند الله تعالى ﴿لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ أي:

---

(١) كذا في الأصل والمخطوطتين. وفي نسخة مطبوعة: «آهى إشراهى». واستظهر في هامش نسخة (البحار): أنّ الصحيح «أهيه اشراهيه». وقال (اهيه) بمعنى واجب الوجود. وقيل معنى الجملة: الوجود الذي هو موجود.

ليختبرني هل أقوم بشكر هذه النعمة أم أكفر بها؟ ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأن عائدة شكره ومنفعته ترجعان إليه وتخصانه دون غيره، وهذا مثل قوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ عن شكر العباد غير محتاج إليه بل هم المحتاجون إليه لما فيه من الثواب والأجر ﴿كَرِيمٌ﴾ أي: متفضل على عباده شاكرهم وكافرهم عاصيهم ومطيعهم، لا يمنعه كفرهم وعصيانهم من الإفضال عليهم والإحسان إليهم ﴿قَالَ﴾ سليمان عليه السلام ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ أي: غيّروا سريرها إلى حال تنكرها إذا رأته وأراد بذلك اختبار عقلها على ما قيل ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: أتهتدي إلى معرفة عرشها بفطنتها بعد التغيير أم لا تهتدي إلى ذلك، عن سعيد بن جبير، وقتادة، وقيل: أتهتدي أي: أتستدل بعرشها على قدرة الله وصحة نبوتي وتهتدي بذلك إلى طريق الإيمان والتوحيد أم لا، عن الجبائي. قال ابن عباس: فنزع ما كان على العرش من الفصوص والجواهر، وقال مجاهد: غيَّر ما كان أحمر فجعله أخضر وما كان أخضر فجعله أحمر، وقال عكرمة: زيد فيه شيء ونقص منه شيء ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ فلم تثبته ولم تنكره ودلَّ ذلك على كمال عقلها حيث لم تقل لا، إذ كان يشبه سريرها لأنها وجدت فيه ما تعرفه ولم تقل نعم إذ وجدت فيه ما غيِّر وبدِّل ولأنها خلّفته في بيتها وحمله في تلك المدة إلى ذلك الموضع غير داخل في قدرة البشر، قال مقاتل: عرفته ولكن شبهوا عليها حين قالوا لها: أهكذا عرشك؟ فشبهت حين قالت: كأنه هو، ولو قيل لها: أهذا عرشك؟ لقالت: نعم. قال عكرمة: كانت حكيمة، قالت: إن قلت هو هو خشيت أن أُكذَّب وإن قلت لا، خشيت أن اكذب، فقالت: كأنه هو. شبهته به فقيل لها: فإنه عرشك فما أغنى عنك إغلاق الأبواب وكانت قد خلفته وراء سبعة أبواب لما خرجت فقالت ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ﴾ بصحة نبوة سليمان عليه السلام ﴿مِن قَبْلِهَا﴾ أي: من قبل الآية في العرش ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ طائعين لأمر سليمان، عن مجاهد، ومعناه: وأوتينا العلم بالله وقدرته على ما يشاء من قبل هذه المرة وكنا مخلصين لله بالتوحيد، وقيل: معناه وأوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة قبل مجيئها وقيل: إنه من كلام قوم سليمان، عن الجبائي ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: منعها عبادة الشمس عن الإيمان بالله تعالى بعد رؤية تلك المعجزة، عن مجاهد. فعلى هذا تكون ﴿مَا﴾ موصولة مرفوعة الموضع بأنها فاعلة صدَّ، وقيل: معناه وصدها سليمان عما كانت تعبده من دون الله، وحال بينها وبينه، ومنعها عنه، فعلى هذا يكون ﴿مَا﴾ في موضع النصب، وقيل: معناه منعها الإيمان والتوحيد الذي كانت تعبده من دون الله وهو الشمس. ثم استأنف فقال: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ أي: من قوم يعبدون الشمس قد نشأت فيما بينهم، فلم تعرف إلا عبادة الشمس ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ والصرح هو الموضع المنبسط المنكشف من غير سقف. وذكر أن سليمان لما أقبلت صاحبة سبأ، أمرالشياطين ببناء الصرح، وهو كهيئة السطح المنبسط من قوارير أجرى تحته الماء، وجمع في الماء الحيتان والضفادع ودواب البحر. ثم وضع له فيه سرير فجلس عليه. وقيل: إنه قصر من زجاج كأنه الماء بياضاً. وقال أبو عبيدة: كل بناء من زجاج أو صخر أو غير ذلك موثق فهو صرح. وإنما أمر سليمان عليه السلام بالصرح لأنه أراد أن يختبر عقلها وينظر هل تستدل على معرفة الله تعالى بما ترى من هذه الآية العظيمة. وقيل: إن

الجن والشياطين خافت أن يتزوجها سليمان عليه السلام فلا ينفكون من تسخير سليمان وذريته بعده لو تزوجها، وذلك أن أمها كانت جنية فأساؤوا، الثناء عليها ليزهّدوه فيها، وقالوا: إن في عقلها شيئاً وإن رجلها كحافر الحمار. فلما امتحن ذلك وجدها على خلاف ما قيل. وقيل: إنه ذكر له أن على رجليها شعراً فلما كشفته بان الشعر، فساءه ذلك، فاستشار الجن في ذلك فعملوا الحمامات وطبخوا له النورة والزرنيخ. وكان أول ما صنعت النورة ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ﴾ أي: رأت بلقيس الصرح ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ وهي معظم الماء ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ﴾ لدخول الماء. وقيل: إنها لما رأت الصرح قالت: ما وجد ابن داود عذاباً يقتلني به إلا الغرق، وأنفت أن تجبن فلا تدخل، ولم يكن من عادتهم لبس الخفاف فلما كشفت عن ساقيها ﴿قَالَ﴾ لها سليمان ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ أي: مملس ﴿مِّن قَوَارِيرَۗ﴾ وليس بماء. ولما رأت سرير سليمان والصرح ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بالكفر الذي كنت عليه ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فحسن إسلامها وقيل: إنها لما جلست دعاها سليمان إلى الإسلام، وكانت قد رأت الآيات والمعجزات، فأجابته، وأسلمت. وقيل: إنها لما ظنت أن سليمان يغرقها ثم عرفت حقيقة الأمر، قالت: ظلمت نفسي إذ توهمت على سليمان ما توهمت. واختلف في أمرها بعد ذلك فقيل: إنه تزوجها سليمان وأقرها على ملكها. وقيل: إنه زوَّجها من ملك يقال له تبّع، وردَّها إلى أرضها، وأمر زوبعة أمير الجن باليمن أن يعمل له ويطيع، فصنع له المصانع باليمن. قال عون بن عبد الله: جاء رجل إلى عبد الله بن عتبة فسأله: هل تزوجها سليمان؟ قال: عهدي بها أن قالت وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين، يعني أنه لا يعلم ذلك وأن آخر ما سمع من حديثها هذا القول. وروى العياشي في تفسيره بالإسناد قال: التقى موسى بن محمد بن علي بن موسى عليهم السلام ويحيى بن أكثم، فسأله عن مسائل، قال: فدخلت على أخي علي بن محمد عليه السلام بعد أن دار بيني وبينه من المواعظ حتى انتهيت إلى طاعته، فقلت له: جعلت فداك إن ابن أكثم سألني عن مسائل أفتيه فيها، فضحك، ثم قال: فهل أفتيته فيها؟ فقلت: لا. قال: ولم؟ قلت. لم أعرفها قال: وما هي؟ قلت: أخبرني عن سليمان أكان محتاجاً إلى علم آصف بن برخيا؟ ثم ذكر المسائل الأخر قال: اكتب يا أخي: «بسم الله الرحمن الرحيم سألت عن قول الله تعالى في كتابه، ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ فهو آصف بن برخيا ولم يعجز سليمان عن معرفة ما عرفه آصف، لكنه عليه السلام أحب أن تعرف أمته من الإنس والجن أنه الحجة من بعده، وذلك من علم سليمان أودعه آصف بأمر الله تعالى، ففهمه الله ذلك لئلا يختلف في إمامته ودلالته، كما فهّم سليمان في حياة داود ليعرف إمامته ونبوته من بعده لتأكيد الحجة على الخلق».

●●●

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِۖ بَلْ أَنتُمْ

قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿٤٨﴾
قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا
لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ
بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ
يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير عاصم: «لتبيتنه» بالتاء وضم التاء الثانية، «ثم لتقولنَّ» بالتاء أيضاً وضم اللام. والباقون ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ بالنون وفتح التاء، ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ﴾ أيضاً بالنون وفتح اللام. وقرأ أهل الحجاز، وأبو عمرو، وسهل، وابن عامر: «إنا دمرناهم» بكسر الألف، والباقون بفتح الألف. وروي عن روح وزيد، عن يعقوب بكسر الألف أيضاً.

● **الحجة:** قال أبو علي: قوله ﴿تَقَاسَمُواْ﴾ لا يخلو من أن يراد به مثال الماضي أو مثال الآتي الذي يراد به الأمر، فمن أراد به الأمر جعل ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ جواباً لـ ﴿تَقَاسَمُواْ﴾ فكأنه قال: حلفوا «لنبيتنه»، لأن هذه الألفاظ التي تكون من ألفاظ القسم تتلقى بما يتلقى به الايمان كقوله تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ﴾ ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ فكذلك ﴿تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ ملقاة باللام والنون الثقيلة. وأدخل المتكلمون أنفسهم مع المقسمين كما دخلوا في قوله: ﴿فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ﴾. ومن قال: ﴿تَقَاسَمُواْ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ أراد: ليقسم بعضكم لبعض لنبيتنه، فتقاسموا على هذا أمر كما فيمن قال: «لنبيتنه» أمراً، ومن قال: «تقاسموا لتبيتنه» بالتاء، فتقاسموا على هذا مثال ماض ولا يجوز مع هذا إلا بالتاء لأن مثال الماضي للغيبة و«لتبيتنه» للخطاب. ومن كسر «إنا دمرناهم» جاز أن يكون ﴿كَانَ﴾ في قوله ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ﴾ تامة وأن تكون ناقصة، فإن جعلتها تامة بمعنى وقع، كان قوله ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ في موضع حال تقديره: على أي حال وقع عاقبة مكرهم أي: أحسناً وقع عاقبة مكرهم أو سيئاً، أو يكون في ﴿كَيۡفَ﴾ ضمير من ذي الحال، كما أنك إذا قلت: في الدار حدث الأمر، فجعلته في موضع الحال كان كذلك، وحكم ﴿كَيۡفَ﴾ على ذا أن يكون متعلقاً بمحذوف، كما أنك إذا قلت: في الدار وقع زيد، فتقديره: وقع زيد مستقراً في هذه الحال، فإن جعلته ظرفاً للفعل تعلق بـ ﴿كَانَ﴾ الذي بمعنى الحدث. وقوله ﴿أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾ فيمن كسر استئناف، وهو تفسير للعاقبة، كما أن قوله ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ تفسير للموعد. ومن قرأ «إنا دمرناهم» جاز أن يكون ﴿كَانَ﴾ على ضربيها، وإذا حملته على وقع، كان ﴿كَيۡفَ﴾ في موضع حال، وجاز في قوله «إنا دمرناهم» أمران:

أحدهما: أن يكون بدلًا من قوله ﴿عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ﴾، وجاز أن يكون محمولًا على مبتدأ مضمر، كأنه قال هو «أنا دمرناهم» أو ذاك «أنا دمرناهم» فإذا حملتها على المقتضية للخبر جاز في قوله ﴿أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾ قولان:

أحدهما: أن يكون بدلًا من اسم ﴿كَانَ﴾ الذي هو العاقبة، فإذا حملته على ذلك، كان ﴿كَيْفَ﴾ في موضع خبر ﴿كَانَ﴾.

والآخر: أن يكون خبر ﴿كَانَ﴾ ويكون موضعه نصباً بأنه خبر كان، كأنه كان عاقبة أمرهم تدميرهم، ويكون ﴿كَيْفَ﴾ في موضع حال، ويجوز أن يكون العامل في ﴿كَيْفَ﴾ أحد شيئين: إما أن يكون ﴿كَانَ﴾، لأنه فعل كما كان العامل في الظرف في قوله ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾ ألا ترى أنه لا يجوز أن يتصل قوله﴿لِلنَّاسِ﴾ بواحد من المصدرين إلا أن تجعله صفة لعجب فتقدمه فيصير في موضع حال. فالعامل فيه على هذا أيضاً كان. ويجوز أن يكون العامل فيه ما في الكلام من الدلالة على الفعل، لأن قوله ﴿أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ﴾ بمنزلة تدميرنا، وتدميرنا: يدل على دمرنا، فيصير العامل فيه هذا المعنى الذي دلّ عليه ما في الكلام من معنى الفعل، وزعموا أن في حرف أُبي: «أن دمرناهم» فهذا يقوي الفتح في «أنا».

● **المعنى**: ثم عطف سبحانه على قصة سيدنا سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ قصة صالح فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ﴾ في النسب ﴿صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: أرسلناه بأن اعبدوا الله وحده لا شريك له ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: مؤمنون وكافرون يقول كلّ فريق: الحق معي ﴿قَالَ﴾ صالح للفريق المكذب ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: بالعذاب قبل الرحمة أي: لم قلتم إن كان ما أتينا به حقاً فأتنا بالعذاب، وسمى العذاب سيئة لما فيه من الآلام، ولأنه جزاء على السيئة لأن السيئة هي الخصلة التي تسوء صاحبها ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلا ﴿تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ أي: تطلبون مغفرته من الشرك بأن تؤمنوا ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فلا تعذّبون في الدنيا ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ أي: تشأمنا بك وبمن على دينك، وذلك أنهم قحط المطر عنهم، وجاءوا فقالوا: أصابنا هذا الشر من شؤمك وشؤم أصحابك ﴿قَالَ﴾ لهم صالح ﴿طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: الشؤم أتاكم عند الله بكفركم، وهذا كقوله: ﴿يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾. ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أي: تختبرون بالخير والشر، عن ابن عباس، وقيل: تعذبون بسوء أعمالكم، عن محمد بن كعب، وقيل: تبتلون وتمتحنون بطاعة الله ومعصيته ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ يعني التي بها صالح وهي الحجر ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كانت هذه التسعة النفر من أشرافهم وهم غواة قوم صالح، وهم الذين سعوا في عقر الناقة ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أي: لا يطيعون الله تعالى، وذكر ابن عباس أسماءهم، وقال: هم قدار بن سالف، ومصدع، ودهمي، ودهيم، ودعمي، ودعيم، وأسلم، وقتال، وصداف. ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي: قالوا فيما بينهم احلفوا بالله ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ أي: لنقتلن صالحاً ﴿وَأَهْلَهُۥ﴾ بياتاً، ومن قرأ بالنون فكأنهم قالوا: أقسموا لنفعلن، والأمر بالقسم في القراءتين داخل في الفعل منهم ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾، أي: لذي رحم صالح إن سألنا عنه ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ أي: ما قتلناه وما ندري من قتله وأهلكه، وقد ذكرنا اختلاف القرّاء فيه في سورة الكهف ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ في هذا القول، قال الزجاج: كان هؤلاء النفر تحالفوا أن يبيتوا صالحاً وأهله ثم ينكروا عند أوليائه أن يكونوا فعلوا ذلك أو رأوه، وكان هذا مكراً عزموا عليه، قال الله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ أي: جازيناهم جزاء مكرهم بتعجيل عقوبتهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بمكر الله بهم فإنهم دخلوا على صالح ليقتلوه

فأنزل الله سبحانه الملائكة، فرموا كل واحد منهم بحجر حتى قتلوهم وسلم صالح من مكرهم، عن ابن عباس، وقيل: إن الله أمر صالحاً بالخروج من بينهم ثم استأصلهم بالعذاب، وقيل: نزلوا في سفح جبل ينظر بعضهم بعضاً ليأتوا صالحاً فخرَّ عليهم الجبل، عن مقاتل ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ أي: أهلكناهم بما ذكرناه من العذاب ﴿وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بصيحة جبرائيل ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ﴾ أشار إلى ،بيوتهم والمعنى فانظر إليها ﴿خَاوِيَةً﴾ نصب على الحال أي: فارغة خالية ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ أي: بظلمهم وشركهم بالله تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في إهلاكهم ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لعبرة لمن نظر إليها واعتبر بها. وفي هذه الآية دلالة على أن الظلم يعقب خراب الدور. وروي عن ابن عباس أنه قال: أجد في كتاب الله أنّ الظلم يخرب البيوت، وتلا هذه الآية، وقيل: إن هذه البيوت بوادي القرى بين المدينة والشام ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ به ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ قالوا: إنهم أربعة آلاف خرج بهم صالح إلى حضرموت، وسميت حضرموت لأن صالحاً لما دخلها مات.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ
(٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) ۞ فَمَا
كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ
(٥٦) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا
فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (٥٨) قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا
يُشْرِكُونَ (٥٩)﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل البصرة، وعاصم: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ بالياء، والباقون بالتاء على الخطاب. وفي الشواذ قراءة الحسن «فما كان جوابُ قومه» بالرفع.

● **الحجة:** الأولى أن يكون ﴿جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ والاسم قوله: ﴿أَن قَالُوا﴾ لشبه أن بالمضمر، من حيث كانت لا توصف، والمضمر أعرف من المظهر. وقد تقدم القول في هذا.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه قصة لوط عاطفاً بها على ما تقدم فقال: ﴿وَلُوطًا﴾ أي: وأرسلنا لوطاً ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ منكراً عليهم أفعالهم ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ يعني الخصلة القبيحة الشنيعة الظاهرة القبح وهي إتيان الذكران في أدبارهم ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي: تعلمون أنها فاحشة، وقيل: معناه وأنتم يرى بعضكم ذلك من بعض. ثم بيَّن سبحانه الفاحشة التي يأتونها فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ اللاتي خلقهن الله لكم ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي: تفعلون أفعال الجهال. قال ابن عباس: تجهلون القيامة وعاقبة العصيان ﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦)﴾ عن

إتيان الرجال في أدبارهم ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا﴾ أي: جعلناها ﴿مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ أي: الباقين في العذاب ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ وهو الحجارة ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ الذين أبلغهم لوط النذارة وأعلمهم بموضع المخافة ليتَّقوها فخالفوا ذلك. ثم قال سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿قُلِ﴾ يا محمد ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ شكراً على نعمه بأن وفقنا للإيمان، وقيل: الحمد لله على هلاك الأمم الكافرة ﴿وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ أي: اصطفاهم الله واجتباهم واختارهم على بريته وهم الأنبياء، عن مقاتل، وقيل: هم أصحاب محمد ﷺ، عن ابن عباس والحسن، وقيل: هم أمة محمد ﷺ، ومعنى السلام عليهم: أنهم سلموا مما عذَّب الله به الكفار عن الكلبي، وقيل: هم آل محمد ﷺ، عن علي بن إبراهيم. ثم قال سبحانه مخاطباً للمشركين: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يا أهل مكة يعني: الله خير لمن عبده أم الأصنام لعابديها، وهذا إلزام للحجة على المشركين بعد ذكر هلاك الكفار، والمعنى: أن الله تعالى نجى من عبده من الهلاك والأصنام لم تغن شيئاً عن عابديها عند نزول العذاب، وإنما قال ذلك لأنهم توهموا في عبادة الأصنام خيراً.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا
بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ
يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ
بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ
إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ
﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ
أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن
فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو عمرو، وهشام «ما يذكرون» بالياء، والباقون بالتاء. والوجه فيهما ظاهر.

● **اللغة:** الحديقة: البستان الذي عليه حائط، وكل ما أحاط به البناء فهو حديقة، وقيل: الحديقة : البستان الذي فيه النخل، والقرار: المكان المطمئن الذي يستقر فيه الماء: ويقال للروضة المنخفضة: قرارة. ومنه حديث ابن عباس قال: «علمي في علم علي عليه السلام كالقرارة في المثعنجر» أي: كالغدير في البحر. والبرهان: البيان بحجة.

● **الإعراب:** ﴿أَمَّنْ﴾ استفهام في محل الرفع على الابتداء وخبره ﴿خَلَقَ﴾، و﴿قَرَارًا﴾ نصب على الحال لأن ﴿جَعَلَ﴾ بمعنى ﴿خَلَقَ﴾، وإن كان بمعنى صير فهو مفعول ثان له.

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر تقديره: أإله ثبت مع الله، وإنما جاز أن تكون النكرة مبتدأ لأنه استفهام، ويجوز أن يكون خبر المبتدأ محذوفاً أو يكون تقديره: أإله في الوجود مع الله. ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ صفة مصدر محذوف تقديره: ما تذكرون تذكراً قليلًا ﴿وَمَا﴾ مزيدة، و﴿بُشْرًا﴾ نصب على الحال، و﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ ظرف منه، ﴿أَيَّانَ﴾ في محل نصب لأنه ظرف زمان والعامل فيه ﴿يُبْعَثُونَ﴾.

● **المعنى:** ثم عدَّد سبحانه الدلائل على توحيده ونعمه الشاملة لعبيده فقال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وتقديره: أما تشركون خير أم من خلق السمٰوات والأرض أي: أنشأهما واخترعهما ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: غيثاً ومطراً لكم أي: لمنافعكم ولأجل معاشكم، عرَّفهم سبحانه أن غيره لا يقدر على ذلك ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾ أي: رياضاً وبساتين، وما لم يكن عليه حائط لا يقال له حديقة ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أي: ذات منظر حسن يبتهج به من رآه، ولم يقل ذوات بهجة لأنه أراد تأنيث الجماعة، ولو أراد تأنيث الأعيان لقال ذوات. وقال الشاعر:

وسوف يُعْقِبُنِيهِ إن ظَفِرْتَ بِهِ ... رَبٌّ كَرِيمٌ وبِيضٌ ذاتُ أطهارِ(١)

﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ ما هنا للنفي أي: لم يكونوا يقدرون على إنبات شجرها ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ وهذا استفهام إنكار معناه: هل معه معبود سواه أعانه على صنعه ﴿بَلْ﴾ ليس معه إله ﴿هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ يشركون بالله غيره، يعني كفار مكة ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: مستقرة لا تميل ولا تميد بأهلها ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾ أي: وجعل وسط الأرض وفي مسالكها ونواحيها أنهاراً جارية ينبت بها الزرع ويحيا بها الخلق ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي: جبالًا ثوابت أثبت بها الأرض ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ أي: مانعاً من قدرته بين العذب والملح فلا يختلط أحدهما بالآخر ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ توحيد ربهم وكمال قدرته وسلطانه ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أي: يجيب المكروب المجهود فيكشف ضره وكربه، وإجابة دعاء المضطر هي فعل ما يدعو به، وهذا لا يكون إلا من قادر على الإجابة مختار لها، ورأس المضطرين المذنب الذي يدعوه ويسأله المغفرة، ومنهم الخائف الذي يسأله الأمن، والمريض الذي يطلب العافية، والمحبوس الذي يطلب الخلاص، فإن الكل إذا ضاق بهم الأمر فزعوا إلى رب العالمين وأكرم الأكرمين، وإنما خصَّ المضطر وإن كان قد يجيب غير المضطر لأن رغبته أقوى وسؤاله أخضع ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي: يدفع الشدة وكل ما يسوء ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ يخلف كل قرن منكم القرن الذي قبله فيهلك قرناً وينشىء قرناً، وقيل: يجعلكم خلفاء من الكفار بنزول بلادهم وطاعة الله تعالى بعد شركهم وعنادهم ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: قليلًا ما تتعظون، عن ابن عباس، ومن قرأ بالياء فالمعنى: قليلًا ما يتذكر هؤلاء المشركون ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: أما تشركون خير أم من يرشدكم إلى

---

(١) قيل: إن الشعر لسموأل بن عاديا، يضرب به المثل في الوفاء. وكانت عنده دروع أمانة. فطلبها منه رجل، فأبى فأخذ الرجل ابنه وهدده بقتله إنْ لم يسلم الدروع. والبيت يشير إلى ذلك ويقول: إنْ ظفرت بابني وقتلته، فسوف يخلفني ربي أبناء أُخر من نساء بيض ذات أطهار.

القصد والسمت في البر والبحر، بما نصب لكم من الدلالات من الكواكب والقمر إذا ضللتم، وهو كقوله﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾. ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ قد مضى تفسيره، ووجوه القراءات فيه[1] ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: جلّ وتنزّه عن الشريك كما يزعمه المشركون ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ بأن يخترعه ويوجده وينشئه على غير مثال واحتذاء ثم يميته ويفنيه ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعد الإفناء، وإنما قال ذلك لأنهم أقروا بأنه الخالق فيلزمهم الإقرار بالبعث من حيث إن من قدر على الإنشاء قدر على الإعادة ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ بإنزال المطر وبإخراج الثمار والنبات ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ يقدر على ذلك ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أي: حجتكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أن لي شريكاً صنع شيئاً من هذه الأشياء، فإذا لم يقدروا على إقامة البرهان على ذلك فاعلموا أنه لا إله معي ولا يستحق العبادة سواي ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الملائكة والإنس والجن ﴿ٱلْغَيْبَ﴾ وهو ما غاب علمه عن الخلق مما يكون في المستقبل ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وحده أو من أعلمه الله تعالى ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: متى يحشرون يوم القيامة، دلَّ سبحانه بهذه الآية كما دلَّ بما تقدمها على قدرته.

●●●

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل البصرة، وأبو جعفر، وابن كثير «بل أدرك» بقطع الألف وسكون اللام والدال. وقرأ الشموني عن أبي بكر «بَلِ ادَّرَك» موصولة الألف مشددة الدال بلا ألف بعدها، والباقون «بل ادّارك»، وفي الشواذ قراءة سليمان بن يسار، وعطاء بن يسار «بَلَ أَدَّرَك» بفتح اللام ولا همزة ولا ألف. وقراءة الحسن، وأبي رجاء، وابن محيصن، وقتادة «بلْ أدَّرك»، وقراءة ابن عباس «بلى» بياء «أدرك»، وقراءة أُبي «بل تدارك»، وقرأ أهل المدينة «إذا كنا تراباً» بكسر الألف «آنا لمخرجون» بالاستفهام بهمزة واحدة ممدودة، عن أبي جعفر. وقالون وغيره

(١) أي: في سورة الأعراف. راجع ٤.

ممدودة عن ورش، وإسماعيل. وقرأ ابن عامر، والكسائي «أإذا» بهمزتين «أننا» بنونين، وقرأ ابن كثير، ويعقوب «إذا أنا» بالاستفهام فيهما جميعاً بهمزة واحدة غير ممدودة، وقرأ أبو عمر «آذا آنا» بالاستفهام فيهما جميعاً بهمزة واحدة ممدودة. وقرأ عاصم وحمزة وخلف «أإذا» «أإنا» بالاستفهام فيهما جميعاً بهمزتين، وقرأ ابن كثير «في ضيق» بكسر الضاد والباقون بفتحها.

● **الحجة:** قال أبو علي: إن علم قد يصل بالجار كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾، وقولهم: علمي يزيد يوم الجمعة، ومعنى أدرك: بلغ ولحق، يقال: فلان أدرك الحسن أي: لحق أيامه، وهذا ما أدركه علمي أي: بلغه، فالمعنى: أنهم لم يدركوا علم الآخرة أي: لم يعلموا حدوثها وكونها ودلَّ على ذلك قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ أي: بل هم من علمها عمون، وإذا كان كذلك كان معنى قوله ﴿فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ معنى الباء أي: لم يدركوا علمها ولم ينظروا في حقيقتها فيدركوا، ولهذا قرأ من قرأ «أدْرك» كأنه أراد لم يدركوه كما تقول: أجئتني أمس أي: لم تجئني. والمعنى: لم يدرك علمهم بحدوث الآخرة، بل هم في شك منها بل هم من علمها عمون، والعمى عن علم الشيء أبعد منه من الشاك فيه، لأن الشك قد يعرض عن ضرب من النظر، والعمى عن الشيء: الذي لم يدرك منه شيئاً، وأما من قال: «إدَّارَك» فإنه أراد تدارك فأدغم التاء في الدال لمقاربتها لها وكونها من حيزها فلما سكنت التاء للإدغام اجتلبت لها همزة الوصل كما اجتلبتها في نحو «ادارأتم»، وفي التنزيل ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا﴾ كان معناها تلاحقوا قال:

تـداركـتـم الأحـلاف قـد ثـل عـرشـهـا(١)

وما روي عن أبي بكر «بل ادّرك»» معناه: افتعل من ادَّركت، وافتعل وتفاعل يجيئان بمعنى، ومن ثم صحَّ قولهم ازدوجوا، وإن كان الحرف على صورة يجب فيها الانقلاب، ولكنه صحَّ لما كان بمعنى تفاعلوا، وتفاعلوا يلزم فيه تصحيح حروف العلة لسكون الحرف الذي قبل حرف العلة، فصار تصحيح هذا كتصحيح عَوِرَ وَحَوِلَ لما كان بمعنى اعْوَرَّ واحْوَلَّ. ومن قرأ «بَلَ دْرَك» فإنه خفف الهمزة بحذفها وإلقاء حركتها على اللام الساكنة قبلها نحو قَدَ فْلَحَ في ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ ، وأما قوله «بَلَ أدْرَك» فإن بل استئناف، وما بعدها استفهام، كما تقول: أزيد عندك بل أعمرو عندك، تركاً للأول إلى غيره، وأما ﴿بلى﴾(٢) فكأنه جواب، وذلك لأنه لما قال ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فكأن قائلًا قال: ما الأمر كذلك، فقيل له: بلى، ثم استؤنف فقيل: «أدرك» علمهم في الآخرة. وقد سبق ذكر الاستفهامين فيما تقدم وكذلك ذكر الضِيق والضَيق، والأولى أن يحمل على أنهما لغتان.

● **اللغة:** قال ابن الأعرابي: ردفت وأردفت ولحقت وألحقت بمعنى. وترادفوا

(١) هذا صدر بيت لزهير، وعجزه: «وذبيان قد زلت بأقدامها النعل». ومراده من الأحلاف هم قبيلتا أسد وغطفان، لأنهم تحالفوا على التناصر. وقوله: «وذبيان» عطف على الأحلاف. وثل عرشه أي: تضعضعت حاله.

(٢) أي: في قراءة ابن عباس: «بلى أدرك».

تلاحقوا، قال المبرد: اللام في ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ زائدة. وقيل: إنه إنما أُتي باللام لأن معنى ردف: دنا فكأنه قال: دنا لكم، كما قال الشاعر:

فَقُلْتُ لَهُ الحاجاتُ يَطْرَحْنَ بالفتى وَهَم تَعناني مُعَنَّى ركائِبُه[1]

قال: يطرحن بالفتى لما كان معنى يطرحن يرمين، وكننت الشيء في نفسي وأكننته: إذا سترته في نفسك فهو مكن ومكنون، قال الرماني: الإكنان: جعل الشيء بحيث لا يلحقه أذى بمانع يصده عنه.

● **الإعراب:** العامل في ﴿أَءِذَا﴾ معنى قوله ﴿مُخرَجُونَ﴾ لأن ما بعد «إن» لا يعمل فيما قبل «إن» فالتقدير: أإذا كان تراباً أُخرجنا، وهذا في محل نصب لأنه مفعول ثان لوعد، ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ يكون اسمه ضمير الأمر والشأن، وما بعده خبره، و﴿أَن يَكُونَ﴾ وما يتعلق به في محل رفع بأنه فاعل ﴿عَسَىٰٓ﴾.

● **المعنى:** لما أخبر سبحانه عن الكفار أنهم لا يشعرون متى يبعثون، وأنهم شاكون عقَّبه بأنهم يعلمون حقيقة ذلك يوم القيامة فقال: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: تتابع منهم العلم وتلاحق حتى كمل علمهم في الآخرة بما أُخبروا به في الدنيا فهو على لفظ الماضي والمراد به الاستقبال أي: يتدارك، ومن قرأ «أدرك» فمعناه: سيدرك علمهم هذه الأشياء في الآخرة حين لا ينفعهم اليقين ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا﴾ في الدنيا، عن ابن عباس، والمعنى: أن ما جهلوه في الدنيا وسقط علمه عنهم علموه في الآخرة، وقيل: معناه اجتمع علمهم يوم القيامة فلم يشكّوا ولم يختلفوا، عن السدي. وقال مقاتل: يقول بل علموا في الآخرة حين عاينوها ما شكوا وعموا عنه في الدنيا، وقيل: إن هذا على وجه الاستفهام فحذف الألف، والمراد به النفي بمعنى أنه لم يدرك علمهم بالآخرة ولم يبلغها علمهم، وقيل: معناه أدرك هذا العلم جميع العقلاء لو تفكروا ونظروا لأن العقل يقتضي أن الإهمال قبيح فلا بدَّ من تكليف، والتكليف يقتضي الجزاء، وإذا لم يكن ذلك في الدنيا فلا بد من دار للجزاء، وقيل: إن الآية إخبار عن ثلاث طوائف: طائفة أقرّت بالبعث، وطائفة شكَّت فيه، وطائفة نفته، كما قال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ وقوله: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ أي: عن معرفتها وهو جمع عمي وهو الأعمى القلب لتركه التدبر والنظر ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ بإنكارهم البعث: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ من القبور مبعوثون. يقولون ذلك على طريق الاستبعاد والاستنكار ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا﴾ البعث ﴿نَحْنُ﴾ فيما مضى ﴿وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: ووعد آباؤنا ذلك من قبلنا فلم يكن مما قالوه شيء ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: أحاديثهم وأكاذيبهم التي كتبوها ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الذين كفروا بالله وعصوه أي: كيف أهلكهم الله وخرَّب ديارهم ﴿وَلَا

---

(١) قائله: الفرزدق من قصيدة يمدح فيها المطلب بن عبد الله المخزومي. وقبل هذا البيت قوله وهو مطلع القصيدة: «تقول ابنة الغوثي مالك ههنا * وأنت تميمي مع الشرق جانبه * فقلت لها...» وقوله: «هم تعناني» أي قاساني. ومعنى من التعنية.

تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على تكذيبهم وتركهم الإيمان ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ﴾ وهو ما يضيق به الصدر ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي: يدبرون في أمرك فإن الله تعالى يحفظك وينصرك عليهم ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ الذي تعدنا يا محمد من العذاب ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأنه يكون ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ أي: أقرب لكم، عن ابن عباس، وقيل: أقرب لكم، عن السدي، وقيل: أردف لكم، عن قتادة ﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ من العذاب، وعسى من الله واجب فمعناه: أنه قرب منكم وسيأتيكم، وهذا البعض الذي دنا لهم القتل والأسر يوم بدر وسائر العذاب لهم فيما بعد الموت، وقيل: هو الإنذار عند الموت وشدَّته عذاب القبر، عن الجبائي ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ بضروب النعم الدينية والدنيوية، وقيل: بإمهالهم ليتوبوا، والفضل هو الزيادة من الله تعالى للعبد على ما يستحقه بشكره والعدل: حق للعبد، والفضل فيه واقع من الله تعالى إلا أنه على ما يصح وتقتضيه الحكمة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ نعمه ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أي: تخفيه وتستره ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: ويعلم ما يظهرونه أيضاً ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ﴾ أي: من خصلة غائبة ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني جميع ما أخفاه عن خلقه وغيبه عنهم ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي: إلا وهو مبين في اللوح المحفوظ، وقيل: أراد أن جميع أفعالهم محفوظة عنده غير منسية كما يقول القائل: أفعالك عندي مكتوبة أي: محفوظة، عن أبي مسلم، والجبائي.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ
الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا
تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا
مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٨١) ۞ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ
الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا
مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا
عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ (٨٥)﴾.

● **القراءة:** قرأ «ولايسمع» بالياء، «الصمُّ» بالرفع هٰهنا، وفي الروم، ابن كثير، وابن عباس. والباقون «لا تسمع» بضم التاء ﴿الصُّمَّ﴾ بالنصب، وقرأ «وما أنت تهدي العمي» حمزة هٰهنا وفي الروم. وقرأ الباقون ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ﴾، وفي الشواذ قراءة ابن عباس، وسعيد بن جبير ومجاهد، والجحدري، وابن ذرعة: «تَكْلِمُهم» بفتح التاء والتخفيف، وقرأ أهل العراق غير أبي عمرو، وسهل «أن الناس» بفتح الهمزة، والباقون بكسرها.

● **الحجة:** حجة من قال ﴿تُسْمِعُ﴾ أنه أشبه بما قبل من قوله ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾. ويؤكد ذلك قوله ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾، ومن قرأ «ولا يَسْمَعُ الصمُّ الدعاءَ» فالمعنى: لا ينقادون

للحق لعنادهم كما لا يسمع الأصم ما يقال له. ومن قرأ «تهدي العميَ» فالتقدير: إنك لا تهديهم لشدة عنادهم وإعراضهم. وأنت مرفوع بما على قول أهل الحجاز و«تهدي» في موضع نصب بأنه خبر، وعلى قول تميم: يرتفع بفعل مضمر ويفسره الظاهر الذي هو «تهدي» تقديره: إذا أظهرت ذلك المضمر ما تهدي تهدي، لأنك إذا أظهرت الفعل المضمر اتصل به الضمير ولم ينفصل كما ينفصل إذا لم تظهر. ومن قرأ ﴿بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ﴾ مضافاً في السورتين فاسم الفاعل للحال أو للآتي، فإذا كان كذلك كانت الإضافة في نية الانفصال. وقوله ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ بالفتح، فالوجه فيه تكلمهم بأن الناس. وزعموا أنه في قراءة أُبي «تنبئهم»، وعن قتادة: أنه في بعض الحروف «تحدثهم»، وهذا يدل على أن تكلمهم من الكلام الذي هو النطق، وليس هو من الكلم الذي هو الجراحة. ومن كسر فقال: «إن الناس»، فالمعنى تكلمهم فتقول لهم: إن الناس. وإضمار القول في الكلام كثير، وحسن ذلك لأن الكلام قول، فكأن القول قد أظهر. ومن قرأ «تَكْلِمَهم» فمعناه تجرحهم بأكلها إياهم.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه من الحجج ما يقوي قلب نبيه ﷺ فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: يخبرهم بالصدق ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من حديث مريم، وعيسى عليه السلام والنبي المبشر به في التوراة، حيث قال بعضهم: هو يوشع، وقال بعضهم: لا بل هو منتظر لم يأت، بعد وغير ذلك من الأحكام، وكان ذلك معجزة لنبينا ﷺ إذ كان لا يدرس كتبهم ولا يقرؤها ثم أخبرهم بما فيها ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يعني القرآن ﴿لَهُدًى﴾ أي: دلالة على الحق ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: نعمة لهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ يريد بين المختلفين في الدين يوم القيامة وأشار بذلك إلى شيئين:

أحدهما: أن الحكم له، فلا ينفذ حكم غيره فيوصل إلى كل ذي حق حقه.

والآخر: أنه وعد المظلوم بالإنصاف من الظالم ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القادر على ما يشاء لا يمتنع عليه شيء ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بالمحق والمبطل فيجازي كلّاً بحسب عمله، وفي هذه الآية تسلية للمحقين من الذين خولفوا في أمور الدين، وأن أمرهم يؤول إلى أن يحكم بينهم رب العالمين، ثم خاطب سبحانه نبيه ﷺ فقال: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ يا محمد ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: الواضح، البيّن، الظاهر، والمحق أولى بالتوكل من المبطل المدغل، والمراد بهذا الخطاب: سائر المؤمنين وإن كان في الظاهر لسيد المرسلين، ثم شبّه الكفار بالموتى فقال: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يقول كما لا تسمع الميت الذي ليس له آلة السمع النداء، كذلك لا تسمع الكافر النداء، لأنه لا يسمع ولا يقبل بالموعظة ولا يتدبر فيها ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ إنما قال ذلك لأن الأصم إذا كان قريباً فالإنسان يطمع في إسماعه، فإذا أعرض وأدبر وتباعد، انقطع الطمع في إسماعه، فجعل سبحانه المصمم على الجهل كالميت في أنه لا يقبل الهدى وكالأصم في أنه لا يسمع الدعاء ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ في الدين بالآيات الدالة على الهدى إذا أعرضوا عنها كما لا يمكنك أن تهدي الأعمى إلى قصد الطريق. جعل سبحانه الجهل بمنزلة العمى لأنه يمنع عن إدراك الحق كما يمنع العمى من إدراك المبصرات ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: ما يسمع إلا من يطلب الحق بالنظر في آياتنا ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: مستسلمون منقادون. جعل سبحانه استماعهم وقبولهم الحق سماعاً وتركهم للقبول تركاً للسماع، وقيل:

مسلمون أي: موحّدون مخلصون ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: وجب العذاب والوعيد عليهم، وقيل: معناه إذا صاروا بحيث لا يفلح أحد منهم ولا أحد بسببهم، عن مجاهد، وقيل: معناه إذا غضب الله عليهم، عن قتادة، وقيل: معناه إذا أُنزل العذاب بهم عند اقتراب الساعة فسمي المقول قولًا كما يقال: جاء الخبر الذي قلت ويراد به المخبر، قال أبو سعيد الخدري وابن عمر: إذا لم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر وجب السخط عليهم وأخذوا بمبادىء العقاب منها قوله: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ تخرج بين الصفا والمروة فتخبر المؤمن بأنه مؤمن والكافر بأنه كافر، وعند ذلك يرتفع التكليف ولا تقبل التوبة وهو علم من أعلام الساعة، وقيل: لا يبقى مؤمن إلا مسحته، ولا يبقى منافق إلا خطمته تخرج ليلة جمع، والناس يسيرون إلى منى عن ابن عمر. وروى محمد بن كعب القرظي قال: سئل علي صلوات الرحمن عليه عن الدابة؟ فقال: أما والله ما لها ذنب وإن لها للحية وفي هذا إشارة إلى أنها من الإنس، وروي عن ابن عباس أنها دابة من دواب الأرض لها زغب وريش ولها أربع قوائم، وعن حذيفة عن النبي ﷺ قال: دابة الأرض طولها ستون ذراعاً لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب فتسم المؤمن بين عينيه وتكتب بين عينيه مؤمن، وتسم الكافر بين عينيه وتكتب بين عينيه كافر، ومعها عصا موسى وخاتم سليمان، فتجلو وجه المؤمن بالعصا، وتختم أنف الكافر بالخاتم حتى يقال: يا مؤمن ويا كافر! وروي عن النبي ﷺ أنه يكون للدابة ثلاث خرجات من الدهر فتخرج خروجاً بأقصى المدينة فيفشو ذكرها في البادية ولا يدخل ذكرها القرية، يعني مكّة ثم تمكث زماناً طويلًا، ثم تخرج خرجة أخرى قريباً من مكة فيفشو ذكرها في البادية ويدخل ذكرها القرية يعني مكة، ثم سار الناس يوماً في أعظم المساجد على الله عزَّ وجلَّ حرمة وأكرمها على الله يعني المسجد الحرام لم ترعهم إلا وهي في ناحية المسجد تدنو وتدنو كذا ما بين الركن الأسود إلى باب بني مخزوم عن يمين الخارج في وسط من ذلك، فيرفض الناس عنها ويثبت لها عصابة عرفوا أنهم لن يعجزوا الله فخرجت عليهم تنفض رأسها من التراب فمرّت بهم، فجلت عن وجوههم، حتى تركتها كأنها الكواكب الدرية، ثم ولّت في الأرض لا يدركها طالب ولا يعجزها هارب، حتى إن الرجل ليقوم فيتعوَّذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه، فتقول: يا فلان الآن تصلي؟ فيقبل عليها بوجهه فتمسه في وجهه. فيتجاور الناس في ديارهم ويصطحبون في أسفارهم ويشتركون في الأموال يعرف الكافر من المؤمن فيقال للمؤمن: يا مؤمن وللكافر: يا كافر. وروي عن وهب أنه قال: ووجهها وجه رجل وسائر خلقها خلق الطير، ومثل هذا لا يعرف إلا من النبوات الإلهية. وقد روي عن علي عليه السلام أنه قال: إنه صاحب العصا والميسم، وروى علي بن إبراهيم بن هاشم في تفسيره عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رجل لعمار بن ياسر: يا أبا اليقظان آية في كتاب الله أفسدت قلبي؟ قال عمار: وأيّة آية هي؟ فقال: هذه الآية فأيّة دابة الأرض هذه؟ قال عمار والله ما أجلس ولا آكل ولا أشرب حتى أُريكها. فجاء عمار مع الرجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهو يأكل تمراً وزبداً فقال: يا أبا اليقظان، هلم. فجلس عمار يأكل معه فتعجب الرجل منه، فلما قام عمار قال الرجل: سبحان الله حلفت أنك لا تأكل ولا تشرب حتى ترينيها، قال عمار: أريتكها إن كنت تعقل، وروى العياشي هذه القصة بعينها عن أبي ذر

رحمه الله أيضاً. وقوله: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ أي: تكلمهم بما يسوؤهم وهو أنهم يصيرون إلى النار بلسان يفهمونه، وقيل: تحدثهم بأن هذا مؤمن وهذا كافر، وقيل: تكلمهم بأن تقول لهم: ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ وهو الظاهر، وقيل: بآياتنا معناه بكلامها وخروجها ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يدفعون، عن ابن عباس، وقيل: يحبس أولهم على آخرهم، واستدل بهذه الآية على صحة الرجعة من ذهب إلى ذلك من الإمامية، بأن قال: إن دخول «من» في الكلام يوجب التبعيض فدلَّ ذلك على أن اليوم المشار إليه في الآية يحشر فيه قوم دون قوم وليس ذلك صفة يوم القيامة الذي يقول فيه سبحانه: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾، وقد تظاهرت الأخبار عن أئمة الهدى من آل محمد ﷺ في أن الله تعالى سيعيد عند قيام المهدي عليه السلام قوماً ممن تقدم موتهم من أوليائه وشيعته ليفوزوا بثواب نصرته ومعونته، ويبتهجوا بظهور دولته، ويعيد أيضاً قوماً من أعدائه لينتقم منهم، وينالوا بعض ما يستحقونه من العذاب في القتل على أيدي شيعته والذل والخزي بما يشاهدون من علو كلمته. ولا يشك عاقل أن هذا مقدور لله تعالى غير مستحيل في نفسه. وقد فعل الله ذلك في الأمم الخالية ونطق القرآن بذلك في عدة مواضع مثل قصة عزير وغيره على ما فسرناه في موضعه. وصحَّ عن النبي ﷺ قوله: «سيكون في أمتي كل ما كان في بني إسرائيل حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة[1] حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضبّ لدخلتموه»، على أن جماعة من الإمامية تأولوا ما ورد من الأخبار في الرجعة على رجوع الدولة، والأمر والنهي دون رجوع الأشخاص، وإحياء الأموات، وأوّلوا الأخبار الواردة في ذلك لما ظنوا أن الرجعة تنافي التكليف، وليس كذلك لأنه ليس فيها ما يلجىء إلى فعل الواجب والامتناع من القبيح والتكليف يصحُّ معها كما يصحُّ مع ظهور المعجزات الباهرة والآيات القاهرة كفلق البحر وقلب العصا ثعباناً، وما أشبه ذلك، ولأن الرجعة لم تثبت بظواهر الأخبار المنقولة فيتطرّق التأويل عليها، وإنما المعوّل في ذلك على إجماع الشيعة الإمامية وإن كانت الأخبار تعضده وتؤيده، ومن قال: إن قوله ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ المراد به يوم القيامة. قال: المراد بالفوج الجماعة من الرؤساء والمتبوعين في الكفر حشروا وجمعوا لإقامة الحجة عليهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا﴾ إلى موقف الحساب ﴿قَالَ﴾ الله تعالى لهم: ﴿أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي﴾ أي: كذبتم بأنبيائي ودلالاتي الدالة على ديني ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ أي: لم تطلبوا معرفتها ولم تبيّنوا ما أوجب الله عليكم فيها ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ حين لم تبحثوا عنها ولم تتفكروا في صحتها، يقول ذلك تبكيتاً لهم وتجهيلاً أي: هذا كان الواجب عليكم فتركتموها ولم تعرفوها حق معرفتها فبماذا اشتغلتم، ومن قال بالأول قال: المراد بالآيات الأئمة الطاهرون عليهم السلام ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ أي: وجب العذاب عليهم ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ أي: بظلمهم إذ صاروا بحيث لا يفلح منهم ولا أحد بسببهم ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ إذ ذاك بكلام ينتفعون به، ويجوز أن يكون المراد أنهم لا ينطقون أصلاً لعظم ما يشاهدونه، وهول ما يرونه.

---

(١) قال ابن الأثير: القذة واحدة القذذ: ريش السهم. وفي الحديث: «لتركبن سنن من كان قبلكم، حذو القذة بالقذة» أي: كما تقدر كل واحدة منهما على قدر صاحبتها، وتقطع. يضرب مثلًا للشيئين يستويان، ولا يتفاوتان.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا
مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ
ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم
مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا
مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ
شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي
لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا
وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ حمزة، وحفص، وخلف ﴿أَتَوْهُ﴾ مقصورة الألف، غير ممدودة بفتح التاء. وقرأ الباقون «آتوه» بمد الألف وضم التاء. وقرأ أهل البصرة غير سهل، وابن كثير، وحماد، والأعشى، والبرجمي، عن أبي بكر «بما يفعلون» بالياء، والباقون بالتاء، وقرأ أهل الكوفة ﴿مِّن فَزَعٍ﴾ منوناً ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بفتح الميم، وقرأ أهل المدينة غير إسماعيل «من فزع» بغير تنوين ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بفتح الميم، وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، ونافع، برواية إسماعيل، ويعقوب «من فزع» بغير تنوين «يومئذٍ» بكسر الميم. وقرأ أهل المدينة، وابن عامر، وحفص، ويعقوب، ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء، والباقون بالياء.

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ ﴿أَتَوْهُ﴾ كان فعلوا من الإتيان، ومن قرأ «آتوه» فهو فاعلوه، وكلاهما محمول على معنى كل. ولو حمله على اللفظ جاز كما في قوله ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ﴾، و﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾، وحجة من قال «يفعلون» بالياء أن ذكر الغيبة قد تقدم في قوله ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ﴾، وحجة التاء أنه خطاب للكافة، وقد تدخل الغيبة في الخطاب ولا يدخل الخطاب في الغيبة، وقوله ﴿مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾ من نوّن كان في انتصاب «يومَ» ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون منتصباً بالمصدر كأنه قال: «وهم من أن يفزعوا يومئذٍ آمنون».

والآخر: أن يكون اليوم صفة لفزع، لأن أسماء الأحداث توصف بأسماء الزمان، كما يخبر عنها بها وفيه ذكر الموصوف وتقديره في هذا الوجه أن يتعلق بمحذوف كأنه «من فزع يحدث يومئذٍ.»

والثالث: أن يتعلق باسم الفاعل «كأنه آمنون من فزع يومئذٍ»، ويجوز إذا نوّن الفزع أن يعني به فزعاً واحداً، ويجوز أن يعني به كثرة لأنه مصدر والمصادر تدل على الكثرة وإن كانت مفردة الألفاظ، كقوله تعالى ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾، وكذلك إذا أضاف فقال «من فزع يومَئذٍ أو يومِئذٍ، ويجوز أن يعني به مفرداً، ويجوز أن يعني به كثرة. فأما القول في إعراب

«يَومَ» وبنائه إذا أُضيف إلى إذ فقد ذكر فيما تقدم. وحجة من قرأ «يعملون» بالياء أنه وعيد للمشركين وحجة التاء أنه على معنى: قل لهم ذلك.

● **الإعراب:** وصف النهار بأنه مبصر فيه وجهان:

أحدهما: أن معناه ذو إبصار كقوله ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي: ذات رضى. وكقول النابغة:

كـلـيـنـي لِهَـمٍّ يـا أُمَـيـمَـةَ نـاصِـبِ(١)

أي: ذي نصب.

والثاني: أنه يريك الأشياء كما يراها من يبصرها بالنور الذي تجلى عندها، وفيه قول ثالث انه مثل قول جرير:

لـقـد لُمْـتِـنـا يـا أُمَّ غَـيْـلان فـي الـسَّـرى وَنِـمْـتِ ومـا لـيـل الـمَـطِـيِّ بِـنـائـمِ(٢)

أي: بالذي ينام فيه، فيكون مبصراً بمعنى ما يبصر فيه.

● **المعنى:** ثم بيَّن سبحانه قدرته على الإعادة والبعث بما احتج به على الكفار فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ عن التعب والحركات ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: يبصر فيه، ويمكن التصرف فيه لضيائه ويدرك بنوره جميع الأشخاص كما يدرك بنور البصر ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ أي: دلالات ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأن جعل الشيء لما يصلح له من الانتفاع إنما يكون بالاختيار ولا يكون بالطباع ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ منصوب بتقدير: واذكر يوم ينفخ إسرافيل بأمر الله تعالى في الصور، وذلك اليوم الذي يقع عليهم القول بما ظلموا ويجوز أن يكون على حذف في الكلام، والتقدير: ويوم ينفخ في الصور وتكون النشأة الثانية. واختلف في معنى الصور فقيل: هو صور الخلق جمع صورة، عن الحسن، وقتادة. ويكون معناه: يوم ينفخ الروح في الصور فيبعثون. وقيل: هو قرن ينفخ فيه شبه البوق، عن مجاهد، وقد ورد ذلك في الحديث: ﴿فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ماتوا لشدة الخوف والفزع يدل عليه قوله في موضع آخر الآي﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وقيل: هي ثلاث نفخات: الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين، ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ من الملائكة الذين يثبت الله قلوبهم وهم: جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، وقيل: يعني الشهداء فإنهم لا يفزعون في ذلك اليوم، وروي ذلك في خبر مرفوع ﴿وَكُلٌّ﴾ من الأحياء الذين ماتوا ثم أحيوا ﴿أَتَوْهُ﴾ أي: يأتونه في المحشر ﴿دَٰخِرِينَ﴾ أي: أذلاء صاغرين، عن ابن عباس، وقتادة ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ أي: واقفة مكانها لا تسير ولا تتحرك في مرأى العين ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ أي: تسير سيراً حثيثاً مثل سير السحاب، عن ابن عباس، وفي مثل هذا المعنى قول النابغة الجعدي يصف جيشاً:

---

(١) هذا صدر بيت للنابغة الذبياني، وعجزه: «وليل أُقاسيه بطيء الكواكب» وقوله: «كليني» أي: دعيني أمر من وكل إليه الأمر: فوض. وأُميمة على وزن جهينة: اسم حبيبته.

(٢) الشعر في (جامع الشواهد).

بِأَزْعَنَ مثلِ الطودِ تحسبُ أنهم وُقوفٌ لحاجٍ، والرِكابُ تُهَمْلِجُ[1]

أي: تحسب أنهم وقوف من أجل كثرتهم والتفافهم، فكذلك المعنى في الجبال أنك لا ترى سيرها لبعد أطرافها كما لا ترى سير السحاب إذا انبسط لبعد أطرافه وذلك إذا أزيلت الجبال عن أماكنها للتلاشي كما في قوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾. ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ أي: صنع الله ذلك صنعاً وانتصب بما دل عليه ما تقدمه من قوله﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾، وذكر اسم الله لأنه لم يأت ذكره فيما قبل وإنما دل عليه ﴿ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: خلق كل شيء على وجه الإتقان والإحكام والاتساق، قال قتادة: أي: أحسن كل شيء خلقه، وقيل: الإتقان حسن في إيثاق ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: عليم بما يفعل أعداؤه من المعصية وبما يفعل أولياؤه من الطاعة. ثم بيَّن سبحانه كيفية الجزاء على أفعال الفريقين فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: بكلمة التوحيد والإخلاص، عن قتادة، وقيل: بالإيمان، عن النخعي، وكان يحلف ولا يستثني ان الحسنة لا إله إلا الله، والمعنى من وافى يوم القيامة بالإيمان ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ قال ابن عباس، أي: فمنها يصل الخير إليه، والمعنى: قوله فله من تلك الحسنة خير يوم القيامة وهو الثواب والأمان من العقاب، فخير هٰهنا اسم وليس بالذي هو بمعنى الأفضل وهو المروي عن الحسن، وعكرمة، وابن جريج، قال عكرمة: فأما أن تكون خيراً من الإيمان فلا، فليس شيء خيراً من لا إله إلا الله، وقيل: معناه فله أفضل منها في معظم النفع لأنه يعطي بالحسنة عشراً، عن زيد بن أسلم، ومحمد بن كعب، وابن زيد، وقيل: لأن الثواب فعل الله تعالى والطاعة فعل العبد، وقيل: هو رضوان الله ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾. ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ قال الكلبي: إذا أطبقت النار على أهلها فزعوا فزعة لم يفزعوا مثلها وأهل الجنة آمنون من ذلك الفزع ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي: بالمعصية الكثيرة التي هي الكفر والشرك، عن ابن عباس، وأكثر المفسرين ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ أي: ألقوا في النار منكوسين ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني أن هذا جزاء فعلكم وليس بظلم. حدثنا السيد أبو الحمد مهدي بن نزار الحسيني قال: حدثنا الحاكم أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله الحسكاني قال: أخبرنا محمد بن عبد الله بن أحمد قال: أخبرنا محمد بن أحمد بن محمد قال: حدثنا عبد العزيز بن يحيى بن أحمد قال: حدثني محمد بن عبد الرحمن بن الفضل قال: حدثني جعفر بن الحسين قال: حدثني محمد بن زيد بن علي عليه السلام، عن أبيه قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: دخل أبو عبد الله الجدلي على أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: يا أبا عبد الله! ألا أخبرك بقول الله تعالى﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ إلى قوله﴿تَعْمَلُونَ﴾ قال: بلى جعلت فداك، قال: الحسنة حبنا أهل البيت والسيئة بغضنا. وحدثنا السيد أبو الحمد قال: حدثنا الحاكم أبو القاسم قال: أخبرنا أبو عثمان سعيد بن محمد الحميري قال: حدثنا جدي أحمد بن إسحاق الحميري قال: حدثنا جعفر بن سهل قال: حدثنا أبو زرعة عثمان بن عبد الله القرشي قال: حدثنا ابن لهيعة، عن ابن الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا علي! لو أن أمتي صاموا حتى

---

(١) الجيش الأرعن: هو المضطرب لكثرته. والطود: الجبل. والحاج: جمع الحاجة. والهملاج: حسن سير الدابة في سرعة.

صاروا كالأوتاد وصلوا حتى صاروا كالحنايا ثم أبغضوك لأكبهم الله على مناخرهم في النار. ثم قال سبحانه لنبيه ﷺ: قل لهم ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ يعني مكة، عن ابن عباس، قال أبو العالية: هي منى ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ أي: جعلها حرماً آمناً يحرم فيها ما يحل في غيرها لا ينفر صيدها ولا يختلى خلاها ولا يقتص فيها ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ أي: وهو مالك كل شيء مما أحله وحرمه فيحرم ما شاء ويحل ما شاء ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: من المخلصين لله بالتوحيد ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ عليكم يا أهل مكة وأدعوكم إلى ما فيه ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ إلى الحق والعمل بما فيه ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ لأنّ ثواب ذلك وجزاءه يصل إليه دون غيره ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عنه وحاد ولم يعمل بما فيه ولم يهتد إلى الحق ﴿فَقُلْ﴾ له يا محمد ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ الذين يخوّفون بعقاب الله من معاصيه ويدعون إلى طاعته، ولا أقدر على إكراههم على الإيمان والدين ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ اعترافاً بنعمته إذ اختارني لرسالته ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يوم القيامة ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ وتعرفون أنها على ما أُخبرتم بها في الدنيا، عن الحسن. وقيل: معنى آياته هي العذاب في الدنيا والقتل ببدر فتعرفونها أي: تشاهدونها، ورأوا ذلك. ثم عجّلهم الله إلى النار، عن مقاتل ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل هو عالم بجميع ذلك فيجازيكم عليها وإنما يؤخّر عقابكم إلى وقت تقتضيه الحكمة.

● **النظم:** وجه اتصال قوله ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ بما قبله: أنه سبحانه لما بيّن أن الأمن من أهوال القيامة للمؤمن المحسن، فكأن قائلًا قال: وما الحسنة؟ وكيف العبادة؟ فقال: إنما أُمرت.


سُورَةُ القَصَص


مكية/آياتها (٨٨)

● **عدد آيها:** وهي ثمان وثمانون آية.

● **اختلافها:** آيتان: ﴿طسٓمٓ﴾ كوفي، ﴿يَسْقُونَ﴾ غير الكوفي.

● **فضلها:** أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «ومن قرأ ﴿طسٓمٓ﴾ القصص أُعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدَّق بموسى وكذَّب به، ولم يبق ملك في السمٰوات والأرض إلا شهد له يوم القيامة أنه كان صادقاً إن ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾».

● **تفسيرها:** لما أمر سبحانه في خاتمة تلك السورة بتلاوة القرآن، بيَّن في هذه السورة أن القرآن من ﴿طسٓمٓ﴾ وأنه يتلو عليهم من نبأ موسى وفرعون فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ
مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا
شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ
﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ
ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ
يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة، غير عاصم «ويرى فرعون» بالياء وما بعده بالرفع، وقرأ الباقون ﴿وَنُرِىَ﴾ بالنون وضمّه وكسر الراء ونصب الياء وما بعده بالنصب.

● **الحجة:** قال أبو علي: حجة من قرأ بالنون أن ما قبله للمتكلم، فينبغي أن يكون ما بعده أيضاً كذلك ليكون الكلام من وجه واحد، وحجة من قرأ بالياء أن فرعون وجنوده أروه ذلك، والمعلوم أنهم يرونه إذا رأوه، وهو قراءة الأعمش.

● **اللغة:** النبأ: الخبر عما هو عظيم الشأن، والشيع: الفرق، وكل فرقة شيعة، وسموا بذلك لأن بعضهم يتابع بعضاً، والعرب تقول: شاعكم السلام أي: تبعكم وشيَّعه: اتبعه، والتمكينّ: تكميل ما يتم به الفعل.

● **الإعراب:** قوله ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: في موضع نصب على الحال، ويجوز أن يكون صفة مصدر محذوف تقديره: تلاوة كائنة بالحق، ويجوز أن يكون «الحق» صفة محذوف تقديره:

بالأمر الحق، والجار والمجرور يتعلق بـ ﴿نَتْلُوا۟﴾، و﴿يَسْتَضْعِفُ﴾ في موضع نصب على الحال، و﴿يُذَبِّحُ﴾ حال بعد حال، ويجوز أن يكون حالاً عن الحال.

● **المعنى:** ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: المبيّن الرشد من الغي، عن قتادة، وقيل: هو البيّن الظاهر والآية مفسّرة فيما مضى ﴿نتلو عليك﴾ يا محمد ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ أي: طرفاً من أخبارهما ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالصدق والحقيقة لا ريب فيه ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدّقون بالله وبما أنزله إليك ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بغى وتجبّر وتعظمّ واستكبر في أرض مصر، يقال: علا علواً إذا تجبّر، ومنه قوله: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾. ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي: فرقاً، قال قتادة: فرّق بين بني إسرائيل والقبط. والمعنى: يكرم قوماً ويذل آخرين بالاستعباد والاستعمال في الأعمال الشاقة، وقيل: معناه جعل بني إسرائيل أصنافاً في الخدمة والتسخير ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ يعني من بني إسرائيل ثم فسر ذلك فقال: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ يقتل الأبناء ويستبقي البنات فلا يقتلن وذلك أن بعض الكهنة قال له: إن مولوداً يولد في بني إسرائيل يكون سبب ذهاب ملكك، وقال السدي: رأى فرعون في منامه أن ناراً أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل، فسأل علماء قومه فقالوا له: يخرج من هذا البلد رجل يكون هلاك مصر على يده ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بالقتل والعمل بالمعاصي ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ المعنى: أن فرعون كان يريد إهلاك بني إسرائيل وإفناءهم ونحن نريد أن نمنَّ عليهم ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي: قادة ورؤساء في الخير يقتدى بهم، عن ابن عباس، وقيل: نجعلهم ولاة وملوكاً، عن قتادة، وهذا القول مثل الأول، لأن الذين جعلهم الله ملوكاً فهم أئمة، ولا يضاف إلى الله سبحانه ملك من يملك الناس عدواناً وظلماً، وقد قال سبحانه: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾، والملك من الله تعالى هو الذي يجب أن يطاع، فالأئمة على هذا ملوك مقدَّمون في الدين والدنيا يطأ الناس أعقابهم ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ لديار فرعون وقومه وأموالهم. وقد صحت الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لتعطفن الدنيا علينا بعد شِماسها، عطف الضروس على ولدها[1]، وتلا عقيب ذلك ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية. وروى العياشي بالإسناد، عن أبي الصباح الكناني قال: نظر أبو جعفر عليه السلام إلى أبي عبد الله عليه السلام فقال: هذا والله من الذين قال الله تعالى ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية، وقال سيد العابدين علي بن الحسين عليه السلام: والذي بعث محمداً بالحق بشيراً ونذيراً إن الأبرار منا أهل البيت وشيعتهم بمنزلة موسى وشيعته، وإن عدونا وأشياعهم بمنزلة فرعون وأشياعه ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ونريد أن نمكّن لبني إسرائيل في أرض مصر، والتمكين: هو فعل جميع ما لا يصح الفعل إلا معه مع القدرة والآلة واللطف وغير ذلك. وقال علي بن عيسى: اللطف لا يدخل في التمكين لأنه لو

---

(١) شمس الفرس شماساً: كان لا يمكّن أحداً من ظهره، ولا من الإسراج، ولا الإلجام، ولا يكاد يستقر. والضروس: الناقة السيئة الخلق تعض حالبيها.

دخل فيه لكان من لا لطف له لم يكن ممكناً، ولكنه من باب إزاحة العلة ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم﴾ أي: من بني إسرائيل ﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ من ذهاب الملك على يد رجل منهم. قال الضحاك: عاش فرعون أربعمائة سنة وكان قصيراً دميماً وهو أول من خضب بالسواد، وعاش موسى عليه السلام مائة وعشرين سنة.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة غير عاصم «وحُزناً» بضم الحاء وسكون الزاي، والباقون «حزناً» بفتحها. وفي الشواذ قراءة الحسن، وفضالة بن عبد الله «فؤاد أم موسى فزعاً»، وقراءة ابن عباس «قرعاً» بالقاف والراء، وحكى قطرب عن بعضهم «فَرْغاً».

● **الحجة:** الحَزَن والحُزْن: لغتان مثل البَخَل والبُخْل، والعَرَب والعُرْب، والعَجَم والعُجْم، وأما قوله «فزعاً» بالفاء والزاي فمعناه: قلقاً يكاد يخرج من غلافه وأما «قرعاً» فمعناه: يرجع إلى معنى قارع لأن رأس الأقرع يكون خالياً من الشعر، وأما «فَرْغاً» فمعناه: هدراً وباطلاً قال:

فإن تك أذوادٌ أُصِبْنَ ونِسْوَةٌ فَلَنْ يذهبوا فرغاً بقتلِ حبالِ[1]

وقوله: ﴿فَٰرِغًا﴾ معناه: خالياً: من الحزن لعلمها أنه لا يغرق.

● **الإعراب:** مفعول ﴿خِفْتِ﴾ محذوف تقديره: خفت عليه أحداً، ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي: هو قرة عين، قال الزجاج: ويجوز على بعد أن يكون ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ﴾ مبتدأ ويكون خبره ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ في موضع نصب على الحال والعامل فيه ما يدل على هذه القصة وتقديره: قالوا ما قالوه غير شاعرين.

---

(١) قائله طليحة بن خويلد الأسدي. والأذواد جمع ذود: ما بين الثلاث إلى العشر من الإبل. وحبال: اسم رجل، وهو ابن أخي طليحة بن خويلد - قائل البيت - (وقال ابن هشام في السيرة ج١: ٦٣٨ وكذا الميداني في مجمع الأمثال ج٢: ١٧١ هو ابنه) قتله عكاشة بن محصن الأسدي: فلما أطلع على قتله طليحة، خرج في أثر عكاشة حتى أدركه فقتله. ثم قال في ذلك أبياتاً. وهذا البيت أحدها. يقول: إنْ صار دمُ الإبل والنسوة هدراً، فلن يصير دم حبال هدراً.

● **المعنى:** ثم بيَّن سبحانه كيف دبَّر في إهلاك فرعون وقومه منبِّهاً بذلك على كمال قدرته وحكمته فقال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ أي: ألهمناها وقذفنا في قلبها وليس بوحي نبوة، عن قتادة، وغيره، وقيل: أتاها جبرائيل عليه السلام بذلك، عن مقاتل، وقيل: كان هذا الوحي رؤيا منام عبَّر عنها من يثق به من علماء بني إسرائيل عن الجبائي ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ما لم تخافي عليه الطلب ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ في القتل الذي أمر به فرعون في أبناء بني إسرائيل ﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي: في البحر وهو النيل ﴿وَلَا تَخَافِى﴾ عليه الضيعة ﴿وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ من فراقه ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ سالماً عن قريب ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ والأنبياء، وفي هذه الآية أمران ونهيان وخبران وبشارتان. وحكي أن بعضهم سمع بدوية تنشد أبياتاً، فقال لها: ما أفصحك! فقالت: الفصاحة لله تعالى، وذكرت هذه الآية وما فيها. قال وهب بن منبه: لما حملت أم موسى بموسى عليه السلام كتمت أمرها عن جميع الناس، فلم يطلع على حملها أحد من خلق الله، وذلك شيء ستره الله تعالى لما أراد أن يمنَّ به على بني إسرائيل، فلما كانت السنة التي يولد فيها موسى عليه السلام بعث فرعون القوابل وتقدَّم إليهن أن يفتشن النساء تفتيشاً لم يفتشنه قبل ذلك، وحملت أم موسى بموسى فلم يَنْتُ(١) بطنها ولم يتغير لونها ولم يظهر لبنها فكانت القوابل لا يعرضن لها. فلما كانت الليلة التي ولد فيها موسى عليه السلام ولدته أمه ولا رقيب عليها ولا قابلة ولم يطلع عليها أحد إلّا أخته مريم، فأوحى الله تعالى إليها ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ الآية. قال: فكتمته أمه ثلاثة أشهر ترضعه في حجرها لا يبكي ولا يتحرك، فلما خافت عليه عملت له تابوتاً مطبقاً ومهدت له فيه ثم ألقته في البحر ليلاً كما أمرها الله تعالى، قال ابن عباس: لما قربت ولادة أم موسى وكانت قابلة من النساء اللاتي وكّلهن فرعون بحبالى بني إسرائيل مصافية لأم موسى، فلما ضربها الطلق، أرسلت إليها فجاءت، فعالجتها فلما ولد موسى، رأت نوراً بين عينيه، فارتعش كل مفصل منها ودخل حب موسى عليه السلام في قلبها، ثم قالت: يا هذه! ما جئت إليك إلا ومن ورائي قتل مولودك ولكن وجدت لابنك هذا حباً ما وجدت حب شيء مثل حبه، فاحفظي ابنك فإني أراه هو عدونا. فلما خرجت من عندها القابلة بصرتها العيون فجاؤوا ليدخلوا على أم موسى فقالت أخته: يا أماه! هذا الحرس بالباب، فلفَّت موسى عليه السلام في خرقة فوضعته في تنور مسجور، فدخلوا فإذا التنور مسجور ورأوا أم موسى لم يتغيَّر لها لون، ولم يظهر لها لبن، فخرجوا من عندها. وانطلقت إلى الصبي، وقد جعل الله النار عليه برداً وسلاماً، قال: ثم لما رأت إلحاح فرعون في الطلب خافت على ابنها فانطلقت إلى نجار من قوم فرعون فاشترت منه تابوتاً. فقال النجار: ما تصنعين بهذا التابوت؟ قالت: إن لي ابناً أخبأه في التابوت، وكرهت الكذب، فلما اشترت التابوت وحملته انطلق النجار إلى الذباحين ليخبرهم بأمر أم موسى، فلم يطق الكلام فرجع وأخذ في النجر فانطلق لسانه فرجع ثانياً فلما انتهى إليهم اعتقل لسانه هكذا ثلاث مرات، فعلم أن ذلك أمر إلهي ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ أي: أصابوه وأخذوه من غير طلب ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ أي: ليكون لهم في عاقبة أمره كذلك لا لأنهم أخذوه لهذا،

---

(١) نتا ينتو الشيء: ارتفع. ورد في بعض النسخ: «فلم ينتأ» بالهمزة، ومعناهما واحد.

كما يقال لمن كسب مالاً فأداه ذلك إلى الحتف والهلاك: إنما كسب فلان لحتفه وهو لم يطلب المال للحتف ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ أي: عاصين ربهم في أفعالهم. وكانت القصة في ذلك: أن النيل جاء بالتابوت إلى موضع فيه فرعون وامرأته على شط النيل، فأمر فرعون فأُتي به، وفتحت آسية بنت مزاحم بابه فلما نظرت إليه ألقى الله في قلبها محبة موسى عليه السلام وكانت آسية بنت مزاحم امرأة من بني إسرائيل استنكحها فرعون، وهي من خيار النساء ومن بنات الأنبياء، وكانت أماً للمؤمنين ترحمهم وتتصدَّق عليهم ويدخلون عليها، فلما نظر فرعون إلى موسى عليه السلام غاظه ذلك، وقال: كيف أخطأ هذا الغلام الذبح؟ قالت آسية وهي قاعدة إلى جنبه: هذا الوليد أكبر من ابن سنة وإنك أمرت أن يُذبح الولدان لهذه السنة فدعه يكن قرة عين لي ولك، وذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ وإنما قالت ذلك لأنه لم يكن له ولد فأطمعته في الولد. قال ابن عباس: إن أصحاب فرعون لما علموا بموسى جاؤوا ليقتلوه، فمنعتهم وقالت لفرعون: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ﴾، قال فرعون: قرة عين لك وأما لي فلا! قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «والذي يحلف به لو أقر فرعون بأن يكون له قرة عين كما أقرت امرأته لهداه الله به كما هداها، ولكنه أبى إلا الشقاء الذي كتبه الله عليه» ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يشعرون أن هلاكهم على يديه، وقيل: لا يشعرون أن هذا هو المطلوب الذي يطلبونه ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ﴾ أي: خالياً من كل شيء إلا من ذكر موسى. أي: صار فارغاً له، عن ابن عباس، وقتادة، والضحاك، وقيل: فارغاً من الحزن لعلمها أن ابنها ناج سكوناً إلى ما وعدها الله تعالى به، وقيل: فارغاً من الوحي الذي أوحي إليها بنسيانها فإنها نيست ما وعدها الله تعالى به، عن الحسن، وابن زيد ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ معناه: أنها كادت تبدي بذكر موسى عليه السلام فتقول: يا ابناه! من شدة الغم والوجد، عن ابن عباس، وقتادة، والسدي، وقيل: معناه كادت تصيح على ابنها شفقة عليه من الغرق، عن مقاتل، وقيل: معناه همَّت بأن تقول إنها أمه لما رأته عند دعاء فرعون إياها للإرضاع لشدة سرورها به، عن جعفر بن حرب. وقيل: معناه أنها كادت تبدي بالوحي ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ بالصبر واليقين. والربط على القلب إلهام الصبر وتقويته، عن الزجاج، وقيل: معناه لولا أن قوينا قلبها بالعصمة والوحي، وجواب لولا محذوف والتقدير: لولا أن ربطنا على قلبها لأظهرته ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: فعلنا ذلك لتكون من جملة المصدقين بوعدنا الواثقين بوحينا وقولنا ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ
لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ
وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ

ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾.

● **اللغة:** القصّ: اتباع الأثر، ومنه القصص في الحديث، لأنه يتبع فيه الثاني الأول، والقصاص: اتباع الجاني في الأخذ بمثل جنايته في النفس، فبصر به: رآه. فبصر لا يتعدى إلا بحرف الجر ورأى يتعدى بنفسه، ومعنى بصرت به عن جنب: أبصرته عن جنابة أي: عن بعد. قال الأعشى:

أتيت حُرَيْثاً زائراً عن جِنابَةٍ وكانَ حُرَيْثٌ عَنْ عطائي جامدا

وقيل: «جنب» صفة وقعت موقع الموصوف أي: عن مكان جنب، والمراضع: جمع مرضعة، والنصح: إخلاص العمل من شائب الفساد وهو نقيض الغش، والوكز: الدفع، وقيل: هو بجمع الكف ومثله: اللكز واللهز.

● **الإعراب:** ﴿عَن جُنُبٍ﴾ الجار والمجرور في موضع نصب على الحال، وتقديره: فبصرت به بعيدة، وإن جعلت «جنباً» صفة على تقدير من مكان جنب: فهو في موضع نصب بأنه ظرف مكان، ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦۖ﴾ جملتان في محل النصب لأنهما صفة ﴿رَجُلَيْنِ﴾ صفة بعد صفة.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه لطف صنعه في تسخيره لفرعون حتى تولى تربية موسى فقال: ﴿وَقَالَتْ﴾ يعني أم موسى ﴿لِأُخْتِهِۦ﴾ يعني أخت موسى واسمها كلثمة عن الضحاك ﴿قُصِّيهِۖ﴾ أي: اتبعي أثره وتعرفي خبره ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ في الكلام حذف واقتصار، تقديره: فذهبت أخت موسى فوجدت آل فرعون قد أخرجوا التابوت وأخرجوا موسى فبصرت به، وهذا من الإيجاز الدال على الإعجاز باللفظ القليل على المعنى الكثير، أي: فرأت أخاها موسى عليه السلام عن جنب أي: عن بعد، عن مجاهد، وقيل: عن جانب، تنظر إليه كأنها لاتريده، عن قتادة، وتقديره: عن مكان جنب ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وآل فرعون لا يشعرون أنها أخته، عن قتادة، وقيل: معناه وهم لا يشعرون أنها جاءت متعرفة عن خبره، ويمكن أن يكون سبحانه كرّر هذا القول تنبيهاً على أن فرعون لو كان إلهاً لكان يشعر بهذه الأمور ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ المعنى: أنه لا يؤتى بمرضع فيقبلها، وتأويله: منعناهن منه وبغضناهن إليه، عن ابن عباس، وقيل: هو جمع مرضع بمعنى الرضاع أي: منعناه من الرضاع فهذا تحريم منع لا أن هناك نهياً عن الفعل، ومثله قول امرىء القيس:

جالت لِتَصْرَعَني فَقُلْتُ لها اقصِري إني امرؤٌ صَرعي عليك حرامُ[1]

(١) الضمائر ترجع إلى الناقة المذكورة في الأبيات السابقة على هذا البيت.

أي: صرعي ممتنع عليك، فإني فارس أمنعك من ذلك، ويقال: فلان حرم على نفسه كذا أي: امتنع منه كما يمتنع بالنهي ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل مجيء أخته وقيل من قبل رده على أمه ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ وهذا يدل على أن الله تعالى ألقى محبته في قلب فرعون، فلشدة محبته وغاية شفقته عليه طلب له المراضع، وكان موسى عليه السلام لا يقبل ثدي واحدة منهن بعد أن أتته مرضع بعد مرضع، فلما رأت أخته وجدهم به وحبهم له ورقّتهم عليه، قالت لهم: هل أدلكم على أهل بيت يقبلون هذا الولد، ويبذلون النصح في أمره، ويحسنون تربيته، ويضمنون لكم القيام بأمره ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ يشفقون عليه وينصحونه. وقيل: إنه لما قالت أخته ذلك، قال هامان: إن هذه المرأة تعرف أن هذا الولد من أي أهل بيت هو. فقالت هي: إنما عنيت أنهم ناصحون للملك فأمسكوا عنها ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ يعني عين أمه. وانطلقت أخت موسى إلى أمها فجاءت بها إليهم فلما وجد موسى ريح أمه قبل ثديها وسكن بكاؤه، وقيل: إن فرعون قال لأمه: كيف ارتضع منك ولم يرتضع من غيرك؟ فقالت: لأني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا أكاد أؤتى بصبي إلا ارتضع مني فسرَّ فرعون بذلك ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أراد به ما وعدها الله به في الآية المتقدمة بقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تحقيق ذلك الوعد كما علمت ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي: ثلاثاً وثلاثين سنة ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ أي: بلغ أربعين سنة، عن مجاهد، وقتادة، وابن عباس ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي: فقهاً وعلماً وعقلاً بدينه ودين آبائه، فعلم موسى عليه السلام وحكم قبل أن يبعث نبياً، وقيل: نبوة وعلماً، عن السدي ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وهذه الآية مفسرة في سورة يوسف ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾ يريد مصر، وقيل: مدينة منف من أرض مصر، وقيل: على فرسخين من أرض مصر ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ أراد به نصف النهار والناس قائلون، عن سعيد بن جبير، وقيل: ما بين المغرب والعشاء الآخرة، عن ابن عباس، وقيل: كان يوم عيد لهم وقد اشتغلوا بلعبهم، عن الحسن، وقيل: اختلفوا في سبب دخوله المدينة في هذا الوقت على أقوال:

أحدها: أنه كان موسى عليه السلام حين كبر يركب في مواكب فرعون فلما جاء ذات يوم قيل له: إن فرعون قد ركب فركب في أثره فلما كان وقت القائلة دخل المدينة ليقيل، عن السدي.

والثاني: أن بني إسرائيل كانوا يجتمعون إلى موسى ويسمعون كلامه، ولما بلغ أشده خالف قوم فرعون فاشتهر ذلك منه وأخافوه فكان لا يدخل مصر إلا خائفاً فدخلها على حين غفلة، عن ابن إسحاق.

والثالث: أن فرعون أمر بإخراجه من البلد فلم يدخل إلا الآن، عن ابن زيد ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ أي: يختصمان في الدين، عن الجبائي، وقيل: في أمر الدنيا ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أي: أحدهما إسرائيلي، والآخر قبطي يسخر الإسرائيلي ليحمل حطباً إلى مطبخ فرعون، وقيل: كان أحدهما مسلماً والآخر كافراً، عن محمد بن إسحاق ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أي: استنصره لينصره عليه. وروى أبو بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام

قال: ليهنكم الاسم قال: قلت: وما الاسم؟ قال: الشيعة قال: أما سمعت الله سبحانه يقول ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾. ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ أي: دفع في صدره بجمع كفه، عن مجاهد، وقيل: ضربه بعصاه، عن قتادة ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: فقتله وفرغ من أمره ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: بسببه حتى هيَّج غضبي فضربته فهو من إغرائه، قال الحسن: لم يكن يحل قتل الكافر يومئذٍ لأن الحال كانت حال الكف عن القتال، وقيل: معناه أن الأمر الذي وقع القتل بسببه من عمل الشيطان أي: حصل بوسوسة الشيطان، وذكر المرتضى قدس الله روحه، فيه وجهين آخرين:

أحدهما: أنه أراد أن تزيين قتلي له وتركي لما ندبت إليه من تأخيره وتفويتي ما أستحقه عليه من الثواب، من عمل الشيطان.

والآخر: أنه يريد أن عمل المقتول من عمل الشيطان يبيِّن بذلك أنه مخالف لله تعالى، مستحق للقتل. ثم وصف الشيطان فقال: ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ﴾ لبني آدم ﴿مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة والإضلال.

سؤال: قالوا: إن هذا القتل لا يخلو من أن يكون مستحقاً أو غير مستحق، فإن كان غير مستحق فالأنبياء عليهم السلام لا يجوز عليهم ذلك عندكم لا قبل النبوة ولا بعدها، وإن كان مستحقاً فلا معنى لندمه عليه واستغفاره منه.

والجواب: أن القتل إنما وقع على سبيل تخليص المؤمن من يد من أراد ظلمه والبغي عليه، ودفع مكروهه عنه، ولم يكن مقصوداً في نفسه. وكل ألم وقع على هذا الوجه، فهو حسن غير قبيح سواء كان القاتل مدافعاً عن نفسه أو عن غيره، وسنذكر الوجه في استغفاره منه وندمه عليه.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

● **اللغة:** الترقب: الانتظار، والاستصراخ: طلب الصراخ على العدو بما يردعه عن الإيقاع به، والائتمار: التشاور والارتياء. يقال: ائتمر القوم وارتاءوا بمعنى، قال امرؤ القيس:

أحـارِ ابـن عـمـروٍ كـأنـي خَـمِـرٌ   وَيَـعْـدو عـلى الـمَـرْءِ مـا يَـأْتَـمِـر[1]

وقال النمر بن تولب:

أرى الـنـاس قـد أحـدثـوا شـيـمـة   وفـي كـل حـادثـةٍ يـؤتـمـر

● **الإعراب:** ﴿بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ الباء للقسم، ويجوز أن يكون «ما» حرفاً موصولاً والمعنى: بإنعامك عليّ، ويجوز أن يكون اسماً موصولاً والضمير العائد محذوفاً، والتقدير: بالذي أنعمته عليّ، وجواب القسم ﴿لَنْ أَكُونَ﴾، والفاء: لجواب القسم مقدر في الموصول بالجملة الفعلية. ﴿أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ﴾ أن الأولى زائدة، وأن الثانية مع صلتها: منصوبة الموضع بأنها مفعولة أراد، ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ لا يجوز أن تتعلق اللام في ﴿لَكَ﴾ بالناصحين، لأن الصلة لا تعمل فيما قبل الموصول وإنما تتعلق بمحذوف يفسره هذا الظاهر تقديره: إني من الناصحين لك.

● **المعنى:** ثم حكى سبحانه: أنّ موسى عليه السلام حين قتل القبطي ندم على ذلك: و﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ في هذا القتل، فإنهم لو علموا بذلك لقتلوني، وقال المرتضى قدّس الله روحه العزيز: إنما قاله على سبيل الانقطاع والرجوع إلى الله تعالى والاعتراف بالتقصير عن أداء حقوق نعمه، أو من حيث حرَّم نفسه الثواب المستحق بفعل الندب ﴿فَٱغْفِرْ لِي﴾ معناه قول آدم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ وقبول الاستغفار والتوبة قد يسمى غفراناً ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لعباده ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بهم المنعم عليهم ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ أي: بنعمتك عليّ من المغفرة وصرف بلاء الأعداء عني ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ المعنى: فلك عليَّ ألا أكون مظاهراً ومعيناً للمشركين عن ابن عباس، وفي هذا دلالة على أن مظاهرة المجرمين جرم ومعصية، ومظاهرة المؤمنين طاعة. وإنما ظاهر موسى عليه السلام من كان ظاهره الإيمان وخالف من كان ظاهره الكفر.

وجاء في الأثر: أن رجلًا قال لعطاء بن رباح: إن فلاناً يكتب لفلان ولا يزيد على كتبه دخله وخرجه، فإن أخذ منه أجراً كان له غنى، وإن لم يأخذ اشتد فقره وفقر عياله، فقال عطاء: أما سمعت قول الرجل الصالح: رب بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴿فَأَصْبَحَ﴾ موسى عليه السلام في اليوم الثاني ﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا﴾ من قبل القبطي ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ أي: ينتظر الأخبار في قتل القبطي، عن ابن عباس، يعني: أنه خاف من فرعون وقومه أن يكونوا عرفوا أنه هو الذي قتل القبطي فكان يتجسَّس وينتظر الأخبار في شأنه ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ معناه: أن الإسرائيلي الذي كان قد خلصه بالأمس، ووكز القبطي من أجله، يستصرخ موسى ويستعين به على رجل آخر من القبط خاصمه، قال ابن عباس: لما فشا أمر قتل القبطي قيل لفرعون: إن بني إسرائيل قتلت منا رجلًا، قال: أتعرفون قاتله ومن يشهد عليه؟ قالوا: لا فأمرهم بطلبه. فبينا هم يطوفون إذ مرَّ موسى من الغد وأتى ذلك الإسرائيلي يطلب نصرته ويستغيث به ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر الغواية حيث قاتلت بالأمس رجلًا وتقاتل اليوم الآخر، ولم يرد الغواية في الدين، والمراد: أن من خاصم

(١) قوله حار مرخم حارث، ورجل خمر ككتف: خالطه داء. وقيل: رجل خمر أي في عقب خمار وهو بقية السكر.

آل فرعون مع كثرتهم فإنه غوي أي: خائب فيما يطلبه، عادل عن الصواب فيما يقصده ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ معناه: فلما أخذته الرقة على الإسرائيلي وأراد أن يدفع القبطي الذي هو عدو لموسى والإسرائيلي عنه، ويبطش به أي: يأخذه بشدة، ظن الإسرائيلي أن موسى قصده لما قال له: إنك لغوي مبين فقال: أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس، عن ابن عباس، وأكثر المفسرين، وقال الحسن: هو من قول القبطي لأنه قد اشتهر أمر القتل بالأمس وأنه قتله بعض بني إسرائيل ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما تريد إلا أن تكون عالياً في الأرض بالقتل والظلم. قال عكرمة، والشعبي: لا يكون الإنسان جباراً حتى يقتل نفسين بغير حق ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ ولما قال الإسرائيلي ذلك، علم القبطي أن القاتل موسى فانطلق إلى فرعون وأخبر به. فأمر فرعون بقتل موسى وبعث في طلبه ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي: آخرها. فاختصر طريقاً قريباً حتى سبقهم إلى موسى ﴿يَسْعَىٰ﴾ أي: يسرع في المشي فأخبره بذلك وأنذره. وكان الرجل حزقيل مؤمن آل فرعون، وقيل: رجل اسمه شمعون، وقيل: سمعان ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ﴾ أي: الأشراف من آل فرعون ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ أي: يتشاورون فيك، عن أبي عبيدة، وقيل: يأمر بعضهم ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ﴾ من أرض مصر ﴿إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ في هذا يقال: نصحته ونصحت له.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا
تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ
وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا
خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ
تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا
تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ
وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أبو جعفر، وأبو عمرو، وابن عامر «حتى يصدر» بفتح الياء وضم الدال، وقرأ الباقون ﴿يُصْدِرَ﴾ بضم الياء وكسر الدال.

● **الحجة:** من قرأ «حتى يَصْدُر الرعاء» فمعناه: حتى يرجعوا من سقيهم، وفي التنزيل: ﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا﴾، ومن قرأ ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ﴾ أراد: حتى يصدروا مواشيهم من وردهم، فحذف المفعول كما قال الشاعر:

لا يَعْدِلَنَّ أتاويّون تضربُهم نكباء صِرٌّ بأصحاب المُحِلّات[1]

(١) الأتاويون: الغرباء. والصّرّ: شدة البرد. والمحلات: القدر، والرحى، والدلو، والقربة، والجفنة، والسكين، والفأس، والزند. سمي بذلك لأن من كانت هذه معه، حل حيث شاء إلا فلا بد من أن يجاور الناس يستعير منهم بعضها أي: لا تعدل أتاويون إذا أصابهم الصر أحداً بأصحاب المحلات.

أي أحداً.

● **اللغة:** تلقاء الشيء: حذاؤه، ويقال: فعل ذلك من تلقاء نفسه أي: من حذاء داعي نفسه، وسواء السبيل: وسط الطريق، قال الشاعر: «حتى أغيّب في سواء الملحد»[(١)] وذاد شاته أو إبله عن الشيء يذودها ذوداً أي: حبسها عنه بمنعه منه، قال: سويد بن كراع:

أَبِيتُ على بابِ القوافي كأنَّما أَذُودُ بها سِرْباً من الوحش نُزَّعا[(٢)]

قال الفراء: ولا يقال ذُذْتُ في الناس، وإنما يقال في الإبل والغنم، وهذا ليس بشيء، يدل عليه قول الكميت يصف بني هاشم[(٣)]:

سادة ذادة عن الخُرَّدِ البيض إذا اليوم كان كالأيام[(٤)]

والخطب: الأمر الذي فيه تفخيم ومنه الخِطْبة والخُطْبة والخَطابِ، كل ذلك فيه معنى العظم، وما خطبهما؟ أي: ما شأنكما؟ قال الراجز: «يا عجباً ما خطبه وخَطْبي» والرعاء: جمع راع، ويجمع على الرعيان والرعاة.

● **الإعراب:** ﴿تِلْقَآءَ﴾ ظرف مكان ﴿لَا نَسْقِى﴾ أي: لا نسقي الغنم الماء، فحذف مفعولاه لدلالة الكلام عليه وكذلك قوله ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾، واللام في قوله ﴿لِمَآ أَنزَلْتَ﴾ يتعلق بفقير، ﴿تَمْشِى﴾ في موضع نصب على الحال من جاءت، وقوله ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ في موضع الحال أيضاً من ﴿تَمْشِى﴾ أي: تمشي مستحيية، ويجوز أن يكون حالًا بعد حال. ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ﴾ الجملة يجوز أن يكون بدلًا من قوله ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا﴾، ويجوز أن تكون في موضع الحال بإضمار قد، والعامل فيه: جاءت أو تمشي.

● **المعنى:** ثم بيَّن سبحانه خروج موسى من مصر إلى مدين فقال: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ أي: من مدينة فرعون ﴿خَآئِفًا﴾ من أن يطلب فيقتل ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ الطلب ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال ابن عباس: خرج موسى متوجهاً نحو مدين وليس له علم بالطريق إلا حسن ظنه بربه، قال: نجني من فرعون وقومه، وقيل: إنه خرج بغير زاد ولا ماء ولا حذاء ولا ظهر، وكان لا يأكل إلا من حشيش الصحراء حتى بلغ ماء مدين ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ التوجه: صرف الوجه إلى جهة من الجهات، وقوله: هذا المعنى يتوجه إلى كذا أي: هو كالطالب له يصرف وجهه إليه، قال الزجاج: معناه ولما سلك في الطريق التي يلقى مدين فيها وهي على مسيرة ثمانية أيام من مصر نحو ما بين البصرة إلى الكوفة ولم يكن له علم بالطريق، ولذلك ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ

---

(١) سواء الملحد: وسط القبر.

(٢) السرب: القطيع من الظباء، والبقر، والطير، وغيرها. ونزع أي: طالبة الفحل.

(٣) وقد ورد في حديث الحوض أيضاً عن رسول الله ﷺ: «إني لبعقر حوضي أذود الناس عنه لأهل اليمن» وفي حديث آخر: «فليذادن رجال عن حوضي» وغير ذلك. ذكره الجزري في (النهاية) فراجع. وفي (زيارة الجامعة) أيضاً: «السادة الولاة، والذادة الحماة».

(٤) الخريد من النساء: البكر التي لم تمسس قط.

﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: يرشدني قصد السبيل إلى مدين، وقيل: سواء السبيل: وسطه المؤدي إلى النجاة لأن الأخذ يميناً وشمالاً يباعد عن طريق الصواب، وقيل: إنه لم يقصد موضعاً بعينه ولكنه أخذ في طريق مدين. وقال عكرمة: عرضت لموسى أربع طرق، فلم يدر أيتها يسلك، ولذلك قال عند استواء الطرق له: عسى ربي أن يهديني سواء السبيل. فلما دعا ربه، استجاب له ودلَّه على الطريق المستقيم إلى مدين، وقيل: جاء ملك على فرس بيده عنزة فانطلق به إلى مدين، وقيل: إنه خرج حافياً ولم يصر إلى مدين حتى وقع خف قدميه، عن سعيد بن جبير ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ وهو بئر كانت لهم ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ أي: جماعة من الرعاة يسقون مواشيهم الماء من البئر ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ﴾ أي: تحبسان وتمنعان غنمهما من الورود إلى الماء، عن السدي، وقيل: تذودان الناس عن مواشيهما، عن قتادة، وقيل: تكفان الغنم عن أن تختلط بأغنام الناس، عن الحسن فترك ذكر الغنم اختصاراً ﴿قَالَ﴾ موسى لهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَاۖ﴾ أي: ما شأنكما وما لكما لا تسقيان مع الناس، عن ابن إسحاق ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي﴾ عند المزاحمة مع الناس ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ﴾ مرَّ معناه أي: حتى ينصرف الناس فإنا لا نطيق السقي فننتظر فضول الماء فإذا انصرف الناس سقينا مواشينا من فضول الحوض، عن ابن عباس وقتادة ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ لا يقدر على أن يتولى السقي بنفسه من الكبر ولذلك احتجنا ونحن نساء أن نسقي الغنم. وإنما قالتا ذلك تعريضاً للطلب من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يعينهما على السقي، وقيل: إنما قالتا ذلك اعتذاراً إلى موسى في الخروج بغير محرم ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ معناه: فسقى غنمهما الماء لأجلهما وهو أنه زحم القوم عن الماء حتى أخرجهم عنه ثم سقى لهما، عن ابن إسحاق، وقيل: رفع لأجلهما حجراً عن بئر كان لا يقدر على رفع ذلك الحجر عنها إلا عشرة رجال وسألهم أن يعطوه دلواً فناولوه دلواً، وقالوا له: أنزح إن أمكنك، وكان لا ينزحها إلا عشرة فنزحها وحده وسقى أغنامهما ولم يستق إلا ذنوباً(١) واحداً حتى رويت الغنم ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ أي: ثم انصرف إلى ظل سمرة، فجلس تحتها من شدة الحر وهو جائع ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ قال ابن عباس: سأل نبي الله فلق خبز يقيم به صلبه، وقال أمير المؤمنين عليه أفضل الصلوات. والله ما سأله إلا خبزاً يأكله لأنه كان يأكل بقلة الأرض، لقد كانت خضرة البقلة نرى من شفيف صفاق بطنه لهزاله وتشذب لحمه، قال الأخفش: يقال فقير إليه وفقير له. قال ابن إسحاق: فرجعتا إلى أبيهما في ساعة كانتا لا ترجعان فيها، فأنكر شأنهما وسألهما، فأخبرتاه الخبر، فقال لإحداهما: عليَّ به فرجعت الكبرى إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لتدعوه فذلك قوله: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ أي: مستحيية معرضة على عادة النساء الخفرات، وقيل: أراد باستحيائها أنها غطت وجهها بكمُ درعها، عن عمر بن الخطاب، وقيل: هو بعدها عن النداء عن الحسن، قال: فوالله ما كانت ولاجة ولا خراجة ولكنها كانت من الخفرات اللاتي لا يحسن المشي بين أيدي الرجال والكلام معهم، وقيل: أراد أنها كانت تمشي عادلة عن الطريق ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ﴾ أي: ليكافئك على سقيك لغنمنا، وأكثر المفسرين على أن أباها شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ. وقال وهب، وسعيد بن

(١) الذنوب: الدلو التي لها ذنب.

جبير: هو يثرون ابن أخي شعيب، وكان شعيب مات قبل ذلك بعد ما كفَّ بصره ودفن بين المقام وزمزم، وقيل: يثروب، وقيل: هو اسم شعيب لأن شعيباً اسم عربي. قال أبو حازم: لما قالت: ليجزيك أجر ما سقيت لنا، كره ذلك موسى عليه السلام وأراد أن لا يتبعها ولم يجد بُداً من أن يتبعها لأنه كان في أرض مسبعة وخوف، فخرج معها، وكانت الريح تضرب ثوبها فتصف لموسى عليه السلام عجزها فجعل موسى عليه السلام يعرض عنها مرة ويغضّ مرة فناداها: يا أمة الله! كوني خلفي وأرني السمت بقولك. فلما دخل على شعيب إذا هو بالعشاء مهيّئاً فقال له شعيب: اجلس يا شاب فَتَعَشّ، فقال له موسى عليه السلام: أعوذ بالله، قال شعيب: ولم ذاك؟ ألست بجائع؟ قال: بلى ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيت لهما وأنا من أهل بيت لا نبيع شيئاً من عمل الآخرة بملك الأرض ذهباً. فقال له شعيب: لا والله يا شاب ولكنها عادتي وعادة آبائي نُقري الضيف ونطعم الطعام، قال: فجعل موسى يأكل وذلك قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ﴾ أي: فلما جاء موسى شعيباً وقصَّ عليه أمره أجمع من قتل القبطي وأنهم يطلبونه ليقتلوه ﴿قَالَ﴾ له شعيب: ﴿لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني فرعون وقومه فلا سلطان له بأرضنا ولسنا في مملكته.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ عاصم «أو جَذوة» بفتح الجيم، وقرأ حمزة، وخلف «جُذوة» بضم الجيم، والباقون «جِذوة» بالكسر. وفي الشواذ قراءة الحسن «أيما الأجلين» بتخفيف الياء وسكونها.

● **الحجة:** في «الجذوة» ثلاث لغات على حسب القراءات الثلاث، وأما «أيما» فهي لغة. قال الفرزدق:

تنظرت نسراً والسماكين أيهُما علَيّ من الغيث استهلّت مواطره[1]

(١) النسر، والسماكان: أسماء لكواكب. وفي (جامع الشواهد): «نصراً» بالصاد. وقال في ترجمته: نصر بالنون والصاد والراء المهملتين كفلس: هو ابن سيار أمير خراسان. واستهل المطر: انصب بشدة.

● **اللغة:** الجذوة: القطعة الغليظة من الحطب فيها النار وجمعها جذى قال:

بـاتَـتْ حَـواطِـبُ لَيْـلى يَـلْتَـمِـسنَ لـهـا جَـزْلَ الـجذى غـيـر خـوّار ولا دَعِـر[١]

وشاطىء الوادي: جانبه وهو الشط والجمع الشواطىء.

● **الإعراب:** ﴿هَٰتَيْنِ﴾ صفة لابنتي. ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ﴾ ظرف زمان، ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ ذلك مبتدأ وخبره «بيني وبينك»، ومعناه ما شرطت عليَّ فلك وما شرطت لي فلي، كذلك الأمر بيننا، عن الزجاج و﴿أَيَّمَا﴾ في معنى الجزاء، وهي منصوبة بقضيت و﴿مَا﴾ مزيدة مؤكدة وجوابه ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾. ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾ أن في موضع نصب وهي مخففة من الثقيلة تقديره: نودي بأنه يا موسى وبأنه ألق عصاك.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه أمر موسى في مدين وانصرافه عنها فقال: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾ أي: إحدى ابنتيه واسمها صفورة وهي التي تزوّج بها واسم الأخرى ليا، وقيل: إن اسم الكبرى صفراء واسم الصغرى صفيراء ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ أي: اتخذه أجيراً ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ أي: خير من استعملت من قوي على العمل وأداء الأمانة، قال عمر بن الخطاب: لما قالت المرأة هذا، قال شعيب: وما علمك بأمانته وقوته؟ قالت: أما قوته: فلأنه رفع الحجر الذي لا يرفعه كذا وكذا، وأما أمانته: فإنه قال لي: امشي خلفي فأنا أكره أن تصيب الريح ثيابك فتصف لي عجزك، وقيل: القوي في نزعه الحجر من البئر وكان لا يستطيعه إلا النفر. الأمين في غض طرفه عنهما حين سقى لهما فصدرتا وقد عرفتا قوته وأمانته، فلما ذكرت المرأة من حاله ما ذكرت زاده ذلك رغبة فيه ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾ أي: أزوجك ﴿إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ﴾ أي: على أن تكون أجيراً لي ثماني سنين ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ أي: ذلك تفضل منك وليس بواجب عليك. وقيل: معناه على أن تجعل جزائي وثوابي إياك على أن أنكحك إحدى ابنتي أن تعمل لي ثماني سنين، فزوّجه ابنته بمهر، واستأجره للرعي ولم يجعل ذلك مهراً وإنما شرط ذلك عليه، وهذا على وفق مذهب أبي حنيفة والأول أصح وأوفق لظاهر الآية ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ في هذه الثمانية حجج وأن أكلفك خدمة سوى رعي الغنم، وقيل: ما أشق عليك بأن آخذك بإتمام عشر سنين ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في حسن الصحبة والوفاء بالعهد، وإنما علق الصلاح بمشيئة الله لأن مراده إن شاء الله تبقيتي ففعل، فمن الجائز أن يخترمه الله ولا يفعل الصلاح الديني الذي يريده. وحكى يحيى بن سلام أنه جعل لموسى كل سخلة توضع على خلاف شية أمها، فأوحى الله إلى موسى عليه السلام في المنام: أن ألق عصاك في الماء ففعل، فولدن كلهن على خلاف شيتهن، وقيل: إنه وعده أن يعطيه تلك السنة من نتاج غنمه كل أدرع[٢] وأنها نتجت كلها درعاً. وروى الحسين بن سعيد، عن صفوان بن يحيى، عن أبي

---

(١) الحواطب: الجواري يلتمسن الحطب. والجزل: الحطب اليابس. وقيل: الغليظ. والخوار من كل شيء: الضعيف الذي لا بقاء له. وعود دعر بالدال المهملة: أي: كثير الدخان.

(٢) الأدرع من الخيل والشاة: ما اسود رأسه، وابيض سائر جسده.

عبد الله عليه السلام قال: سئل أيتها التي قالت إن أبي: يدعوك؟ قال: التي تزوج بها، وقيل: فأيّ الأجلين قضى؟ قال: أوفاهما وأبعدهما عشر سنين، قيل: فدخل بها قبل أن يمضي الشرط أو بعد انقضائه؟ قال: قبل أن ينقضي، قيل له: فالرجل يتزوج المرأة ويشترط لأبيها إجارة شهرين، أيجوز ذلك؟ قال: إن موسى علم أنه سيتم له شرطه، قيل: كيف؟ قال: علم أنه سيبقى حتى يفي ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أي: ذلك الذي وصفت وشرطت عليَّ فلك وما شرطت لي من تزويج إحداهما فلي. وتم الكلام، ثم قال: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ﴾ من الثماني والعشر ﴿قَضَيْتُ﴾ أي: أتممت وفرغت منه ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ أي: لا ظلم عليَّ بأن أكلف أكثر منهما وأُطالب بالزيادة عليهما ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي: شهيد فيما بيني وبينك، عن ابن عباس ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ أي: أوفاهما. روى الواحدي بالإسناد، عن ابن عباس قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله: أي الأجلين قضى موسى؟ قال: «أوفاهما وأبطأهما».

وبالإسناد عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله «إذا سئلت: أي الأجلين قضى موسى؟ فقل: خيرهما وأبرهما، وإن سُئلت: أي المرأتين تزوج؟ فقل: الصغرى منهما وهي التي جاءت فقالت: يا أبت استأجره». وقال وهب: تزوج الكبرى منهما. وفي الكلام حذف وإيجاز، وهو: فلما قضى موسى الأجل وتسلم زوجته ثم توجه نحو الشام ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ وقيل: إنه لما زوجها منه أمر الشيخ أن يعطى موسى عصا يدفع السباع عن غنمه بها، فأُعطي العصا وقد ذكرنا حديث العصا في سورة الأعراف، وقيل: خرج آدم عليه السلام بالعصا من الجنة فأخذها جبرائيل بعد موت آدم عليه السلام وكانت معه حتى لقي بها موسى ليلًا فدفعها إليه، عن عكرمة، وقيل: لم يزل الأنبياء يتوارثونها حتى وصلت إلى شعيب، فأعطاها موسى عليه السلام وكانت عصا الأنبياء عنده، وروى عبد الله بن سنان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: كانت عصا موسى قضيب آس من الجنة أتاه به جبرائيل عليه السلام لما توجه تلقاء مدين، وقال السدي: كانت تلك العصا استودعها شعيباً ملك في صورة رجل، فأمر ابنته أن تأتيه بعصا فدخلت وأخذت العصا فأتته بها، فلما رآها الشيخ قال: لا آتيه بغيرها فألقتها، وأرادت أن تأخذ غيرها فكانت لا تقع في يدها إلا هي. فعلت ذلك مراراً فأعطاها موسى، وقوله ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ قيل: إنه مكث بعد انقضاء الأجل عند صهره عشراً أخرى فأقام عنده عشرين سنة ثم استأذنه في العود إلى مصر ليزور والديه وأخاه فأذن له فسار بأهله، عن مجاهد، وقيل: إنه لما قضى العشر، سار بأهله أي: بامرأته وبأولاد الغنم التي كانت له وكانت قطيعاً، فأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام وامرأته في شهرها، فسار في البرية غير عارف بالطريق، فألجأه المسير إلى جانب الطور الأيمن في ليلة مظلمة شديدة البرد، وأخذ امرأته الطلْق وضلَّ الطريق وتفرَّقت ماشيته فأصابه المطر فبقي لا يدري أين يتوجه فبينا هو كذلك آنس من جانب الطور ناراً، وروى أبو بصير، عن أبي جعفر عليه السلام قال: لما قضى موسى الأجل وسار بأهله نحو بيت المقدس أخطأ الطريق ليلًا فرأى ناراً ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ وقد مرَّ تفسيره ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي: بخبر عن الطريق الذي أريد قصده وهل أنا على صوبه أو منحرف عنه، وقيل: بخبر من النار، هل هي لخير نأنس به أو لشر نحذره ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: قطعة من النار، وقيل: بأصل

شجرة فيها نار ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي: تستدفئون بها ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ أي: نودي موسى من الجانب الأيمن للوادي ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ﴾ وهي البقعة التي قال الله تعالى فيها لموسى عليه السلام ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ وإنما كانت مباركة لأنها معدن الوحي والرسالة وكلام الله تعالى، وقيل: مباركة لكثرة الأشجار والأثمار والخير والنعم بها، والأول أصح ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ إنما سمع موسى النداء والكلام من الشجرة لأن الله تعالى فعل الكلام فيها وجعل الشجرة محل الكلام لأن الكلام عرض يحتاج إلى محل، وعلم موسى عليه السلام بالمعجز أن ذلك كلامه تعالى وهذه أعلى منازل الأنبياء، أعني: أن يسمعوا كلام الله من غير واسطة ومبلّغ، وكان كلامه سبحانه: ﴿أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي: إن المكلم لك هو الله مالك العالمين وخالق الخلائق أجمعين، تعالى وتقدّس عن أن يحلّ في محل أو يكون في مكان لأنه ليس بعرض ولا جسم.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الحجاز، والبصرة «من الرَهَب» بفتح الراء والهاء، وقرأ حفص ﴿مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ بفتح الراء وسكون الهاء، والباقون بضم الراء وسكون الهاء. وقرأ أهل البصرة، وابن كثير «فذانّك» بالتشديد، والباقون بالتخفيف. وقرأ أبو جعفر، ونافع «رداً» بغير همزة والباقون بالهمزة، وقرأ عاصم، وحمزة ﴿يُصَدِّقُنِىٓ﴾ بالرفع، والباقون «يُصدِّقْني» بالجزم، وفي الشواذ قراءة الحسن «عَضُدُك».

● **الحجة:** الرَهْب والرُهب: لغتان مثل الرَشَد والرُشْد، والرَهَب والرَهْب مثل الشَّمَع والشَّمْع والنَّهَر والنَّهْر، وقوله «فذانّك» قد مضى القول فيه فيما تقدم. وقال الزجاج: التشديد تثنية ذلك والتخفيف تثنية ذاك وجعل بدل اللام في ذلك تشديد النون، ومن قرأ ﴿رِدْءًا﴾ فإنه خفف الهمزة، وذلك حكم الهمزة إذا خففتها وكان قبلها ساكن أن تحذف وتلقى حركتها على الساكن قبلها. ومن قرأ ﴿يُصَدِّقُنِىٓ﴾ بالرفع جعله صفة للنكرة وتقديره «ردءاً مصدقاً»، ومن قرأ بالجزم كان على معنى الجزاء أي: إن أرسلته يصدقني. وفي عضد خمس لغات عَضُد وعَضْد وعُضُد وعُضْد وعَضِد وأفصحها عَضُد مثل رجل.

● **الإعراب:** قوله: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ يتعلق بما يتعلق به «مِنْ» من قوله ﴿بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾، ويجوز أن يتعلق بمحذوف كما تقدم في قوله ﴿فِي تِسْعِ ءَايَـٰتٍ﴾، إلى فرعون وهارون عطف بيان. ﴿رِدْءًا﴾ نصب على الحال والباء في قوله ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يتعلق بيصلون.

والثاني: أن يتعلق بنجعل.

والثالث: أن يتعلق بقوله الغالبون.

● **المعنى:** ثم بيَّن سبحانه تمام قصة موسى عليه السلام فقال: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ إنما أعاد سبحانه هذه القصة وكرَّرها في السور تقريراً للحجة على أهل الكتاب، واستمالة بهم إلى الحق، ومن أحب شيئاً أحب ذكره، والقوم كانوا يدَّعون محبة موسى عليه السلام وكل من ادعى اتباع سيده مال إلى من ذكره بالفضل، على أن كل موضع من مواضع التكرار لا تخلو من زيادة فائدة، وهٰهنا حذف تقديره: فألقاها من يده فانقلبت بإذن الله تعالى ثعباناً عظيماً تهتز كأنها جان في سرعة حركتها وشدة اهتزازها ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ أي: تتحرك ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ موسى ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: لم يرجع إلى ذلك الموضع فنودي ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ﴾ من ضررها. وفي انقلاب العصا حية دلالة على أن الجواهر متماثلة وأنها من جنس واحد، لأنه لا حال أبعد إلى حال الحيوان من حال الخشب وما جرى مجرى ذلك من الجماد، فإذا صح قلب الخشب إلى حال الحيوان صحَّ أيضاً قلب الأبيض إلى حال الأسود ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ أي: أدخلها فيه ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي: من غير برص ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ أي: ضم يدك إلى صدرك من الخوف فلا خوف عليك، عن ابن عباس، ومجاهد، والمعنى: أن الله تعالى أمره أن يضم يده إلى صدره فيذهب ما أصابه من الخوف عند معاينة الحية، وقيل: أمره سبحانه بالعزم على ما أراده منه وحثَّه على الجد فيه، لئلا يمنعه الخوف الذي يغشاه في بعض الأحوال مما أمره بالمضي فيه، وليس يريد بقوله: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ﴾اضمم يدك الضم المزيل للفرجة بين الشيئين، عن أبي علي الفارسي، قال: وهذا كما أن اشدد في قوله:

اشدد حيازيمك للموت ... فإن الموت لاقيكا

ليس يراد به الشدّ الذي هو الربط، والمراد به: تأهّب للموت واستعد للقائه حتى لا تهاب لقاه ولا تجزع من وقوعه، وقد جاء ذكر اليدين في مواضع يراد بهما جملة ذي اليد، فمن ذلك قولهم: «لبيك والخير بين يديك»، ومنه قوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾، وفي المثل: «يداك أَوْكَتا وفوك نفخ»[1]، وإنما يقال هذا عند تفريغ الجملة، وقال أبو عبيدة: جناحا الرجل يداه، وقال غيره: الجناح هنا العضد، ويدلُّ على قوله أن العضد قد تقام مقام الجملة في مثل قوله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾، وقد جاء المفرد ويراد به التثنية قال:

يداك يدٌ إحداهما الجود كله ... وراحتك الأخرى طعان تغامره

(١) أوكى القربة: شدها بالوكاء.

المعنى: يداك يدان بدلالة قوله «إحداهما» فعلى هذا يجوز أن يراد بالإفراد في قوله ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ التثنية، وقيل: إنه لما ألقى العصا وصارت حية بسط يديه كالمتقي وهما جناحاه، فقيل له: اضمم إليك جناحك أي: ما بسطته من يديك، والمعنى: لا تبسط يديك خوف الحية فإنك آمن من ضررها، ويجوز أن يكون معناه: اسكن ولا تخف فإن من هاله أمر أزعجه حتى كأنه يطيره، وآلة الطيران الجناح فكأنه عليه السلام قد بلغ نهاية الخوف فقيل له: ضم منشور جناحك من الخوف واسكن، وقيل: معناه: إذا هالك أمر يدك لما تبصر من شعاعها فاضممها إليك لتسكن ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ معناه: فاليد والعصا حجتان من ربك على نبوتك ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ أي: أرسلناك إلى فرعون وملئه بهاتين الآيتين الباهرتين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ أي: خارجين من طاعة الله إلى أعظم المعاصي وهو الكفر ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ بتلك النفس ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ وإنما قال ذلك لعقدة كانت في لسانه وقد مرَّ فيما مضى ذكر سببها، وقد كان الله تعالى أزال أكثرها أو جميعها بدعائه ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا﴾ أي: معيناً لي على تبليغ رسالتك، يقال: فلان ردء لفلان: إذا كان ينصره ويشد ظهره ﴿يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ أي: مصدقاً لي على ما أؤديه من الرسالة. وإن جزمته فالمعنى: أنك إن ترسله معي يصدقني، وإنما كان سؤاله ذلك بعد أن أذن له فيه لأن الإنسان لا يعلم أن المصلحة في إرسال نبي واحد أو اثنين إلا بالوحي، وقال مقاتل: معناه لكي يصدقني فرعون ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ هذه استعارة رائعة والمعنى: سنجعله رسولًا معك ونؤيدك بأن نقرنه إليك في النبوة وننصرك به ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا﴾ أي: حجة وقوة وبرهاناً ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ أي: لا يصل فرعون وقومه إلى الإضرار بكما بسبب ما نعطيكما من الآيات وما يجري على أيديكما من المعجزات فيخافكما فرعون وقومه لأجلها. وقيل: إن قوله ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ موضعه التقديم أي: ونجعل لكما سلطاناً بآياتنا فلا يصلون إليكما. ثم أخبر أن الغلبة لهما عليهم فقال: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ على فرعون وقومه القاهرون لهم، وهذه الغلبة غير السلطان فإن السلطان بالحجة والغلبة بالقهر حين هلك فرعون وقومه وملك موسى وقومه ديارهم.

وروي عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل قال: فلمّا رجع موسى عليه السلام إلى امرأته قالت: من أين جئتني؟ قال: من عند رب تلك النار قال: فغدا إلى فرعون فوالله لكأني أنظر إليه طويل الباع ذو شعر أدم، عليه جبة من صوف، عصاه في كفه مربوط حقوه بشريط[1]، نعله من جلد حمار شراكها من ليف، فقيل لفرعون: إن على الباب فتى يزعم أنه رسول رب العالمين فقال فرعون لصاحب الأُسد: خل سلاسلها، وكان إذا غضب على رجل خلاها، فقطعته. فخلاها، فقرع موسى الباب الأول، وكانت تسعة أبواب، فلما قرع الباب الأول انفتحت له الأبواب التسعة فلما دخل جعلن تبصبصن تحت رجليه كأنهن جراء[2] فقال فرعون لجلسائه: أرأيتم مثل هذا قط؟ فلما أقبل إليه أنّبه فقال: «ألم نربك فينا وليداً» إلى قوله «وأنا من الضالين»،

(١) الحقو: الخصر. والشريط: خوص مفتول يشرط به السرير ونحوه.

(٢) بصبص الكلب: تحرك ذنبه. والجراء جمع الجرو: أولاد السباع.

فقال فرعون لرجل من أصحابه: قم فخذ بيده، وقال للآخر: اضرب عنقه، فضرب جبرائيل بالسيف حتى قتل ستة من أصحابه، فقال: خلوا عنه. قال: فأخرج يده فإذا هي بيضاء قد حال شعاعها بينه وبين وجهه، فألقى العصا فإذا هي حية، فالتقمت الإيوان بلحييها فدعاه أن يا موسى أقلني إلى غد ثم كان من أمره ما كان.

●●●

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ ابن كثير «قَالَ مُوسَىٰ» بغير واو، وكذلك هو في مصاحف مكة، والباقون «وقال» بالواو، وقرأ نافع، وأهل الكوفة غير عاصم «من يكون» بالياء، والباقون بالتاء. وقرأ أهل الكوفة غير عاصم ويعقوب «لا يرجعون» بفتح الياء والباقون بضم الياء، وفتح الجيم.

● **الحجة:** قال أبو علي: قد مضى القول في نحو هذا فيما قبل، وكذلك في نحو الياء والتاء من «يكون» وكلاهما حسن، وكذلك قد مضى فيما تقدم القول في يُرجعون ويَرجعون.

● **اللغة:** الصرح: البناء العالي كالقصر، وأصله من الظهور، فالتصريح: شدة ظهور المعنى. قال الشاعر:

بِهِنَّ نَعامٌ بناها الرجالُ ... تَخِبُّ أعلامَهُنَّ الصُروحا[1]

والنبذ: الإلقاء والطرح. والشيء منبوذ، قال أبو الأسود:

نَظَرْتُ إلى عُنوانِه فَنَبَذْتُه ... كَنَبْذِك نعلًا أخلقت من نعالكا

والقبح: الإبعاد، قبحه الله أي: أبعده يقبحه قبحاً، ويقال: قبحه: إذا جعله قبيحاً وقيل: قبحه فهو مقبوح: أهلكه.

---

(١) النعام: المفازة. والأعلام: الجبال.

● **الإعراب:** ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ نصب على الحال. ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ يحتمل أن تكون الباء زائدة ويحتمل أن تكون على أصلها، وقوله ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ الجار والمجرور في موضع نصب على الحال والتقدير: واستكبر هو وجنوده مبطلين، و﴿يَدْعُونَ﴾ صفة ﴿أَئِمَّةً﴾ و﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ظرف لفعل يدل عليه قوله ﴿مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ على تقدير قبحوا يوم القيامة لأن الصلة لا تعمل فيما قبل الموصول، والألف واللام في ﴿ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ موصول وتقديره: الذين قبحوا.

● **المعنى:** ثم قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ التقدير: فمضى موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه، فلما جاءهم بآياتنا أي: بحججنا البينات ومعجزاتنا الظاهرات ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ أي: مختلق مفتعل لم يُبْنَ على أصل صحيح، لأنه حيلة توهم خلاف الحقيقة. فوصفوا الآيات بالسحر والاختلاق على هذا المعنى جهلاً منهم وذهاباً عن الصواب ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: لم نسمع ما يدعيه ويدعو إليه في آبائنا الذين كانوا قبلنا، وإنما قالوا ذلك مع اشتهار قصة نوح وهود وصالح وغيرهم من النبيين الذين دعوا إلى توحيد الله وإخلاص عبادته لأحد أمرين: إما للفترة التي دخلت بين الوقتين والزمان الطويل، وإما لأن آباءهم ما صدقوا بشيء من ذلك ولا دانوا به، فيكون المعنى: ما سمعنا بآبائنا أنهم صدقوا الرسل فيما جاؤوا به، ووجه شبهتهم في ذلك أنهم قالوا: إنهم الكبراء. فلو كان حقاً لأدركوه فإنه لا يجوز أن يدرك الحق الأنقص في الرأي والعقل ولا يدركه الأفضل فيهما، وهذا غلط لأن ما طريقه الاستدلال لا يمتنع أن يصيبه الأدون في الرأي إذا سلك طريقه ولا يصيبه الأكمل في الرأي إذا لم يسلك طريقه ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ مجيباً لهم ﴿رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ ومعناه: ربي يعلم أني جئت بهذه الآيات الدالة على الهدى من عنده فهو شاهد لي على ذلك إن كذبتموني ويعلم أن العاقبة الحميدة لنا ولأهل الحق والإنصاف، وهذا كما يقال على سبيل المظاهرة: الله أعلم بالمحق منا والمبطل، وحجتي ظاهرة فأكثرها إن قدرت على ذلك ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: لا يفوز بالخير من ظلم نفسه وعصى ربه وكفر نعمه ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ منكراً لما أتى به موسى من آيات الله لما أعياه الجواب وعجز عن محاجته ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ﴾ يريد أشراف قومه ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ أي: فأجج النار على الطين واتخذ الآجر، وقيل: إنه أول من اتخذ الآجر وبنى به، عن قتادة ﴿فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ أي: قصراً وبناء عالياً ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ أي: أصعد إليه وأشرف عليه وأقف على حاله، وهذا تلبيس من فرعون وإيهام على العوام أن الذي يدعو إليه موسى، يجري مجراه في الحاجة إلى المكان والجهة ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في ادعائه إلهاً غيري وأنه رسوله ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: رفع فرعون وجنوده أنفسهم في الأرض فوق مقدارها بالباطل والظلم وأنفوا وتعظموا عن قبول الحق في اتباع موسى ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ أي: أنكروا البعث وشكوا فيه ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ﴾ أي: فعاقبناهم وطرحناهم في البحر وأهلكناهم بالغرق. وعنى باليم: نيل مصر، وقيل: بحر من وراء مصر يقال له أساف غرقهم الله فيه ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: تفكر

وتدبّر وانظر بعين قلبك كيف أخرجناهم من ديارهم وأغرقناهم ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ وهذا ما يحتاج إلى تأويل لأن ظاهره يوجب أنه تعالى جعلهم أئمة يدعون إلى النار كما جعل الأنبياء أئمة يدعون إلى الجنة، وهذا ما لا يقول به أحد، فالمعنى: أنه أخبر عن حالهم بذلك وحكم بأنهم كذلك، وقد تحصل الإضافة على هذا الوجه بالتعارف، ويجوز أن يكون أراد بذلك أنه لما أظهر حالهم على لسان أنبيائه حتى عرفوا فكأنه جعلهم كذلك، ومعنى دعائهم إلى النار أنهم يدعون إلى الأفعال التي يستحق بها دخول النار من الكفر والمعاصي ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي: لا ينصر بعضهم لبعض، ولا ينصرهم غيرهم يوم القيامة، كما كانوا يتناصرون في الدنيا ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي: أردفناهم لعنة بعد لعنة، وهي البعد عن الرحمة والخيرات، وقيل: معناه ألزمناهم اللعنة في هذه الدنيا بأن أمرنا المؤمنين بلعنهم فلعنوهم، عن أبي عبيدة ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ أي: من المهلكين، عن الأخفش، وقيل: من المشوهين في الخلقة بسواد الوجوه وزرقة الأعين، عن الكلبي، عن ابن عباس، وقيل: من الممقوتين المفضوحين.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ
بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ
قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ
ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ
﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ
أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا
قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ
يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ
فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ
يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى
مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل الكوفة ﴿سِحْرَانِ﴾ بغير ألف، والباقون «ساحران» بالألف.

● **الحجة:** قال أبو علي: حجة من قرأ «ساحران» أنه قال تظاهرا، والمظاهرة: المعاونة. وفي التنزيل ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾. والمعاونة في الحقيقة إنما تكون للساحرين لا

للسِّخرين. والوجه في قوله «سحران» أنه نسب المعاونة إلى السحرين على وجه الاتساع كأن كل سحر منهما يقوي الآخر.

● **الإعراب:** قال الزجاج: قوله ﴿بَصَآئِرَ﴾ حال أي: آتيناه الكتاب مبيناً، وأقول فيه إنه بدل من الكتاب، فإن المعرفة يجوز أن تبدل منها النكرة، والبصائر في معنى الحجج، فلا يصح معنى الحال فيها إذا كان اسماً محضاً لا شائبة فيه للفعل، وقوله ﴿إِذْ قَضَيْنَآ﴾ ظرف للمحذوف الذي يتعلق به الباء في قوله﴿بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾، و﴿تَتْلُواْ﴾ جملة منصوبة الموضع على الحال، ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً﴾: ﴿رَّحْمَةً﴾ منصوبة مفعول لها تقديره: ولكنا أوحينا إليك رحمة أي: للرحمة، كما تقول فعلت ذلك ابتغاء الخير. ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾، لولا هذه هي التي معناها امتناع الشيء لوجود غيره، و﴿أَن تُصِيبَهُم﴾ مبتدأ وجواب لولا محذوف وتقديره لم يحتج إلى إرسال الرسل، «ولولا» الثانية في قوله ﴿فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ هي التي معناها التحضيض بمعنى هلا ﴿بِغَيْرِ هُدًى﴾ الجار والمجرور في موضع نصب على الحال.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه من أخبار موسى عليه السلام ما فيه دلالة على معجزة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني التوراة ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: الجموع التي كانت قبله من الكفار مثل قوم نوح وعاد وثمود، ويجوز أن يريد بالقرون قوم فرعون لأنه سبحانه أعطاه التوراة بعد إهلاكهم بمدة ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي: حججاً وبراهين للناس وعبراً يبصرون بها أمر دينهم، وأدلة يستدلون بها في أحكام شريعتهم ﴿وَهُدًى﴾ أي: دلالة لمن اتبعه يهتدي بها ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمن به ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يتعظون ويعتبرون. وجاءت الرواية بالإسناد عن أبي سعيد الخدري، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ما أهلك الله قوماً ولا قرناً ولا أُمة ولا أهل قرية بعذاب من السماء منذ أنزل التوراة على وجه الأرض، غير أهل القرية التي مسخوا قردة، ألم تر أن الله تعالى قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾» الآية ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ أي: وما كنت يا محمد حاضراً بجانب الجبل الغربي أي: في الجانب الغربي من الجبل الذي كلم الله فيه موسى، عن قتادة، والسدي. وقيل: بجانب الوادي الغربي، عن ابن عباس، والكلبي ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ أي: عهدنا إليه وأحكمنا الأمر معه بالرسالة إلى فرعون وقومه، وقيل: معناه أخبرناه بأمرنا ونهينا، وقيل: أراد كلامه معه في وصف نبينا صلى الله عليه وآله وسلم ونبوته ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: الحاضرين لذلك الأمر، وبذلك المكان فتخبر قومك عن مشاهدة وعيان، ولكنا أخبرناك به ليكون معجزة لك ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ أي: خلقنا قرناً بعد قرن، فطال عهدهم بالمهلكين قبلهم وفترة النبوة، فحملهم ذلك على الاغترار، وأنكروا بعثة الله رسله لجهلهم بأمر الرسل فأرسلناك للناس رسولاً، وجعلناك رحمة للناس كما جعلنا موسى عليه السلام رحمة. لا يتم الكلام إلا بهذا التقدير، وقيل: إن المعنى: خلقنا خلقاً كثيراً عهدنا إليهم في نعتك وصفتك وأمرنا الأول بالإبلاغ للناس إلى الثاني فامتد بهم الزمان فنسوا عهدنا إليهم فيك ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ معناه: وما كنت مقيماً في قوم شعيب، تتلو عليهم آياتنا. قال مقاتل: معناه ولم تشهد أهل مدين فتقرأ على أهل مكة خبرهم ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي:

أرسلناك إلى أهل مكة وأنزلنا عليك هذه الأخبار، ولولا ذلك لما علمتها، قال الزجاج: المعنى أنك لم تشاهد قصص الأنبياء ولا تليت ولكنا أوحيناها إليك وقصصناها عليك حتى تخبر قومك بهذا، فيدل ذلك على صحة نبوتك، وقيل: معناه أنك لم تشهد إحساننا إلى عبادنا في إرسال الرسل ونصب الآيات وإنزال الكتب بالبينات والهدى، وهذا كما يقال: لم تدر أي شيء كان هناك، تفخيماً للأمر. ولولا الوحي لما علمت من ذلك ما علمت ولم تهتد له ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ أي: ولم تكُ حاضراً بناحية الجبل الذي كلَّمنا عليه موسى وناديناه: يا موسى خذ الكتاب بقوة، وقيل: أراد بذلك المرة الثانية التي كلَّم الله فيها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حين اختار من قومه سبعين رجلًا ليسمعوا كلام الله تعالى ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: ولكن الله تعالى أعلمك ذلك وعرفك إياه نعمة من ربك أنعم بها عليك، وهو أن بعثك نبياً واختارك لإيتاء العلم بذلك معجزة لك ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: لتنذر العرب الذين لم يأتهم رسول قبلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: لكي يتفكروا ويعتبروا وينزعوا عن المعاصي، وفي هذا دلالة عن وجوب فعل اللطف، فإن الإنذار والدعوة لطف من الله تعالى مؤثر في القبول ومقرب منه ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ معناه: ﴿لَوْلَآ﴾ لولا أن لهم أن يحتجوا لو أصابتهم عقوبة بأن يقولوا: هلا أرسلت إلينا رسولًا يدعونا إلى ما يجب الإيمان به فنتبع الرسول ونأخذ بشريعته ونصدِّق به، لما أرسلنا الرسل ولكنا أرسلنا رسلًا لقطع حجتهم، وهو في معنى قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾، وقيل: إن جواب لولا هٰهنا «لعجلنا لهم العقوبة»، وقيل: المراد بالمصيبة هٰهنا عذاب الاستئصال، وقيل: عذاب الدنيا والآخرة عن أبي مسلم ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ أي محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ والقرآن والإسلام ﴿قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ﴾ أي: هلا أُعطى محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ من فلق البحر واليد البيضاء والعصا، وقيل: معناه هلا أوتي كتاباً جملة واحدة وإنما قاله اليهود أو قريش بتعليم اليهود فاحتج الله عليهم بقوله: «﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: وقد كفروا بآيات موسى كما كفروا بآيات محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ و﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ يعنون التوراة والقرآن، عن عكرمة، والكلبي، ومقاتل، ومن قرأ» «ساحران تظاهرا» فمعناه: أنهم قالوا تظاهر موسى ومحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، عن ابن عباس ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ من التوراة والقرآن. قال الكلبي: وكانت مقالتهم هذه حين بعثوا الرهط منهم إلى رؤوس اليهود بالمدينة في عيد لهم، فسألوهم عن محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فأخبروهم بنعته وصفته في كتابهم التوراة. فرجع الرهط إلى قريش، فأخبروهم بقول اليهود، فقالوا عند ذلك: سحران تظاهرا ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ معناه: قل يا محمد لكفار قومك: فأتوا بكتاب هو أهدى من التوراة والقرآن حتى أتبعه إن صدقتم أن التوراة والقرآن سحران، وقيل: معناه فأتوا بكتاب من عند الله يؤمن معه التكذيب أي: لم يكذب به طائفة من الناس، ثم قال لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ﴾ أي: فإن لم يأتوا بمثل التوراة والقرآن. وقيل: فإن لم يستجيبوا لك إلى الإيمان مع ظهور الحق ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: ما تميل إليه طباعهم لأن الهوى ميل الطبع إلى المشتهى قال الزجاج: أي فاعلم

أنما ركبوه من الكفر لا حجة لهم فيه وإنما آثروا فيه الهوى ثم ذمّهم فقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا أحد أضل ممن اتبع هواه بغير رشاد ولا بيان جاءه من الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إلى طريق الجنة، وقيل: معناه لا يحكم الله بهدايتهم، وقيل: إنهم إذا لم يهتدوا بهدى الله فكأنه لم يهدهم.

●●●

قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

● **اللغة:** أصل التوصيل: من وصل الحبال بعضها ببعض. قال امرؤ القيس:

دريرٍ كَخُذروفِ الوليدِ أمرَّهُ ... تتابُع كفَّيْهِ بخيطٍ موصَّلِ(١)

أي: موصول بعضه ببعض، وهو في الكلام أن يصير بعضه يلي بعضاً، والدرء: الدفع.

النزول: نزل قوله ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وما بعده في عبد الله بن سلام، وتميم الداري، والجارود العبدي، وسلمان الفارسي، فإنهم لما أسلموا نزلت فيهم الآيات، عن قتادة، وقيل: نزلت في أربعين رجلًا من أهل الإنجيل كانوا مسلمين بالنبي ﷺ قبل مبعثه: اثنان وثلاثون من الحبشة، أقبلوا مع جعفر بن أبي طالب عليه السلام وقت قدومه، وثمانية قدموا من الشام، منهم بحيرا وأبرهة والأشرف وعامر وأيمن وإدريس ونافع وتميم.

● **المعنى:** ثم بيّن سبحانه صفة القرآن فقال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ أي: فصّلنا لهم القول وبيّنا، عن ابن عباس، ومعناه: أتينا بآية بعد آية وبيان بعد بيان وأخبرناهم بأخبار الأنبياء والمهلكين من أممهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: ليتذكروا ويتفكروا فيعلموا الحق ويتعظوا ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من قبل محمد ﷺ ﴿هُم بِهِۦ﴾ أي: بمحمد ﷺ ﴿«يؤمنون» لأنهم وجدوا نعته في التوراة، وقيل: معناه من قبل القرآن وهم بالقرآن يصدقون، والمراد بالكتاب: التوراة والإنجيل يعني الذين أوتوا الكتاب ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ﴾ القرآن ﴿عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من قبل نزوله ﴿مُسْلِمِينَ﴾ به وذلك أن ذكر النبي ﷺ

---

(١) هذا بيت من معلقته المعروفة. يصف فرسه، وشدة عدوه، ومهارته في الجري. والدرير: السريع من الدواب. والخذروف: شيء مستدير يديره الصبيان بخيط أدخل في ثقبه، وفتل. والوليد: الصبي. والإمرار: إحكام الفتل. شبه شدة عدوه بإدارة خذروف أحكم الصبي فتل خيطه، وتتابعت كفاه في فتله وإدارته بخيط انقطع، ثم وصل، وذلك أشد لدورانه. يقول: يدير الجري والعدو، ويسرع فيهما كإسراع هذا الخذروف.

والقرآن كان مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل فهؤلاء لما يعاندوا، ثم أثنى الله سبحانه عليهم فقال: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ مرة بتمسكهم بدينهم حتى أدركوا محمداً ﷺ فآمنوا به ومر بإيمانهم به، وقيل: بما صبروا على الكتاب الأول وعلى الكتاب الثاني وإيمانهم بما فيهما، عن قتادة، وقيل: بما صبروا على دينهم وعلى أذى الكفار وتحمُّل المشاق ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعون بالحسن من الكلام الكلام القبيح الذي يسمعونه من الكفار، وقيل: يدفعون بالمعروف المنكر، عن سعيد بن جبير، وقيل يدفعون بالحلم جهل الجاهل، عن يحيى بن سلام، ومعناه: يدفعون بالمدارة مع الناس أذاهم عن أنفسهم، وروي مثل ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ مرَّ معناه ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ أي: السفه من الناس والقبيح من القول والهزء الذي لا فائدة فيه ﴿أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ ولم يقابلوه بمثله ﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ أي: لا نسأل نحن عن أعمالكم ولا تسألون عن أعمالنا بل كل منا يجازي على عمله، وقيل: معناه لنا ديننا ولكم دينكم، وقيل: لنا حلمنا ولكم سفهكم ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أمان منا لكم أن نقابل لغوكم بمثله، وقيل: هي كلمة حلم واحتمال بين المؤمنين والكافرين، وقيل: هي كلمة تحية بين المؤمنين، عن الحسن ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ أي: لا نطلب مجالستهم ومعاونتهم، وإنما نبتغي الحكماء والعلماء، وقيل: معناه لا نريد أن نكون من أهل الجهل والسفه، عن مقاتل، وقيل: لا نبتغي دين الجاهلين ولا نحبه، عن الكلبي.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا
آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ
أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ
وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو
عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا أُوتِيتُم مِّن
شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ أهل المدينة، ويعقوب، وسهل «تجبى» بالتاء، والباقون بالياء. وقرأ أبو عمرو ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالياء وبالتاء كيف شئت، والباقون بالتاء.

● **الحجة:** قال أبو علي: تأنيث ﴿ثَمَرَاتُ﴾ تأنيث جمع وليس بتأنيث حقيقي، فيكون بمنزلة الوعظ والموعظة، والصوت والصيحة إذا ذكّرت جاز وإذا أنثت جاز، وحجة من قرأ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالتاء قوله ﴿فَمَا أُوتِيتُم﴾، والياء على ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ يا محمد.

● **اللغة:** التخطف: أخذ الشيء على وجه الاستلاب من كل وجه، يقال: تخطفه تخطفاً واختطفه اختطافاً، وخطفه يخطفه خطفاً، قال امرؤ القيس:

تَخَطَّفُ خِزَّان الأُنَيْعِم بالضُحى وَقَدْ حَجَرَت منها ثعالبُ أورال(١)

يجبي: من جبيت الماء في الحوض أي: جمعته، والجابية: الحوض، والبطر: الطغيان عند النعمة، قال ابن الأعرابي: البطر سوء احتمال الغنى، وقيل: إن أصله من قولهم: ذهب دمه بطراً أي: باطلًا، عن الكسائي، وقيل: هو أن يتكبر عند الحق فلا يقبله.

● **الإعراب:** ﴿رِزْقًا﴾ مصدر وضع موضع الحال، تقديره «يجبى إليه بثمرات» كل شيء من رزقه، ويجوز أن يكون مصدر فعل محذوف تقديره: نرزق رزقاً، ويجوز أن يكون مصدراً من معنى قوله يجبى إليه ثمرات، لأنه في معنى رزق فيكون مثل قولهم: حمدته شكراً، ويجوز أن يكون مفعولًا له. وقوله من ﴿لَدُنَّا﴾ في موضع نصب على الصفة لقوله ﴿رِزْقًا﴾، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ أي: كثيراً من القرى أهلكنا. فكم: في موضع نصب بأهلكنا و﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ في موضع نصب على التمييز لأن كم الخبرية إذا فصل بينها وبين مميزها بكلام نصب كما ينصب كم الاستفهامية، ﴿مَعِيشَتَهَا﴾ انتصب بقوله ﴿بَطِرَتْ﴾ وتقديره في معيشتها فحذف الجار فأفضى الفعل، ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿لَمْ تُسْكَن﴾ في موضع نصب على الحال والعامل فيه معنى الإشارة في تلك، ﴿قَلِيلًا﴾ صفة مصدر محذوف تقديره: إلا سكوناً قليلًا أو صفة ظرف تقديره وقتاً أو زمناً قليلًا.

● **النزول:** قيل: نزل قوله ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ في أبي طالب، فإن النبي ﷺ كان يحب إسلامه، فنزلت هذه الآية، وكان يكره إسلام وحشي قاتل حمزة فنزل فيه ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ الآية. فلم يسلم أبو طالب وأسلم وحشي، ورووا ذلك عن ابن عباس وغيره.

وفي هذا نظر كما ترى فإن النبي ﷺ لا يجوز أن يخالف الله سبحانه في إرادته كما لا يجوز أن يخالفه في أوامره ونواهيه، وإذا كان الله تعالى على ما زعم القوم لم يرد إيمان أبي طالب، وأراد كفره، وأراد النبي ﷺ إيمانه، فقد حصل غاية الخلاف بين إرادتي رسول الله ﷺ والمرسل، فكأنه سبحانه يقول على مقتضى اعتقادهم: إنك يا محمد تريد إيمانه ولا أريد إيمانه ولا أخلق فيه الإيمان مع تكلفه بنصرتك وبذل مجهوده في إعانتك والذب عنك ومحبته لك ونعمته عليك، وتكره أنت إيمان وحشي لقتله عمك حمزة، وأنا أريد إيمانه وأخلق في قلبه الإيمان وفي هذا ما فيه. وقد ذكرنا في سورة الأنعام أن أهل البيت عليهم السلام قد أجمعوا على أن أبا طالب مات مسلماً، وتظاهرت الروايات بذلك عنهم، وأوردنا هناك طرفاً من أشعاره الدالة على تصديقه النبي ﷺ وتوحيده. فإن استيفاء ذلك جميعه لا تتسع له الطوامير، وما

---

(١) يصف فرسه. وقبل البيت قوله: «كأني بفتخاء الجناحين لقوه * صيود من العقبان طأطأت شملال» شبهه بعقاب تخطف الأرانب والثعالب. وتخطف: أصله تتخطف، فحذف إحدى التائين. والخزان: ذكور الأرانب. والأنيعم: موضع. وفي بعض الروايات «خزان الشربة» وهو اسم موضع أيضاً. وأورال: أجبل ثلاثة سود في جوف الرمل. بحذاء ماء لبني دارم، وكان يسكنها قوم من العرب.

روي من ذلك في كتب المغازي وغيرها أكثر من أن يحصى، يكاشف فيها من كاشف النبي ﷺ ويناضل عنه ويصحح نبوته. وقال بعض الثقات: إن قصائده في هذا المعنى، التي تنفث في عُقَد السحر وتُغَبِّرُ في وجه شعراء الدهر يبلغ قدر مجلد وأكثر من هذا. ولا شك في أنه لم يختر تمام مجاهرة الأعداء استصلاحاً لهم وحسن تدبير في دفع كيدهم لئلا يلجئوا الرسول إلى ما ألجأوه إليه بعد موته.

● **المعنى:** لما تقدم ذكر الرسول والقرآن، وأنه أُنزل هدىً للخلق، بيَّن سبحانه أنه ليس عليه الاهتداء وإنما عليه البلاغ والأداء، فقال: ﴿إِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هدايته، وقيل: من أحببته لقرابته والمراد بالهداية هنا: اللطف الذي يختار عنده الإيمان، فإنه لا يقدر عليه إلا الله تعالى، لأنه إما أن يكون من فعله خاصة أو بإعلامه، ولا يعلم ما يصلح المرء في دينه إلا الله تعالى، فإن الهداية التي هي الدعوة والبيان قد أضافها سبحانه إليه في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وقيل: إن المراد بالهداية في الآية: الإجبار على الاهتداء أي: أنت لا تقدر على ذلك. وقيل: معناه ليس عليك اهتداؤهم وقبولهم الحق ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ بلطفه وقيل: على وجه الإجبار ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي: القابلين للهدى فيدبر الأمور على ما يعلمه من صلاح العباد. ثم قال سبحانه حاكياً عن الكفار: ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ أي: نستلب من أرضنا، يعني أرض مكة والحرم، وقيل: إنما قاله الحرث بن نوفل بن عبد مناف فإنه قال للنبي ﷺ: إنا لنعلم أن قولك حق ولكن يمنعنا أن نتبع الهدى معك ونؤمن بك مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا ولا طاقة لنا بالعرب، فقال سبحانه راداً عليه هذا القول ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ أي: أو لم نجعل لهم مكة في أمن وأمان قبل هذا ودفعنا ضرر الناس عنهم حتى كانوا يأمنون فيه؟ فكيف يخافون زواله الآن، أفلا نقدر على دفع ضرر الناس عنهم لو آمنوا، بل حالة الإيمان والطاعة أولى بالأمن والسلامة من حالة الكفر ﴿يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: تجمع إليه ثمرات كل أرض وبلد ﴿رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ أي: إعطاء من عندنا جارياً عليهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما أنعمنا به عليهم، وقيل: لا يعلمون الله ولا يعبدونه فيعلموا ما يفوتهم من الثواب ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ أي: من أهل قرية ﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي: في معيشتها بأن أعرضت عن الشكر وتكبرت، والمعنى: أعطيناهم المعيشة الواسعة فلم يعرفوا حق النعمة وكفروا فأهلكناهم ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ تلك إشارة إلى ما يعرفونه هم من ديار عاد وثمود وقوم لوط، أي: صارت مساكنهم خاوية خالية عن أهلها وهي قريبة منكم، فإن ديار عاد إنما كانت بالأحقاف وهو موضع بين اليمن والشام، وديار ثمود بوادي القرى، وديار قوم لوط بسدوم، وكانوا هم يمرُّون بهذه المواضع في تجارتهم ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ أي: المالكين لديارهم لم يخلفهم أحد فيها، ثم خاطب سبحانه نبيه ﷺ فقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا﴾ قيل: إن معنى أمها أم القرى وهي مكة، وقيل: يريد معظم القرى من سائر الدنيا ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أي: يقرأ عليهم حججنا وبيناتنا ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ لنفوسهم بالكفر والطغيان والعتو والعصيان، ثم خاطب سبحانه خلقه فقال: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ

شَيْءٍ﴾ أي: وما أعطيتموه من شيء ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ أي: هو شيء تتمتعون به في الحياة وتتزينون به ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب ونعيم الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ من هذه النعم ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ لأنها فانية ونعم الآخرة باقية ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ذلك وتتفكرون فيه حتى تميِّزوا بين الباقي والفاني.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

● **اللغة:** المتعة: المنفعة، وقد فُرِّق بينهما بأن المتعة منفعة توجب الالتذاذ في الحال، والمنفعة قد تكون بألم تؤدي عاقبته إلى نفع. فكل متعة منفعة، وليس كل منفعة متعة. والإحضار: إيجاد ما به يكون الشيء بحيث يشاهد. والزعم: القول في الأمر على ظن أو علم ولذلك دخل في باب علمت وأخواته، قال:

فإن تزعميني كُنْتُ أَجْهَلَ فيكم   فإني شَرَيْتُ الحِلْمَ عِندكَ بالجهلِ

● **النزول:** نزل قوله ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ﴾ الآية في رسول الله ﷺ وأبي جهل، وقيل: نزل في حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب عليه السلام وفي أبي جهل، عن محمد بن كعب، والسدي، وقيل: نزل في عمار وفي الوليد بن المغيرة، والأولى أن يكون عاماً فيمن يكون بهذه الصفة.

● **المعنى:** لما تقدم ذكر ما أوتوا من زينة الحياة الدنيا عقبه سبحانه بالفرق بين من أوتي نعيم الدنيا وبين من أوتي نعيم الآخرة، فقال: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ من ثواب الجنة ونعيمها جزاء على طاعته ﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ أي: فهو واصل إليه ومدركه لا محالة ﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ من الأموال وغيرها ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ للجزاء والعقاب، وقيل: من المحضرين في النار. والمعنى: أيكون حال هذا كحال ذاك، أي: لا يكون حالهما سواء لأن نعم الدنيا مشوبة بالغموم وتعرض الزوال والفناء، ونعم الآخرة خالصة صافية دائمة لا تتكدر بالشوب ولا تنتقص بالانقضاء ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي: واذكر يوم ينادي الله الكفار وهو يوم القيامة. وهذا نداء تقريع وتبكيت ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: كنتم تزعمون في الدنيا أنهم شركاء في الإلهية وتعبدونهم وتدَّعون أنهم ينفعونكم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: حق عليهم الوعيد بالعذاب من الجن والشياطين والذين أغووا الخلق من الإنس ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ يعنون أتباعهم ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ أي: أضللناهم عن الدين بدعائنا إياهم إلى الضلال

كما ضللنا نحن بأنفسنا ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ منهم ومن أفعالهم، قال الزجاج: برىء بعضهم من بعض، وصاروا أعداء، كما قال سبحانه: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾. ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ أي: لم يكونوا يعبدوننا بل كانوا يعبدون الشياطين الذين زينوا لهم عبادتنا، وقيل: معناه لم يعبدونا باستحقاق وحجة ﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ أي: ويقال للأتباع: ادعوا الذين عبدتموهم من دون الله وزعمتم أنهم شركائي لينصروكم ويدفعوا عنكم عذاب الله، وإنما أضاف الشركاء إليهم لأنه لا يجوز أن يكون لله شريك ولكنهم كانوا يزعمون أنهم شركاء لله بعبادتهم إياهم ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ أي: فيدعونهم فلا يجيبونهم إلى ملتمسهم ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: ويرون العذاب ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ جواب لو محذوف تقديره: لو أنهم كانوا يهتدون لرأوا العذاب أي: لاعتقدوا أن العذاب حق، وهذا القول أولى لدلالة الكلام على المحذوف ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ أي: ما كان جوابكم لمن أُرسل إليكم من النبيين، وهذا سؤال تقرير بالذنب، وهو نداء يجمع العلم والعمل معاً، فإن الرسل يدعون إلى العلم والعمل جميعاً فكأنه قيل لهم: ماذا علمتم؟ ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: فخفيت واشتبهت عليهم طرق الجواب يومئذٍ فصاروا كالعمي لانسداد طرق الأخبار عليهم، كما تنسد طرق الأرض على العمي، وقيل: معناه فالتبست عليهم الحجج، عن مجاهد. وسميت حججهم أنباء لأنها أخبار يخبر بها فهم لا يحتجون ولا ينطقون بحجة، لأن الله تعالى أدحض حجتهم وأكلّ ألسنتهم فسكتوا. فذلك قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: لا يسأل بعضهم بعضاً عن الحجج، وقيل: لايسأل بعضهم بعضاً عن العذر الذي يعتذر به في الجواب فلا يجيبون، وقيل: معناه لا يتساءلون بالأنساب والقرابة كما في الدنيا، وقيل: لا يسأل بعضهم بعضاً عن حاله لشغله بنفسه، عن الجبائي، وقيل: لا يسأل بعضهم بعضاً أن يحمل ذنوبه عنه، عن الحسن.

●●●

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

● **المعنى:** ثم ذكر سبحانه التائبين ورغَّب في التوبة بعد التخويف، فقال: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ أي: رجع عن المعاصي والكفر ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: وأضاف إلى إيمانه الأعمال الصالحة ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ وإنما أتى بلفظة «عسى» مع أنه مقطوع بفلاحه لأنه على رجاء أن يدوم على ذلك فيفلح، وقد يجوز أن يزل فيما بعد فيهلك، على أنه قد قيل: إن «عسى» من الله سبحانه لفظة وجوب في جميع القرآن، ولما كان المفلح مختار الله تعالى ذكر عقيبه أن الاختيار إلى الله تعالى والخلق والحكم له لكونه قادراً عالماً على الكمال فقال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ الخيرة: اسم من الاختيار أقيم مقام

المصدر، والخيرة: اسم للمختار أيضاً يقال: محمد ﷺ خيرة الله من خلقه، ويجوز التخفيف فيهما، واختلف في الآية وتقديرها على قولين:

أحدهما: أن معناه: وربك يخلق ما يشاء من الخلق، ويختار تدبير عباده على ما هو الأصلح لهم، ويختار للرسالة ما هو الأصلح لعباده. ثم قال: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ أي: ليس لهم الاختيار على الله بل لله الخيرة عليهم، وعلى هذا تكون «ما» نفياً، ويكون الوقف على قوله ﴿وَيَخْتَارُ﴾، وفيه رد على المشركين الذين قالوا: لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، فاختاروا الوليد بن المغيرة من مكة، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف.

والآخر: أن يكون «ما» في الآية بمعنى الذي أي: ويختار الذي كان لهم الخيرة. فيكون الوقف على هذا عند قوله ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾، وهذا أيضاً في معنى الأول لأن حقيقة المعنى فيهما أنه سبحانه يختار وإليه الاختيار ليس لمن دونه الاختيار، لأن الاختيار يجب أن يكون على العلم بأحوال المختار، ولا يعلم غيره سبحانه جميع أحوال المختار، ولأن الاختيار هو أخذ الخير، وكيف يأخذ الخير من الأشياء من لا يعلم الخير فيها ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تقدّس وتنزّه عن أن يكون له شريك في خلقه واختياره، ثم أقام سبحانه البرهان على صحة اختياره بقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ أي: وربك يعلم ما يخفونه وما يظهرونه، فإليه الاختيار، وفي هذا دلالة على أن من لا يعلم السر والجهر فلا اختيار إليه ثم أكد سبحانه ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا يستحق العبادة سواه ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: له الثناء والمدح والتعظيم على ما أنعم به على خلقه في الدنيا والعقبى ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ بينهم بما يميز به الحق من الباطل. قال ابن عباس: يحكم لأهل طاعته بالمغفرة والفضل، ولأهل معصيته بالشقاء والويل ﴿وَإِلَيْهِ﴾ أي: وإلى جزائه وحكمه ﴿تُرْجَعُونَ﴾.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

● **المعنى**: ثم بيّن سبحانه ما يدل على توحيده فقال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لأهل مكة الذين عبدوا معي آلهة تنبيهاً لهم على خطئهم ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾

أي: دائماً ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لا يكون معه نهار ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ كضياء النهار تبصرون فيه فإنهم لا يقدرون على الجواب عن ذلك إلا بأنه لا يقدر على ذلك سوى الله، فحينئذٍ تلزمهم الحجة بأنه لا يستحق العبادة غيره ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ أي: أفلا تقبلون ما وعظتم به، وقيل: أفلا تسمعون ما بيّنه الله لكم من أدلته وتتفكرون فيه ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا﴾ أي: دائماً ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لا يكون معه ليل ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أي: تستريحون فيه من الحركة والنصب، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أي: أفلا تعلمون من البصيرة وقيل: أفلا تشاهدون الليل والنهار وتتدبرون فيهما فتعلموا أنهما من صنع مدبر حكيم، ثم قال: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: ومن نعمته عليكم وإحسانه إليكم أن جعل لكم الليل والنهار ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ أي: في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: في النهار ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعم الله في تصريف الليل والنهار وفي سائر أنواع النعم ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ مضى تفسيره، فإنما كرّر النداء للمشركين بـ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ تقريعاً لهم بعد تقريع، وقيل: لأن النداء الأول لتقرير إقرارهم على أنفسهم بالغي الذي كانوا عليه ودعوا إليه. والثاني للتعجيز عن إقامة البرهان على ما طولبوا به بحضرة الأشهاد ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أي: وأخرجنا من كل أمة من الأمم رسولها الذي يشهد عليهم التبليغ، وبما كان منهم، عن مجاهد، وقتادة. وقيل: هم عدول الآخرة ولا يخلو كل زمان منهم يشهدون على الناس بما عملوا ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أي: حججكم على صحة ما ذهبتم إليه ﴿فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ أي: فبهتوا وتحيروا لما لم يكن لهم حجة يقيمونها، وعلموا يقيناً أن الحق ما أنتم عليه وما أنزله الله وأن الحجة لله ولرسوله فلزمتهم الحجة لأن المشهود عليه إذا لم يأت بمخلص من بينة الخصم توجهت القضية عليه ولزمه الحكم ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: ذهب عنهم ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ من الكذب وبطل ما عبدوه من دون الله تعالى.

● **النظم:** إنما اتصلت هذه الآيات بما قبلها: بأنه جرى ذكر معبودي الكفار، وأنهم لم يغنوا من الله شيئاً، فعقبه سبحانه بأن وصف نفسه بأنه المنعم المالك للنفع والضر، وقيل: لما تقدم أن الحمد لله سبحانه في الدارين ذكر عقيبه ما يوجب الحمد من النعم السابقة، وقيل: يتصل بقوله ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ أي: ويختار لعباده ما هو الأصلح لهم والأنفع.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ

مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾
فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ
قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ
لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ
فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ
ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ
وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

● **القراءة:** قرأ حفص، عن عاصم، ويعقوب، وسهل «لخسف» بفتح الخاء والسين، وهو قراءة الحسن، والأعرج، وشيبة، ومجاهد، والباقون «لخسف» بضم الخاء وكسر السين، وقرأ يعقوب «وَيْكَ»، يقف عليها ثم يبتدىء فيقول: «أنه».

● **الحجة:** قال أبو علي: من قرأ «لخَسف بنا» بفتح الخاء فلتقدم ذكر الله تعالى. ومن قرأ بضم الخاء فبنى الفعل للمفعول به، فإنه يؤول إلى الأول في المعنى، وقال ابن جني في ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ﴾ ثلاثة أقوال: منهم من جعلها كلمة واحدة فلم يقف على «وَيْ»، ومنهم من وقف على وَيْ، ومنهم من قال: «ويك»، وهو مذهب أبي الحسن. والوجه فيه عندنا هو قول الخليل وسيبويه وهو أن «وَيْ« اسم سمي به الفعل في الخبر فكأنه اسم «أعجب». ثم ابتدأ فقال ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾، فوي: منفصلة من كأن، وعليه بيت الكتاب:

سَـأَلَتَـانـي الـطـلاقَ إن رأتـانـي قَـلَّ مـالـي قـد جـئـتُـمـانـي بِـنُـكـرِ
وَيْ كَـأَنْ مَـنْ يَـكُـنْ لـه نَـشَـب يـحـبـ ـب ومـن يـفـتـقـر يَـعِـشْ عَـيْـشَ ضُـرِّ[(١)]

ومما جاءت فيه «كأن» عارية من معنى التشبيه ما أنشده أبو علي:

كـأنـنـي حـيـن أمـسـي لا تـكـلـمـنـي متـيَّـم يـشـتـهـي مـا لـيـس مـوجـودا[(٢)]

أي: أنا حين أمسي متيم من حالي كذا، ومن قال: إنها «ويك» فكأنه قال أعجب لأنه «لا يفلح الكافرون». وأعجب لأن الله يبسط الرزق، وهو قول أبي الحسن، وينبغي أن يكون الكاف هنا حرف خطاب بمنزلة الكاف في ذلك وأولئك، ويشهد لهذا قول عنترة:

لـقـد شـفـا نـفـسي وأذهـب سُـقْـمَـهـا قِـيـلُ الـفـوارِسِ وَيْـكَ عـنـتَـرُ أقْـدِمِ

وقول من قال: «ويكأنه» كلمة واحدة إنما يريد به أنه لا يفصل بعضه عن بعض.

● **اللغة:** البغي: طلب العتو بغير حق، ومنه قيل لولاة الجور: بغاة. والكنز: جمع

---

(١) النشب: المال والعقار.

(٢) المتيم: من تيمه الحب أي: عبده وذلّله والشعر في (جامع الشواهد) وكذا الشعر الآتي.

المال بعضه على بعض، وصار بالعرف عبارة عما يخبأ تحت الأرض، ولا يطلق في الشرع اسم الكنز إلا على مال لا تخرج زكاته للوعيد الذي جاء فيه، والمفاتح: جمع مفتح، والمفاتيح: جمع مفتاح ومعناهما واحد، وهو عبارة عما يفتح به الأغلاق، وناء بحمله ينوء نوءاً: إذا نهض به مع ثقله عليه، ومنه أُخذت الأنواء لأنها تنهض من المشرق على ثقل نهوضها. وقال أبو زيد: ناءني الحمل إذا أثقلني. والعصبة: الجماعة الملتف بعضها ببعض يقال: ناءت المفاتيح بالعصبة، وأناءت العصبة بمعنى، كما يقال: ذهبت به وأذهبته. فالباء والهمز يتعاقبان في تعدي الفعل. قال سبحانه: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾ أي: جاء بها، وقال أبو عبيدة: هذا من المقلوب ومعنى قوله ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ تنوء العصبة بها، كما قال الشاعر:

إنَّ سراجاً لكريمٌ مفخَرُهُ ... تَجلى به العينُ إذا ما تجهَرُهُ

ومعناه: يُجلى بالعين فقلب، وقال آخر:

كانت عقوبةُ ما جنيت كما ... كان الزنىءُ عقوبة الرجمِ

قال امرؤ القيس:

يُضيءُ الظَّلامَ وجهها لضجيعها ... كمصباح زيت في قناديل ذُبَالِ[١]

أي: في ذبال قناديل، وهذا غير صحيح. ولا يجوز أن يحمل القرآن عليه لأنه يجري مجرى الغلط من العرب ومثل ذلك في شعرهم كثير قال:

غداةُ حلّت لابن صَرْمَةَ طعنةً ... حُصَيْنٍ غَبيطاتُ السدايفِ والخَمْرُ[٢]

والغبيطات: مفعولة والطعنة: فاعلة فقلب، ومن أغلاطهم قول الراجز:

جاريةٌ لم تَغْلَمِ المُرَقَّقا ... ولم تَذُقْ من البَقولِ الفستقا

فظن الفستق من البقول، فأما قول خداش بن زهير:

وتركت خيلًا لا هوادة بينها ... وتشقى الرماحُ بالضياطرةِ الحمرُ[٣]

فذهب كثير من العلماء إلى أنّ المعنى: وتشقى الضياطرة الحمر بالرماح[٤] فقلب، وليس الأمر كذلك وإنما أراد: أن رماحهم تشرف عن هؤلاء الضياطرة فإذا طعنوا بها فقد شقيت الرماح لأن منزلتها أرفع من أن يطعنوا بها وقالوا أيضاً في قول زهير:

فَتُنْتِج لكم غِلمانَ أشْأَمَ كُلُّهُمْ ... كأحمر عادٍ ثم تُنْتَج فتتئَمِ[٥]

---

(١) ذبال: جمع ذبالة بمعنى الفتيلة.

(٢) حصين بدل ابن أصرم أي: حصين بن أصرم. وسدائف، جمع سديف: السنام.

(٣) الهوادة: المصالحة. الضياطرة: الضخام الذين لا غناء عندهم. والحمر جمع الأحمر: من لا سلاح معه.

(٤) أي: إنهم يقتلون بها.

(٥) هذا بيت من المعلقات قاله في ذم الحرب. ورواية المعلقات العشر والزوزني وغيره هكذا: «كأحمر عاد ثم ترضع».

إنه غلط فنسبه إلى عاد وإنما هو أحمر ثمود، وهذا أيضاً ليس بغلط فإن ثمود يسمى عاداً الآخرة لقوله تعالى ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾، وقيل: إنما سموا ثمود لأن الله تعالى أهلك عاداً، وبقيت منهم بقية تناسلوا فهم ثمود، واشتق لهم هذا الاسم من الثمد: وهو الماء القليل، لأنهم قلوا عن عدد عاد الأولى، وإذا جاء في الشعر ما يجري مجرى الغلط فلا يجوز أن يحمل كلام الله تعالى عليه.

● **المعنى**: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ أي: كان من بني إسرائيل ثم من سبط موسى عليه السلام، وهو ابن خالته عن عطاء عن ابن عباس، وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام وقيل: كان ابن عم موسى لَحاً لأنه كان قارون بن يصهر بن فاهث وموسى بن عمران بن فاهث، عن ابن جريج، وقيل: كان موسى ابن أخيه وقارون عمه، عن محمد بن إسحاق ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي: استطال عليهم بكثرة كنوزه، عن قتادة قال: وكان يسمى المنور لحسن صورته، ولم يكن في بني إسرائيل أقرأ منه للتوراة، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري فبغى عليهم، وقيل: كان عاملاً لفرعون على بني إسرائيل فكان يبغي عليهم ويطالبهم لما كانوا بمصر، عن سعيد بن المسيب، وابن عباس، وقيل: إنه زاد عليهم في الثياب شبراً، عن عطاء الخراساني، وشهر بن حوشب ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ قال عطاء: أصاب كنزاً من كنوز يوسف ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ ما هذه موصولة بمعنى الذي، وصلتها إن مع اسمها وخبرها أي: أعطيناه من الأموال المدخرة قدر الذي ينيء مفاتحه العصبة. والمفاتح هنا: الخزائن في قول أكثر المفسرين وهو اختيار الزجاج كما في قوله سبحانه ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾، فيكون المراد بمفاتحه: خزائن ماله، وهو قول ابن عباس، والحسن، وقيل: هي المفاتح التي تفتح بها الأبواب، عن قتادة، ومجاهد. وروى الأعمش، عن خيثمة قال: كانت مفاتيح قارون من جلود، كل مفتاح مثل الإصبع، واختلف في معنى العصبة فقيل: ما بين عشرة إلى خمسة عشر، عن مجاهد، وقيل: ما بين عشرة إلى أربعين عن قتادة، وقيل: أربعون رجلاً، عن أبي صالح، وقيل: ما بين الثلاثة إلى العشرة، عن ابن عباس، وقيل: إنهم الجماعة يتعصب بعضهم لبعض ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ من بني إسرائيل ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ أي: لا تأشر ولا تمرح ولا تتكبر بسبب كنوزك، إن الله لا يحب من كان بهذه الصفة، ويدل على أن الفرح بمعنى البطر قول الشاعر:

ولست بمفراحٍ إذا الدهر سرَّني ولا جازعٍ من صرفه المتقلِّبِ

وقول الآخر: «ولا أُرخي من الفرح الإزارا». ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ﴾ وهذا أيضاً من مقالة المؤمنين من قوم قارون له، وقيل: إن المخاطب له بذلك موسى، وإن ذكر بلفظ الجمع، ومعناه: اطلب فيما أعطاك الله من الأموال الدار الآخرة بأن تنفقها في سبيل الخير ووجوه الخير والبر ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ وهو أن تعمل في الدنيا للآخرة، عن أكثر المفسرين، ومعناه: لا تنس أن تعمل لآخرتك لأن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا الذي يعمل به لآخرته. وروي في معناه عن علي عليه السلام: لا تنس صحتك وقوتك وفراغك وشبابك ونشاطك وغناك أن تطلب بها الآخرة، وقيل: أُمر أن يقدم الفضل وأن يمسك ما يغنيه، عن الحسن، وقيل: معناه أنه

كان قتوراً شحيحاً فقيل له: كل واشرب واستمتع بما آتاك الله من الوجه الذي أباحه الله لك فإن ذلك غير محظور عليك ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي: أفضل على الناس كما أفضل الله عليك، وقيل: أحسن فيما افترض الله عليك كما أحسن في إنعامه عليك، عن يحيى بن سلام. وقيل: معناه وأحسن شكر الله تعالى على قدر إنعامه عليك وواس عباد الله بمالك ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ﴾ أي: لا تطلب العمل ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالمعاصي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ظاهر المعنى ﴿قَالَ﴾ قارون ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ اختلف في معناه، فقيل: أراد إنما أُعطيت هذا المال بفضل وعلم عندي ليس ذلك عندكم، عن قتادة، يعني أنه قدر أن هذا ثواب من الله تعالى له لفضيلته كما أخبر سبحانه عن ذلك الكافر بقوله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾، وقيل: معناه لرضا الله عني ومعرفته باستحقاقي، عن ابن زيد، وهذا قريب من الأول، وقيل: معناه أن المال حصل لي على علم عندي بوجوه المكاسب وبما لا يتهيأ لأحد أن يكتسبه من التجارات والزراعات وغيرها، وقيل: على علم عندي بصنعة الذهب وهو علم الكيمياء، عن الكلبي، وحكي أن موسى عليه السلام علم قارون الثلث من صنعة الكيمياء، وعلَّم يوشع الثلث منها، وعلَّم ابن هارون الثلث منها فخدعهما قارون حتى علَّم ما عندهما وعمل بالكيمياء فكثرت أمواله ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ الكافرة بنعمته ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ كقوم عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم. ثم بيَّن سبحانه أن اغتراره بماله وعدده من الخطأ العظيم لأنه لا ينتفع بذلك عند نزول العذاب به، كما أن من كانوا أقوى وأغنى منه لم تغن أموالهم وجموعهم عنهم شيئاً عند ذلك ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ قال قتادة: يعني أنهم يدخلون النار بغير حساب، وقال قتادة: إن الملائكة تعرفهم بسيماهم فلا يسألون عنهم لعلامتهم، ويأخذونهم بالنواصي والأقدام فيصيِّرونهم إلى النار، وهذا كقوله ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾، وأما قوله ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾: فإنما ذلك سؤال تقريع وتوبيخ لا ليعلم ذلك من قبلهم عن الحسن ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ أي: خرج قارون على بني إسرائيل ﴿فِى زِينَتِهِۦ﴾ التي كان يتزين بها وحشمه وتبعه، وقيل: إنه خرج في أربعة آلاف دابة عليها أربعة آلاف فارس عليهم وعلى دوابهم الأُرجوان، عن قتادة. والأرجوان في اللغة: صبغ أحمر، وقيل: خرج في جوار بيض على سرج من ذهب على قطف أُرجوان على بغال بيض عليهن ثياب حمر وحلي من ذهب، عن السدي، وقيل: خرج في سبعين ألفاً عليهم المعصفرات ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ من الكفار والمنافقين وضعيفي الإيمان بما للمؤمنين عند الله من ثواب الجنة لما رأوه في تلك الزينة والجمال: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: ذو نصيب وافر من الدنيا، والمعنى: أنهم تمنوا مثل منزلته ومثل ماله ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ وهم المصدقون بوعد الله المؤمنون لهم ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ مما أوتي قارون وحذف لدلالة الكلام عليه ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ أي: ولا يلقى مثل هذه الكلمة ولا يوفق لها إلا الصابرون على أمر الله، وقيل: معناه ولا يعطاها يعني الجنة في الآخرة، ودلَّ عليها قوله: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ على طاعة الله وعن زينة الدنيا، عن الكلبي ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ قال السدي: دعا قارون امرأة من بني إسرائيل بغياً فقال لها: إني أعطيك ألفين على أن تجيئي غداً إذا

اجتمعت بنو إسرائيل عندي فتقولي: يا معشر بني إسرائيل ما لي ولموسى قد آذاني. قالت: نعم. فأعطاها خريطتين عليهما خاتمه فلما جاءت بيتها ندمت وقالت: يا ويلتي! قد عملت كل فاحشة فما بقي إلا أن أفتري على نبي الله. فلما أصبحت أقبلت ومعها الخريطتان حتى قامت بين بني إسرائيل فقالت: إن قارون قد أعطاني هاتين الخريطتين على أن آتي جماعتكم فأزعم أن موسى يراودني عن نفسي ومعاذ الله أن أفتري على نبي الله، وهذه دراهمه عليها خاتمه، فعرف بنو إسرائيل خاتم قارون، فغضب موسى عليه السلام فدعا الله عليه فأوحى الله إليه إني أمرت الأرض أن تطيعك وسلطتها عليه فمرها. فقال موسى: يا أرض خذيه وهو على سريره وفرشه فأخذته حتى غيبت سريره، فلما رأى قارون ذلك ناشده الرحم فقال: خذيه فأخذته حتى غيبت قدميه ثم أخذته حتى غيبت ركبتيه ثم أخذته حتى غيبت حقويه وهو يناشده الرحم فأخذته حتى غيبته فأوحى الله إليه: يا موسى ناشدك الرحم واستغاثك فأبيت أن تغيثه لو إياي دعا واستغاثني لأغثته، قال مقاتل: ولما أمر موسى عليه السلام الأرض فابتلعته، قال بنو إسرائيل: إنما فعل ذلك موسى ليرث ماله لأنه كان ابن عمه، فخسف بداره وبجميع أمواله بعده بثلاثة أيام فلم يقدر على ماله بعده أبداً ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: فما كان له من جماعة منقطعة إليه يدفعون عنه عذاب الله تعالى الذي نزل به، وإنما قال سبحانه ذلك لأنه كان يقدر مع نفسه الامتناع بحاشيته وجنوده ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ بنفسه لنفسه ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ حين خرج عليهم في زينته ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ وهذه كلمة ندم واعتراف، وقد بيَّنا أن عند الخليل وسيبويه لفظة «وي» مفصولة من «كأن» وإن وقعت في المصحف موصولة بقول القائل إذا تبين له الخطأ: وي كنت على خطأ، وقال الفراء: أصله ويلك فحذفت اللام وجعلت أن مفتوحة في موضع نصب بفعل مضمر كأنه قال: اعلم أن الله تعالى. قال: وحدثني شيخ من أهل البصرة قال: سمعت أعرابية تقول لزوجها: أين ابنك؟ ويلك! فقال لها: ويك إنه وراء البيت، قال: معناه أما ترينه وراء البيت؟ وقيل: معناه ألا كان وأما كان، وقال الكسائي: ويكأن في التأويل: ذلك أن الله، وهو قول ابن عباس، أي قالوا: ذلك أن الله يبسط الرزق لمن يشاء لا لكرامته كما بسط لقارون ويقدر أن يضيق على من يشاء لا لهوان لكن بحسب المصلحة، وقال مجاهد وقتادة: ويكأن معناه: ألم تعلم ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ أي: لولا أنه أنعم علينا بنعمه فلم يعطنا ما أعطى قارون لخسف بنا كما خسف به، وقيل: معناه لو أن الله تعالى منَّ علينا بالتجاوز عما تمنينا لخسف بنا لما تمنينا منزلة قارون ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: لا يفوز بثواب الله وينجو من عقابه الجاحدون لنعمه العابدون معه سواه.

● **النظم:** إنما اتصلت قصة قارون بما قبلها من قوله ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ﴾ فكأنه قال: ومن نبأ موسى الذي وعدنا تلاوته في أول السورة قصة قارون معه، وقيل: اتصل بقوله ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ فأكد سبحانه ذلك بحديث قارون وحاله، وقيل: إنه لما تقدم خزي الكفار وافتضاحهم يوم القيامة ذكر عقيبه أن قارون من جملتهم وأنه يفتضح يوم القيامة كما افتضح في الدنيا.

● ● ●

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

● **النزول:** قيل لما نزل النبي ﷺ بالجحفة في مسيره إلى المدينة، لما هاجر إليها اشتاق إلى مكة، فأتاه جبرائيل عليه السلام فقال أتشتاق إلى بلدك ومولدك؟ فقال: نعم! قال: جبرائيل عليه السلام فإن الله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ يعني مكة ظاهراً عليها، فنزلت الآية بالجحفة وليست بمكية ولا مدنية وسميت مكة معاداً لعوده إليها، عن ابن عباس.

● **المعنى:** ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ يعني الجنة ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: تجبراً وتكبراً على عباد الله واستكباراً عن عبادة الله ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ أي: عملاً بالمعاصي، عن ابن جريج ومقاتل.

وروى زاذان عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه كان يمشي في الأسواق وحده وهو دال يرشد الضال، ويعين الضعيف، ويمر بالبياع والبقال، فيفتح عليه القرآن، ويقرأ ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾، ويقول: نزلت هذه الآية في أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة من سائر الناس، وروى أبو سلام الأعرج، عن أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً قال: إن الرجل ليعجبه شراك نعله فيدخل في هذه الآية ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ الآية. يعني: أن من تكبر على غيره بلباس يعجبه فهو ممن يريد علواً في الأرض، قال الكلبي: يعني بقوله ﴿فَسَادًا﴾ الدعاء إلى عبادة غير الله، وقال عكرمة: هو أخذ المال بغير حق ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: والعاقبة الجميلة المحمودة من الفوز بالثواب للذين اتقوا الشرك والمعاصي، وقيل: معناه الجنة لمن اتقى عقاب الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ مضى تفسيره ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: لا يزاد في عقابهم على قدر استحقاقهم بخلاف الزيادة في الفضل على الثواب المستحق فإنه يكون تفضلاً، فهو مثل قوله: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾. ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ خطاب للنبي ﷺ والمعنى: إن الذي أوجب عليك الامتثال بما تضمنه القرآن وأنزله عليك ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: يردك إلى مكة، عن ابن عباس، ومجاهد،

والجبائي، وعلى هذا فيكون في الآية دلالة على صحة النبوة لأنه أخبر به من غير شرط ولا استثناء، وجاء المخبر مطابقاً للخبر. قال القتيبي: معاد الرجل بلده لأنه يتصرف في البلاد ثم يعود إليه، وقيل: إلى معاد إلى الموت. عن ابن عباس في رواية أخرى، وعن أبي سعيد الخدري، وقيل: إلى المرجع يوم القيامة أي: يعيدك بعد الموت كما بدأك، عن الحسن، والزهري، وعكرمة، وأبي مسلم، وقيل: إلى الجنة، عن مجاهد، وأبي صالح، فالمعنى: أنه مميتك وباعثك ومدخلك الجنة، والظاهر يقتضي أنه العود إلى مكة لأن ظاهر العود يقتضي ابتداء ثم عوداً إليه. على أنه يجوز أن يقال: الجنة معاد وإن لم يتقدم له فيها كون كما قال سبحانه في الكفار﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ ثم ابتدأ سبحانه كلاماً آخر فقال: ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ الذي يستحق به الثواب ﴿وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: ومن لم يجيء بالهدى وضلَّ عنه أي: لا يخفى عليه المؤمن والكافر ومن هو على الهدى ومن هو ضال عنه، وتأويله: قل ربي يعلم أني جئت بالهدى من عنده وأنكم في ضلال سينصرني عليكم، ثم ذكر نعمه فقال: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: وما كنت يا محمد ترجو فيما مضى أن يوحي الله إليك ويشرفك بإنزال القرآن عليك ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ قال الفراء: هذا من الاستثناء المنقطع ومعناه: إلا أن ربك رحمك وأنعم به عليك وأراد بك الخير، كذلك ينعم عليك بردك إلى مكة فاعرف هذه النعم، وقيل: معناه وما كنت ترجو أن تعلم كتب الأولين وقصصهم تتلوها على أهل مكة ولم تشهدها ولم تحضرها، بدلالة قوله ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: إنك تتلو على أهل مكة قصص مدين وموسى، ولم تكن هناك ثاوياً مقيماً، وكذلك قوله ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ﴾ وأنت تتلو قصصهم وأمرهم فهذه رحمة من ربك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: معيناً لهم، وفي هذا دلالة على وجوب معاداة أهل الباطل، وفي هذه الآية وما بعدها وإن كان الخطاب للنبي ﷺ فالمراد غيره، وقد روي عن ابن عباس أنه كان يقول: القرآن كله إياك أعني واسمعي يا جارة ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ أي ولا يمنعك هؤلاء الكفار عن اتباع آيات الله التي هي القرآن والدين بعد إذ نزلت إليك تعظيماً لذكرك وتفخيماً لشأنك ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: إلى طاعة ربك الذي خلقك وأنعم عليك وإلى توحيده ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: لا تمل إليهم ولا ترض بطريقتهم ولا توالي أحداً منهم ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي: لا تعبد معه غيره ولا تستدع حوائجك من جهة ما سواه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود إلا هو وحده لا شريك له ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ أي: كل شيء فان بائد إلا ذاته، وهذا كما يقال: هذا وجه الرأي ووجه الطريق، وهذا معنى قول مجاهد «إلا هو» وفي هذا دلالة على أن الأجسام تفنى ثم تعاد، على ما قاله الشيوخ في الفناء والإعادة، وقيل: معناه كل شيء هالك إلا ما أريد به وجهه فإن ذلك يبقى ثوابه عن عطاء، وابن عباس، وعن أبي العالية، والكلبي، وهو اختيار الفراء وأنشد:

أستغفر الله ذنباً لست مُحصِيَهُ ... رَبَّ العبادِ إليه الوجْهُ والعملُ

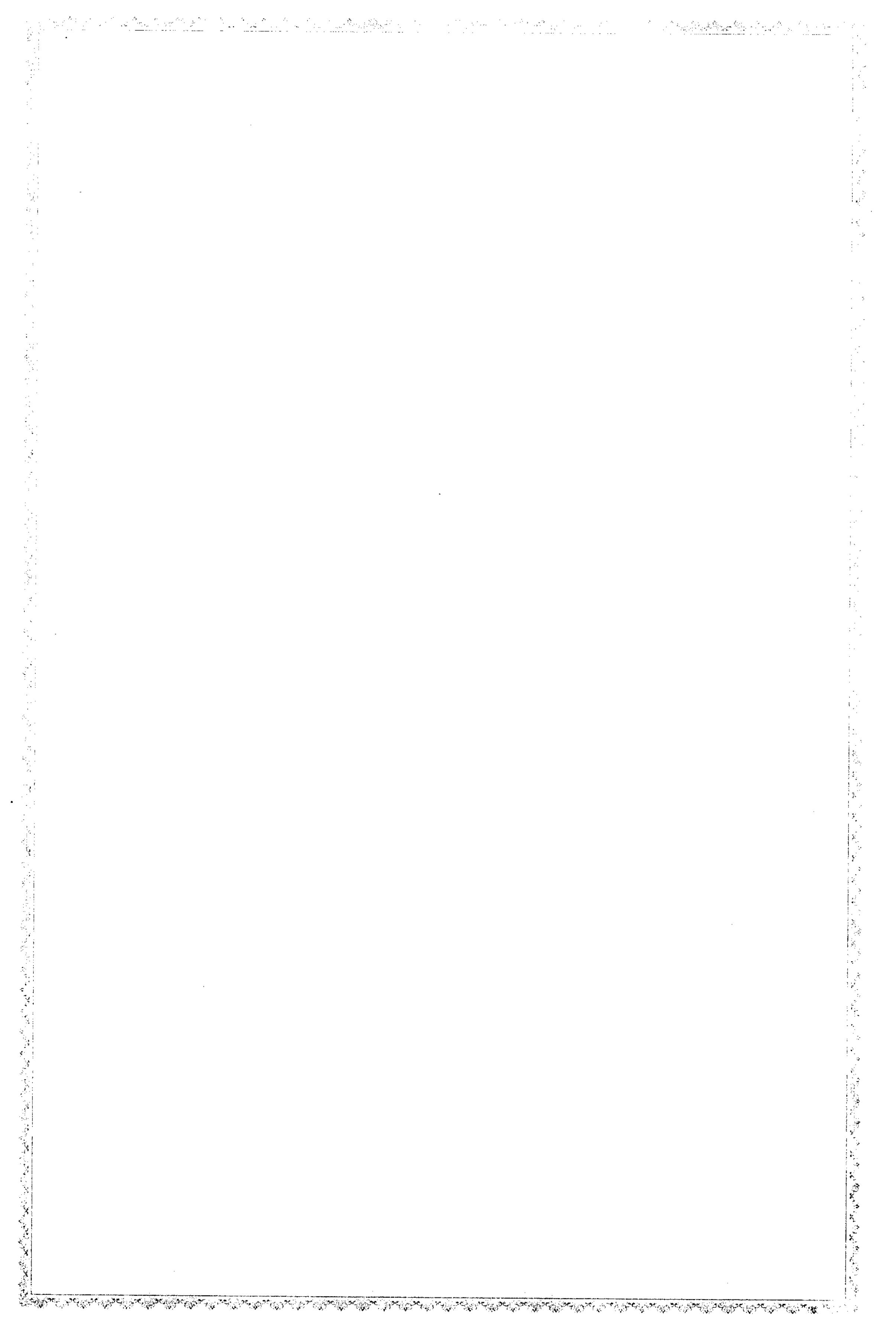
أي: إليه أوجه العمل. وعلى هذا يكون وجه الله ما وجه إليه من الأعمال ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي: له القضاء النافذ في خلقه، وقيل: له الفصل بين الخلائق في الآخرة دون غيره ﴿وَإِلَيْهِ

﴿تُرْجَعُونَ﴾ أي: تردون في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم.

● **النظم:** اتصل قوله ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ الآية بما قبله، على معنى أنه سبحانه كما حرَّم نعم الدنيا عليهم بالهلاك كذلك يحرم عليهم نعم الآخرة، وأما وجه اتصال قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ الآية، بما قبله فقد ذكر فيه من حمل المعاد على البعث أنه اتصل بقوله ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾. ومن حمله على العود إلى مكة قال: إنه لما بيَّن سبحانه وعده لأم موسى ردَّ موسى عليه السلام عليها مع شرف النبوة، كذلك وعده ربه العودة إلى مكة مع الشرف العظيم وقد أنجز وعده كما أنجز وعده هناك، ويكون معنى الكلام: أن الذي أنزل القرآن بذلك الوعد، سينجز هذا الوعد واتصل قوله ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ على معنى أنه أمره بأن يقول لهم: ربي أعلم بالصادق والكاذب لا يلتبس عليه شيء.

تم الجزء السابع

من تفسير مجمع البيان في تفسير القرآن للعلامة الطبرسي



الفهرس

الموضوع الصفحة


بسم الله الرحمن الرحيم